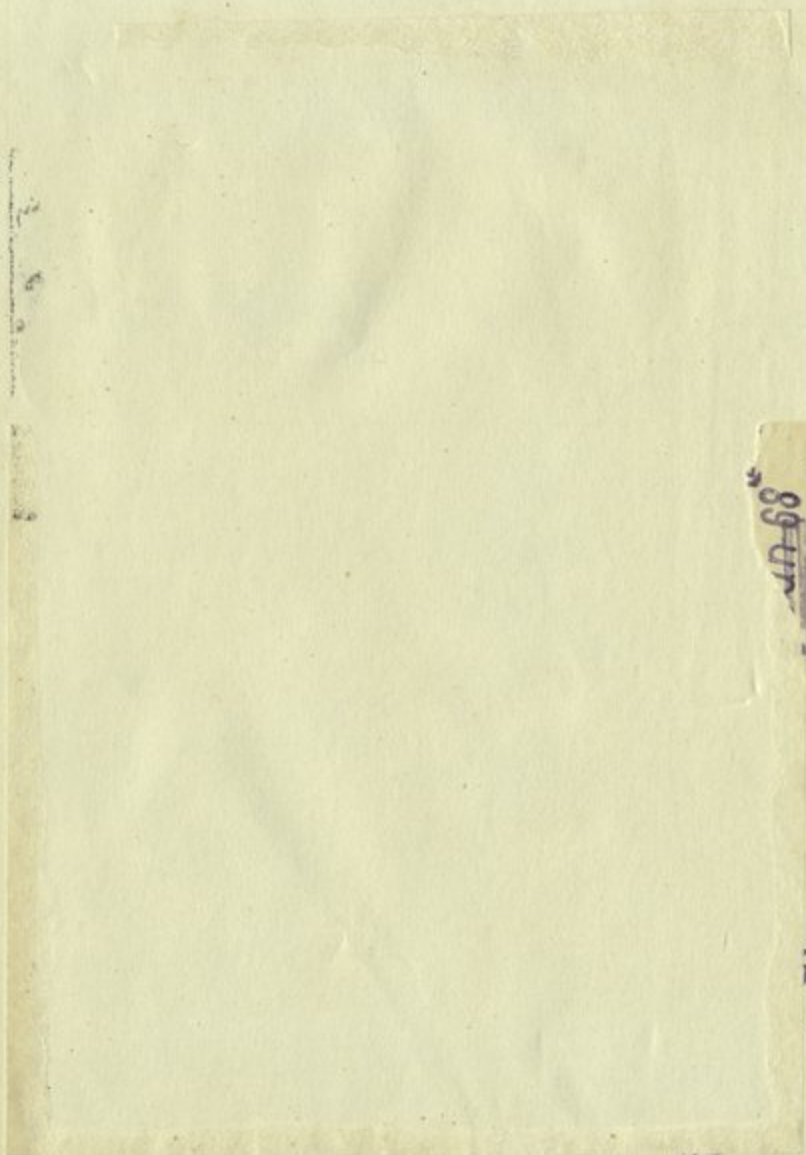


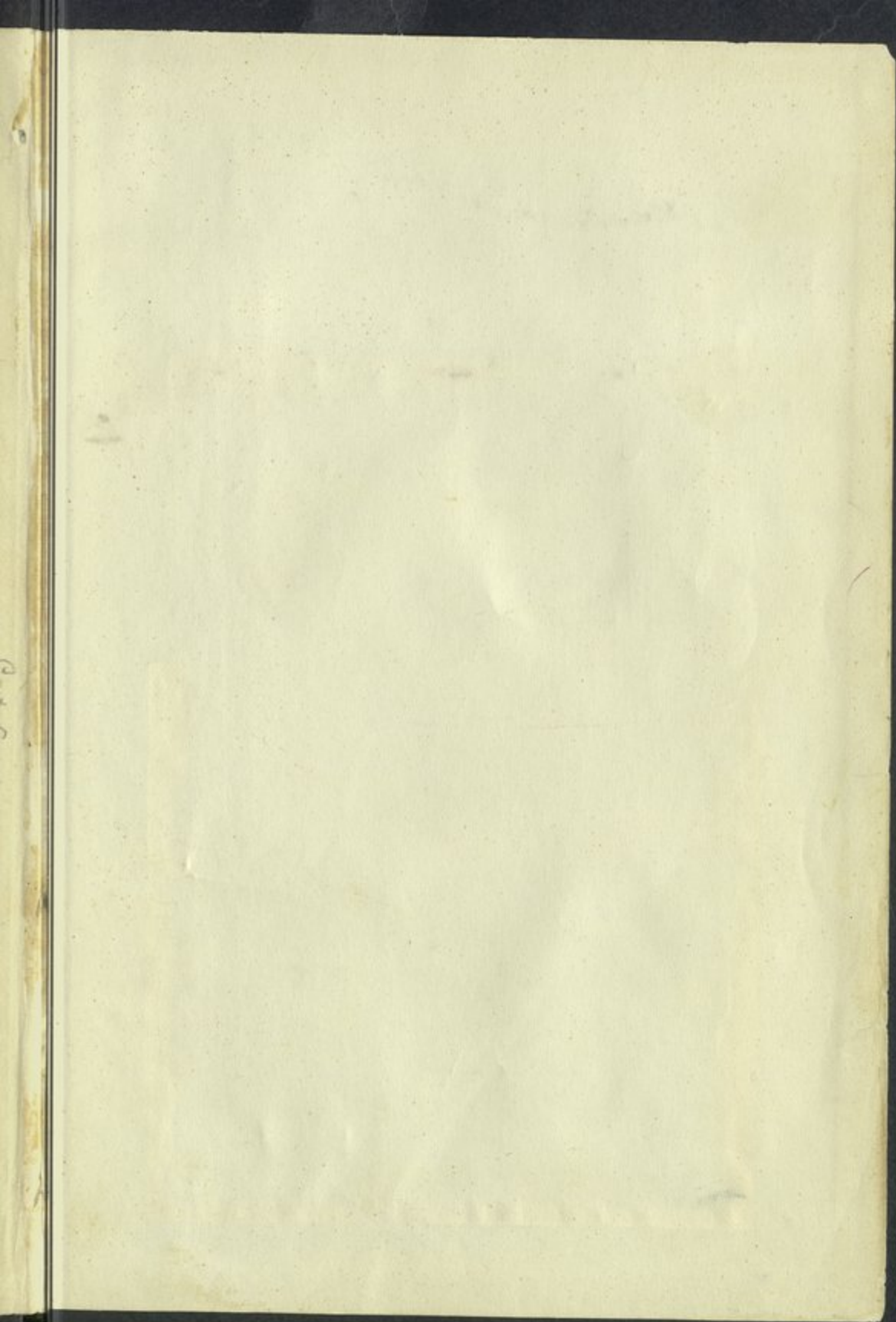
808.1

K511WA

v. 1



89-47-68



808.1

K511w A

v.1

C.1

الوصف

في الشيعة العرب

تأليف

عبد العظيم علي قنناوي



الجزء الأول

الوصف في العصر الجاهلي

69561

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة
الجامعة
القاهرة
الكتاب
الوصف
في العصر
الجاهلي
الجزء الأول

Oct. Sept. 1950

الطبعة الأولى

١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م

جميع الحقوق محفوظة لل المؤلف

الإهداء

إِلَى النَّهْضَةِ الْأَدَبِيَّةِ ، وَإِلَى الْعُطُوحِ الْعِلْمِيِّ

إِلَى مَنْ أَهَمَّنِي الْإِسْهَامُ فِي عَرْضِ طُرْفٍ مِنْ
تُرَاثِنَا الْأَدَبِيِّ الْخَالِدِ ، وَإِلَى مَنْ أَوْلَانِي الْقُدْرَةَ عَلَى إِبْرَازِ
ذَلِكَ التُّرَاثِ شَائِقًا جَذَابًا فِي ثَوْبٍ مِنَ التَّحْلِيلِ وَالتَّقْدِ
رَائِقٍ رَائِعٍ .

إِلَى هَذَا وَذَلِكَ أَهْدِي ذَلِكَ الْكِتَابَ الَّذِي أَرْجُو
أَنْ يَأْخُذَ مَكَانَهُ مِنْ مَكْتَبَةِ الْأَدَبِ الرَّفِيعِ ، وَأَنْ
يَنَالَ عِنَايَةً وَتَقْدِيرًا مِنْ أَدْبَاءِ الْجِيلِ ، وَأَنْ يَكُونَ
بَاكُورَةَ لُجْهِهِ أَدَبِيَّ كَبِيرٍ ، أَقْدَمُهُ لِلْأَدْبَاءِ وَالْمُتَأَدِّينَ
مِنْ أَبْنَاءِ الْعَرُوبَةِ الْأَمَائِلِ ، مُطْمَئِنًّا لَهُ ، مُعْتَزًّا بِهِ ،
مُعْتَمِدًا عَلَى اللَّهِ فِيهِ .

المؤلف

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا

الذي كنا في ضلال عنه

والذي كنا في غمض

عن معرفته

والذي كنا في جهل

بما كنا في ضلال

عن معرفته

والذي كنا في غمض

عن معرفته

والذي كنا في جهل

بما كنا في ضلال

عن معرفته

تقديم

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين .

و بعد : فهذا هو الجزء الأول من كتاب « الوصف في الشعر العربي » وهو كتاب تضم أجزاءه الأربعة التي ستصدر تباعا إن شاء الله فن الوصف ، ناظمة شتات هذا الفن ، جامعة أطرافه من العصر الجاهلي إلى هذا العصر ، فالجزء الأول يبحث الوصف في العصر الجاهلي ، ويناقش بعض نظريات الأدب نقاشا مدعوما بالحجة ، والثاني يبحث الوصف في العصر الإسلامي والأموي ، والثالث يبحث في العصر العباسي والأندلسي ، والرابع يبحث في العصر الحاضر . ولا أزعم أني سأستقصى كل ما قيل في الوصف ، فتلك غاية لا تبلغ ، على أن جدواها لا تتجاوز مرسومناه لأنفسنا من عرض صور كاملة لأجزاء هذا الفن ، ثم تحليل هذه الصور تحليلا دقيقا وافيا ، وبيان ما تنتظمه من اتفاق في النظرة أو اختلاف ، ورسم خطوط واضحة لما نراه فيها من طرافة وجدة وابتداع ، أو لما نلمحه فيها من تقليد ومحاكاة واتباع . وإنما اخترت هذا الضرب من ضروب الشعر ؛ لأنه أغناها بعناصر الجمال ، وأحفلها بأسباب الحسن ، ولأنه ينبعث حين تتفجر به قرائح الشعراء عن صادق الشعور ، ووحى الإحساس .

والحق أن الوصف هو الشعر ، وبقية الأبواب الأخرى على جلال بعضها ، وانصراف الشعراء إليها في بعض عصور الأدب تجيء تابعة له ، متفرعة عنه ، تابعة من منابه ، وإن بدا الأمر غير ذلك .

والشاعر الحق هو الذى يتملكه مافى الكون من مناظر تبهر النواظر، فيستطيع وصفها، وتصوير أثرها فى نفسه ، وهو الذى يبهه مافى الحياة من ظواهر تملك الحواس ، فيستطيع رسمها ، ووصف ما يخالج الأفكار عند مرآها ، فهو يعبر عما لا يستطيع غيره التعبير عنه من وصف لمعنى من معانى الجمال ، ولا يقف هذا التعبير عند ناحية بذاتها من نواحي الجمال ، وإنما تختلف هذه المناحي ، وتعدد الزوايا التى ينظر منها الشعراء ، فتعدد عناصر الجمال .

يرى شاعر البدر فيصور استدارته فى القبة الزرقاء ، ويصور آخر وضائه بين سواطع النجوم التى يذهب بسطوعها ، ويصور ثالث أثره فى المحبين ، وأنه عون العاذلين والرقباء ، وفى كل من هذه الفكر حسن وروعة وجمال ، يرضى عنه شاعر ، ولا يرضى عنه آخر ، وكلها يصف شعوره ، فيجيد التعبير عن وصف ذلك الشعور .

وكما اشتد الشاعر تأثرا بهذا المنظر أو بذاك وجد عناصر الإجابة لديه مواتية مدانية ، واستطاع أن يصوره على حقيقته دون مبالغة أو تزيد ؛ لأن المبالغة يُلجأ إليها عند ما يريد الأديب أن يزيد على الحقيقة ؛ ليلبسها ثوبا غير ثوبها ، ويكسوها إهابا أضفى من إهابها ، وهذا معناه أن نقصا يعتورها يريد أن يغطيه ، ولكنه إذا أغمم ذلك المنظر حسه ، وملا نفسه ، تصوره كاملا لا يحتاج إلى تزيد أو مغالاة .

وبعد ، فإن نهجنا فى هذا الكتاب نهج بديع لم نسبق إليه فى أى فن من فنون الشعر ، ولم يعالجه أديب كما نعالجه نحن ، ولم نقبسه من سوانا ، ولا اعتمدنا فى أحكامنا على غيرنا من شيوخ الأدب ، قد تنفق معهم ؛ لأننا ننظر مثل نظرتهم ، وقد نختلف معهم ؛ لأن لنا رأيا نقيم الدليل على سداه ، ونسوق الحجة على صوابه ، ولا يضيرنا الخلاف ؛ بل إننا به نسعد ، لأنه الرأى الحر .

نهجنا فى هذا الكتاب نهج شاق عنيف ؛ لأنه جمع لهذا الفن من جميع مظاهره ، وتحليله من الأغراض الأخرى التى تتصل به ، ثم تفسير مفردات النماذج حتى نزود القارئ بالزاد الذى يعينه على متابعة السير فى هذه الدارة التى لا يقدر على السير فيها إلا من تزود بذلك الزاد ، ثم تحليل هذه النماذج تحليلا يكشف دقائق معانيها ، وطرائف جزئياتها ،

وإبراز محاسنها . ثم النظر في معاني هؤلاء الشعراء الذين اتفقوا في الموضوع ؛ لتبين عناصر الحسن ومعاني الجمال ، ولنحصى الطريف البديع ، ولننسب كل معنى إلى صاحبه ؛ إذا كان هذا المعنى طريفاً بديعاً ، وسبيلنا في هذا هو الترجمة الموجزة الوافية لكل شاعر ، ونسبته إلى إقليمه وقبيله ؛ ليظهر أثر هذين في اتجاهه وتفكيره ، وفي أسلوبه وأفكاره ، وفي حياته : بداوتها أو حضارتها .

وقد سارتُ العصور الأدبية ؛ لأن المعاني تتطور بتطورها ؛ ولأن الأدب يختلف باختلاف عوامل الحياة فيها ، فرأيت أن من الخير أن أربط كل عصر بأدبه ، أو كل أدب بعصره ؛ فالنابغة إذ يصف الليل ليس مثله ابن خفاجة ، والخطيئة إذ يصور البخيل ليس مثله بشار .

ثم إن هناك شيئاً آخر دفعني إلى مراعاة ذلك الترتيب هو ربط الشعراء المتعاصرين بعضهم ببعض ، ووزنهم بميزان واحد ؛ لأنهم يحيون حياة واحدة ، ويعيشون في عصر واحد .

هذا ، وقد قدمت بين يدي الوصف فصلاً لا بد منها : هي وصف جزيرة العرب لأنها المعين الذي يستقى منه أولئك الشعراء ، ثم عرض حقائق أدبية جليتها تجلية تدفع عنها شبهات المشككين ، ثم عرضنا لتقسيم الشعر عند الإفرنج وعند العرب ، وأثبتنا أن العرب في عصورهم السحيقة كان لهم شعر قصصي ، ثم انتقلت إلى تقسيم الشعر الغنائي عند العرب ، ثم عرضت للوصف قسمته ، ثم أبرزت قيمته العالية في الآداب العالمية ، وأرجو أن أكون بلغت بعض ما إليه قصدت ، فعلى الله قصد السبيل ؟

المؤلف

أهم المدن والقبائل
والتبائنات



الفصل الأول

بلاد العرب

بلاد العرب أو الجزيرة العربية كما كان القدماء من أهلها يسمونها تقع في الجنوب الشرقي من القارة الآسيوية ، وهي تحد شمالا بالبحر الأبيض وجمال طرسوس ، وجنوبا ببحر اليمن ، وشرقا بالخليج الفارسي وبحر عمان ، وغربا بالبحر الأحمر .

وإذا كانت بلاد العرب تضم شعبا واحدا ، فإنها ليست ذات طبيعة واحدة ؛ إذ أنها تختلف اختلافا عظيما في كثير من الظواهر الطبيعية ، فهذا الجزء حار الجو ، وذاك قاريه ، وذلك بارده ، وهذا إقليم خصب غنى بأسباب الحياة ، وذاك جذب قاحل تبسط الصحارى عليه أجنتها ، وغيرها ساحلى يشتغل أهله بالغوص على اللؤلؤ والمرجان ، وعليهما يعتمدون في حياتهم .

واختلاف الظواهر الطبيعية في بلاد العرب جعلهم يختلفون طبائع وصناعات ومهن ؛ كما يختلفون حضارة وبداعة ، فهؤلاء هادئون إلى حد ، وأولئك ثأرون إلى غير حد ، وهؤلاء يصطنعون التجارة ، وأولئك يزاولون الزراعة ، وقد تجد منهم من له حظ من الصناعة ، وكل هذا التباين كان له أثره في أدبهم بوجه عام ، وفي شعرهم بوجه خاص .

لذلك كان لزاما علينا أن نتناول وصفها بالتفصيل ؛ حتى تكون الأحكام التي نصدرها على شعرهم قائمة على أساس من العلم قوى سليم .

ونستطيع أن نقسمها إلى سبعة أقسام هي أهم أقطارها في العصر القديم ، وأعظم أقاليمها في الأيام الأولى ، وإلى هذه الأقاليم ينتسب الشعراء جميعا ، وفيها الأماكن والعيون ، والجبال والصحارى ، والقرى والمدن التي ترد أسماؤها في أشعارهم ؛ كما أن فيها أسماء الحيوانات والنباتات التي تفيض بها أشعارهم في أوصافهم أو تشبيهاتهم « انظر المصور » .

وتلك الأقاليم هي : الحجاز ، واليمن ، وحضرموت ، وعمان ، والبحرين ،
والصحرارى ، ونجد .

وأعظم هذه الأقسام فى القديم والحديث الحجاز واليمن ونجد .

١ - فأما الحجاز فيقتبس مكانته الرفيعة ، ومنزلته الشماء ، من قدسيته ومقامه الدينى ؛
ففيه مكة المكرمة أم القرى ، وبها بيت الله الحرام الذى قام على بنائه نبيان كريمان :
إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام فى واد ضيق ، وصفه الله سبحانه على لسان رسوله
إبراهيم داعياً ضارعاً : « رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ
الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ، فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ، وَارْزُقْهُمْ مِنَ
الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » .

وقد جعل الله سبحانه هذا البيت مجتمعا للحجيج ، وأما للآذنين : « وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ
مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ، وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ، وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ
هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ، مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، قَالَ وَمَنْ
كَفَرَ فَأَمَتُّهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ أَصِيرٌ . وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ
الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ، رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

وفيه يثرب التى سميت بعد الإسلام مدينة الرسول ، وهى حاضرة الإسلام فى عهد
الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعهد خلفائه الراشدين أبى بكر وعمر وعثمان .

وفيه الطائف ، وهى مدينة حصينة منيعة ، كانت مصيف السراة . قال النمرى يتحدث
عن فاطمة أخت الحجاج ، ويصفها بالرفاهية والنعماء :

تشتو بمكة نعمة ومصيفها بالطائف

وقد ضرب بمناعتها المثل ، فقال الشاعر :

٢ : منعنا أرضنا من كل حى كما امتنعت بطائفها ثقيف

وفى خيبر ، وهى مدينة حصينة كذلك ، كان يسكنها اليهود قبل الإسلام ، ولقى

المسلمون من كيدهم وحر بهم عنتا ، وهى على عكس الطائف ؛ إذ كانت وخمة الهواء ، كثيرة الوباء ، قال الشاعر :

٣ : وقت بها أبكى ، وأشعر سخنة كما اعتاد محموا بخير صالب

والحجاز كما ترى يختلف فى هوائه ، ويتباين فى جوه ؛ فمكة مشق لأن جوها أميل إلى الحرارة ، والطائف مصيف ؛ لأن جوه جميل ، وهواءه عليل ، وخير وبيئة وخيمة . ويعيش أهله على بعض ما يزرعون وما يستوردون من الأقاليم الأخرى ، وشرابهم من الميونة المنبتقة ، والسيول المنهرة ، ومن حيوانه الخيل الكرائم ، والإبل الهجان ، ومن وحوشه الغزلان والذئاب ، والأسود والضباع ، ومن طيوره العقبان والغربان ، والنعام والحمام . ومن زروعه النخيل والأعناب .

٢ — أما اليمن فيستمد مجده من عظمتها التالدة ، ويقتبس عظمتها من مجده الخالد ، فقد كان مقرا للملك عظيم ، وموطنا لسلطان كبير ، وعاصمته صنعاء ، وكان فى ظاهرها قصر غمدان ، ومن مدنها ظفار التى اتخذها بعض ملوك حمير حاضرة لدولته ، ومن مرافئها عدن ، كانت — ولا تزال — من أهم الموانئ على المحيط الهندى .

وهذا الإقليم ينقسم طبيعيا إلى ثلاثة أقسام :

(١) السهل الساحلى ويعرف بتهامة .

(ب) المرتفعات الجبلية ، وهى موازية للساحل . (ح) الصحراء الشرقية .

وستقرأ فى الفصل الثالث من هذا الكتاب الكثير من مظاهر مجد اليمن وعزته فى العصور الجاهلية الأولى .

٣ — وفى الجنوب الشرقى لليمن إقليم حضرموت ، وكان فى العصور الأولى إقليما قويا ذا مملكة عظيمة ، بلغ من قوته أن حاصر ملكه مملكة سبأ ، فارتفع نجم ذلك الإقليم ، وكان ذا صلات تجارية مع جاراته .

٤ — وعمان فى الجنوب الشرقى لحضرموت ، وهى ذات ساحل طويل على الخليج الفارسى ، ويستمد أهلها ثروتهم من الفوص على اللآلى واستخراجها ، والتجارة فيها .

٥ — وإقليم البحرين ، ويمتد من عمان إلى حدود العراق ، ومن بلاده حجر وقطر ، وأهله كأهل عمان يغوصون على اللآلى ، ثم يتجرون فيها .

وجوّه الساحلى معتدل جميل الهواء ، أما الجزء الداخلى فخار ، ومن محصولاته البلج والتمر ؛ حتى ضرب المثل بهجر فى جودة التمر ، فقيل « كنفال التمر إلى هجر » والبن والحبوب والقواكه ، ومن حيوانه الخيل والإبل والبقر ، والحير والبغال ، ومن وحوشه الأسود والذئاب والضباع ، والزراف والقروء ، والنعام .

٦ — أما وسط الجزيرة فصحارى مترامية الأطراف ، لا يكاد النظر يدرك نهاياتها ، ولا يوشك الطرف أن يبلغ غاياتها ، يجرى فيها السراب ، جريان الماء فى الأنهار ، وتظهر فيها الوحوش الكاسرة ظهور الحيوانات الآنسة فى الحقول الناضرة .

فمن هذه الصحارى : « صحراء الدهناء ، والنفود ، والأحقاف » وبعض أجزاء هذه الصحارى خصب ، وإن تكن رملية ، فإنها تصير بسقوط الأمطار من أجود المراعى ، وليست التربة فى الدهناء والنفود متجانسة ، فهناك بعض جهات لا يرى فيها غير آكام الرمال ؛ تكاد تبتلع السابلة لنعمتها وعدم تماسكها ، فيتجنبها الجوابون ابتغاء السلامة لأرواحهم وأرزاقهم .

وتتألف فى بعض أجزائها دارات يكثر فيها النخيل ، كما أن بها مناطق خصبة كجبل شمر فى جنوب النفود ، إذ تنحدر إليه المياه من جبل طي « أجا وسلمى » للمتدين من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى ، وهذه الصحارى فى الشعر العربى ، وفى الوصف بالذات الأثر العظيم .

٧ — أما نجد فيقع فى الشمال لهذه الصحارى ، وهو قطر خصب ، والمناطق الخصبة منه تطوقها الدهناء شرقاً وجنوباً ، كما تطوقه النفود من الشمال ، وتتسع المنطقة الخصبة على الجانب الشاطئ للبحر الأحمر .

وحاضرة نجد الآن هى « الرياض » وتقع فى إيالة العارض ، وهى المعروفة قديماً بالجو . والعروض واليامة ، وتقع بين سدير شمالاً ، والخرق والحريق جنوباً .

ومن مدن نجد الصغيرة الآن اليمامة ، وتقع على مجرى عين فرزان ، وكانت قديما تطلق على منطقة واسعة .

وقد تغنى الشعراء قديما بمجى نجد ، وبجمال هوائها ، حتى من لم يسكن نجدا ، ولا عرف جوها ، ولا استنشق هوائها ، وليس كل الإقليم معتدل الهواء ، لكنه يختلف باختلاف المنطقة ، فالخريق ووادي الدواسر حاران مثلا .

و بنجد من الحيوان الحبارى والنعام ، وابن آوى وبقر الوحش وحماره .
ويطول بنا مجال القول لو حاولنا حصر جميع البلاد التى ورد ذكرها فى الشعر العربى ، على أننا سنحدد فى تفسير الأبيات كل مدينة ، أو قرية ، أو جبل ، أو برقة ، أو عين ترد فيها تقدمه من نماذج ، وحسبنا هذا الذى قدمناه فى تخطيط جزيرة العرب .

جو بلاد العرب وأثره فى شعرهم

هذا العرض الموجز لأهم أجزاء بلاد العرب ، ولطبيعتها يهيب لنا أن نحكم حكما صالحا مبسوطا على جوها ، فجوها له أثر عظيم فى شاعرية أهلها ، فهى فى أكبر مناطقها قارية الجو ، ماعدا بعض المناطق الساحلية ، وقد أجلنا ذلك قبل ، فنفصل هنا هذا الإجمال :

١ — تظهر الحرارة المنطوية على « الرطوبة » فى السهول الساحلية ، وبخاصة فى نهاية بلاد اليمن وإمارة البحرين ، ومن القبائل التى كانت تسكنها بكر وأسد وتميم وأزد وغيرها .

٢ — تشتد الحرارة الخالصة فى الوهاد التى تتوسط الجزيرة ، وفى الوديان الواطئة ، ويعتدل الهواء فى المرتفعات والنجاد .

ومن القبائل التى كانت تسكن هذه الأقاليم : بنو حنيفة وبنو قشير ، وجمدة و يربوع ونمير وكلاب ، وغيرها .

٣ — ويتميز البحر الأحمر بمجوه الحار ، فيمد الأقاليم المتاخمة له بالدفع فى الشتاء ، وياطف من رمضاء الصحارى التى على شاطئيه صيفا .

٤ — ونجد — كما قدمنا — من أجل بلاد العرب جوا ، لذلك تغنى بصباها الشعراء ،
وقالوا عنها : إنها تهب من مطلع الشمس ، كما قال ابن الدمينية :

ألا يا صبا نجد متى هبت من نجد ؟ لقد زادني مسراك وجدا على وجد
وتقابل هذه الريح الجميلة ريح الدبور ، وهى تهب من مغرب الشمس ، ومن ذكر
الأعشى لها واصفا مسير ناقته قوله :

لها زجل كخفيف الحصا صادف بالليل ريحا دبورا
وقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فى حديث ، فقال : « نصرت بالصبا ،
وأهلك عاد بالدبور » وما زال الشعراء يتحدثون بعراها ، ويلهجون بريها ، فيقول قائلهم :
تمتع من شمس عرار نجد فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد ورياروضه بعد القطار
وقال غيره :

قما ودعا نجدا ومن حل بالحمى وقل لنجد عندنا أن يودعا
بنفسى تلك الأرض مأطيب الربا وما أحسن المصطاف والمترعا !
ولم تكن بلادهم تجرى من تحتها الأنهار ، أو تسعد جميع أقسامها بالمطار ، فأحبوا
المطر وعشقوه ، فجعلوا منه دعاء لأحبابهم ، وأمانى لأعزائهم ، بل دعوا بالسقيا للأيام ،
وقلدتهم شعراء : الأنهار من طرقهم ؛ والماء بعض سبلهم ، قال ابن زيدون الأندلسى :
ليسق عهدهم عهد السرور فما كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
وقال أحمد بك شوق :

١١ : سقيا لهد كأ كفاف الربا رفة أنى ذهبنا وأعطاف الصبا لينا

ولفقرهم إلى الماء ، كانت غلاتهم محدودة ، ومحصولاتهم محصورة ، فلا تكاد تجد
من هذه الغلات غير ما قدمنا شيئا ، والذى قدمناه لا يستغنى به شعب ، لذلك كانت لهم
رحلتان تجاريتان : إحداها إلى اليمن زمن الشتاء ، والأخرى إلى الشام زمن الصيف ،
وكانهم بهاتين الرحلتين كانوا يتقون الأجواء عند اجتلاب الأرزاق .

تقسيم القبائل العربية على أجزاء بلاد العرب

- ١ - كانت قبيلة قريش « واسمه فهر » تسكن مكة ، وقد تفرع إلى بطون كثيرة ، منها : الحارث ، ومحارب ، وتيم ، وعامر ، وخزيمة ، وسعد ، وعدى ، ومخزوم ؛ وكانت لقريش و بطونها الزعامة الدينية في العصر الجاهلي ، ثم ثبتت ببعثة الرسول الكريم من قريش ، وبسط في رقعتها ، فجعلها تشمل العالم الإنساني .
- ٢ - وكانت قبيلة ثقيف وهي حى من هوازن تسكن الطائف ، ولها به حصانة ومناعة ، وغنى و ثروة ، وكان يسكن الطائف مع ثقيف بنو عدوان وبنو الحارث و بنو سعيد .
- ٣ - وكانت المدينة وطنا لقبيلتي الأوس والخزرج القحطانيتين ، وهما على ما بينهما من صلات الرحم كانتا متعاديتين ، فالعداوة مستحكمة ، والحرب بينهما متصلة ؛ حتى ألف الله بين قلوبهم بالإسلام .
- ٤ - وكانت هذيل تسكن جبالا بين مكة والطائف ، وقد اشتهر الهذليون بشعرهم الرقيق ، ونسيبهم العذب الجميل .
- ٥ - وعذرة إحدى القبائل الحيرية النازحة إلى بادية الحجاز ، وقد اشتهر أبناؤها بالغزل العفيف ، وفتياتها بالجمال الرائع .
- ٦ - وكان يسكن اليمن أبناء قحطان ، وهؤلاء كان لهم فرعان : فرع كهلان وفرع حمير ، وقد تعددت رحلات أولئك وهؤلاء ؛ حتى سكن بعض القحطانيين من أبناء كهلان الحجاز ، كالأوس والخزرج ؛ ومن فروع كهلان : طيئ ونلجم وجذام ومراد وكندة وهدان ومذحج والأزد .
- ٧ - وكان يسكن حضرموت بطون من كندة تسمى تجيب ، وفي حدودها من الشمال الأحقاف ، وكانت مسكنا لعاد قوم هود عليه السلام .
- ٨ - وكان يسكن عمان بعض قوم طيئ ، ومن أشهرهم بنو نبهان ، كما كان يسكن البحرين قبائل من تميم ، وهم عدنانيون مضربون .

أثر البيئة في الشعر العربي

X البيئة أعظم العوامل المؤثرة في الأدب ، بل هي في واقع أمرها ، وقوة وقعها تعتبر الخالقة لبعض فنونه ، المسكونة لأكثر عناصره ، فإنها تخلع عليه جميع ألوانها ، وتهب له كل مظاهرها ، (بل هي تحرمه ما حرّمته ؛ وتمنعه ما منّعتة) ؛ ليس ذلك شأنها مع الأديب أو مع الإنسان فحسب ؛ بل هو شأنها مع الحيوان ؛ فالحيوان يتلون بلون بيئته التي يعيش فيها ؛ ويتكون بتكوينها ؛ فيبدو مثلاً أصفر اللون ؛ صلب الأعضاء ؛ ضامر الجسم ؛ شرس الطبع ؛ إذا كان يعيش في الصحراء ؛ فهي التي خلعت عليه صفة رملها ؛ وصلابة صخرها ؛ وقلة الغذاء فيها ؛ طعاماً وشرباً جعلته ضامر الجسم ؛ وقلة الخلاط بها جعلته شرس الطبع ؛ فإذا تركت الصحراء إلى إقليم ساحلي خصب وجدت لونا أبيض ؛ وجسماً رياناً ممتلئاً ؛ وطبعاً ليناً هادئاً ؛ وإذا كان هذا هو تأثير البيئة في الحيوان ؛ فما بالنا بتأثيرها في الإنسان ؟

لإنها تطبعه بطابعها ، وتسمه بسمتها ؛ فالرجل الذي يعيش في الصحراء يألف مناظرها ؛ ويأنس إلى كوامرها ، وقد يشق بعض حيوانها ، فيتخذ منها أصدقاءه ، يستدنيها بصوته الذي يشبه أصواتها ، ويتألفها بلونه الذي يقارب ألوانها ، ويجد فيها سلوكاته ، ويلقى فيها هويته :

١٢ : عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوت إنسان فكادت أظير

لذلك نجد الشعراء الذين يعيشون في الصحاري أجزل لفظاً ، وأوضح معنى ، جزالة ألفاظهم قوامها جهم لكل صلب ، وشغفهم بكل غليظ ، ووضاعة معانيهم أسامها تلك السماء الصافية التي منحت قلوبهم صفاءها ، وأخيلتهم بساطتها ، فإذا جاوزت الصحراء إلى إقليم حضري يكسو الخصب حقوله ثياباً من الأشجار الباسقة ، والأزهار الناضرة والانتشار البانعة رأيت في ألفاظهم رقة ، وفي معانيهم خيالاً مركباً ، فمن ذلك الذي يستطيع أن يحكم أن هذه الأبيات لشاعر جاهل دون أن يكون عالماً ذلك من قبل ؟

قال المنخل الشكرى نديم النعمان وسميره ، والنعمان كان ملكا على الخيرة من
قبل الفرس :

ولقد دخلت على الفتاة الخدر في يوم مطير
الكعب الحسناء تر فل في الدمقس وفي الحرير
فدفعته فداغت مشى القطة إلى الفدير
ولتمتها فتنفست كتنفس الظبي الفرير

إن الحضارة التي كان يحيا فيها ، والبيئة التي عاش بها هي التي رقت شعره ؛ حتى
لكأنه الماء القراح سلاسة وعذوبة ، وهي التي أوحى إليه بتلك المعاني الرائعة الغزلة ، ثم من
يحكم بعد ذلك بأن قائل الأبيات السابقة كان يعيش في عصر واحد مع قائل هذه الأبيات ؟

مهففة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل
تصد وتبدي عن أسيل وتتقى بناظرة من وحش وجرة مطلق
وجيد كجيد الرثم ليس بفاحش إذا هي نصته ولا بمعطل
وفرع يزين المتن أسود فاحم أثيث كقنو النخلة المتعشك
غداثه مستشرزات إلى العلا تضل العقاص في مثني ومرسل

: ٢١

إنه ستشتد غرابته حين يعلم أن قائل هذه الأبيات ملك ابن ملك ، ولكنه سيزول
عجبه حين يعلم أن البيئة التي عاش فيها كل منهما هي الموحية إليه بألفاظه ومعانيه .

الفصل الثاني

حقائق أدبية

شاعرية الأسم :

الشعر في جميع الآداب العالمية هو سفير الشعور ، ورسول الوجدان ، وترجمان العاطفة ، ذلك شأنه في جميع الشعوب ، لا ينفرد بهذا شعب دون شعب ، ولا تميز به أمة دون أمة ، وإنما تتفاضل الشعوب بمقادير ما وهب لها من رقة في العاطفة ، وتوفز في الحس ، وتمايز كذلك بيقظ الوجدان ، وانفساح الخيال ، فتى وهب الله للأمة من هذه المعاني قسطا أوفر بلغت في الشاعرية درجة أعلى ، وإذن فمن الغلو في التعبير أن نقول :
« في الأم الشاعرة وغير الشاعرة ، والمطبوعة على الفن والآخذة فيه بضروب المحاكاة والتقليد » .

وإنما القصد في التعبير أن نقول : في الأم من أوتيت استعداداً طبيعياً للشاعرية على مدى واسع ، ومن أوتيت من هذا الاستعداد حظاً ضئيلاً ، لا يقوم بشيء إلى جانب تلك ، ومن هنا تفاوتت القوى الأدبية بين الأمم ، واختلفت المعايير ، فرجحت في هذا الشعب ، وشالت في ذاك ، وكانت بينَ بينَ في ثالثهما .

وهذا ملحوظ مشاهد في القديم والحديث ، فإننا لانستطيع أن نحكم على شعب بموت الحس ، وخمود العاطفة ، فلكل الأم فنون ، الشعرُ أحدها ، كان للأمة الرومانية أدب وشعر ، ولا ينفي هذا الكون أنه أقل من الأدب اليوناني والشعر اليوناني درجة ، وما يقال عن الرومان يقال عن الفرس ، ويحكم به على غير الرومان والفرس .

اختلف مدى الشاعرية في الشعب الواحد :

بل قد يختلف الشعب الواحد في مدى استعداده الطبيعي ، وتهيبه الفطري ، ولعل

أبناء جنوب مصر أوفر استعداداً للشاعرية من أهل شماله ، وإن كانا جميعاً ذوي استعداد ، يبدو لنا هذا في غير المثقفين من أبناء الوادى ، إذ تكثر الأغاني الشعبية فى صعيد مصر ، وتقل فى دالها ، وهذا الغناء الشعبى هو اللبنة الأولى فى الأدب الرفيع ، والفن الجميل . وهذا هو الشأن فى الأمة العربية ، فإننا نرى القحطانيين أقل حظاً فى نظم الشعر وإنشائه من المدنائيين ، وأولئك الذين نبغوا فيه منهم لم ينبغوا إلا فى أحضان المدنائيين ، وبين أبنائهم .

أثر البيئة فى الاستعداد الطبيعى :

والاستعداد الطبيعى - فيما نرى - أثر من آثار البيئة فى الشعوب ، وعنصر من عناصر تأثير الأجواء والأحياء ، يعلو على جميع الآثار ، ويسمو على كل العناصر ذات الأثر فى رقى الشعر بخاصة ، والأدب بعامة ، وفى انحطاطه ؛ فالقطرة الإنسانية من أقوى مكوّناتها الجو الذى يحيا فيه صاحبها ، والطبيعة الجغرافية التى تخلق ذلك الجو .

وعلى أىّ فالإنسان ابن بيئته ، وهو فى بداءته وبدأوته أسير عاطفته ، تبسط عليه ظلمها ، وتنشر فوقه لواءها ، تتحكم فيه فيثور ويفور ، أو يسكن ويهدأ ، وينبسط وينشرح ، أو ينقبض وينكمش ، يفعل ذلك للتوفاه من الأمور ، والصغائر من الشئون ، فكم من كلمة عابرة أثار حرباً ضروساً ، وكم من نظرة عابثة استولت على قلب جادٍ صارم .

شأن الإنسان فى فطرته وسذاجته كشأن الطفل فى نشأته وطفولته سواء بسواء ، ولم لا ؟ إنه فى معرفة كنه الحياة ، والبصر بأحوالها ، والنظر فى أسرارها ومعانيها ما يزال طفلاً ، وإن جاوز طور الكهولة ، بل وإن بلغ مرحلة الشيخوخة .

فإذا ما أخذ من الحضارة بعوامل التفكير والتأمل ، والتقليد والحاكاة بدأ يحكم عقله فى بعض الأمور ، ويرسل فكره وراء القليل من الشئون ، وهكذا يتدرج فى التأمل والتدبر ، حتى يصل إلى مستوى من المدنية والحضارة يتيح له أن يبتكر وينشئ ، وأن يتخذ من هذا الذى يبتكره وينشئه أسباباً للكتابة .

اعتماد النثر على العقل :

يصبح العقل حينئذ المهادى إلى الإنشاء والاختراع ، وعليه يعتمد النثر فى تسجيل ما ينشئ ، فى حين ينبعث الشعر كما قدمنا من نبعة بعيدة كل البعد عن هذه السبيل ، تلك النبعة هى العاطفة ، وهى الشعور .

ولذلك نجد الشعر الفلسفى أو المعتمد على المنطق متأخرا فى نشأته عن الشعر العاطفى ، لأنه يتخذ العقل رائداً له ، ولا يعول على العقل ذلك التعويل إلا الشعب المتمدين ، انظر إلى الشعر الجاهلى تجده خاليا من المعانى الفلسفية ومن النظرات العميقة ؛ إلا للقليل من الشعراء الذين نظروا فى الكون ، وتأملوا فى الوجود ، نجأوا بيمان لايقام لها وزن إذا قيست إلى معانى شاعر عاش فى حضارة ، هى إحدى آثار العقول والأفكار .

سبب الشعر للنثر :

وعلى هذا نقول : إن الشعر يسبق النثر فى الوجود سبق تحكم العاطفة فى الإنسان دون العقل ؛ ونحن لا نقصد بالشعر الشعر الكامل فى جميع عناصره ، وإنما نقصد المحاولات الأولى لقوله ، دون نظر إلى نشأته وطريقة هذه النشأة فيما عدا أنه مصور للمواطن ، معبر عن الإحساسات ، مثير للذة تقدير الجمال .

وإذا كان قد ورد عن العرب غير هذا فلأنهم عَنُوا بالنثر نحواً غير الذى نعينه نحن الآن ، عَنُوا به نثر الحديث فى شئون الحياة الهينة التى لا يحتاج المتحدث فيها إلى إعمال الفكر ، وإمعان النظر ، أليس هذا هو ما يدل عليه قول قائلهم :

« وكان الكلام كله منشورا ، فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها ، وطيب أعراقها ، وذكر أيامها الصالحة ، وأوطانها النازحة ، وفرسانها الأبحاد ، وسمحاتها الأجواد ؛ لتبهز نفوسها إلى الكرم ، وتدل أبناءها على حسن الشيم ، فتوهوا أعاريض ، فعملوها موازين للكلام ، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً لأنهم شعروا به » .

فقوق أن فى هذا التصوير وهما كثيرا ؛ إذ ظنوا علم الأوزان سابقا لقول الشعر ، فإنهم

لم يقصدوا إلى النثر الفنى ، وإنما قصدوا إلى النثر الخطابى الذى يتناول مختلف شئون الحياة اليومية من بيع وشراء ، وطعام وشراب ، وصيد ورعى ، ونوم ويقظة ؛ إلى غير هذه الأمور التى تقوم عليها الحياة الإنسانية الساذجة .

أما النثر الفنى الذى يعبرون به عن رأى خطير ، أو يرمون من ورائه إلى أمر عظيم ، أو يعبرون به عن فكرة عميقة يعمدون إلى تصويرها به ؛ لتقتنع بها العقول ، وتؤمن بها الأفكار ، فهم يريدون فرض الرأى ، أو الإقناع بالفكرة ، فلم يسعدوا بالوصول إليه .

وها نحن أولاء نرى فى ريفنا شعراء ، لا ينقص شعرهم خيال ، ولا تعوزه عاطفة ، ولا يحتاج إلى حسن تصور ، وإنما ينقصه اللفظ الصحيح ، ويعوزه الميزان السليم ، ويحتاج إلى دقة التصوير ، وليس كل ذلك بسالب إياه معنى الشاعرية ، فعدره أنه ينطق هذه اللغة ، ولوعرف غيرها لنطق بها ، وأن موازينه وإن لم تكن سليمة فهى أقرب إلى السلامة ، ودقة تصويره طريقها التأمل والتأنق ، وكمن من الشعراء المطبوعين تنقصهم دقة التصوير .

الشعر بذرة النثر الجاهلى :

والنثر الفنى الجاهلى الذى يثير اللذة ، ويبعث على الإعجاب نادر ، وهو فى مقداره إذا قيس إلى الشعر ليس شيئاً مذكوراً ، وإذا نظرنا إليه على اعتبار أنه معبر عن العقل لم نجد له وجوداً ، وإذا أغفلنا ناحية الوزن حق لنا أن نقول : إن الشعر هو البذرة الأولى للنثر ؛ لأنه كله أوجه خطب ، والخطب قوامها العاطفة ؛ على أنها فيما نعتقد قليلة لا تكاد تذكر ، وما وصل إلينا من النثر غير الخطب لا يعدو أن يكون حكماً متفرقة ، أو أمثالا منتثرة أملت بها مناسباتها ، وخلقتها أسبابها ، يعتورها من الشك فى نسبتها إلى قائلها ما يعتور الخطب والقصص .

ألمة للمضريين شراراً ؟

إني أخالف جمهرة من زعماء الأدب يرون : « أن تاريخ الأدب العربي يدل على أن قد كان للمضريين نثر ما ، بل يدل على أن قد كان لهم قبل الإسلام نثر وصل إلى حد الرقي لا بأس به » فإن النثر يحتاج - أول ما يحتاج - إلى الحضارة ، ومن مظاهرها الكتابة ، وقل فيهم الكاتب ، أو قل انعدم فيهم الكاتب ، ولم تكن لهم حضارة تستأهل استخدام العقل في تصوير مظاهرها ، أو وصف آثارها ، وإن تكن فقد كانت تصور شعراً لسهولته ، وجمال نغمه ، وإذا قلنا مع أولئك القائلين : إن العرب كان لهم في الجاهلية نثر فني ، فإننا سنفتقرض أنه نثر عاطفي ، وهو ما نفق على تسميته في العصور الأدبية المتأخرة بالشعر المنشور .

نزول القرآن نثراً :

فإذا قيل : لماذا إذن نزل القرآن نثراً ولم ينزل شعراً ليكون التحدى به أقوى ؟ قلنا : إنه جاء نثراً ليكون التحدى أقوى وأقوى ، فدرجة النثر أقل من درجة الشعر عندهم ، فإذا جاء نثر أقوى من الشعر كان ذلك برهاناً قوياً على أنه أرقى من أي نثر آخر .

وحينما وصف العرب القرآن الكريم بأنه شعر ، ووصفوا الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه شاعر كانوا على يقين بأن القرآن ليس شعراً ، وبأن الرسول ليس شاعراً ، فليست للقرآن سمة واحدة من سمات الشعر ليست له معانيه القائمة على الخيال المحض ؛ وليست له أغراضه المتعارفة بينهم ؛ وليست له أوزانه المرسومة عندهم ، فالقرآن لا يشارك الشعر في غير اللفظ ؛ وهي شركة محتمة في كل كلام .

ولم يقل الرسول - وقد عاش بين ظهرائهم ؛ وعرفوا جميع أطوار حياته كل المعرفة - بيتاً من الشعر ، وإن جاء بعض كلامه منظوماً كالذي روى عنه :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وإنما ادعوا هذه الدعوى ؛ لأنه أرقى من النثر ، فيجوز أن يعد من الشعر ، أو يجب ألا يعتبر من النثر .

التوسع في معنى الشعر :

وإذا صح لنا أن نتوسع في معنى الشعر ولم نقيده بما قيده به العرب من أنه الكلام الموزون للمقفى ، وجعلناه الكلام المنبعث عن العاطفة ، والذي يقصد به صاحبه إثارة لذة السامع استطعنا أن نحكم بأنه أقدم من النثر دون أن يخالفنا في هذا الحكم من يزعم أن النثر أقدم ، لأننا سندخل في نطاق الشعر عندئذ الخطبة والقصة ، وهما تعتمدان على إثارة الشعور ، وتوافر الخيال ، على أن من العرب من وصف الشعر بأنه «شئ تبحش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا» .

صفوة القول في سبب الشعر للنثر :

بعد كل هذا البسط نستطيع أن نقول : إن الشعر أسبق من النثر بجميع فنونه ، أسبق من القصة والخطبة ، والحكمة والمثل والمقالة ، فقد اتخذها الناس منذ إدراكهم لمعنى الحياة المعبر عما يكونون ، والناطق بما يحسون ، والمصور لما تبحش به قلوبهم من انفعالات ، وما تختلج به أفئدتهم من خواطر وإحساسات ، فوجلوا بابه ، واستخلصوا لبابه ، في حين أحكم النثر الفنى دونهم رتاجه ، وبالع في إيصاد مغالقه ؛ لأن هذا - كما سبق - عماده العقل والتأمل ، ومعينه الفهم والتفهم .

وانى للأُم في بدائها وبدوتها كل أولئك ؟ إن أبناءها - ولا نستثنى - يتيهون في مجاهل من الجهالة ، ويسيحون في صحارى من البداوة ، ولن يكون علم مكتسب مع جهالة مطبقة ، ولن يتفق فهم دقيق مع بداوة مفرقة ، وهام أولاء بعض سكان المجاهل الإفريقية ممن لم تغزهم الحضارة ، ولم تفتح عقولهم المدنية لهم أغانيهم المعبرة عن آمالهم ، وأناشيدهم المصورة لأشجانهم ، وهى دون شك شعر بمعناه الأعم الأفصح .

فلا علينا أن نقول بعد هذا العرض الواضح ، والبسط الضافى : إن الشعر ليس أسبق من النثر فحسب ، بل هو أسبق منه بآماد بعيدة ، تستوى في هذا الحكم جميع الآداب العالمية ،

ولا يضيرنا في حكمنا أن يكون الشعر سطحى الخيال أو عميقه ، ضيق الآفاق أو واسعها ، متعدد الأغراض أو محصورها ، ضعيف الأسلوب أو قويه ، مختلط التركيب أو منسقه ، مختل الوزن أو مستقيم ، فكل تلك تتبلور مع الزمن ، وتستقيم مع الحياة ؛ فإن كل موجود في هذا الوجود تعتوره أطوار الحياة المتعاقبة ، وتتداوله تقلبات الزمن وتغيراته ، كل موجود ينجم ثم يجبو ، ثم يدرج ... حتى يشارف الكمال ، ولا نقول حتى يصل إلى قمة الكمال ، ثم تدول دولته ، وتخبو شعلته ، فيعود كما كان .

مال النثر الأولى :

ليس أمر النثر مغايراً لأمر الشعر ، فلا بد أنه كان في أول أمره سقيم الفكرة ، وإن يكن وليدها ، قليل الجدوى ، وإن يكن صادراً عن عقل وتدبر ، والناظر في النثر الجاهلى لا يستطيع أن يحكم دون أن يرى بالهوى بأنه رفيع المسكنة خطير المنزلة : من الناحية التفكيرية أو الأسلوبية أو الموضوعية ، مع أن ما وصل إلينا - على فرض صحته - هو أفضل ما قيل ، وأبلغ ما ارتجل ، وأحكم ما سجل ، وإلا لما حفظته الحوافظ ، وتحدث بجماله الرواة ، واعتنى بتسجيله المؤدبون والشداة .

على أنى أكاد أوقن أن هذا النثر الذى يروى بعضه شيوخ الأدب - كصاحب الأغاني وصاحب الأمالي وأضرابهما - وهو منسوب إلى بعض الجاهليين ، وفي بعضه قصص وجمال تصوير ، أو حكمة وتأنق في التعبير - من وضع الرواة والمحدثين الذين رغبوا في أن يرفهوا عن الخلفاء ، أو أن يشيدوا بعقول القدماء ، وحسبنا هذا الذى قدمناه .

فضل الشعر على النثر :

اتفق الأدباء - إلا القلة الضئيلة - على أن الشعر جملة أفضل من النثر جملة ، ونحن ممن ترى هذا رأى ، ونقيم الأدلة على سداذه وصوابه فنقول :

١ — فضل القرآن على الشعر :

إن العرب طرا حينما بهرهم القرآن ، وأخذتهم بلاغته زعموه شعرا إيماناً منهم بأن الشعر أفضل من النثر ، وهذا الكلام الذي يحاجهم به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويتحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله أجود من نثرهم ، وإذن فلا عليهم أن يدعوا أنه شعر ، وإن فقد مقوماته من خيال ووزن وقافية وموضوع وأسلوب .

٢ — فضل الشعر على الفنون الجميلة :

الشعر أحد الفنون الجميلة ، ولكنه منها واسطة عقدها ، وبدر فراقدها ، فأين منه النقش والتصوير ، والنحت والموسيقا ؟ إن فيه إلى نظمه وورصفه صوراً تبهر هرة المصورين ، وجالاً يسحر نوابغ الرسامين ، والموسيقا لاتسمو إلا به ، والغناء لايجلو إلا فيه . إنه يتألق بين الفنون فيفيض عليها حسناً ، ويمنحها وضاءة ولألاء ، فأى فن جميل ليس للشعر فيه الأثر الرائع الجميل ؟

٣ — سمو موضوعات الشعر :

موضوع الشعر أعلق بالقلب ، وأقرب إلى النفس من موضوع النثر ، بل من موضوعات الفنون الجميلة التي لاتعتمد عليه ، والنثر إذا تجاوز موضوعه ، وحل في غير أفعه ، واعتدى على موضوعات الشعر عد متطفلاً ، وقيل عنه إعلاء لشأنه مع هذا التطفل : إنه شعر منشور ؛ لأنه يحمل موضوع الشعر وأخيلته ، ويقتبس ألفاظه وموسيقاه ، وإن لم تسم إلى موسيقا الشعر .

٤ — رأى ابن رسيو الفيرواني :

ولا نلجأ في حججنا إلى ما ذكره ابن رشيقي في كتاب العمدة من أن الشعر يفضل النثر لأسباب فنية ، « وأن كلام العرب نوعان : منظوم ومنثور ، ولكل منهما ثلاث طبقات : جيدة ومتوسطة ورديئة ، وأنه إذا انفقت الطبقتان في القدر وتساوتا في القيمة

ولم يكن لإحداهما فضل على الأخرى كان الحكم للشعر ظاهراً في التسمية ؛ لأن كل منظوم أحسن من كل منشور من جنسه ؛ فالنثر وبه يشبه اللفظ إذا كان منشوراً لم يؤمن عليه ، ولم ينتفع به في الباب الذي كسب له ، وانتخب من أجله ، وكذلك اللفظ إذا كان منشوراً تبدد في الأسماع ، فإذا أخذه سلك الوزن وعقد القافية تألفت أشتاته ، وازدوجت فرائده .
فمن أدبائنا من يصف هذا القول بأنه كلام ضعيف ، وإن يكن بيان ذلك الأديب أضعف من بيان ابن رشيق ، وليس هذا مجال تفصيل نقده .

٥ — فطر موضوعات الشعر :

وأولئك الذين يقولون إن موضوعات النثر أخطر من موضوعات الشعر جد واهمين ؛ فالشعر يتناول الكون بأجمعه ، وموضوعه كما قال غيرنا : الله والإنسان والطبيعة ، فهو كل مافي هذا الوجود ، على أنه يستطيع أن يتناول جميع موضوعات النثر ، بل هو الآن يتناول أعنف موضوعاته كالمباحث الفلسفية ، ويعتبر الشاعر الذي لا فلسفة في شعره شاعراً سطحياً ، لا : بل قد يبلغ به إذا فلسفه ما لا يبلغه بالنثر ، وهذه لزوميات أبي العلاء تجمع بين قوة العقل والمنطق ؛ وبين قوة التصوير وحسن الفن ، والشعر السياسي كان - ولا يزال - أقوى دعائم الدعاية السياسية ، ويكفي للدلالة على ذلك أن معاوية حين أراد أن يمهد للبيعة لابنه يزيد استعان لها بشعر مسكين الدارمي ، ذلك الذي يقول فيه :

ألا ليت شعري مايقول ابن عامر ومروان أم ماذا يقول سعيد ؟

بنى خلفاء الله مهـلاً فأنما يبوئها الرحمن حيث يريد

إذا المنبر الغربي خلّاه ربه فإن أمير المؤمنين يزيد

وأن بيت مروان بن أبي حفصة في الاحتجاج للعباسيين على العلويين ، وهو :

٢٤ : أنى يكون - وليس ذاك بكائن - لبني البنات وراثة الأعمام ؟

كان أشد على آل علي رضي الله عنه من ظلمات السيوف ، وأسنة الرماح ، بل كان هذا للبيت دعامة من دعائم الدولة العباسية .

وإنك لتجد الحكمة وحققها أن يكون النثر معينها مسجلة شعرا ونثرا ، فتحكم لأول وهلة بأنها شعراً أفضل منها نثراً ، وها هو ذا المثال الذي تؤيد به رأينا .

موازنة بين نثر وشعر :

(١) قال عبد الله بن الزبير حينما قتل عبد الملك بن مروان أخاه مصعباً من خطبة ينحى فيها أخاه ويؤنبه ، وتكاد هذه الخطبة تكون أروع خطبه ، والخطبة أقرب النثر إلى الشعر : « إنما التجلد والسلوة لحزماء الرجال ، وإن الملع والجزع لربات الحجال » .

وتناول أبو تمام الطائي هذا المعنى في تعزيتة مالك بن طوق عن أخيه القاسم ، فقال :

٢٥ : خلقنا رجالاً للتجلد والأسى وتلك الغواني للبكا والمآتم

فكان البيت خيراً من الفقرة لأسباب كثيرة منها :

١ — لنظمه وجرسه الموسيقى ، وهذا فضل لا ينكره إلا معاند مكابر ، وإلا من

لا تطربه الموسيقى ، ولا يملك سمع الجرس والغناء .

٢ — لقلة كلماته عن كلمات النثر مع أن الشاعر مقيد بالوزن الذي قد يستدعى منه أن

يزيد ألفاظاً ، حتى يفي المعنى حقه ، وحتى لا يوصف شعره بالغموض والتعميد ، فللوزن من الأحكام ما ليس للنثر ، فلهذا الحرية المطلقة ، ولذلك القيد المحكم .

٣ — لدقة المعنى ، فقد وصف الشاعر قومه ونفسه بأنهم خلقوا رجالاً ، وفي الجملة

قصر جميل ملحوظ ، فكان أعداءهم ليست لهم هذه الصفة ، وفيها نخر نبيل واضح

في حين ترك الخطيب هذا المعنى ، وقال إن التجلد والصبر والأسى المكتوم خليق

بالرجال ، أو خليق به الرجال ، فجمع بين الصفتين الجديرتين بخلق الرجال عند فداحة

الخطب وجلال الرزء ، أما الخطيب فجمع بين التجلد والسلوة ، وما أدرى كيف يسلو الأخ

أخاه ، وبخاصة إذا كان هذا الأخ هو البطل العظيم ، والرجل الكامل مصعب بن الزبير ؟

والفرق عظيم بين الأسى والبكاء ، فالأسى للرجال ، والبكاء للنساء ، أما السلوة التي قرنها

عبد الله بالتجلد فلا موقع لها هنا ، في حين أن المآتم وقد عطف على البكاء أدت المعنى

أسد أداء ؛ فالمآتم تقام للنساء يبكين فيها ويندبن ، ليثرن الرجال للأخذ بالثأر ، ولنفس

العار ، وخص الشاعر الغوانى بالبكاء ليدل على فداحة النازلة ، وشدة الكارثة ، ومن تبيكه الغوانى خليق أن يبكيه غيره .

أما فقرة عبد الله فلا تشتمل على قليل من ذلك الكثير من المعنى ، كما أن الفقرة على الرغم من أنها مسجوعة لم تتم نعمة وجرسا وموسيقا ، وقول الخطيب ربات الحجال كناية دفعه إليها التكلف والسجع ، وأجل منها دون ريب الغوانى ، والهلع والجزع معناهما واحد ، فلم يأت الخطيب بجديد سوى التطويل الذى لا يدعو إليه داع غير رصف الجملة ، وإقامة السجعة .

٤ — وهناك فوق ما قدمنا فروق تحس بها وتذكرها دون أن تستطيع لها تعليلا ، ففي الإشارة إلى الغوانى بتلك جمال ، ولكن كيف نملله ؟ أنقول : إنه أراد تعظيمهن بالإشارة البعيدة إليهن ؟ ولم لا ؟ ألسن غوانى ؟ أم نقول : إن المآتم كانت منه قريبة بعيدة ؟ أم نقول : إنه كان بين صفين من الرجال والنساء ، فحدث الرجال بقوله : خلقنا رجالا ... والتفت إلى النساء فأشار إليهن قائلا : وتلك الغوانى ... ؟

(ب) موازنة أخرى :

وهذا مثل اختلاف فيه النقاد ، فهناك من فضل النثر ، وهناك من فضل الشعر ، وإننا من أصحاب رأى الأخير ، وسنورد الرأى الأول ، ثم نرد عليه ونفنده ، وللقارى الحكم بعدئذ .

قال عمر العتي : العقل عقلان عقل تفرد الله بصنعه وهو الأصل ، وعقل يستفيله المرء بأدبه وهو الفرع ، فإذا اجتمعا قوى كل منهما صاحبه تقوية النار فى الظلمة للبصر .
وقال أحد الشعراء :

رأيت العقل عقلين فطبع ومصنوع

ولا ينفع مصنوع إذا لم يك مطبوع

كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

زعم صاحب الرأي الأول أن الشاعر «كرر كلمتي مصنوع ومطبوع على غير داع ، وقد سلمت الأولى من ذلك التكرار ، وكلمة مصنوع في الشعر تقابل كلمة مكتسب في النثر ، ومكتسب أليق بموضعها ، وأدق في الدلالة على مايراد منها ؛ فالعتي أدق عبارة ، وأحكم تأليفا ، وأسلم من التكرار» ثم قال : «قسم كل منهما العقل قسمين ، وفاضل بينهما ، ولكنهما اختلفا في طريق المفاضلة ، فالأول ذكر أن القسمين يتعاونان إذا اجتمعا ، ومثل لهما بضوء النار يقوى البصر في الظلمة ، وذكر الآخر أنهما إذا افترقا لم يفن المكتسب شيئا ، ومثل بنور الشمس لمن لا يبصر ، فقد اختلفا في أجزاء المعنى ، والأول بين حالة اجتماع العقلين ، والآخر بين حالة افتراقهما ، والحالة التي ذكرها العتي أقرب إلى الواقع ، وآلف عند الناس ، فإنهم يبتغون دائما تقوية العقل الموهوب بما يكتسب من تجارب ويستفاد من علم ، ولا يطعم أحد أن يفيد غير العاقل بالتعلم شيئا» فإذا ناقشنا هذا الرأي لنبين ضعفه قلنا :

١ - كان الشاعر أقدر من ناحية التأليف والصياغة من الكاتب ، فقد أوجز دون إخلال بالمعنى في حين أورد الأول في عبارته ما يمكن أن يسمى حشوا ؛ إذ يقول : «عقل تفرد الله بصنعه» كأن هناك عقلا اشترك فيه مع الله سواء ، هذا إلى أن القرع جزء من الأصل وليس قسيا له كما يقول .

٢ - عندى أن تكرار مصنوع ومطبوع فوق أنه أكسب البيت جرسا جميلا ، وموسيقا عذبة ، ومطابقة مستساغة فيه معنى التوكيد ، وإذن فليس من التكرار المريب .

٣ - تشبيه الشاعر أدق وأظهر في بيان فضل العقل المطبوع على المصنوع ، على أن الأول وقع في خطأ فكري ، فالنار لا تزيد قوة البصر ، وإنما تخفف شدة الحسكة ، وتدفع إصراف الظلام .

٤ - كلمة مصنوع أفضل من مكتسب التي يطلبها صاحب الرأي الأول ؛ أفضل ليطابق بها كلمة مطبوع ، على أنها من ألفاظ الأدب والشعر ، فيقال : شاعر مطبوع ، وشاعر مصنوع .

٥ - هذا إلى أن ألفاظ الشعر أقل من كلمات النثر ، وإلى أن لموسيقا الشعر رنيننا يسمع الأذن رنين الجمال .

أسباب رجاحة الشعر للنثر :

وبعد فليس كل شعر خيرا من كل نثر ، بل لابد من اجتماع عدة عوامل مرجحة للشعر فوق الخيال والوزن ، فأوجه الموازنة كثيرة متنوعة منها : الأسلوب ، ومطابقة الكلام للواقع ، واثتلاف الألفاظ واتساقها ، ومناسبتها للموضوع ، والإقلال من الزخارف بجميع أنواعها ، فإنها قد تحجب المعنى ، أو تسيء إلى الفكرة ؛ فالجمال في المفاضلة فسيح ، وعناصر الموازنة كثيرة .

نثر يفضل الشعر :

من النثر الذى يفضل الشعر تلك الحكمة الجاهلية : « المرء بأصغريه » وأكتفى بهذا الجزء منها ، فهي أفضل من قول الشاعر :

٢٩ : لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم
أما أوجه التفضيل فكثيرة منها : الإيجاز ، فالحكمة كلمتان ، والشطر الأول من البيت ، - وهو فى الحق موطن المفاضلة - خمس كلمات ، والحكمة أكثر صدقا ؛ لأن المرء يظهر علمه أو جهله ، وحلمه أو حقه بأصغريه ، وإن لم يكونا نصفيه ، ولتلك الكناية اللطيفة الدالة على علم بأعضاء الإنسان ، فأصغر الأعضاء القلب واللسان ، ولعدم التكرار كما نرى فى الشطر إذ كرر كلمة « نصف » وكدقة كلمة المرء ؛ لأنها أشمل من كلمة الفتى ، ولعدم الغلو فى المبالغة التى زادها الشاعر بروزا بشطره الأخير .

الفصل الثالث

في تقسيم الشعر

أقسام الشعر عند الإفرنج :

يقسم الإفرنج الشعر إلى ثلاثة أقسام : الشعر القصصى والتمثيلي والغنائى ، والقصصى كان في غالب أمره دينيا ، يتعلق بالآلهة وأنصاف الآلهة ، وما قدموا لبني الإنسان من أياد وصنائع ، وما حكموا لبعضهم على بعض من ظفر وانتصار ، وما أصاب غير هؤلاء من ويلات وهزائم ، ثم أثر هذه الأحكام في حياة الناس ، كما نرى في الإلياذة والأوديسة المنسوبتين إلى هوميروس الشاعر اليونانى .

ولم يكن الشعر القصصى مستقيم الأوزان دائما ، بل قد يستعصى الوزن على الشاعر فلا يابه له ، وإنما الواجب الختم هو أن يظهر فيه أثر الخيال ، فإن الشاعر وإن لم يكن في ملحمة معبرا عن أحاسيسه ، ناطقا بما يختلج به قلبه ، وتضطرم فيه عواطفه ، فإنه معبر عن إحساسات الناس ، ناطق بما تختلج به قلوبهم ، وتضطرم فيه عواطفهم ، فعليه أن يتصور كل هذا ، ويصوره لقاريه أو سامعيه كأنه حقيقة واقعة ، فعبثه لذلك ثقيل ، وفي مثله تظهر البراعة الفنية ، فليس كل شاعر بمستطيع تخيل ما تجول به خواطر الناس وأوهامهم ، ولا بمقتدر على تصور ما تصوره لهم نفوسهم من آمان وآمال .

الشعر التمثيلي :

أما الشعر التمثيلي فيخالف القصصى من وجوه ، فهو يؤثر في القلوب من نواح : ناحية السمع حينما ينطق الممثل به ، وناحية البصر حينما يرى الممثل أمامه يعبر عما يريد التعبير عنه ، لا بلسانه فحسب ، بل بحواسه الأخرى وبأعضاء من جسمه إذا استدعى التمثيل ذلك ، ثم

ناحية التصوير الدقيق الذى يحاول به أن ينسى جمهرة الرائيين والسامعين أنه أمام تمثيل ، ثم تصوير الجولمهي* لتخييل التمثيل حقيقة لا ريب فيها .

والشعر التمثيلي قوامه الفننى هو الشعر القصصى الدينى ، فنه نشأ ، وعليه اعتمد ، ثم أخذ يخطو نحو الكمال ، ويستقل عن أصله الذى منه نشأ وعليه اعتمد ؛ حتى بلغ الغاية ، فصار ذا أساسين : الشعر القصصى والغنائى ، ثم تطور بعدئذ من الشعر إلى النثر ، ومن الخيال إلى الحقيقة ، ومن الغرض الدينى إلى أغراض أخر .

اعتمد التمثيل على النثر ؛ لأن هذا أداة طيعة سهلة للتمثيل والحوار ، فالحوار بالنثر أسير من الحوار بالشعر ، والتمثيل أغلب أمره حوار ومحادثة ، والأغراض الأخر التى عناها التمثيل سواء أ كانت أغراضا اجتماعية أم سياسية أم فكاهية لا يغنى فيها الشعر القائم على الخيال ؟ وإنما يجدى فيها النثر المعتمد على الفكرة السديدة والرأى الرشيد .

الشعر الغنائى :

أما الشعر الغنائى فهو الشعر الذاتى ، المعبر عن عواطف قائله ، والمصور لمشاعره ، وقد سمي بهذا الاسم لأن قائله كانوا يتغنون به فى جميع الأمم ، وبجميع فنونه ، فهو ينغمه راثيا ، ويشدو به مفتخرا ، ويرجعه ناسبا ، كما كان ذلك شأن الشعر القصصى فى أول عهده .

أقسام الشعر الغنائى :

كل شعر ذاتى فهو من الغنائى ، فالشاعر الذى يأخذه جمال الزهرة أو عطرها ، أو تكوينها ، فيصفها ، كان هذا الوصف صادرا عن ذاته ، والشاعر الذى يستثيره إنسان ، فيتحمس ويفخر عليه ، وبعد مناقبه . . . كان هذا الفخر صادرا عن ذاته ، وهكذا يقال عن جميع الأغراض المعروفة فى الشعر العربى القديم : كالغزل والثناء والهجاء والمدح والحكمة .

العرب وتقسيم الشعر عند الفَرَجَانِي :

يقول الباحثون في الآداب العربية : إن العرب لم يكن لهم حظ من الشعر القصصى والتمثيلي ، ويكادون يتفقون على هذا الرأي ، وإن اختلفوا في أوجه الاتفاق ، ومن تردد منهم اعتبر بعض مقطوعات الفخر التصويرى من الشعر القصصى كملقة عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة من الشعر القصصى القصير ، ولنا في هذا الحكم نقاش طويل ترجو منه أن نزعزعه أسسه ، ونزلزل أركانه ، فينقض أولئك الباحثون حكمهم الذى أبرموه ، وليس يعنينا أن ننسب إلى العرب فناً لم يطرقيه ، أو أن ندعى لهم أدباً لم يتناولوه ، ولكنه الرأي نفتن به ، فندافع عنه .

قول مؤرخى الأدب عن الشعر اليونانى :

يقولون : إن الشعر اليونانى القديم كان في أول أمره متصوراً على القصص القصير ، ثم ضم هذا القصص بعضه إلى بعض بعد أن خطت الأمة اليونانية في الحضارة خطوات ، وصعدت في سلم المدنية درجات ، واستطاع من قام بهذا الجمع والضم أن ينظر فيه ؛ ليجعل منه وحدة متماسكة الحلقات ؛ لأنه لا يمكن روايته وهو آلاف الأبيات إلا إذا تماسك بعضه مع بعض ، واثقلت حوادثه تمام الائتلاف .

الكتابة والشعر القصصى :

وما لاشك فيه أن الكتابة - وإن تكن قد عرفت - لم يكن قد يسر أمرها ، وسهلت وسائلها ، وهان على الناس استخدامها في تسجيل هذه القصص الطويلة . وعلى هذا فالإلياذة والأوديسة لم تظهر في ثوبهما الفضفاض الضافى إلا بعد أن نالت الأمة اليونانية من الحضارة والمدنية حظاً أقدرها على أن تحافظ على هذا التراث الجيد تلك الأجيال الطويلة من حقب التاريخ الأولى .

وما يقال عن الإلياذة والأوديسة يقال عن المهابهاراتا والرامايانا الهنديتين ، وعن سنوحى والبحار الفریق المصريتين ، وعن غير هذه وتلك من قصص الأولين .

لماذا لم يكن للعرب شعر قصصى ؟

وبعد هذا أليس من حقنا أن نسأل ؟ لماذا لم يكن للعرب شعر قصصى ، وقد آمن الجميع بأنهم ذوو فطرة أدبية سليمة ، وذوق فنى قويم ، وأنهم يُسامون اليونانيين فى تلك الفطرة ، وفى ذلك الذوق ؟ أليس الشعر القصصى ينبع من النبعة التى ينبع منها الشعر الفنائى ؟ ولا يغير هذا الحكم اختلاف الزمان والمكان ، ثم أليس معقولا أن الشعر القصصى - ودافعا للدين والحرب ، ولكليهما عند العرب المكانة التى هى لهما عند غيرهم إن لم تفقها - قد ظهر قصصا قصيرا عند العرب ، ثم ضم بعضه إلى بعض ، أو لم يتح له من يفكر فى ضمه حتى طواه الزمان فيما طوى من أخبار وآثار ؟ أما أنا فأقول : بلى . لقد كان لهم شعر قصصى لما مضى ولما يلى .

أولتنا على أنه العرب كان لهم شعر قصصى :

١ - اهتمدى العلماء المنقبون من الأوربيين عن أطلال الدولة السبئية فى اليمن إلى بعض الآثار ، وذكروا أن دولة سبأ بدأت فى نحو القرن الثامن قبل الميلاد (أى حين ظهور هوميروس) وأن أسماء ملوكهم التى سجلوها على آثارهم قد بلغت أكثر من ثلاثين ملكا .

٢ - من المؤرخين من ذكر أن سيل العرم الذى اجتاحت هذا الملك الطويل العريض : الطويل فى أمده ، العريض فى سلطانه كان قبل ميلاد المسيح عليه السلام بنحو قرن من الزمان .

٣ - تحدث المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » كما تحدث غيره من ثقات المؤرخين « أن أرض سبأ كانت من أخصب أرض اليمن وأثراها وأغدقها ، وأكثرها جنانا وغياضا ، وأفسحها مروجاً مع بنيان حسن وشجر مصفوف ، ومساكب للماء متكاثفة ، وأنهار وأزهار متفرقة ، وكانت مسيرة أكثر من شهر للراكب المجد على هذه الحالة ، وفى العرض مثل ذلك .

وأن الراكب والماركان يسير في تلك البلاد من أولها إلى أن ينتهي إلى آخرها لا تواجهه الشمس ولا تعارضه ، لاستئثار الأرض بالعمارة الشجرية ، واستيلائها عليها ، وإحاطتها بها ، وكان أهلها في أطيب عيش وأرفه حال ، وأرغد قرى ، وفي نهاية الخصب وطيب الهواء ، وصفاء الفضاء ، وتدفق الماء ، وقوة الشوكة ، واجتماع الكلمة ، ونهاية المملكة ، وكانت بلادهم في الأرض مثلاً ، وكانوا على صفة حسنة من اتباع شرف الأخلاق ، وطلاب الإفضال على القاصد ، والسفر بحسب المكان ، وما توجيه القدرة من الحال ، فكثروا على ذلك ماشاء الله من الأعصار ، لا يعاندهم ملك إلا قصموه ، ولا يوافيهم جبار في جيش إلا كسروه ، فذلت لهم البلاد ، فصاروا تاج الأرض »

ثم هو يروى بعد ذلك شعرا ينسبه إلى ملك سبأ عندما أغرقهم سيل العرم ، ويزعم أن اسمه الملك الشاعر عمرو بن عامر ، وهذا الشعر جزء من أسطورة زعموها هي أن الجرذ سُلط عليهم فقلب برجليه صخرة لا يقلبها خمسون رجلا ، فنقب بفعله هذا السد الذي كان نقبه سبب غرقهم ، فقال :

أبصرت أمرا عادلى منه ألم وهاج لى من هوله برج السقم

من جرذ كفحل خنزير الأجم أو تيس صرم من أفاويق الغم^(١)

يسحب صخرا من جلاميد العرم له مخالب وأنياب قضم

٣٣ : مافاتة سحلا^(٢) من الصخر قضم كأنه يرعى حصيراً من سلم

ومع يقيننا بأن هذا الشعر مخترع مع هذه الأسطورة ؛ إذ لم تكن لغة قوم سبأ هي لغة قریش ، ولم يكن سبب انفجار السد جرذا كما تزعم الأسطورة ، فإنها تبين لنا أن ذلك الخيال الساذج الذى تخيل الأسطورة وشعرها يعترف بأن الأمة العربية القديمة كان لها شعر ، وكان بعض هذا الشعر قصصياً ، وكان من بحر الرجز أيسر بحور الشعر نظماً ، وأسهلها على الشعراء قافية .

(١) الصرم : الجماعة ، والأفاويق : الحيار . (٢) سحلا : نحتا .

وليس طعننا في هذه القصة بدافع سوانا إلى أن يطعن في وصف بلاد اليمن اعتمادا على أن مصدرها واحد ، فحاضرة اليمن تحدث عنها غير المسعودي من مؤرخي العرب ، بل تحدث عنها غير مؤرخي العرب .

٤ — فقد قيل إن الدولة التي قامت باليمن نالت من بسطة الحياة ونغمة المدنية حداً أدى بمعاصريهم من اليونانيين إلى أن يسموا هذه البلاد ببلاد العرب السعيدة ، وناهيك بمن بلغ من المعرفة الهندسية حداً يستطيع به أن يرسم سد مأرب ، وأن يشيد بناءه ، وهو بعد من أعظم ما أقامه البشر .

وقصور اليمن التي تتحدث عنها كتب التاريخ تنطق بعلمهم الواسع ، وفنهم الزاخر ، فمن قصورها قصر غمدان الذي قيل عنه : « إنه كان مربعا : أحد أركانه مبنى بالرخام الأبيض ، والثاني بالرخام الأصفر ، والثالث بالرخام الأخضر ، والرابع بالرخام الأحمر ، وفيه سبعة سقوف طباقا ، ما بين السقف والآخر خمسون ذراعا ، وعلى كل ركن تمثال أسد من نحاس ، إذا هبت الريح دخلت من دبره وخرجت من فمه ، فيسمع له صوت يشبه زئير الأسد » .

وإذا كان في وصف القصر مبالغة ، فإنها تؤيد رأينا ؛ لأن المبالغة دليل على إيمان المؤرخين بحضارتهم العظيمة ، وأنهم بلغوا منها الحد الذي يقدرّون معه على إتيان أمثال تلك العجائب .

الدولة اليمنية والدولة المحورية :

٥ — ما قيل عن دولة اليمن يمكن أن يقال مثله عن الدولة المحورية التي بهرت العالم بحضارتها ، والتي تحدث المؤرخون عنها « بأنها أول دولة أنشأت الشرائع ، وجعلتها أساس معاملة أفرادها بعضهم مع بعض ، وليس كونها دولة تشريع بمانع أن تكون دولة فنّ ، فقد كانت الدولة الرومانية دولة تشريع وفنون معا ، وإذن فلماذا نحرمها حق الشاعرية في ذلك الزمن السحيق ؟ .

رأى الأستاذ جرجى زيدان :

٦ — يرى العالم الباحث جرجى زيدان « أن الشعر عند الساميين أقدم آدابهم لكن أكثره كان غنائيا ، وليس فيه من الشعر القصصى إلا تنف قليلة ، أما التمثيل فيظهر لأول وهلة أنه بعيد عن آداب العرب » .

وسنرى أنه موجود فيها على صورة ساذجة تشبه إلى حد كبير الصورة التى نشأ بها الشعر التمثيلي عند اليونان ، وإن لم يسمه العرب بهذا الاسم ، ولم يمثله غير قائله ، ثم يقول : « ومما يعد من قبيل آداب العرب فى ذلك العصر سفر أيوب ، والمرجح عند أهل التحقيق أن صاحب هذا السفر فى التوراة عربى الأصل نظم ذلك الكتاب شعرا عربيا فى نحو القرن العشرين قبل الميلاد على أثر نزوح الجورانيين من بين النهرين ، ثم ترجم إلى العبرانية ، وعد من الأسفار المقدسة ، وضاع أصله العربى ، كما ضاع أصل كلية ودمنة الفارسية ، فإذا ثبتت عربية سفر أيوب كان العرب أسبق الأمم إلى قرص الشعر ؛ لأنه نظم قبل إلياذة هوميروس بألف سنة ، ومهابها راتا الهند بعدة قرون » .

خلاصة المقال فى الشعر القصصى والتمثيلي :

وبعد ، فإننا وقد بينا أن عوامل الشعر القصصى كانت متوافرة عند العرب فى عصورهم السحيقة ، فلماذا لا نؤمن بوجوده ؟ بل لماذا ننكر — دون سند — وجود الشعر التمثيلي ، وقد كان أول ما عرف أسوياء ؟

إن هذه المدنية التى وصفنا بعض مظاهرها ، وعرضنا بعض آثارها لا بد أن يكون قد تبعها تقدم عظيم فى الفنون ، ومن بينها الشعر ؛ فالمعقول أن يصفوا حروبهم ، ويصوروا انتصاراتهم ، ويمثلوا أبطالهم ، ويرسموا أعمالهم بالشعر القصصى والتمثيلي والغنائى ، وليس من الختم اللازم أن يكون شعر جميع الأمم متحد الصورة متماثل اللون ، فإنه حتى الآن ليس متحد الصورة ، ولا متماثل اللون ، ولا جاريا على نمط مستقيم لا عوج فيه ، ولو أننا

قلنا غير هذا لجاز لنا أن نقول : إن الله خلق العالم كله ذا لون واحد ، ولسان واحد ، وعقل واحد ، وشعور واحد ، وليس شيء من ذلك حادثاً .

مناقشة رأى ابن الأثير في أقدمية الشعر العربي :

قلنا : إن المعقول أن العرب كان لهم شعر متنوع فيه القصصى والمثبلى والغنائى ، وأن هذا الشعر بأنواعه الثلاثة قد طواه الزمان فيما طوى ، وعفته الأيام فيما عفت ، ودع عنك رأى ابن الأثير فى المثل السائر ، إذ يقول : « والذى نقلته الأخبار وتواردت عليه أن العرب كانت تنظم المقاطيع من الأبيات فيما يعن لها من الحاجات ، ولم تزل الحال على هذه الصورة إلى عهد امرئ القيس ، وهو قبل الإسلام بمائة سنة زائداً لا ناقصاً ، فقصده القصائد . . . » فإن ابن الأثير بقوله هذا إنما يقصد الشعر المنظوم بلغة عدنان ، ومع ذلك فإنه من غير المعقول أن يكون الشعر قد ولد كاملاً فى معانيه وفى أسلوبه وفى أوزانه ، فطبيعة الأشياء أن تنشأ ناقصة ، وتقوّم شيئاً فشيئاً حتى تبلغ درجة أدنى إلى السكّال .

وها نحن أولاء نرى أن بدء القصائد ببياء الديار مثلاً تتابع عليه الشعراء جيلاً بعد جيل ، وعصر بعد عصر ، فكيف أمكن ذلك التغيير الشامل فى الشعر من المقاطيع إلى القصائد فى عهد شاعر واحد ، وفى جيل واحد ، مع أن هذا لا بد أن يستلزم تغييراً فى المعانى بالزيادة أو بالنقص ، وتفتقراً للأفكار ، وتنوعاً فى الخيال ، كما يستلزم حتماً تغييراً فى الأسلوب ليجارى تلك المعانى ؟

الشعر المحورابى والبنى كانه بغير اللغة العدرانية :

ولا ريب أن الشعر المحورابى ، والبنى كان بغير لغة عدنان ، كان بلغتين تخالفان فى أصولهما وقواعدهما اللغة العدرانية مخالفة لا بد أن تكون عظيمة ، حتى ليصعب على القارى فهمها ، وهاك ما يؤيد ما نقول نقلاً عن كتاب تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان ، قال :

« قس مقدار الفرق بين لغة مضر ولغة عمالقة العراق بالفرق الذى وجدوه بين لغة عرب الشام فى أوائل القرن الرابع للميلاد بما قرءوه على قبر امرى^١ القيس بن عمرو ملك الحيرة ، وبين لغة مضر عند ظهور الإسلام ، وذلك أنهم عثروا فى أطلال البصرة فى حوران على حجر عليه كتابة عربية بالخط النبطى نقشت فى أوائل القرن الرابع للميلاد ، أى قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون . »

ثم أورد المؤلف صورة الكتابة ، وقال :

« وإليك نصها كما تقرأ ، كل سطر على حدة :

١ - فى نفس امر القيس بن عمرو ملك انعرب كله ذو أسر التاج .

٢ - وملك الأسدين ونزار وملوكهم وهرب مذحجو عكدى وجاء .

٣ - يزجود ؟ فى جيح نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه .

٤ - الشعوب ووكله لفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه .

٥ - عكدى هلك سنة ٢٢٣ يوم ١٧ بكسلول بلسعد ذو ولده .

ثم يقول : « هذا لسان عربى تشوبه صبغة آرامية يحتاج تفهمها إلى إيضاح ، وهاك تفسير هذه الكتابة باللغة العربية الفصحى ، وهو :

١ - هذا قبر امرى^١ القيس بن عمرو ملك العرب كله الذى تقلد التاج .

٢ - وأخضع قبيلتى أسد ونزار وملوكهم ، وهزم مذحج إلى اليوم وقاد .

٣ - الظفر إلى أسوار نجران مدينة شمر ، وأخضع معدا ، واستعمل بنيه .

٤ - على القبائل وأنابهم عنه لدى الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه .

٥ - إلى اليوم توفى سنة ٢٢٣ فى يوم ١٧ أيلول (سبتمبر) وفق بنوه السعادة .

ثم يقول : « انظر إلى الفرق بين الأصل وتفسيره ، والمدة بين هذين العصرين ثلاثة قرون ، فكيف تكون بينهما بضعة وعشرون قرناً » .

عود إلى رأى ابن الأثير :

ذلك الرأى الذى يقول به ابن الأثير هو رأى أئمة الأدب القدماء ، وقد عللناه وأظهرنا

أن أساسه الذى بنى عليه هو مارووه من الشعر ، ولكنهم لم يعملوا فكريا ، ولا أجالوا نظرا فيما بعد من عصور التاريخ ، ولو قد فكروا لما وصموا الأمة العربية بموت العواطف ، ونضوب القرائح تلك الأحقاب الطويلة .

لو قد فكروا لعرفوا أن امرأ القيس وخاله عدى بن ربيعة الذى قالوا عنه : إنه جاهل الشعر وغيرها ممن جاء قبلهم وجدوا شعرا كامل العناصر تام الأجزاء فसारوا على النهج الذى وجدوه ، وفتحوا من العين التى عرفوها ، إذ من المحال أن يولد الطفل رجلا ، وأن يظهر الناقص كاملا .

لو نظروا لرأوا امرأ القيس نفسه يقول :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن خدام
ولا نجد بين أيدينا من كتب الأدب واللغة عن ابن خدام هذا الذى يتخذة أمير الشعراء فى العصر الجاهلى قدوة يقتدى بها ، وقبسا يقبس من معانيه ما ينفع غلة أو يبل صدق كل ما قيل عنه : إنه رجل جاهلى كان يقول الشعر ، وهذا هو مفهوم البيت لا غير ، أما ماذا قال من شعر ؟ وفى أى زمان ومكان قاله ؟ فلا نجد شيئا .

لوتأمل القدماء فى النزول اليسير الذى وصل إلينا من شعر العصر الجاهلى لرأوا هؤلاء الشعراء يصفون أنفسهم بالقصور ، ويعترفون فى شعرهم بأنهم ينهلون من مناهل استنبطها لهم أسلافهم ، ويردون موارد هدايم إليها أجدادهم ، فزهير بن أبى سلمى يقول :

٣٥ : ما أرانا نقول إلا معارا أو معادا من لفظنا مكرورا

إنه ينسب إلى نفسه - وهو من هو صفاء قريض وسناء معان - ينسب إلى نفسه وإلى غيره الاستعارة والاستعادة والتكرار مما قاله القدماء ، ولما قالوه دون أن يحذ من مدى الاستعارة والاستعادة والتكرار مما يدل على أنه يريد بها جامعة شاملة جميع ما يمكن أن يجمع .

وهذا شاعر آخر يقرر أن الأول لم يترك للآخر شيئا ، وينفى فى صيغة الاستفهام أن يكون الشعراء السابقون تركوا معنى لم يتركوه ، أو متردما من الشعر لم يصلحوه ، فيقول غنتره :

هل غادر الشعراء من متردّم أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟
ومن أولئك الذين يقررون ويؤكدون أنهم مقتبسون ومستعيرون ، ومستعيدون ومكثرون
ومقلدون ؟ إنهم ثلاثة من أصحاب الملققات ، ومن زعماء الشعر في العصر الجاهلي ، وهم
لا يرون في ذلك غضا من عليا بهم ، ولا توهنيا لكبريائهم .

الشعر العربي المفقود كله بلسان قحطان :

وإذن فإن لنا أن نحكم بأن للعرب المتوغلين في الدهر شعرا لم يصلنا منه شيء كان
بلسان قحطان ، لم يصلنا لأنه اندثر فيا اندثر من آثار ، وبأن هذا الشعر لم يكن غنائيا
خالصا ، وإنما هو مزيج من الغنائي والقصصي والتمثيلي ، ولكنه ساذج لم يتم بناؤه ، ولم
تستحصد أجزأؤه ، فلم يوصف بأنه قصصي أو تمثيلي .

الحوار هو الشعر التمثيلي :

إن تلك المحاورات التي تروى عن امرئ القيس وعبيد بن الأبرص ، وعنه وعن
التوهم اليشكري - مع أننا نظن أنها موضوعة - تصلح لأن تعطينا صورة للحوار الذي يمكن
أن يعتمد عليه المسرح .

وها هو ذا الحوار الذي زعم أنه دار بين امرئ القيس والتوهم :

قيل إن امرأ القيس نازع التوهم اليشكري جد قتادة بن الحارث ، فقال : إن كنت
شاعرا فأجز ما أقول : فقال التوهم : قل ما شئت ، فقال امرؤ القيس :

امرؤ القيس : أصاح ترى بريقا هب وهنا .^(١)

فقال التوهم : كنار مجوس تستعراستعارا .

فقال امرؤ القيس : أرقى له ونام أبو شريح .

٣٨ : فقال التوهم : إذا ما قلت قد هدا استطارا .^(٢)

(١) البريق : تصغير برق ، والتصغير هنا للتعظيم ، ووهنا : منتصف الليل .

(٢) استطار : انتشر .

فقال امرؤ القيس : كأن هزيره بوراء غيب .

فقال التوهم : عشار وُلّه لاقت عشارا .

فقال امرؤ القيس : فلما أن علا كنفى أضاح^(١) .

فقال التوهم : وهت أعجاز ريقه فخارا .

فقال امرؤ القيس : فلم يترك بذات السر ظبيا .

٤١ : فقال التوهم : ولم يترك بجلهتها حمارا .

فلما رأى امرؤ القيس أن التوهم قد ماتته ، ولم يكن في الزمن الأول شاعر يماتته آلى

ألا ينازع الشعر أحدا بعده .

أُعيب العرب أن يكون لهم شعر فصصى وتمثيلي ؟

وبعد فبههم لم يقولوا شعرا قصصيا ولا تمثيليا فإن ذلك لا يهن من براعتهم ، ولا يغض من فنهم ، إذ لا يعيبهم أن يعرضوا عن منهل لم يستعذبوه ، أو ألا يردوا موردا لم يعرفوه ، ولو أرادوه لعرفوه ، فليس الشعر المسرحى بمعجز من كان له طبع سليم ، وخيال فسيح ، وكانا متوافرين عند العرب .

وقد يكون من أسباب انحرافهم عنه — إن كانوا قد انحرفوا — أو عدم اتجاههم إليه إن سلمنا بأنهم لم يتجهوا — أنهم كانوا ذوى بديهة وارتجال ، لأنهم — كما يرميهم بعض المتعنتين — ضيقو المجال ، مقفرو الخيال ، فشعرهم الغنائى يشعرنا بغير ذلك ، فقد منحتهم طبيعتهم عناصر الإبداع ، ووهبت لهم يفتهم أسباب تفرع القول .

(١) إحدى قرى النجامة لبني نعيم .

الشعر الغنائى

انبعاث الشعر الغنائى :

ينبعث الشعر الغنائى عن عاطفة صادقة ، ويتدفق من وجدان سليم ؛ إذ هو يصور ما يحيش بخاطر الشاعر دون غيره ، ويرسم ما يخالط مشاعره لا مشاعر سواه ، فهو أقرب ما يكون موطناً من الغناء ، وأدنى ما يكون صلة به ، فالعربى الذى يحدو إبله ، والراعى الذى يرعى غنمه ، والحبيب الذى يناجى حبيبته ، والعاشق الذى يساهر النجوم ، والمحارب الذى يصلو فى حومة الوغى ، والمكلم الذى يشكو الجوى ويرسل الأسى ، وغير أولئك وهؤلاء ممن تحفزهم إلى إنشاء القريض دوافعه تتفتح صدورهم لإنشاده ، وتطرب آذانهم لتلحينه ، فإذا الشاعر مغن ، وإذا المغنى شاعر .

الشعر القصصى والتمثيلى لبنا صالحين للفناء وأما :

أما القسمان الآخران : القصصى والتمثيلى فلا يصلحان فى جميع الأحوال للفناء ، إذ ليست جميع المواقف والمشاهد تستأهل التلحين ، وحتى إن كانا صالحين ، فإنهما يصدران عن باعث ليس قويا قوة انبعاث الشعر الغنائى ، هذا إلى أنهما أقرب إلى الدين والأخلاق منهما إلى الآداب والفنون ، وهما يحتاجان إلى التروية والتأمل ، وهذا مالم يكن يحتمله العربى الجاهلى القريب العهد بالإسلام ، فحياته البدوية البحت لانتلائم هذه القيود ، وطبيعة النفور من الأمر لا تتحمل هذه الأصفاة ؛ تلك التى تقف دون انطلاق لسانه بما يشاء ويريد ، لا بما يراى منه .

الشعر القصصى والتمثيلى يحتاجانه إلى تدوين :

ثم إن الشعر القصصى والتمثيلى يحتاج كلاهما إلى تدوين وتسجيل حتى يقتدر ناظمه على تتبع ما نظم ، والعودة إلى مراجعة ما قرأ ؛ لتفسير اللحمة أو التمثيلية على نمط متسق ،

ونظام متصل، وهذا هو ما صرف الشاعر في العصر الجاهلي الحديث عن هذين الفنيين، لا ما زرعه بعض رجال الأدب من أنه ضيق الأفق، أو قيد القافية، فليس العربي الذي يعيش بين الصحراء والسماء - لا يجلب هذه الآفاق عنه حجاب - ولا يعترض النظر في كائنتهما حائل - بالذي يقال عنه إنه ضيق الأفق، وأما القافية فهو مخترعها، ولو رأى أنها ستصده عن طريق يريده لحاد عنها، وإذا كان الرجز أول ماقال من الشعر وقد ألزم فيه بناء البيت على الشطر الواحد، فالقافية ملتزمة في كل شطر، ثم توسع في استعمالها؛ إذا كان الأمر كذلك، فإنه يتحول عنها إلى ما ييسر عليه النظم، فهو مطلق الحرية في ذلك الخين، وهو الخالق للأسس والقواعد.

ومع هذا فبحر الرجز يبيح له ما لا يباح في بحر سواه، ومسهولة النظم به تتيح للشاعر القدرة على الإطالة، وهذه أرجوزة أبي العتاهية الشاعر العباسي توشك أن تكون ملحمة، مع أنها في الحكمة، والحكمة أضيق معاني من الملاحم. وها هو ذا أحمد شوقي بك استطاع أن ينظم القصة القصيرة، والتمثيلية الجميلة دون أن يقف في سبيل نظم قيد البحر أو القافية.

أول منه فسر في تقسيم الشعر الغنائي :

أول من فكر في تقسيم الشعر الغنائي عند العرب تقسيما فيه دقة نظر، واستقصاء أغراض هو الشاعر العباسي هو أبو تمام الطائي، فقد اختار من شعر الشعراء المجيدين في الجاهلية وصدر الإسلام، والعصر الأموي وصدر العباسي أجود ما قاله أولئك الشعراء، وسمى كتابه : « ديوان الحماسة »، ووهب لهذا الغرض ثلث كتابه.

وإذا كان لنا ما نأخذه عليه فهو أنه آثر المقطوعات القصيرة على المقطوعات الطويلة والقصائد الكاملة، وكأنه أراد بذلك أن يعرض علينا من شعر الفحول أكثر ما يمكن أن يجمع في كتاب؛ فيكتفي بالبيتين أو الأبيات دليلا على جمال الشعر وروعته، وعلى قدرة

الشاعر وبراعته ، مثله كمثل البستاني ينسق الطاقة ، فيقطف من كل نوع زهرة ، ليظهر غنى بستانه بأزاهيره .

تقسيم أبي تمام ورأبنا فيه :

وقد قسم ما اختاره إلى عشرة أقسام : الحماسة والمرائي ، والأدب والنسيب ، والهجاء والأضياف والمديح ، والصفات والسير ، والملح ومذمة النساء .

ومن عجب أن أبا تمام غض من قدر الوصف مع أنه كان من البارعين فيه ؛ إلا إذا أبحنا لأنفسنا ألا تنقيد بالتسمية التي سماها لأقسامه ، وأورد تحتها الأبيات التي اختارها . على أنه أورد في باب الصفات سبعة عشر بيتا ليس فيها بيت لشاعر من شعراء الوصف المجيدين ، فهي للبعيث الحنفي ، ولعنتر بن الأخرس ، ولملحة الجرمي ، وهذه أبياته يصف فيها السحاب :

- | | |
|--------------------------------------|--|
| أرقت وطال الليل للبارق الومض | حييا سرى مجتأب أرض إلى أرض ^(١) |
| نشاوى من الإدلاج كدرى مزنه | يُقَصَّى بمجدب الأرض مالم يكذب يقضى ^(٢) |
| تحن بأجــــــــــــواز الفضاء قطراته | كما حَنَّ نيب بعضهن إلى بعض ^(٣) |
| كأن الشماريح العلام من صبيره | شماريح من لبنان بالطول والعرض ^(٤) |
| يبارى الرياح الحضرميات مزنه | بمنهمر الأوراق ذى قرع رفض ^(٥) |
| يفادر محض الماء ذو هو محضه | على إثره إن كان للماء من محض ^(٦) |
| يروى العروق الهامدات من البلى | من العرفج النجدى ذو باد والخص ^(٧) |

- (١) حييا : سحابا معترضا الأفق . (٢) الإدلاج : سير أول الليل . كدرى : فى لونه كدرة وسواد . (٣) الأجواز : الأوساط . قطراته : نواحيه . النيب : الإبل المسنة . (٤) الشماريح : أعلى الجبال ، واستعارها للسحاب . الصير : السحاب فيه سواد وبياض . (٥) الحضرميات : الهابة من حضرموت . الأوراق : جمع روق المياه الصافية . القرع : قطع السحاب . الرفض : الإبل تترك فى المرعى ، ويريد متفرقا . (٦) ذو : بمعنى الذى . (٧) العرفج : اسم نبات . ذوباد : الذى هلك . الخص : المرمن النبات

وبات الحبي الجون ينهض مقدما كنهض المدائن قيده الموعث النقص^(١)
وهي أبيات باللغة الإحسان في وصف السحاب ، والقطعتان الأخريان إحداهما في وصف
الناقة ، والأخرى في وصف الثعبان .

إذا لم تنقيد بهذه التسمية وجدنا في جميع الأبواب قطعاً تصلح لأن تكون في باب
الصفات ، كآيات أمية بن أبي الصلت التي يصف فيها شأنه وولده إذ يقول :

غذوتك مولوداً وعلتك يافعا	تعل بما أدنى إليك وتنهل
إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت	لشكوك إلا ساهرا أتمل
كأنى أنا المطروق دونك بالذى	طرقت به دونى ، وعينى تهمل
تخاف الردى نفسى عليك ، وإبنى	لأعلم أن الموت حتم مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التي	إليها مدى ما كنت فيه أوئل
جملت جزائى منك جبها وغلظة	كانك أنت المنعم المتفضل

إلى آخر هذه القطعة التي في أبياتها الكثير مما يدخل في الوصف الحكيم وتندرج تحته ،
بما تنتظمه من صور كاملة ، ومعان سامية ، وكقول الأخنس التغلبى الجاهلى في الأطلال
والناقة والسيف :

فمن يك أمسى في بلادٍ مقامة	يسائل أطلالا بها لا تجاوب
فلاينة حطان بن قيس منازل	كما تمق العنوان في الرق كاتب
تمشى بها حَوْلُ النعام كأنها	إماء تزجى بالعشى حواطب ^(٢)
وقفت بها أبكى وأشعر سخنة	كما اعتاد محموماً بخير صالِب ^(٣)

(١) الجون : السحاب الأسود أو الأبيض ، والأول هو المراد . المدائن : المقارب الخطأ .
الموعث : السائر في الأرض اللينة . النقص : المهزول الضعيف .

(٢) إماء : جمع أمة البنت الرقيقة . تزجى : تساق سوقا لنا . حواطب : ضالة تخبط
خبط عشواء ، أو جامعات الحطب . (٣) أشعر : ألبس الشعار ، وهو الثوب بلى الجسد .
سخنة : حرارة . صالِب : حمى مصحوبة بصداع .

خليلى عوجا من نجاه شملة عليها فتى كالسيف أروع شاحب^(١)

خليلاى هوجاء النجاه شملة وذو شطب لا يمتويه المصاحب^(٢)

وهى أبيات تبدو فيها الروعة والحسن والافتنان ، فهذا التشبيه لرسم الديار « كما نرى العنوان ... » لا يفضل قول طرفة فى المعنى نفسه : « تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد » وتشبيهه النعام الحائل فى أما كن تلك الديار يضرب فيها ، ويخبط فى جنباتها بالإمء تخبط خبط عشواء ، أو بهن إذ يتنقلن فى جمعين الخطب من مكان إلى مكان تصوير جميل . وإذن فإن أبا تمام وإن يكن قد وضع الوصف فى غير مكانه ، فقد ملأ به كتابه ، ففض منه من ناحية ، وعنى به من ناحية أخرى ، قل أن تجد قطعة لا يبهرك الوصف فيها .

تقسيم البحترى ورأبنا فيه :

ثم جاء بعده أبو عبادة البحترى ، فوضع كتابه : « الحماسة » على غرار كتاب أستاذه أبى تمام فى الاسم فقط ، وخالفه فيما عدا ذلك ، إذ قسمه إلى أربعة وسبعين ومائة قسم ، نظر فيها لا إلى فنون الشعر ، بل نظر إلى جزئيات المعانى ، فيقول مثلا :

« الباب السادس عشر » فيما قيل فى حمد عاقبة ركوب المكروه عند الحرب :

قال النابغة الذبياني :

سرنا إليهم وفيهم كارهون لهم وقد يصادف فى المكروهة الرشدُ

وقال الجمل العبدى :

إذا خفت فى أمر عليك صعوبة فأصعب به حتى تذلل مراكبه

٦٤ : وأسر على مكروهه قد ركبته فكان بحمد الله خيرا عواقبه

(١) عوجا : ميلا . النجاه : السرعة . الشملة : الناقة السريعة . الأروع : الجميل . شاحب :

متغير من السفر .

(٢) خليلاى مبتدأ خبره : هوجاء النجاه ، وذو شطب . الهوجاء : الناقة فى سيرها هوج

ونشاط . وذو شطب : وصف للسيف به طرائق متعرجة . يمتويه : يكرهه ويميله .

وقال الأخرز بن جرين :

وأركب الكره أحيانا وأحمده وربما نال في الكره القى الرُّعبا
لا تجزعن لكره أنت راكبه واجسر عليه ولا تظهر له رُعبا

وقال بشامة بن حصين الفزاري :

٦٧ : وتركب الكره أحيانا فيفرجه عنا الحفاظ وأسيف تؤاسينا

ثم ينتقل بعد هذه الآيات الستة إلى الباب السابع عشر فيما قيل في الاعتذار من الفرار ، وهكذا يسير في تقسيمه ، فيجمع المعاني المتماثلة ، والأفكار المتقاربة في إطار واحد ، وهو لا يعدو فيما يعرضه البيت والبيتين والثلاثة ، فيتيح للناظر في الشعر ، تبين أصحاب المعاني المبتدعة ، ومعرفة من اقتبس منهم ، وأخذ عنهم ، ويجمع الكتاب نحو أربعة آلاف بيت كلها من جيد الشعر ومصطفاه .

تقسيم قدامة بن جعفر :

ولقدامة بن جعفر كتابان في النقد ، أحدهما : نقد النثر ، والآخر نقد الشعر ، قال في أولهما : عن تقسيم الشعر : « وللشعراء فنون كثيرة تجمعها في الأصل أصناف أربعة ، وهي : المديح والهجاء ، والحكمة واللهو ، ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون ، فيكون من المديح المرائي والافتخار ، والشكر والالطف في المسألة ، وغير ذلك مما أشبهه وقارب معناه ، ويكون من الهجاء الذم والعتب والاستبطاء والتأنيب ، وما أشبه ذلك وجانسه ، ويكون من الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ ، وما شا كل ذلك وكان من نوعه ، ويكون من اللهو الغزل والطرد وصفة الخمر والمجون وما أشبه ذلك وقاربه ، ثم يورد بعد ذلك أمثلة لهذه الفنون الأصلية والفرعية ، وهو تقسيم تظهر عليه سمة العلماء وأهل المنطق . وقال في نقد الشعر تحت عنوان : « باب المعاني الدال عليها الشعر » .

« . . . ولما كانت أقسام المعاني التي يحتاج فيها إلى أن تكون على هذه الصفة مما لانهاية لعدده . . . ، رأيت أن أذكر منه صدىً ينبيء عن نفسه ، ويكون مثالا لغيره ، وعبرة لما لم أذكره ، وأن أجمل ذلك في الإعلام عن أغراض الشعراء ، وما هم عليه أكثر حوماً ، وعليه أشد روماً ، وهو المديح والهجاء ، والنسيب والمرائي والوصف والتشبيه » .

ولو أنه استغنى عن التشبيه بالوصف لكان تقسيمه أقرب إلى ما تعارف عليه الشعراء .

تقسيمات أخرى :

جاء أبو هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ في أعقاب قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ هـ فصار على نهجه ، وأخذ عنه مذهبه ؛ إذ قال : « وإنما كانت أقسام الشعر في الجاهلية خمسة : المديح والهجاء والوصف والتشبيب والمرأى حتى زاد النابغة فيها قسما سادسا ، وهو الاعتذار فأحسن فيه » .

ومن بعدهم جاء ابن رشيق القيرواني المتوفى سنة ٤٥٦ هـ فعدل في تقسيم من سبقوه تعديلا طفيفا ؛ إذ جعله تسعة أقسام : النسيب والمديح ، والافتخار والثناء ، والاقتضاء والاستنجاز ، والعتاب والوعيد والإنذار ، والهجاء والاعتذار .

ويقول عبد العزيز بن أبي الإصبع : « والذي وقع لي أن فنون الشعر ثمانية عشر فنا : غزل ووصف ، وفخر ومدح ، وهجاء وعتاب ، واعتذار وأدب ، وزهد وخمريات ، ومراث وبشارة وتهان ، ووعيد وتحذير وتحريض وملح ، وباب مفرد للسؤال والجواب » .

وهو تقسيم ليس بذى قيمة فنية ، فلا هو راعى دقات المعاني كالبحتري ، ولا هو لاحظ خصائص المعاني ، فنحن نستطيع أن نجتمع بين الهجاء والعتاب والوعيد والتحذير والتحريض في باب واحد ؛ لأنها تصدر عن غاية واحدة ، وكذلك المدح والبشارة والتهاني ، ثم الأدب والزهد .

وقسمه البارودي في مختاراته إلى سبعة أقسام : الأدب والمديح والثناء ، والوصف والنسيب والهجاء والزهد ، ومع أنه أيضا من زعماء الوصف في عصره ، فإنه لم يعرف له قيمة ، ولم يضعه في فلكه ، فلم يعقد له بابا خاصا .

وبعد ، فأقرب هذه التقسيمات إلى الدقة تقسيم أبي تمام والبارودي ، فتقسيمهما تقسيم الشاعر لا تقسيم العالم .

الفصل الرابع

في الوصف وتقسيمه

معنى الوصف :

الوصف بمعناه اللغوي : هو التحلية والتجميل ، يقال : وصف الشيء له وعليه وصفا وصفة : حاله وجهه ، وللصديق أوصاف حسنة وصفات جميلة ، وتواصفوا الكرم إذا وصف بعضهم بعضا به ، وقد اتصف جاره بالخلق الحميد إذا صار منعوتا متواصفا بين القوم به . وهو عند النحويين يخالف معناه عند اللغويين بعض المخالفة ، فهو عند أولئك أعم وأشمل ، إذ جعلوه يقتناول المدح والذم ، والحسن والقيبح ، فيقال : هذا فتى وسيم ، وذلك رجل دميم ، وفلان له أصل كريم ، والآخر له نسب لئيم .

ونحن لانعنى هذا المعنى ولا ذلك ، وإنما نعنى معناه عند الأدباء ، وهو عندهم : تصوير الظواهر الطبيعية بصورة واضحة التقاسيم ، وتلوين الآثار الإنسانية بألوان كاشفة عن الجمال ، وتحليل المشاعر الإنسانية تحليلا يصل بك إلى الأعماق ، إلى غير هاتيك العناصر التي قد يحتاج وصفها إلى ذوق فني ، وتتطلب الإحاطة بنواحيها ، والسمو إلى آفاقها وجدانها شاعرا ، وإحساسا مرهفا ، وذوقا سليما ، ككل ما يملك على الإنسان للرصف الحسن إحساسه ، ويشير فيه شعوره ووجدانه ، وكذلك المناظر التي تطلب لب التأمل وتمسكه ، وتأسر بفتنتها المتمعن وتسحره ، فيطيل في قسماتها التأمل ، ويدمن في أجزائها التمتع ، ثم يصوره بعدئذ في الصورة التي يرتضيها ذوقه ، ويقبلها فنه ، وقد يكون الفن في أول الأمر ساذجا فطريا ، يعوزه الصقل والتقويم ، وتنقصه الدقة والعمق ، ولكنه ما يلبث بعد حين أن يصقل ويكمل ويوفى على التمام .

قيمة الوصف في الشعر العالمي :

والوصف — في حقيقة الأمر — هو عمود الشعر وعماده ، بل إن كل أغراض الشعر

وصف ، فالمدح وصف نبيل الرجل وفضله ، والنسيب وصف النساء والحنين إليهن ، والشوق إلى لقاءهن ، والثناء هو وصف محاسن الميت ، وتصوير آثاره وأياديه ، والهجاء وصف سوءات المهجوء ، وتصوير نقائصه ومعايبه ، وهكذا نستطيع أن ندخل جميع فنون الشعر تحت الوصف ، فهو على هذا الوضع كاللوحه الملتفة الأغصان ، الفارعة الأفنان ، المترامية الظلال ، ولكننا نريده مستقلاً بذاته ، محدود العالم عن سواه ، وهو ما سنفصله في هذا الكتاب .

الوصف أول ما نطوق به الشعراء :

أرى أن فن الوصف هو أول ما نطوق به الشعراء ، لا ما يرى البعض من أن الشعر الحماسي هو أول ضروب الشعر ، وحتى إن رضينا بهذا الذي يقال ، فإننا نرجع الشعر الحماسي إليه ؛ لأنه وصف لضروب من الشجاعة والقوة ، وعرض لصور من البطولة والقوة .

إني أرى أن الشعراء حينما تدققت ألسنتهم بالشعر ، بعد أن أفعمت به قرائحهم تدفقوا واصفين شعورهم ووجدانهم ، أو أسام ووجدهم ، أو مصورين نجوهم وشكواهم ، أو نعيمهم وملهامهم ، وعلى الجملة معبرين عن كل ما يحرك كوامنهم ، ويثير هواجسهم ، ويوقظ أحاسيسهم ، ويستبد بمشاعرهم من مناظر أو أحداث ، أو مظاهر أو آثار .

نعم نطق الشعراء بالشعر واصفين — لا مفتخرين ولا راثنين — فالفخر كان بلغة الشعب إلا إذا اقتضته المحافل الجامعة أو الأسواق الحاشدة ، ولغة الشعب في الأمم البادية هي القوس والسهم ، والسيف والرمح ، والثناء كان بلغة القلوب والعيون ، القلوب تنقطر ، والعيون تنهمر .

أما وصف أثر الطبيعة في النفس ، وتصوير فعل الظواهر في الخاطر ، فلا بد أن يكون بلغة أرقى ، وبأسلوب أكثر اتساقاً ، وأعظم انسجاماً من سواه ، وهو الشعر .

ودع رأى من يقول : « إن أبواب الشعر اليوم تعدّ بالشراشيم لم يكن منها في الجاهلية إلا الفخر والحماسة ، والنشيب والمدح والهجاء ، وتفرع من المدح الرثاء وهو مدح الميت » فذلك رأى لا تؤيده الطبيعة الإنسانية ، ولا يثبتته المروى من الشعر الجاهلي ، ولعل القائل فاته أن الوصف يمكن أن يندرج تحته كما قدمنا — الفخر بالقبيلة لأنه وصف لما أثرها ، وعد لآلائها ومناقبها ، وعلى النمط بقية الأغراض التي تناولنا الحديث عنها .

كثرة الوصف وطفائه على الأغراض الأخرى :

وبين يدينا الكثير من الشعر الجاهلي تتأمله فنجده يبدأ بالوصف دائماً ؛ وصف الأطلال أو وصف الظن ، أو وصف الحبيبة ، أو وصف الحر أحيانا ، ثم ينتقل الشاعر من وصف إلى وصف مستطردا متتابعاً ؛ حتى تكاد القصيدة تنتهي ، فإذا جُلِّها وصف ، وإذا القليل منها ليس كذلك .

وهذه — مثلاً — معلقة امرئ القيس تتبعها فنجدها جميعاً وصفاً ، فقد بدأها بوصف منازل حبيبته ، وتأثير الشمال والجنوب فيها ، فترى في عرصات وقائعها بعر الآرام كأنه حب فلفل ، ثم يصف وقوفه وصحبه عند ما تحمل أحبابه ، وهم يعيشون فيه التجل ، ويصور ما يشقى نفسه ، ويطنى لوعة قلبه بأنها عبء مهراقة ، وإن لم يكن من ورائها طائل ، فهل عند رسم دراس من معول ؟ وهكذا ينتقل في الوصف ، فيصف عمر مطيته للعداري ، ويعجب من كورها المتحمل ، ويصور كيف ظل العذاري يرتمين بلحمها « وشحم كهداب الدمقس للقتل » ثم يصف دخوله خدر عنيزة وأنها عبثت به فدعت عليه ؛ لأنه سيرجلها بركوبه معها ، إذ لن يستطيع البعير أن يحملها جميعاً ، وأى عبث كقولها :

« لك الويلات إنك مرجلي » .

ويسير على هذا النهج الوصف القصصى المعتمد على الحوار الهادي حيناً ، والثائر حيناً كقولها :

« عقرت بعيري يا اسراً القيس فانزل » فيقول :

٦٨ : فقلت لها سيري وأرخي زمامه ولا تبعديننا من جناك الممل

ثم ينتقل إلى وصف بيضة الخدر التي لا يرام خباؤها ، ويصف الثريا في السماء ، وقد تعرضت له :

« تعرض أثناء الوشاح الفصل » .

ويصف بعد ذلك صورة لما يجري بين العاشقين ، لا ينقص الصورة تلوين أو تظليل ، بل هي كاملة التكوين والتجوير ، وأى صورة أكمل من قوله :

هصرت بفودي رأسها فتأملت على هضم الكشح ريا الخلخل
 مهفهفه بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل
 تصد وتبدي عن أسيل وتتقى بناظرة من وحش وجرة مطفل
 وجيد كجيد الرثم ليس بفاحش إذا هي نصته ولا بمعطل
 وفرع يزين المتن أسود فاحم أثيث كقنو النخلة المتعشك
 وينتقل من وصف غنيزته ذلك الوصف الذى يستطيع المصور أن يخلق منه ملكة
 جمال فى هذا العصر بعد أن يتأمل دقائقه ، ويتصور جزئياته ،
 ثم ينتقل إلى وصف الليل وطوله ، وثبات نجومه حتى لكانها :
 « بكل مغار القتل شدت ييذبل » .
 ومن الليل ينتقل إلى وصف واد :

وَوَادٍ كجوف العير قفر قطعه به الذئب يعوى كالخليلع المليل
 ثم يدير الحديث بينه وبين ذلك الذئب ، ومن ثم ينتقل إلى وصف فرسه ، وسنعرضه
 عرضا مبسوطا بعد حين ، وإذ يبلغ غايته من وصف فرسه يصف سربا من البقر الوحشى .
 وهنا ترى صورة من الصيد والطرْد ، كأنها لوح فى معرض من معارض التصوير ، أو قطعة
 فنية فى متحف من متاحف الآثار ، وينتقل من معركة مع صيده إلى وصف البرق ،
 وأن وميضه .

« كلع اليدى فى حبي مكمل » وبعد أن يأخذ حظه من وصفه يصف ثيرا فى عرانيه
 وبله كأنه : « كبير أناس فى بجاد مزمل » حتى يختم القصيدة بقوله :

كأن مكأكى الجواء غدية صبحن سلافا من رحيق مفلل
 ٧٦ : كأن السباع فيه غرقى عشية بأرجائه القصوى أنايش عنصل
 فهذه قصيدة تجاوزت أبيتها الثمانين ليس فيها بيت واحد يمكن أن يقال عنه : إنه
 ليس من فن الوصف ، مع أنها لشاعر يتسع له مجال الفخر والحماسة ؛ لأنه ملك وسليل

ملوك ، ولكن الوصف غلب عليه ؛ لأن من حقه أن يغلب عند ذوى النفوس الجياشة ،
وهم الشعراء قبل جميع الناس .

وهذه قصيدة سويد بن أبي كاهل الشكري تجاوزت أبياتها المائة تكاد تكون وصفا
خالصا ، فهو يصف في أولها خليلته وصفا لا خش فيه ولا فسوق ، بل هو تشبيه وتصوير
كقوله :

تمنح المرأة وجها واضحا مثل قرن الشمس في الصحو ارتفع
صافي اللون وطرفا ساجيا أكل العينين ما فيه قمع

ثم ينتقل إلى وصف زيارة طيف المحبوبة ، وسهاد الليل في سبيل الإسلام به ، وأنه
قطع في رحيله إليه : « عصب الغاب طروقا لم يرع » لأنه :

آنس كان إذا ما اعتادني حال دون النوم متى فامتنع
ثم يصف رحلته إليها ، وقطعه المفاوز في سبيلها ، فيصف الزمان والمكان والسكان ،
فيقول :

كم قطعنا دون سلمى مهمها نازح الغور إذا الآل لمع
في حرور ينضج اللحم بها يأخذ السائر فيها كالصقع
وتخطيط إليها من عدى بزماع الأمر والهم الكنع
وفلاة واضح أقرابها باليات مثل مرفت القرع
يسبح الآل على أعلامها وعلى البيد إذا اليوم متع
فركنها على مجهولها بصلاب الأرض فيهن شجع
كالمغالي عارفات للسرى مستفات لم توشم بالنسع

ثم يسير في هذا الوصف حتى يبلغ منه غايته ، فيعرج على قبيلته يصفها ، ويفخر بكرمها
وخلقها ، ثم ما يني أن يعود إلى تصوير أثر بعد الحبيبة عنه فيقول :

٨٧ : حل أهلى حيث لا أطلبها جانب الحضر وحلت بالفرع

لا ألقاها وقلبي عندها غير المام إذا الطرف هج
ومن ثم يصف الثور الوحشي وصفا فيه دقة المعرفة ، وفيه سذاجة الفطرة ؛ فهو يصف
شياته وأجزائه ، ثم يصف روعته وفزعه من صياد طيب وكلابه ، فيصور لك حربا ناشبة
بين الكلاب وبينه ، مما سنعرضه لك فيما بعد .

وما يزال ذلك شأنه يتنقل بين وصف الطبيعة الساكنة والمتحركة ، أو بين الفخر
والحكمة ، وللوصف في هذين أثر حتى يبلغ الغاية بوصف شيطان شعره ، فيختم به قصيدته
فيقول :

وأناي صاحب ذو غيث	زفیان عند إنفاد القرع
قال : ليك ! وما استصرخته	حاقرا للناس ، قوال القذع
ذو عباب زبد آذيه	خط التيار يرمي بالقلع
زغريني مستعز بحره	ليس للعاهر فيه مطلع
هل سويد غير ليث خادر	ثدت أرض عليه فانتجع ؟

هاتان قصيدتان من أطول قصائد الشعر الجاهلي لاتكاد تجد فيهما من أغراض الشعر
بعد الوصف إلا القليل الذي لا يعتد به ، بل لاتكاد تجد فيهما شيئا غير الوصف إذا نظرنا
إلى ما فيهما من غزل أو نحر أو حكمة نظرة واسعة ، فسويد يقول في نخره ، ووصف حربه مع
عدوه :

وعدو جاهد ناضلته	في تراخي الدهر عنكم والجمع
فتساقينا بمر ناقع	في مقام ليس يثنيه الورع
وارتمينا والأعدى شهد	بنبال ذات سم قد نفع
بنبال كلها مذروبة	لم يطق صنعتها إلا صنع
٩٨ : خرجت عن بغضة بينة	في شباب الدهر والدهر جذع

فهل بعد هذا يصح لقائل أن يقول : إن شعر الحماسة في العصر الجاهلي غلب

على الشعر العربي ، أو أن نستمع إلى من يقول : « إن الوصف كان متخلفا عن أكثر أبواب الشعر العربي » ؟ اللهم لا ، وقد قدمنا الحجة والدليل .

الشاعر هو الوصف :

إن الشاعر الوصف يعبر عن خلجات النفوس ، وخفقات القلوب ، وومضات العيون ، وبسات الشفاء ، وأسارير الجباه ، معينه في وصفه السماء ، والأرض ، والصحراء ، والماء ، والبدو ، والحضر ، والشمس ، والقمر ، والإنسان ، والحيوان ، والنبات ، والجماد ، وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق كما يقول المتنبي ، يتخذ منه مادته ، ويجعله نبع عاطفته ، فهو يصور الليل إذا سجا ، والنجم إذا هوى ، والموج حين يتلاطم ، والرمل وهو متراكم ، والبدر عندما يتألق ، والصبح حينما يشرق ، بل هو يصف ما لا يدركه البصر ، ويصور ما لا يعرف كنهه النظر ، فيصف الحس ، ويصور الخاطر ، ويخرج من هذه المعنويات صورا فنانة يدركها الحس ، ويتأملها الشعور ، فكأنك ترى الكبد المقروحة ، أو القلب الخفاق ، أو النفس الهاجسة ، أو الطيف الزائر ، أو الخيال العابر ، مما لا تدركه إلا النفوس الجياشة بالشعور . ويصور لك الشوق نارا تتأجج ، والمرور نسيا يتأرج ، وغير هذا وذاك ، مما ستقرأ منه الكثير ، فتجد فيه روح العبير .

أثر البيئة العربية في أهلها

إذا تأملنا مصور شبه جزيرة العرب أدركنا لأول وهلة أنها وحى صادق للشاعرية ، ونبع غزير للوصف ، إنها تكاد تكون صحراء ، لا أنهار تجري بينها ، فتفتق مكنونها ، وتخرج مكنوزها ؛ فالحط يشملها من كل جانب ، والجذب يحتلها من كل قطر ، فهم لذلك ينتظرون الوسى انتظار الحب رجع الرسول ، ويؤمنون من النوء أن يجر أهدابا على البطحاء ، ويسعون في طلب الكلال سعيًا يجمع بين الضحك والبكاء ، وينتجمون العشب في الصبح أو في الليلة الظلماء ، لا يشغلهم عن طبيعة بلادهم السافرة ، ومناظرها الساحرة

إلا أن يجدوا من العيش شظفاً ، ومن الماء رشفاً ، ثم انصرفوا إلى ذلك الطبيعي يتأملونه
فيصفونه ، ويستنبئون سره ويعلمونه :

إن الذي حرم الصحارى منظراً
ألقى عليها للجلال شعاراً
روحية صدف عن الدنيا وما
فيها وأضحت للشهور مثاراً
لذا عرفوا جميعاً - لا فرق بين طفل وشيخ ، ولا بين رجل وامرأة ، ولا بين أعمى ومبصر
دقائق ظواهرها ، وحقائق مناظرها .

أعزائي ضريبر يسقبي ثم يعلم حكمه :

حدثوا أن أعزاييا ضريراً خرج مع ابنة عم له يرعيان غنماً ، فأحس نسمة تؤذن بمطر ،
وأراد أن يتعرف من ابنة عمه حال السماء ، فقال : إني أجد ريح النسيم قد دنا ، فارفعي
رأسك فانظري ، فقالت : تريد السحب ، كأنها ررب معزى هزلى ، فلم أن السحب لانزال
في صغر قطعها ، ووضوح لونها كقطع المعزى الهزيلة ، وأن المطرات ولكن بعد حين ،
فقال لها : ارعى واحذرى ، وسكت ساعة ، ثم أعاد السؤال ، فقالت : كأنها بغال دهم تجر
جلالها ، فعرف أن السحب قد عظمت وأطبقت ؛ حتى صارت في ضخامة البغال قد سقطت
عنها الجلال ، فهي تتعثر فيها ، فقال : ارعى واحذرى ، وبعد قليل سألهما الثالثة ، فقالت :
كأنها بطن حمار أصغر .

فعر أن غبرة السماء قد اختلطت بحمرة خفيفة ، وأن السحاب قد تدلى لثقل مائه ،
وعما قليل سيمطر ، فقال لها : ارعى واحذرى ، ثم سألهما الرابعة ، فأنشدت :

١٠١ : دان مسف فويق الأرض هيدبه يكاد يمسكه من قام بالراح
فأيقن أن المطر هاطل ، فقال لها : انجى لأبالاك ، فما أتم كلامه حتى
هطلت السماء

عناية العرب بالسحاب والغيث :

وبلغ من عنايتهم به ، ورقابهم له أن سموه أسماء بترتيب دفعاته ، فقالوا : إنه أول ما ينشأ نش ، فإذا انسحب في السماء فهو السحاب ، فإذا تجمعت له السماء فهو الغمام ، فإذا كان الغيم في عرض السماء ولم تبصره وإنما تسمع رعده فهو العقر ، فإذا أطل وأظل السماء فهو العارض ، فإذا كان رعد و برق فهو العارض ، فإذا كانت السحابة قطعا صفارا متدانيا بعضها من بعض فهي النمرة ، فإذا كانت متفرقة فهي القزع ، فإذا كانت قطعا متراكمة فهي الكرفى ، فإذا كانت قطعا كأنها قطع الجبال فهي قلع ، فإذا كانت قطعا رقاقا فهي الطخارير ، فإذا كان حولها قطع من السحاب فهي مكللة ، فإذا كانت سوداء فهي طخياء ، فإذا حسبتها ماطرة فهي مخيلة ، فإذا غلظ السحاب وركب بعضه بعضا فهو المكهر . . . إلى آخر هذه الأسماء التي تبلغ اثنتين وثلاثين منزلة لكل منزلة اسمها المميز لها عما سواها .

وللعطر أسماء مميزة : منها الوسمى ، ثم الولى ، ثم الربيع ، ثم الصيف ، ثم الحميم ، وله في آثاره أسماء كذلك ، فالحميا ما يحيا الأرض بعد موت ، والغيث ما يعقب المحل ، والديمية الدائمة مع سكون إلى غير هذه الأسماء المحددة للمعاني ، والتي تبلغ سبعة وعشرين اسما كل اسم يميز أثر المطر في الأرض .

وللرياح من الأسماء ما للسحاب والغيث ، فهي النكباء إذا وقعت بين ريحين ، وهي الجرياء إذا وقعت بين الجنوب والصبأ ، وهي المتناوحة إذا هبت من جهات مختلفة إلى آخر هذه الأسماء التي تبلغ أربعة وعشرين اسما .

ونظروا إلى الجبال في ارتفاعها وشهوقها ، فأدنى الجبل الحضيض ، ثم السفح ، ثم السند ، ثم الكيخ وهو عرضه ، ثم الحضن ، وهو ما أطاف به إلى غير تلك الأسماء الكثيرة التي تدل على طول تأملهم فيها ، وإدماهم النظر إليها ، فصرخوا بها الأمثال

استقالتهم بمظاهر الطبيعة :

ولهم في وصف كل هذه الظواهر الرائع من الشعر ، والجيد من النثر ، فهم يحتفلون بها فيصورونها أجمل تصوير ، ومن نثرهم قول أعرابي يصف المطر :

« تدارك ربك خلقه وقد كلبت الأحمال ، وتعاصرت الآجال ، وعكف الياس ، وكتمت الأنفاس ، وأصبح الماشي مصرما ، والمترب معدما ، وجفيت الحلائل ، وامتهنت العقائل ، فأنشأ سحابا ركاما ، كنهورا سجاما ، بروقه متألقة ، ورعوده متعققة ، فسح ساجيا راكدا ثلاثا غير ذى فواق ، ثم أمر ربك الشمال فطحرت ركامه ، وفترت جهامه ، فانقشع محمودا وقد أحيا وأغنى ، وجاد فأروى ، والحمد لله الذى لا تكنت نعمه ، ولا تنفد قسمه ، ولا يخيب سائله ، ولا ينزر نااله . »

ولشغفهم ببيتهم ، وإعجابهم بطبيعتهم : المتحرك منها والساكن استمدوا منها أوصافهم واقتبسوا من مظاهرها صورهم ، في شعرهم ونثرهم ، رجالهم ونسائهم على السواء ، وهذه قصة مارية امرأة حاتم الطائي تصف سنة أصابها وزوجها فيها القحط ، ثم تصف مع هذا كرم زوجها ، فتقول :

« أصابتنا سنة اقشعرت لها الأرض ، واغبرت أفق السماء ، وراحت الإبل حديبا حداير ، وضنت المراضع على أولادها ، فما تبض بقطرة ، وحلقت السنة المال ، وأيقنا بالهلاك ، فوالله إننا لفي ليلة صنبر بعيدة ما بين الطرفين ؛ إذ تضاعى صبيتنا جوعا : عبد الله وعدى وسفانة ، فقام حاتم إلى الصبيين ، وقت أنا إلى الصبية ، وأقبل يملأني بالحديث ، ففرفت ما يريد ، فتناومت ، فلما تهورت النجوم إذا شيء قد رفع كسر البيت ، ثم عاد ، فقال حاتم : من هذا ؟ قالت : جارتك فلانة ، أنتيك من عند صبية يتعاونون عواء الذئاب ، فما وجدت معولا إلا عليك يا أبا عدى ، فقال : أعجليهم ، فقد أشبعك الله وإياهم ، فأقبلت المرأة تحمل اثنين ويمشى جناثها أربعة ، كأنها نعامه حولها رثالها ، فقام حاتم إلى فرسه فوجأ لبته بمديته ، فخر ، ثم كشطه عن جلده ، ودفع المديّة إلى المرأة ، وقال لها :

شأنك ، فاجتمعنا نشوى اللحم ونأكل ، ثم جعل يمشى فى الحى يأتهم بيتا بيتا ، فيقول :
هبوا أيها القوم ، عليكم بالنار ، فاجتمعوا ، والتفع فى ناحية ينظر إلينا ، فوالله إن ذاق منه
مزعة ، وإنه لأحوج إليه منا ، فأصبحنا وما على ظهر الأرض من الفرس إلا عظم وحافر .
هذه القطعة فيها الجميل من الصور ، والبديع من الوصف ، وهو لا يحتاج إلى من
يكشف عنه ستوره ، أو يبدى مكنونه ، فوصف الأرض بالاقتصرار ، والسماء بالاغترار
وصف يشعر بالفاقة ، وينبئ عن الحاجة ، ووصف الإبل بالحذب والضمور ، والمراضع
بالضن والجفاف يدل على اختيار المعانى .

فالعربى يجوع ليطعم ناقته ، والأم تضنى ليحيا وليدها ، وما أروع وصفها الصبية
بأنهم يتعاونون عواء الذئاب ؟ فلصوت الذئاب نكر ووحشة ، وما أجمل تشبيه الأم بالنعامة
تغضى اثنين من رثالها بخناحيها ، ويلتف من حولها بقية أولئك الرثال .
إنها جميعها صور مستمدة من تلك البيئة الغنية بأسباب الجمال ، السخية بروائع الصور
والظلال ، قلنا إنهم اتخذوا من هذه البيئة أمثالهم وحكمهم ، فيقولون : أظلم من حية ،
وأغدر من ذئب . قال الأسدى :

لمرك لو أنى أخاصم حية إلى فقعر ما أنصفتنى فقعر
إذا قلت : مات الداء بينى وبينها أتى حاطب منهم لآخر يقبس
فما لكم طلسا إلى كأنكم ذئاب الفضى ، والذئب بالليل أطلس

وقالوا : « ماء ولا كصدا » وهى ركية عذبة ، قال ضرار السعدى :

وإنى وتهياى بزئب كالذى تطلب من أحواض صداء مشربا

وقالوا : « لقد ذل من بالت عليه الثعالب » وأصله أن رجلا من العرب كان يعبد صنما ،
فجاء ثعلب ، فبال عليه ، فكفر بصنمه ، وقال فى ذلك :

١٠٦ : أرب يبول الثعلبان برأسه ؟ لقد ذل من بالت عليه الثعالب

أثر البيئة فى الوصف :

وبعد فليبيئة العربية فى الأدب الأثر القوى ، ولها فى الوصف بصفة أخص الأثر

الأقوى ، منها يستمد معانيه ، ويستنبط أفكاره ، ويتخذ تشبيهاته ، ويستوهمها مادة أوصافه .

وإننا لنعلم فوق ما قدمنا عن طبيعتها أن العرب كانوا دائمى التسيار ، مدمنى الأسفار ، لا يكاد الواحد منهم يحط رحله اليوم حتى يشده غدا للارتياح والانتجاع ، فهم لا يطمثون فى مكان ولا يسكنون إلى دار ؛ لينالوا رزقهم ، ويبلغوا ما يبلغون به ، يخرجون إلى مواطن الكلا ومنابت العشب ، ومساقط الغيث ومنابع الماء .

وقد ساق إليهم هذا الحل الفقر ، وبعث فيهم ذلك الجذب القحط ، فاستهانوا بالنفوس ، واستخفوا بالأرواح يزهقونها ويختطفونها ، فكان اشتعال الحروب ، واصطراع الجيوش ، فرأيناهم يشنون الغارات ، ويؤلفون العصابات ، ويوقدون نار الحرب التى كلما أطفأها عقالهم أوقدها سفهاؤهم .

وإذا آمنا بأن الشعر المضرى نهض نهضته الفنية قبل بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام بمائة سنة ، وأن أول من هلهل الشعر هو عدى بن ربيعة جاز لنا أن نقول : إن الحرب بين بكر وتغلب هى التى أطلقت لسانه ، وفسكت عقاله ، أطلقت بالقصائد الجياد التى سار على نهجها الشعراء من أبناء عصره ، ومن بعد أبناء عصره ، فقد قيل : إن هذه الحرب دامت أربعين عاما تتطاحن فيها القبيلتان بالسنان واللسان .

وهكذا نستطيع أن نحكم بأن بيتهم قد أثرت فى حياتهم الصاخبة الصارخة التى لا يستقر لها قرار ، ولا ينطقى للهيها أوار ، فلونت شعرهم بملائم هذه الحياة ، فوصفوها أجمع وصف ، وصوروها أحكم تصوير ، ولم يتركوا فى الفلوات والمغازات إذا كانوا من بنينا شيئا إلا وصفوه ، فوصفوا وحوشها الضارية ، وذئابها العاوية ، وطلباءها السارحة ، وحررها القارحة ، كما وصفوا جوارح السماء وصوادحها ، وخشاش الأرض وهوامها ، ثم وصفوا الرسوم والأطلال ، والسهول والجبال ، والأنواء والأمطار ، والعيون والآبار ، والبرق والرعد ، والأفلاك والسكواكب ، ولم ينسوا أن يصفوا حياتهم فى جدم وهومهم ، ووطنهم وإقامتهم ، وسلمهم وحرهم ، وأن يصفوا أدوات الحرب كالسيف والرمح والقوس والسهم ، وشأنهم

في الحضر ، هو شأنهم في البادية ؛ فوصفوا جميع مظاهره ، وصفوا النبات والأزهار ، والحدائق والأثمار ، والنجر ومجالس الشراب ، واللهو ومحافل الميسر . وعلى الجملة لم يتركوا في قراهم ومدنهم منظرا إلا رسموه ، ولم يستخدموا مما يقع في محيطهم أو تحت سمعهم وبصرهم حيوانا أو جمادا إلا وصفوه ، ولم ينالوا من متع الحياة شيئا إلا تحدثوا عنه ، وأشادوا به ، ولم يروا من بأسائها ضرا إلا ذكروه وشكوا منه ، فخلدوا بشعرهم يبتتهم ، وأبقوه على الدهر صورة لحياتهم هي أصدق سفر للمؤرخين ، وأدق سجل للباحثين ، ولذلك قالوا صادقين : « الشعر ديوان العرب » .

أقسام الوصف

الطبيعة في الشعر العربي :

يقسم الأدباء الوصف إلى قسمين : وصف الظواهر الطبيعية التي هي من خلق الله القادر المبدع ، ووصف الآثار الإنسانية التي هي من صنع الإنسان الخاذق المخترع ، ومن إخراج اليد الصانع ، ثم هم يناولون الظواهر الطبيعية فلا يجدونها متائلة في جميع الخصائص ، فيعقدون بينها موازنة تنتهي إلى تقسيمها قسمين : الظواهر المتحركة ، وهي كل ما يجري فيه ماء الحياة وينبض بالحركة : من حيوان أنيس كالناقة والفرس ، والكلب والمزرع والغنم ، أو حيوان آبد كالأسد والضبع ، والذئب والثعلب ، والحشرات والهوام .

والظواهر المتحركة إما خارجية كهذا الذي قدمنا أمثلة له ، ويسميه الغربيون الوصف الموضوعي ، وإما داخلية ، وهي تلك التي تمثل أحوال قائلها ، فتصف خواطر نفسه ، أو خفقات قلبه ، أو تفرح كبده ، أو تحرق فؤاده ، أو هجسات وجدانه ، أو همسات شعوره ، أو لمحات أفكاره ، أو ماضات إنسانه ، إلى آخر ما يصوره من تلك التموجات النفسية ، والاهتزازات العاطفية ، وهو الوصف الذاتي .

والظواهر الساكنة ، وتنصرف إلى كل ما تشتمل السموات والأرض من أجرام وكواكب ، وجبال وبحارى ، ووهاد ونجاد ، وبحار وأنهار ، وما ينشأ عن هذه وتلك من مد وجزر ، وبرق ورعد ، وغيث ومطر ، وزلازل وبراكين ، وزعازع وأعاصير .

وللشعر العربي في هذه وتلك الآثار الجلييلة ، ولا نظن أن آداب أمة ذات شاعرية تدانى الأمة العربية في العصر الجاهلي في وصف الظواهر الطبيعية الموضوعية ، وبخاصة الحياة منها ، وسنعرض من جميع ماتقدم ما فيه مقنع لكل شاك في أن العرب في القديم قد فاقوا أضرابهم في أكثر ضروب الوصف .

غلبة الحس الفردى على الوصف عند العرب :

وبعد ، فالوصف يدور في غالب أمره على الحس الفردى الذى يشعر به صاحبه عندما يكون في حال تماثل حال الشاعر الذى يصور ذلك ، أما الإحساس الجماعى ، فلا يصوره الشعر في العصر الجاهلي ؛ لأن حياة الجماعة لم تكن واضحة المعالم في تلك العصور ، فالشاعر يتحدث عن نفسه أو ما يمس نفسه ، لا يكاد يتجاوزها بالنظرة البعيدة ، أو الفكرة الشعبية . على أن هذا لا ينعض من قيم الوصف العربى ، فقد فطر الشعب العربى على ثوران النفس ، وتوقظ الحس ، لا يطمئن ويهدأ حتى يفكر ويتعمق ، فشعره قائم على البديهة والارتجال أو ما يشبه الارتجال ، ومن كان هذا شأنه لا يرضى من شعره إلا بما يرضى عاطفته ؛ ويعبر عن شعوره .

على أن من شعرهم ما يعتمد على الحس والخيال معا ، والعاطفة والتصوير والتشيل ، وسنعرض في هذا الكتاب لكثير مما يقوم دليلا على أن ألوانا من الوصف قد امتزج فيه الحس بالخيال ، وسيان بعدئذ أن يكون الخيال ماديا أو روحيا .

عوامل الشاعرية :

من الأدباء من يقول : « إن شعراء العرب لم يكونوا ينظرون إلى الكون النظرة الشاملة الواسعة ، ولم يكونوا يشعرون بما فيه من مظاهر الجمال ، وأسرار الحياة إحساس الشعراء الغربيين » وكأنى بأولئك قد نسوا أن الطبيعة الشعرية ليست العامل الفردى فى الشاعرية ، وإنما هى أحد العوامل التى منها : الثقافة والحضارة والبيئة والعصر والخلق ؛ فالعرب فى عصورهم الأولى لم يكونوا قد بلغوا من قوة التفكير ما بلغه شعراء هذه العصور الذين غرتهم الثقافة ، وشملتهم الحضارة ، وربطتهم بغيرهم أسباب وأسباب .

نرجنا في التأليف :

هذا وسنقسم الشعر الوصفي إلى قسميه المعروفين : وصف الظواهر الطبيعية المتحركة والساكنة ، ثم وصف الآثار الإنسانية .

والشعراء في العصر الجاهلي كانوا أكثر في القسم الأول افتنانا إلا فيما يتصل بالطبيعة الداخلية ، إذ لم تكن الآثار الإنسانية وفرت - فيما عدا أدوات الحرب - حتى تلفت إليها أنظار الشعراء .

سيكون نرجنا أن نجمع القطع المتحدة الموضوع ، المتقاربة المعاني ، نضعها جميعها في إطار قد وُشى بالتفسير والشرح ، والتحليل والنقد ، ونبرز ما قد يكون فيها من صور شعرية ، وما في هذه الصور من دقة في الفن ، وجودة في الوصف .

وعندنا أن التفسير أول واجب على المؤلف ؛ حتى لا يحمل القارئ عبء الانصراف عن القراءة إلى مراجعة المعجمات يسألها البيان والإيضاح ، فينبعث في نفسه الميل إلى الانصراف عن هذا الشعر الذي لا يفهم إلا بمسألة القواميس ، وشرح هذه القطع شرحا تصويريا يحجب إلى شدة الأدب آثارهم القديمة ، ويزجي إليهم اللذة الفنية .

ولا نريد إحصاء ، فالشعر العربي زاهر بمادة الوصف ، ومكان ذلك الإحصاء إنما هو دواوين الشعراء ، وإن كنا سنورد أمثلة للكثرة الغالبة من الشعراء ، دون تمييز بين من اشتهر بالوصف ، ومن لم يشتهر به ؛ لنبين أن العرب أجمعين كانوا وصافين ، ولنبدي لكل قارئ أن الوصف في الشعر العربي كان يغلب جميع ضروب الشعر .

هذا ولن نعرض لوصف الناس : رجالا ونساء ، فهذا باب المدح أو الغزل أو الهجاء ، حتى ولو كان معبرا عن دراسة نفسية ، كقول أحد الشعراء عن أخلاق النساء :

رأين الغواني الشيب لاح بعارضى فأعرض عني بالحدود النواضر

١٠٨ : وكن إذا أبصرنني أو سمعن بي سمعن فرقن السكوى بالحاجر

لأن ذلك سيخرجنا عن الوصف إلى كل ما يمت إليه ، وما أكثر ما يمت إليه

ويعصل به .

فيم الوصف في العصر الجاهلي :

كان الوصف في العصر الجاهلي أقوى فنون الشعر ، فكلما عن لأحدهم أن ينظم شعراً كان الموحى به هو الوصف ، سيات في ذلك أن يكون وصفا للطبيعة المتحركة أو الساكنة ، يبدون به قصائدهم التي قد يكون الدافع إليها ضربا سواء ، ولكن الشاعر ينسى هذا الضرب ، وقد لا يلجأ به إلا إلماضا ضئيلا .

وشغفهم بالوصف دفعهم إلى أن يصفوا بعض التافه من عاداتهم ، فمن ذلك أن غلمانهم كانوا إذا ثغروا رموا أمتانهم في عين الشمس بسباباتهم وأباهيمهم ، وقالوا : أبدينا أحسن منها ، فوصف ذلك طرفة بقوله :

بدلته الشمس من منبتها بردا أبيض مصقول الأشر

وكانوا يزعمون أن الإبل إذا أصابها العر ، فأخذوا الصحيح فكوهه زال المر عن السقيم ، قال النابغة في وصف تلك العادة :

وكلفتني ذنب امرئ وتركته كذى العري كوى غيره وهوراتع

ومن ذلك لعبة الفيل حين شبه بها طرفة السفينة في البحر أشقه ، فقال :

يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليد

وذكروا الوشم الذي كانوا يستوشمون به ، فقال زهير في مطلع معلقته :

أمن أم أوفى دمننة لم تكلم بحومانة الدراج فالتئم ؟

ودار لها بالرقتين كأنها مراجع وشم في نواشر معصم

وقال طرفة في المعنى ذاته في أول معلقته :

١١٤ : نخولة أطلال ببرة نهد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وذكروا كل المرة أولادها حبا لها ، وأكل الضب إياها عقوقا منه ، فوصفوا به بر

الرجل ، فقال العباس بن عقيل لأبيه :

أكلت بنيك أكل الضب حتى وجدت مرارة الكلال الويل
فلو أن الألى كانوا شهودا منعت فناء بيتك من يجمل

وليس كل ذلك في حقيقة الأمر من وصف الطبيعة الساكنة أو المتحركة ، وإنما هو وصف للعادات ، وهو يدلنا على إمعان في الوصف إمعانا لم يقف عند حد ، وإن أنكر ذلك المنكرون ، فأى وصف للطبيعة الداخلية والنفس المتغيرة أقوى من قول علقمة الفحل :

فإن تسألوني بالنساء فإننى بصير بأحوال النساء طيب
إذا شاب رأس المرء أو قلّ ماله فليس له فى ودهن نصيب
يردن ثراء المرء حيث علمنه وشرح الشباب عندهن عجيب

وأى وصف أبدع تصويرا لأخلاق النساء وغريزة حب الاستطلاع من قول المثقب العبدى :

١٢٠ : ظهروا بكلة وسدلى رقما وثقبن الوصاوص للعيون

وكل هذا وسواه مما سنعرضه فى هذا الجزء يدل على أن الوصف الجاهلى بلغ مبلغا عظيما .



الفصل الخامس

وصف الطبيعة المتحركة في العصر الجاهلي

عنى الشاعر الجاهلي بوصف الطبيعة المتحركة العناية كلها ، ولا سيما وصف الناقة والفرس ، وله ما يبرر هذه العناية بهذين الحيوانين أكثر من عنايته بسواهما ، فإن الناقة أعظم خلق أرضي في نظره ؛ لما يفيد منها ، ولما تسديه إليه من صنائعهما ، فهي صديقة حله وترحاله ، ورفيقة ظمئه وإقامته ، تحمل له الكل ، وتعينه على نوائب الدهر ، وتصبر معه على لأواء الأيام ، دون أن تشكو نصبا ، أو تحس لغوبا ، وإن أحسته لم تضجر ولم تملل .

إنها نظماً فلا تشكو الصدى ، وتجموع فلا تظهر الأسى ، وتقطع بخليلها الصحارى في الصبر الجميل والوفاء الكريم ، فإذا أقام شرب لبنها ، ونسج وبرها ، وطعم لحم فصالها ، هذا إلى أنها تؤنس وحشته ، وتحفف عليه وحدته ، يحدوها فتشاركه في عواطفه ، ويغنيها فنشاطه جميع مشاعره ، تنقاد له انقياد الصديق لا انقياد الذليل ، وتطيعه طاعة الرقيق لا طاعة الرقيق ، فلو شئت لحرمته امتطاءها ، ومنعته وبرها ولبنها وفصالها ، فهي في ضخامتها وجسامتها ، وقوتها ومُنتها تستطيع أن تدفع عن نفسها ، ولكنها تفيخ إذا أراد إناختها ، وتنهض حينما يطلب نهوضها ، وترقل إن ابتغى منها إرقالا ، وتخذ إن أحب منها وخدا ، فكيف به بعد كل ذلك لا يحفظ ودها ، ولا يحسن نعمتها ؟

ثم يتبع بوصفها وصف ما يشبهها من بقر وحشى فيبدع في وصفه ما شاء له الإبداع ؛ لأنه شبيه ما منحه مودته ، ونظير ما أولاه تقديره .

وإن الفرس لأجل ما خلق الله في نظره ، وهو إلى هذا الجلال الفتان صديق حربه
وسلمه ، ولهوه وجده ، وطرده وصيده ، لا يرضن عليه بجهد ، ولا يبعخل دونه بشأو ، إذا
حارب كان له أوفى من سيفه ورمحه ، وأسدّ من قوسه وسهمه ، وإذا سالم شاركه في خيلانه ،
وعاونه على بناء مجده وسنائه ، وإذا ابتغى صيدا كان قيد الأوابد ، أو أراد طرداً آلى على
نفسه أن يلحق المطارد ، وأمهّار الفرس ثروته المدخرة ، وكنزه الثمين ، فهي كما قال الشاعر :
* قليلة كالكرام ، عزيزة لاتضام * وإذا وصف فرسه انتقل منه إلى وصف
ما يتصل به فأنا يصف الصيد والطرد ، وأنا يصف المعارك والحروب ، وإذن فلا غرابة
أن يفتن بهما ، فيفتن في وصفهما .



(١) وصف الناقة

١ - قال طرفه بن العبد * يصف ناقته في معلقته التي أولها :

لخولة أطلالٌ يبرُقة شهيدٌ تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد^(١)

وَإِنِّي لَأَمْضِي لَهُمَّ عِنْدَ احْتِضَارِهِ بعوجاءٍ مِرْقَالٍ تَرُوحُ وَتَقْتَدِي^(٢)

أُمُونٍ كَالْوِاحِ الْإِرَانِ نَسَائُهَا على لاجِبٍ كَأَنَّهُ ظُهُرُ بُرْجُودٍ^(٣)

١٢٤ : تَبَارَى عِتَاقًا نَاجِيَاتٍ وَأَتَبَعَتْ وَظَيفًا وَظَيفًا فَوْقَ مَوْرٍ مُعْبَدٍ^(٤)

* ترجمه الشاعر : هو طرفه بن العبد بن سفيان البكري ، وطرفة لقبه ، واسمه عمرو ، وهو من أشعر شعراء العصر الجاهلي ، ومعلقته التي منها هذه الأبيات من أجود المعلقات ، ومن أروع الشعر الوصفي ، فهي جميعها وصف ، وقد اشتملت على معان لم تشتمل عليها غيرها ، قتل بأمر من عمرو بن هند لأنه هجاء ، ولم تكن سنه بلغت الثلاثين ، فكيف به لو عمر ؟ قتل حوالي سنة ٥٥٢ م

التفسير اللغوي : (١) خولة : خليلته ، قيل : إنها امرأة من كلب . الأطلال : جمع طلل ماشخص من آثار الديار . البرقة : الراية من الرمل والطين . الوشم : غرز الإبر ، ثم ينثر عليه الكحل فيبقى سواده ظاهرا .

(٢) لأمضي : لأذهب . احتضاره : زوله . العوجاء : الناقة النشيطة لا تستقيم في سيرها . مرقال : سريعة . تروح وتقتدي : يستوي عندها سير الليل والنهار .

(٣) أمون : مأونة العثار . الإران : التابوت . نسائها : ضربتها بالمنسأة . لاجب : طريق واضح . برجود : كساء مخطط .

(٤) تبارى : تسابق . عتاقا : جمع عتيقة كرائم : ناجيات : جمع ناجية سريعات . الوظيف : عظم الساق . المور العبد : الطريق المهد .

- ✓ تربعت القفين بالشول ترعى حدائق مولى الأسيرة أغيد^(٥)
 أربع إلى صوت المهيب وتتقى بذى خصل روعات أكلف ملبد^(٦)
 ✓ كأن جناحي مفرحي تكنفا حفايه شكاً في العسيب بمسرد^(٧)
 فطوراً به خلف الزميل وتارة على حشف كالشن ذاو مجدد^(٨)
 ✓ لها فخذان أكمل النحض فيهما كأنهما بابا منيف بمرد^(٩)
 وطى محال كالخلفني خلوفه وأجرنة لزت بدأي منضد^(١٠)
 ١٣١: كأن كيناسي ضالة يكتفانها وأطرقي تحت صلب مؤيد^(١١)

(٥) تربعت : رعت الربيع : القفين : مثق قف ، وهو الأرض للرفعة . الشول : الإبل شالت ضروعها . المولى : الذي توالى عليه المطر . الأسرة : مفردا سرارة ، بطون الأودية . الأغيد : الناعم من كل شيء .

(٦) أربع : ترجع . المهيب : الراعى يهيب بها ويدعوها . بذى خصل : بذيل كشيء الوبر . الروعات : الإفزاعات . أكلف : أحمر ضارب إلى السواد . الملبد : التلبد وبره .

(٧) المفرحي : العتيق من النسور يضرب إلى البياض ، وهو طويل الجناحين . تكنفا : صار من جانبيه . حفايه : جانبيه . شكا : غرزا . العسيب : أصل الذنب . بمسرد : بمخصف . (٨) الزميل : الرديف ، ويقصد موضعه . الحشف : الأخلاف جف لبها . الشن : القرية البالية . الذاوى : الذابل اليأس . المجدد : الذهاب اللبن .

(٩) النحض : اللحم . المنيف : العالى . وهو وصف لموصوف محذوف أى قصر منيف . بمرد : مملس أو مطول ، وهو المقصود هنا .

(١٠) المحال : فقار الظهر الواحدة محالة ، وهى خاصة بفقر البعير . الحنى : مفردا حنية القسي ، الخلوف : مفردا خلف الأضلاع . الأجرنة : جمع جران باطن العنق ، وجمعه لما حواله لزت : قرن بعضها ببعض . الدأى جمع دأية وهى فقار العنق أو الظهر . منضد : منسق منظم .

(١١) السكتاس : بيت الظبي يحفره فى أصل الشجرة كالسرب والجحر . الضالة : شجرة السدر . يكتفانها : يحيطان بها . الأطر : العطف . مؤيد : مقوى مشدد .

- لها مرفقان أفتلان كأنما تمرُّ بسلكي دالج مُتَشَدَّدٌ (١٢) ✓
 كفطرة الرُّومِيٍّ أقمم ربُّها لتكتنفن حتى تشاد بقرمد (١٣)
 صهايبة العُثُونِ موجدة القرا بعيدة وخذ الرجل مواردة اليد (١٤)
 أمرت يداها فتل شزر وأجنحت لها عضداها في سقيف مسند (١٥)
 جنوح، دفاق، عندل، ثم أفرعت لها كتفاها في معالي مصعد (١٦)
 كأن علوب النسع في دأياتها موارد من خلقاء في ظهر قرد (١٧)
 ١٣٨: تلاق وأحيانا تبين كأنها بنائق غر في قميص مقدد (١٨)

- (١٢) المرفقان: مثني مرفق، الوصلان بين الساعد والعضد. أفتلان: محكان. السلم: الدلوذات عروة واحدة. الدالج: النازح بالدلو من البر إلى الحوض.
 (١٣) لتكتنفن: لتؤتين من أطرافها لتبني. تشاد: ترفع. بقرمد: بأجر.
 (١٤) صهايبة العثون: حمراء ماتحت لحبها من الور، والصهبة يياض تغالطه حمرة. موجدة: محكة. القرا: الظهر. الوخذ: ضرب من السير السريع. مواردة اليد: دوارة القائمتين الأماميتين.
 (١٥) أمرت. فتل. فتل. فتل شزر: فتلا إلى أعلى. أجنحت: أميلت. سقيف مسند: سقف متأسك.
 (١٦) جنوح: مائلة. دفاق: متدفقة في السير. عندل: ضخمة الرأس. أفرعت: عوليت. معالي: اسم مفعول من عالى يعالى. مصعد: مرتفع.
 (١٧) العلوب: مفرداها علب بفتح العين الآثار. النسع: الحبل من الجلد مضفور. الدأيات: منتهى الأضلاع. الموارد: طرق المياه. الخلقاء: الصخرة للساء. القرد: الأرض المستوية الصلبة.
 (١٨) تبين: تفرق. البنائق: مفرداها بنيقة قطع القميص من الأجانب. غر: يبيض مفرداها غراء. مقدد: مشقق.

- (١٩) وَأَتْلَعُ نَهَاضٌ إِذَا صَمَدَتْ بِهِ سَكَنَ بَوْصَى يَدْجُلَةً مُضْعِدِ
(٢٠) وَجُجْمَةٌ مِثْلُ الْعَلَاةِ كَأَنَّمَا وَعَى لِلْمَلْتَقَى مِنْهَا إِلَى حَرْفٍ مُبَرِّدِ
(٢١) وَخَذْتُ كَقِرْطَاسِ الشَّامِيِّ وَمِشْفَرٍ كَسَبْتُ الْيَابَنِي قَدَّهُ لَمْ يُحَرِّدِ
(٢٢) وَعَيْنَانِ كَالْمَاوِيَّتَيْنِ اسْتَكْنَتَا بِكَهْفِي حِجَابِي صَخْرَةً قَلْتُ مَوْرِدِ
(٢٣) طَحُورَانِ عَوَارٍ الْقَدَى فَنَرَاهُمَا كَمَكْحُولَتِي مَذْعُورَةٍ أَمْ فَرَقْدِ
(٢٤) وَصَادَقَتَا سَمْعَ التَّوْجُسِ لِلْسُرَى لِهَجْسٍ خَفِيٍّ أَوْ لَصَوْتٍ مُنْدَدِ
(٢٥) ١٤٥: مَوْلَاتَانِ تَعْرِفُ الْعِتْقَ فِيهِمَا كَسَامِعَتِي شَاةٍ بِحَوْمَلٍ مُفْرَدِ

- (١٩) الأتلع : الطويل العنق . النهاض : القوى للارتفاع في سيره . صعدت به : أشخصته إلى السماء . السكَن : الدقة . البوصى : التوى . دجلة : نهر بال عراق . « انظر للصورة »
(٢٠) العلاة : السندان . وعى : تماسك . الملتقى : مجتمع عظام الرأس . الحرف : الحد .
(٢١) القِرطاس : ورق الكتابة . الشامى : الكاتب المنسوب إلى الشام . للمشفر : للجمل كالشفة لغيره . السبت : الجلود للدبوغة أو من جلد البقر خاصة . قدّه : قطعه . لم يحرد : لم يعوج في تقطيعه .
(٢٢) كالمَاوِيَّتَيْنِ : كالمرايتين . الكهف : الغار في الجبل . الحجاب : العظم للشرف على العين . القلت : النقرة في الصخرة أو للعين . المورد : منهل الماء .
(٢٣) طَحُورَانِ : دفاعتان . العوار : مايضر العين كالقذى . المذعورة : وصف لماوصوف يحذوف هو بقرة . أم فرقد : كناية عن البقرة الوحشية ، والفرقد اسم ولدها .
(٢٤) التوجس : التسمع بحذر . السرى : السير ليلا حيث يجب الحذر . الهجس : الحركة . مندّد : مرفوع .
(٢٥) مَوْلَاتَانِ : محدتان . العتق : الكرم . الشاة : الثور الوحشى . حومل : اسم مكان . مفرد : صفة لشاة ، وجاء اللفظ بلاهاء ، لأنه أراد الثور الوحشى ، وانفراده يجعله أحد سمعا ؛ إذ ليس هناك ما يشغله .

وَأَرَوْعُ نَبَاضٌ أَحَدٌ مُنْكَمَ كِرْدَاةٍ صَخْرٍ فِي صَفِيحٍ مُصَمَّدٍ (٢٦)
 وَإِنْ شَتَّ سَامَى وَاسِطَ الْكُورِ رَأْسُهَا وَعَامَتٌ بِضَبْعِهَا نَجَاءً الْخَفِيدَ (٢٧)
 وَإِنْ شَتَّ لَمْ تَرْقُلْ وَإِنْ شَتَّ أَرْقَلَتْ خَافَةً مَلَوَى مِنَ الْقِدِّ مُحْصَدٍ (٢٨)
 وَأَعْلَمُ مَخْرُوتٌ مِنَ الْأَنْفِ مَارْنٌ عَتِيقٌ مَتَى تَرْجُمُ بِهِ الْأَرْضَ تَزْدَدِ (٢٩)
 ١٥٠ : عَلَى مِثْلِهَا أَمْضَى إِذَا قَالَ صَاحِبِي أَلَا لَيْتَنِي أَفْدِيكَ مِنْهَا وَأَفْتَدِي (٣٠)



(٢٦) الأروع : صفة لموصوف محذوف هو ، القلب ، والأروع : الفزع الخائف . نباض : كثير النبض والخفقان . أحد : أملت ما لم : مجتمع . كirdاة : كصخرة تكسر بها الصخور لصلابتها . الصفيح : العريض من الحجارة . المصمد : الصلب لا خور فيه .
 (٢٧) سامى : على وطاول . واسط الكور : العود بين موركة الرجل ومؤخره ، وموركة الرجل الموضع الذي يضع عليه الراكب رجله . بضبعها : بعصديها . نجاء : إسراع . الخفيد : الظليم .
 (٢٨) الإرقال : ضرب من السير السريع . الملوى : وصف للوسط . القد : الجلد . المحصد : المحكم .
 (٢٩) الأعل : وصف للشفر ، والعلم : الشق في الشفة العليا ، وضده الفلج ، وهو شق الشفة السفلى . المخروت : المشقوق . المارن اللين . عتيق : كريم . ترجم : تضرب به الأرض . تزد : تضاعف سيرها .
 (٣٠) منها الضمير يعود على القلاة الموحشة الخيفة .

تحليل الأبيات :

هذه قصيدة كاملة في وصف الناقة ، وإن تكن جزءا من معلقة طرفة ، فقد بلغ وصفه للناقة ثمانية وعشرين بيتا ، وهو قدر لم يبلغه شاعر سواه ، وكلها تفيض بالمعنى وتزخر بالأفكار ، فليس فيها بيت يمكن أن يقال عنه : إنه انحرف فيه عن موضوعه ، أو حاد عن غرضه ، بل إن الأبيات إلى الإيجاز بنوعيه : إيجاز الحذف وإيجاز القصر أقرب منها إلى الإسهاب والإطناب .

ولو أن رساما نابغة ذايد صناع ، وريشة مطواعة وقف يتأمل الناقة جزءا جزءا ، ثم يرسم ما تأمله ، وما يمكن أن يتخيله ما بلغ هذا الذي بلغه طرفة ، فسيكون الرسم صامتا لا ينبض بحياة ، ساكنا لا يشعر بنأمة ، أما الأبيات فتنبض بالحياة وتفيض بالحركة .

في هذه الأبيات صور كثيرة تبهر أقدر المصورين ، وتعجز أنبغ الرسامين ، ولقد أحجب بهذا الوصف القدامي والمحدثون ، ولا نعرف أحدا من أولئك أو هؤلاء جرؤ على القول بأن في الوصف عيبا ، أو أن في الخيال شططا ، فالأخيلة جميعها مستمدة من بيئته ، مقتبسة من طبيعة أرضه ، مأخوذة عن المحسوسات ؛ إذ وصف الناقة لا يستقيم بغير المحسوسات .

قال : إني لأزِيلُ هِيَّ وَغَمِي بامْتِطَاءِ نَاقَةٍ نَجِيْبَةٍ ضَامِرَةٍ ، سَرِيْعَةٍ مَرْقَالٍ ، تَصِلُ بِمَسِيرِ اللَّيْلِ سَيْرَ النَّهَارِ ، دُونَ أَنْ يَخْشَى رَاكِبُهَا الْعَثَارَ ، وَكَيْفَ تَعَثِّرُ وَجَسْمُهَا فِي صَلَابَتِهِ كَالْوِاحِ التَّابُوتِ ؟

لقد مستستها بالنساء لأستثير همتها في طريق قويم ، لأمت فيه ولاعوج ، كأنه الثوب المستقيم الخطوط .

ومن قدماء النقاد من زعم أنه لم يرد في قوله : « على لاحب كأنه ظهر بوجد » ظهر الكساء دون بطنه ، وكأنه يقول : إن « ظهر » حشو ، والأمر ليس كذلك ، فظهر الكساء هو الذي تظهر خطوطه واضحة ، أما بطنه فلا تكاد تظهر له خطوط ، وهي دقة تخفى على غير طرفة المتأمل المتمعن .

ناقى تلك تبارى فى سيرها كرائم النياق ، ونجائب العناق ، فتغذ السير ، وتنبع
الوظيف الوظيف فوق ذلك الطريق المعبد ، وهى الكريمة عندى ، الأثيرة لدى ، فأنا
أربعها نبات الربا ، وأربعها عشب الحقائق ، وهذا وذاك أجل ماتنبته الصحراء ، بل من
أجل ماتخرجه الأرض ، أربعها نبات الربا وعشب البساتين بين نياق قد جفت ضروعها ،
ونضبت أخلافها ، فقيهن إلى الطعام نهم ، ولهن على التهامه قدرة ، فيبعثن فيها الميل إلى
التنافس فى الرعى من ذلك المرعى الناعم الأريض الذى يلاحق وسميه وليه ، فهو دائم
الإعشاب ناعم التراب .

وهى ناقة مذعانة إذا أهاب بها حاديا سعت إليه سراعا متقية بذيلها ذى الخصل
الكثيفة ماقد يعترض طريقها من الفحول الشداد . تلك الفحول الكلف الملبدة خصل
ذيلها لكثرة ثورانها ، ولكنها لاتباليها فى سبيل الإجابة لإهابة داعيها ، ذنبها الذيل
المنبسط الوبر يشبه جناحي النسر العتيق الطويل الجناحين ، فكأنهما قد غرزا
فى عظامه ، وهذا تشبيه واسع الدلالة ؛ إذ يدل على أنها قوية كقوة جناحي النسر ، وأن
ذيلها منبسط انبساط الجناحين ، كما يدل على غزارة وبره ، فهى به معجبة ؛ فطورا تضرب
به مكان الرديف لحاديا ، وآخر تضرب به أخلافها ، فهو حيناً إلى أعلى ، وحيناً
إلى أدنى ، وفى الحالين تبلغ به المكان القصى البعيد ، تبلغ به أخلافها التى جف لبنها ،
فصارت كالقربة البالية ، والشن الذابل ، ولها فخذان مكتنزان باللحم ، كأنهما لضخامتهما
مصراعا باب لقصر مشيد منيف ، وفقار ظهرها متداخلة متماسكة ، وهى مع الأضلاع
المتصلة بها كالقسي اقترن بعضها ببعض فى صفوف متراسة ، وما بين مرفقى الناقة منبسط
فسيح ، كأنه كناسان محفوران فى أصل شجرة سدر ، وكأن قسيا متعاطفة تحت أضلاعها
الصلبة ، فهى لذلك مأمونة المسير .

ولما وصف ما بين مرفقيها بالانبساط أراد أن يزيد المعنى إيضاحاً فقال :

إن مرفقيها المقتولين المتباعدين يشبهان دلوين يحملهما سقاء قوى ، إحداها فى يمينه ،
والأخرى فى يساره ، فهو لقوته يبعدها عن جانبيه ؛ حتى لا يحتكا بثيابه ، وهى
فى امتدادها وصلابة أجزائها كقنطرة رجل رومى حاذق الصناعة ، بحكم البناء ، بصير

بجاذبه وأدواته ، فهو يقسم أن بينها من جوانبها بالآجر ؛ حتى لا يصيبها وهن ، وهى من النوق المتكاملة الجمال ، فسات تحت لحبيها أحمر ، وهى قوية الظهر ، شديدة الأسر ، بعيدة الخطو ، دواره اليد ، وفى هذا البيت تقسيم رائع فى معنى وافر لا يغض من قيمته أنه تكرار لمعنى سبق ، فكأنه أراد أن يحمل بعد تفصيل ، شأن العلم بالفرائز يجمع المتفرق ؛ ليثبت فى الأذهان ، وهو إلى هذا من طرق شعراء ذلك العصر ، وأحسب أن شيئاً آخر غير العلم بالفرائز يدعو إلى التكرار هو أنهم فى أمية تحتاج إلى التقرير والتأكيد .

أحكمت قائمتاها الأماميتان أيما إحكام ، فكأنهما مفتولتان فتلا شزرا ، وأميلت عضداها تحت جنبها ، فكأنهما سقفان أسند بعضهما إلى بعض ، تجنبخ فى سيرها لفرط نشاطها (وليس بين هذا البيت والبيت الثالث . . . أمون كألواح . . . تناقض ؛ لأنه فى البيت الثالث حملها على الاستقامة بمنسأته) وتتدفق فى طريقها ضخمة الرأس ، مرتفعة الكتفين على ظهر قد علا وتسامى ، وكأن آثار النسع فى ظهر هذه الناقة وجنبيها موارد ماء ينبجس من ناقة ملساء فى أرض صلبة غليظة ، وهو تشبيه كامل الحسن ، دقيق العرض ، فقد شبه خطوط الأنساع بموارد الماء فى بياضها وامتدادها ، وشبه جنبها بالصخرة الملساء فى الصلابة والنعومة ، وجعل ظهرها صلباً كالأرض الغليظة ؛ إذ فى الظهر السنام ، هذه الموارد تبدو للعين متلاقية متجمعة حيناً ، ومتفرقة متباعدة حيناً ، فتتلاقى تحت إبطها عند مآثر بط بينها العرا ، وتتباعده عند ما ترتفع إلى الرحل ، فكأنها بنائق بيض فى قيص شقق ووصل ، وهذا البيت يتم الصورة فى البيت السابق .

ولها عنق سامق ، إذا رفعت كان كسكان النوق يسير بزورقه فى دجلة ، والتشبيه يجمع بين حركتى العنق والسكان فى ارتفاعهما حين تسير الناقة ، وحين تجرى فوق الماء السفينة ، ولها جمجمة صلبة كأنها السندان ، فكأنما طرفاها يجتمعان عند ملتقى صلب محدد تحديد المبرد ، وهو تشبيه بالغ الحسن ، قال عنه الأصمى : « لم يأت أحد غير طرفه بهذا التشبيه » ولها خد مصقول قد خلا من الشعر الذى يشين الخدود ، فكأنه

لأنصفاله قرطاس كاتب شامى ، فهو يختار لما يكتب أرق القراطيس وأبيض الورق ، ينتهى بمشفر طويل لين مستقيم ، كأنه مقدود من جلد البقر المدبوغ بالقرظ ، واستقامة المشفر دليل فناء الناقة وشبابها ، ولها عينان صافيتان متالقتان كمرأتين ثبتتا في عظمتين غائرتين ، كأنهما لغورها وصلابتها نقرتان في جبل ينبع منه أصفى الماء ، هاتان العينان تدفنان ما يمكن أن يصيب العيون من عوار أو قذى ، فهما في صفائهما وكلهما كمينى بقرة وحشية مذعورة من صائد ترقبه وتحذره على نفسها وعلى فرقدها ، والبقرة في تلك الحال أجمل ما تكون عينا ، وأحد ما تكون بصرا ، ولها أذنان سماعتان متوجستان في السرى ، سواء عندها أكان ما تسمعه مجسا خفيا أم صوتا عاليا ، أذنان دقيقتان محدودتان تحديد الحربة ، فكأنهما أذنان نور وحشى في مكان موحش ، فهو لوحده ووحشته حديد السمع ، شديد الحذر . ذات قلب عظيم الارتياح ، سريع الخفقان ، خفيف ذكى مجتمع ، كأنه الصحراء العظيمة بين أضلاع كالحجارة العراض ، وذات مشفر معلم ، وأنف مثقوب لين ، فإذا أومأت به إلى الأرض اندفعت كالسهم لا تأبه ما يعترضها .

وهي مروضة ذلول ، إن أردتها على الإسراع ابت إرادتك ، وإن شئت منها البطء أجابت مشيتك خشية سوط ملوى بحكم مقدود من الجلد ، وإن أردتها على أن تطاول برأسها العود في واسط كورها كان لك منها ما تريد ، وجميع ذاك لفرط نشاطها ، وامتلاكي زمامها ؛ حتى لتشبه إذ تسبح بعضديها الظليم الطويل الساقين .

على مثل تلك الناقة التامة التكوين ، الكاملة الأعضاء ، أقطع الفلاة التي تخيف الشجاع الجرى ؛ حتى ليقول صاحبي : ليت لى ما أفتديك به وما أفتدى به نفسى ؛ لتكتب لنا النجاة ، تكون هذه الناقة سبيل الأمان ورائد الحياة .

القصر :

وبعد ، فإن المتأمل في هذه الأبيات يستنبط منها ما يمكن أن يتخذ حكما عاما على الوصف في الشعر الجاهلي ، فهو لا يعنى بالترتيب ، ولا يبالى بمواقع الأعضاء ، فقد وصف أول ما وصف سرعة الناقة ، وانتقل من وصف سيرها إلى وصف أضلاعها ، ولم يسرف في هذا طويلا بل رجع إلى وصف منزلتها في نفسه ، وإكباره لها ، ثم عرج على وصف ذيلها ، وهكذا ، لاتراه يسير على نمط ، بل أشد ما يتأثر به هو أول ما يبدأ بوصفه .

وهو يعتمد على التشبيه كل الاعتماد في تصوير ما يشاء تصويره ، ويغلب أن يكون واضحا كل الوضوح ، فكأنه اختار لكل جزء لونه الملائم له ؛ لتكون الصورة كما يقولون « طبق الأصل » فأى جمال في التشبيه يفوق قوله :

أمون كألواح الإيران نساتها على لاحب كأنه ظهر برجد

وقد عرضنا لدقة التشبيه في تحليل هذا البيت ، وأظهرنا أن أى كلمة لا يعنى عنها غيرها ، فهي مأمونة المسير ؛ لأن أعضائها صلبة كألواح التابوت ، وهي تطوى طريقا لاحبا ، قد رسم طرفه كثرة المسير فيه فهو يظهر كالكساء المخطط خطوطا طولية ، أو قوله :

لها نخدان أكل النحض فيهما كأنهما بابا منيف ممر

لم يكف أن يشبه نخذيها بأنهما كبابى القصر في استطالتهما وتقابلهما ، فوصف القصر بأنه شاهق أملس ، لأن نخذى الساقين أملسان ، والملاسة من آثار السمعة ، أو يفوق قوله :

وعينان كالماويتين استكنتا بكهفي حجاجى صخرة قلت مورد

ولعله لاحظ في هذا البيت أكثر من علاقة بين المشبه والمشبه به ، فالعينان كالمرأتين المستكنتين في مغارة جبلية ، ولعان العينين في هاتين النقرتين كالماء ينبع من تينك المغارتين ، إلى غير هذه التشبيهات الدقيقة التصوير .

كما أن الكناية تلى التشبيه في اعتماده عليها ، وعنايته بها ؛ فالآيات التي لا تشبيه بها قد يكون فيها كناية مستملحة ، كقوله :

تبارى عتاقا ناجيات وأتبعن وظيفا وظيفا فوق مور معبد
قد كنى في الشطر الأول عن كرمها ونجاتها بمباراتها للكرائم العتاق ، كما كنى في الشطر الآخر عن سرعتها ونشاطها بإتباعها الوظيف الوظيف ، وكقوله :

تربعت القفين بالشول ترتعى حدائق مولى الأسرة أغيد
كنى عن إعزازه إياها بأنها تربع نبات الربا ، وترتعى حدائق قد أخذت حظها من الماء ، فهي ناضرة ناعمة ، وكقوله :

تريع إلى صوت المهب وتبقى بذى خصل روعات أكلف ملبد
كنى في الشطر الأول عن يقظتها وطاعتها ، ودأبم توجسها وتوقها ، وكنى عن كثافة وبر ذيلها بأنه ذو خصل ، وكنى عن شجاعتها بأنها تفوت الفحل الأكلف الملبد ، وعنه بأنه أحمر ضارب إلى السواد ، وكنى عن قوته بروعاته وبكلفه وإلباده .

وقد يستخدم الاستعارة قليلا ، وإذا جاء بها بدت متناسقة الألوان ، كاملة الظلال ، كقوله :

أمدت يداها فتل شرر وأجنحت لها عضداها في سقيف مسند
فقد صور استدارة قائمتيها الأماميتين بالقتل الشرر ، وظهرها بالسقف المتساند المتماسك الأجزاء ، وكقوله :

طحوران عوار القذى ، فتراها كمكحولتى مذعورة أم فرقد
ففى الضمير المحذوف العائد على « وعينان » استعارة ، إذ شبه العينين بإنسانين يدفعان الأذى ، ويطحران العوار .

والشاعر واسع الثروة اللغوية ، فاللغة لغته ، ولا يعيبه أن يستبدل بلفظ لفظا ، ولا يعجزه أن يعدل عن كلمة إلى أخرى ، وإن لاحظنا أنه إنما يعدل عن القريب إلى

الغريب ، وليس ذلك شأن أكثر شعراء عصره ، فلعل ذلك لأنه كان ما يزال شابا ، وللألفاظ جزالة وفتوة تستمدان من قائلهما ، أو كأنه يريد أن يظهر أنه فوق براعته في القريض يستطيع التصرف في الألفاظ ، أو أن ذلك مسلك سائر شعراء العصر الجاهلي في الوصف أو في وصف الطبيعة المتحركة بالذات ، وذلك واضح جدا في وصف النابغة وزهير وغيرها .

وطرفة لا يهتم بالأسلوب اهتمامه بالمعنى ، فقد نجد في الأسلوب ما قد يأخذه عليه الناقدون ، وذلك لأن الجاهليين كانوا يؤثرون العناية بالمعاني ، والتصرف فيها على العناية بالأسلوب ومراعاة الجمال فيه ، فما لاستلذ الأذن جرسه لتوالى الإضافات قوله :

وعينان كالماويتين استككتنا بكهفي حجاجي صخرة قلت مورد

وقوله في البيت التالي للبيت السابق :

طحوران عوار القذى فتراها كمكحولتي مذعورة أم فرقد

وإننا نشعر بأن طرفة كان رجلا خيرا ببيئته ، عالما بطبيعة بلاده خبرة وعلمًا قل أن يدركهما علماء وصف البلدان ، ونجد بصيرا حاذقا بطبائع الحيوان ، بصرا وحذا لا يجاريه فيهما علماء الحيوان في هذا العصر ، ولا أقصد حيوانا خاصا هو الناقة التي يصفها ، بل أقصد جنس حيوان بلاد العرب .

إنه في كثير من أحياته يحدثنا عن البيئة الصحراوية ، وما تشتمل عليه من صخور ملس ، أو منابع روية ، أو أحجار صلبة ، أو كهوف وأغوار ، فاستمع إلى قوله :

كأن كناسي ضالة يكتفانها وأطرقسى تحت صلب مؤيد

إن هذا البيت قد رسم لنا كناس الظبي ، وحدد مكانه ، فهو يتخذ في أصل شجرة السدر ، وصور لنا القسي في الصورة الدقيقة التي لا تدق عنها صورة .

وأما عن طبيعة الحيوان فقد عرفنا أن طبيعة الناقة ليست هي طبيعة الجمل ، وأن حياة الإبل ليست مثلها حياة غيرها ، وأن ما يستحسن في نوع منه قد لا يستحسن في سواه . هذا

تحليل الأبيات :

لم يكن بشامة من رجال الحب ، بل لم يكن ممن يتخيل الحب فيحسن تخيله ، أو يصوره فيجيد تصويره ، فجاء مطلع قصيدته دالاعليه ، منبثا عنه ، ناطقا بأن عاطفته في الغزل ناضبة جامدة ، فقد حجر فؤاده حبيته هجرا طويلا ، وكان من حق أمانة أن تكون هي الصادة عنه ، المهاجرة له ؛ إذ شأن المرأة الصد والدلال ، والهجر والإعراض ، وليس ذلك شأن الرجل في لغة المحبين ، وكأنه أحس بأنه أخطأ في حق الحب والجمال ، فقال : « وحملك النأى عبثا ثقيلًا » ولكن كيف حمله النأى العبء الثقيل ، وهو صاحب الهجر الطويل ؟ ثم يدير كلاما في النسيب ليس له من جمال الخيال نصيب يصف بعده الوداع ، وأن عينها استعبرت ، فيقول :

فبادرتاها بمستعجل من الدمع يفضح خذا أسىلا

ولا ندري لماذا لم يصبغ دمه الدامى خذه ليكون الوداع دامعا داميا ؟ ثم ينتقل إلى وصف ناقته ، فيقربها للرحيل . يقرب ناقه صلبة قوية كأنها العير الوحشي في وثاقة جسمها ، وصلابة أعضائها ، وهي شديدة ضخمة ، جريئة سريعة ، فأى صفة مستحبة تنقصها ؟ إنها متداخلة الأعضاء ، مدمجة الأجزاء ، يبدو مراحها في أدنى الأوقات إلى التحول ، ويظهر نشاطها في أحق الساعات بالكلال والملال ، وهي ساعات الظهيرة ؛ إذ يقيل كل كائن ، ويسكن كل متحرك ، ويهدأ كل حي ، حتى الظباء ، وهي رمز المراح تطلب الراحة والسكون ، وتسكن إلى الهدوء والاطمئنان .

أما الناقة فلا تشعر بتغير الجو ، ولا بتوهج الشمس ، فهي لاتسكن إلى الراحة ، لها سنام مرتفع مكتنز ، قد أزال اكتنازه وبره ، فهو أملس ناعم تزل عنه الولية زليلا ، ويسقط عنه الحلس سقوطا ، أعززت تلك النجيبة ، ففجتها حق الرعى حيث شاءت ، فهي تقطف أطراف النبات الناجم في الأرض الخصبية دون أن يزجرها راعيها ، وتستمد قوتها من أنها لا فضيل لها يمتص مُنتها مع امتصاص أخلافها ، ويرشف دمها حين يرشف لبنها ، وهي

وقور رزان لا تشور إذا ما شد راكبها زمامها ، ولا تنفر عندما يثنى إليه خطامها ، تنظر بعين حادة كأنها عين مقلب القداح ، قداح الميسر ؛ ليعرف الراجح منها ، ويحتال ليتبين الكاسب فيها . وأذنها ضخمة ينضح على جانبيها العرق غزيرا ، حتى يتجاوزها سائلا إلى الوراء في لحبيها ، فيبيلل ذلك الور الكثيف الحار ، ولكنه لا يزيل حرارته لتجمعه وتكاثفه ، ولها صدر عريض واسع ؛ كأنه طريق بين لاحب ، يتموج ويضطرب كأنه مغطى بذلك الكساء الذي يوضع فوق أعجاز الدواب ، وهي تقطع المراحل الشاسعة دون أن يدركها الأين أو يحط عليها الكلال ، فتغدو على جبل كشب ، لتمسى فوق جبل أريك ، فما أقوى احتماها ! إنها لتطأ الأرض الغليظة الحزنة ، فتحيلها لينة ناعمة ، مثلها كمثل السيد القوى العزيز يطاء بجبروته الرجل الضعيف الذليل ، فيطوى صفحته من الوجود ، متى أقبلت عليك ظفنتها لنشاطها قدتملكها الذعر ، واستولى عليها الفرع ، فهي أسرع من نعمة يطاردها ظليم قوى عداء ، وإذا أدبرت حسبتها سفينة موسوقة أطاعت الريح قلعها ، وأذغنت الريح الصرصر لشرعها ، وهي بمن فيها بحفلة متوجسة ، فهي تمخر العباب بقوتين ، وتجرى في اليم بإرادتين : قوة الريح والشرع ، وإرادة الإجفال والتوجس ، وإذا ظهرت أدرك رائبها كرمها ونجابتها دون أن يخطئ في إدراكه ، أو يفيل في تقديره ، يرى يدا منسرحة سهلة ، وهي مختلجة العضد ، مضطربة الضبع ، تمريدها سر الريح ، وتندفع قدمها اندفاع الصخرة ، ذات أضلاع تبدو تحت ظهرها عوجاء مقوسة ؛ قد تلاقى بعضها ببعض ، واتصل يمينها بشمالها ، حتى لكانها تنطاطح ، ترشد من يراها أن عظامها ضخام صلاب ، جسام شداد ، تبارى للمطى فتغلبه وتعزه ، وتسابق الركب جماع الطريق فتسبقه وتبزه ، وذلك القلب والسبق حينما تسرى ليلا ، فتبدو يداها ، وقد أرقلت إرقالا معتدلا هازة رأسها — في مرح ونشاط ، فتشاركها الإبل المبارية لها في أول مراحل السير هذا المرح وذلك النشاط ، فيمنحرفن عن الطريق كما تنحرف ، ويملن عن الصراط المستقيم كما تميل ، فإذا ما أوغلن في الطريق سرن معتدلات قاصدات لا يجرن ولا ينفرفن ؛ لأنهن فقدن تلك القوة الدافعة ، واستنفدن ذلك النشاط الحافز ، لقد أدركهن الأين والنصب ، وأصابهن التعب والوصب ، فسرن سواء السبيل حينئذ تبدو يداها كيدي

ساحج في بحر عجاج متلاطم الأمواج قد كاد يدركه الفرق ، ويطويه في قراره الماء ، وهو يطلب الحياة ، فيعمل يديه كليهما بكل ما أوتي من قوة ؛ حتى يبلغ ساحل الأمان ، ويصل إلى شاطئ الاطمئنان .

النقر :

الناظر في هذه الأبيات يجدها ممتازة بوفرة معانيها ، وتجدد الأفكار فيها ، فإذا نحن تجاوزنا الصفات العامة التي كاد يتفق فيها أغلب الواصفين كصلابة الناقة ، ووثاقة الأعضاء وسرعة السير ، وعظم السنام ، واكتناز الفخذين ، وجفاف الأخلاف ، واتساع الصدر... إذا تجاوزنا هذا وجدنا الشاعر وفق إلى معان لم يوفق إليها شاعر عداه ممن سندرهم بعده ، وهي معان تعتمد على الحس حقا ، ولكنها مع هذا بالغة الروعة ، عالية الخيال ، وذلك كقوله في وصف حدة نظرها :

توفر شازرة طرفها إذا ما ثنيت إليها الجديلا

بعين كمين مفيض القداح إذا ما أراغ يريد الحويلا

فحدة نظر الناقة صفة نعتها بها كل واصف إياها ، ولكن أحدا لم يشبهها بمثل هذا التشبيه الذي أوحى إلينا بالتفكير في إحدى عاداتهم ، وبتصور حال الحكم في اليسر ، وفيما يجب أن يكون عليه من حدة النظر ، وحسن الاحتيال ، وكقوله في وصف سرعتها في السير ، وجلدها عليه :

فمرت على كشب غدوة وحاذت بحنب أريك أصيلا

فقد صورها لنا تربط بجلدها وقوة صبرها بين المتباعدين ، وتصل بين المتناهين ، وأى قوة كفتوها ، وقد سارت اليوم كله من مطلع الشمس إلى مغربها لم يأخذ منها الكلال ، ثم إن تشبيه وطئها غليظ الحصى ، واستحالتة تحت أقدامها دقيقا ناعما بوطء القوى العزيز للضعيف الذليل تشبيه إنساني صادق فيه سمو المعنى ونبالة الغرض الذي أوحى به ، فهو يرمز إلى أن القوى يكاد يحسب الدليل مفقود الحس ، معدوم الشعور فقدان الحصى للحس والشعور ، أو أنه لا يدرك أنه كائن حتى من حقه أن يشعر بالوجود ، كما أن الحصى ليس كائنا

حيا ، فليس من حقه أن يشعر بالوجود ؛ لا بد أن بشامة نظر إلى هذا المعنى الإنسانى الرائع فقد كان إنسانا كريما ، كما كان شاعرا حكيما ، والإنسانية والحكمة تمليان هذا المعنى .

ووصفه تقابل الأعضاء بأنها تتناطح وصف دال على طول التأمل ؛ فالأضلاع والقرون كلاهما مقوسان ، والأضلاع متقابلة ، تقابل القرون عندما تتناطح ، فهي صورة تكاد تكون كاملة لا ينقص من كمالها سوى أن الأضلاع متعددة ، والقرون محدودة العدد .

وتشبيهه يمدى الناقة عند الإرقال بيدي السباح في عباب متلاطم يكاد يقضى عليه بالغرق ، فهو لذلك يبذل قصارى جهده ؛ ليصل إلى النجاة تشبيه قوى مستقيم ، وبخاصة إذا ذكرنا أن بلاد العرب غريبة فيها هذه المناظر لانعدام البحار والأنهار فيها .

والحق أن هذه القطعة من خير ما قيل في وصف الناقة ، ولو بلغ عدد أبياتها عدد أبيات طرفة لكان أحق منه بزعامه وصف الناقة ، بل لكان أحق منه بزعامه الوصف عامة ، وذلك من نواح : أسلوب بشامة أسلس وأعذب ، وتشبيهاته أدق وأقرب إلى الحقيقة ، ولعل طول الحياة ، وكثرة التجارب ، وسعة الخبرة هدت بشامة إلى ما لم يهتد إليه طرفة ، فقول بشامة في وصف تداخل أعضاء ناقته !

مداخلة الخلق مضبورة إذا أخذ الحاققات المقيلا

أقرب إلى الحقيقة من قول طرفة :

وطى محال كالخنى خلفه وأجرنة لزت بدأى منضد

وينتظم أسلوب بشامة البديع من البديع ، والرائع من جمال اللفظ ، وحق مثله في حياته وسنه أن تكون عنايته بجمال اللفظ دون عناية طرفة ، فالشباب دائما باحث عن الجمال في كل شئ ، ولكن بشامة كان يبغي الجمال في شعره دون سواه ؛ لأن حياته حرمة النظر إلى غير جمال الشعر ، فمن ذلك الجمال قوله :

إذا أقبلت قلت مذعورة من الرمد تلحق هيقا ذمولا

وإن أدبرت قلت مشحونة أطاع لها الريح قلما جفولا

وإن أعرضت راء فيها البصير مالا يكلفه أن يقبلا

ويعجبنا منه ذلك التضمن الذي يعيبه واضع قواعد النظم العربي ؛ يعجبنا لأنه مبعث تشويق ، وشغف للقارى ؛ إذ هو ينتظر في لفظة المشبه به ؛ ليتبين وجه الشبه الذى يربط بينه وبين المشبه ، وذلك فى قوله :

كان يديها إذا أرقلت وقد جرن ثم اهتدين السيلا
بدا عاثم خرّ فى غمرة قد أدركه الموت إلا قليلا

وتعجبنا دقته فى اختيار الألفاظ ، وحسبنا شاهدا البتآن السابقان ، فاختياره الإرقال دون غيره من أنواع السير دقة ؛ لأن السابح يحرك مع يديه رأسه كما تصنع الناقة المرقلة ، واختياره لفظ « عاثم » دون سابح مثلا دقة ؛ لأن السباحة تشعر بالمهارة دون العوم ، وتفضيله « خرّ » على عام مثلا دقة ؛ لأنها تشعر بالسقوط دون عمد .

وإذا كان لنا مانأخذه عليه ، فهو تكرار القافية ، لقد كان بشامة أستاذ الزهير فأكرم بالأستاذ والتلميذ .



٣ — وقال المثقب العبدى* فى قصيدة أولها :

هَلْ عِنْدَ غَانٍ لِقَوَادٍ صِدٍ مِنْ نَهْلَةٍ فِي الْيَوْمِ أَوْ فِي غَدٍ؟^(١)

حَتَّى تُلَوِّفِيَتْ بِلَيْكِيَّةٍ مُعْجَمَةِ الْحَارِكِ وَالْمُوفِدِ^(٢)

تُعْطِيكَ مَشِيًّا حَسَنًا مَرَّةً حَثَّكَ بِالْمِرْوَدِ وَالْمُخَصَّدِ^(٣)

يُنْبِي تَجَالِيدِي وَأَقْتَادَهَا نَاوِ كِرَاسِ الْفَدَنِ الْمُوَيْدِ^(٤)

عَرَفَاءَ ، وَجَنَاءَ ، جُمَالِيَّةٍ مُكَرَّبَةٍ أَرْسَاغُهَا جَلْعَدِ^(٥)

تَنْمِي بِنَهَاضٍ إِلَى حَارِكٍ نَمَّ كَرُكُنِ الْحَجَرِ الْأَصْلَدِ^(٦) : ١٧٥

* ترجمه الشاعر : هو العائد بن محسن بن ثعلبة بن وائل العبدى ، وكنيته أبو عمرو ولقبه

المثقب لقوله : يظهرن بكلة وسدلن رقما وثقبن الوساوص للعيون

وهو شاعر مجيد ، قيل عنه : « قد غرد بقصائده كل مفرد ، وأنشدت على كل مورد » . والقصيدة التى منها هذه الأبيات من أجود شعره ، وقد أجاد فيها وصف ناقته ، توفى سنة ٥٢٠ م .

التفسير اللغوى : (١) الغانى : أصلها الغانية ، ثم رخم ، أو أنه ذهب إلى الإنسان .

صد : عطشان . النهلة : المرة من التهل . (٢) تلوفيت : تدوركت . بليكية : بناقة كثيرة اللحم ، وبليكية صفة لموصوف محذوف ، واللكائك شرايح اللحم . معجمة الحاراك : مكنتزة أعلى الكاهل . الموفد : المشرب . (٣) حثك : حضك ودفعك . المروود : حديدة تدور فى اللجام . المخصد : السوط المحكم القتل ، فهو صفة لموصوف محذوف .

(٤) ينبي : يدفع . تجاليدى : جسمى وأعضاءه . الأقتاد : جمع قتد ، وهو أداة الرحل . الناوى : سنام الناقة . الفدن : القصر العظيم ، أو الصرح الضخم . المويد : الوثيق المشدد .

- كأَنتما أوبُ يديها إلى حَيْرُومِها فوقَ حَصَى القَدَقِ (٧)
 نَوْحُ ابْنَةِ الجَوْنِ على هَالِكِ تَنْدُبُهُ رَافِعِـةَ المِجْلِدِ (٨)
 لا كَلَفَتْها تَهْجِيرَ دَوِيَّةٍ مِنْ بَعْدِ شَأْوَى ليلِها الأَبْعَدِ (٩)
 سِرْفِي لَاحِبٍ تَعْرِفُ جَنَّتاهُ مُنْفَهَقِ الفَقْرَةِ كَالْبُرْجُـدِ (١٠)
 لا تَكَادُ إِذْ حَرَّكَ مِجْذافَها تَفَنُّكَ مِنْ مِثْقَـلِها وَالْيَدِ (١١)
 لا يَرِفُ الصَّوْتُ لَهَا رَاكِبٌ إِذَا المَهَارَى جَوْدَةً فِي البَدِ (١٢)
 لا تَسْمَعُ تَعَزَافاً لَهُ رَنَّةٌ فِي باطِنِ الأَرْضِ وَفِي القَرْدِ (١٣)
 لا كَأَنَّها أَسْفَعُ ذُو جُـدَّةٍ يَمْدُهُ الوَبْلُ ، وَلَيْلُ سَدَى (١٤) : ١٨٣

(٧) أوب يديها : رجوع قائمتيها الأماميتين . الحيزوم : ما استدار بالظهر والبطن أو ضلع الفؤاد . القدد : المكان الغليظ أو القلاة .

(٨) ابنة الجون : امرأة من كندة عرفت بشدة النواح حتى ضرب بها المثل . تندبه : تكيه . المجلد : خرقه سوداء كالمنديل تحملها النادبة ، وتشدها بين يديها وفوق رأسها .

(٩) التهجير : السير في ساعات المهجير عند اشتداد الحر . الدوية : الصحراء الشاسعة . شأوى ليلها : ثنية شأو، كأنه أراد شأو ليلها ونهارها ، والشأو : الغاية .

(١٠) اللاحب : الطريق البين الواضح . منفهق : متسع . الفقرة : العلم من جبل أو قلاة . البرجد : الثوب المخطط .

(١١) مجذافها : يرد سوطها ، وهو في الأصل المجذاف ، وهو خشبة طويلة مبسوطة أحد الطرفين تسير بها السفن . المثناة : الزمام .

(١٢) المهارى : الإبل للنسوبة إلى مهرة بن حيدان من عرب اليمن ، قالوا عنها : إنه لا يعدل بها شيء في سرعة جرياتها . الجودة : كالنجويد ضرب من السير . البد : الابتداء ، يقال بدأت بالشيء ، وبديت به .

(١٣) التعزاف : أصوات الحجارة التي تقذف بها الناقة إذا سارت ، وهو في الأصل العزف على ناي أو عود أو غيرها . الرنة : الصوت والصلصلة . القردد : الأرض الغليظة .

(١٤) الأسفع : الثور الوحشى في وجهه سفح ، وهو السواد الشرب بالحجرة . الجدة : خطة في ظهره تخالف لونه . يمدّه . يطويه يقال : ممدود الحلق ومعصوبه . الوبل : المطر الكثير . السدى : الندى . يقال سديت الأرض نديت .

تحليل الأبيات :

بدأ الشاعر قصيدته كأكثر شعراء عصره بالغزل المتمنى ، فهو يتمنى على غانيته أن يجد عندها رية لغواذه الصادى من رحيق ريقها العذب فى يومه ، فإن تعذر عليها فى غده ، ثم يسير فى غزل قصير يعتمد فيه على الأمانى العذاب ، وإذ لم يجد من ينيله متمناه انتقل إلى وصف الناقة فقال :

لقد تداركنى الأمر بناقة موفورة اللحم ، كثيرة الشحم ، مكتنزة الكاهل ، سميئة العنق ؛ إذا ما امتطيتها سارت بك سيرا جميلا ؛ جميلا فى لينه وهذونه ، جميلا فى إرقاله وتجويده ، فكأنك تستحشها — دون أن يكون منك حض أو استحثاث — بمرود لجام ، أو بمحكم سوط ، وهى — إذ يعتمد على سنامها جسمى ورحلى ، ذلك السنام العظيم الضخم الذى يشبه قمة القصر الفخم — تدفعنى من أرض إلى أرض ، وتقلنى من بلد إلى بلد ، هى ناقة عرفاء ، فسنامها فى اكتنازه وارتفاعه كدعص الرمل منبسط من أذناه ، يجتمع فى أعلاه ، ووجنتها ممتلئتان يغطيها لحم كثير ، ويكسوها جلد ثخين ، وأعضاؤها فى وثاقها وإحكامها ، وتداخلها وتساندها كأعضاء الجمل ، وأرساغها فى ملاستها وصلابتها كالخجر الصلد ، ووظيفها فى غلظه وشدته كالجلعد الغليظ من الأرض .

إذا سارت صعدت بعنقها حتى تسامى به كاهلها السامق الرافع الذى هو كجانب الحصن المنيع ، وكأن صوت قائمتها الأماميتين ، وهى تعود بهما فى مسيرها إلى وسط بطنها ، وضلع فؤادها فوق حصى الفدند ، كأنه نواح ابنة الجون على هالك عزيز عليها ، وقعيد كريم لديها ؛ فهى ترجع فى نواحها ، وتندب رافعة بين يديها مجلدها ، تشير به إلى الأمام وإلى الوراء .

كلفت تلك الناقة الجمالية العرفاء أن تقطع بى فى ساعة القيولة وإبان المقييل ، وحين التهاب الرمضاء صحراء واسعة ، دون أن يكون هذا الذى كلفتها إياه أول مسيرها ، بل كان بعد أن قطعت شوطا بعيدا فى يوم أيوم ، وليل أليل ، فسارت فى تلك المفازة فى طريق

واضحة ، وسبيل لاجبة ، قد قطعها وعرفتها ، فأبى بها جواب آفاق ، وجوال صحارى ،
فهي تعرف جناتها ، فتسير في طرقها المستقيمة الممتدة التي تماثل في استقامتها وامتدادها
ظهر برجد ، إذا ما حرك حاديتها سوطه في يده كادت لشدة فزعها تنزع منه زمامها ، وإذا
ماسايرت النياق المهارى اللأئى ما يزلن في أول شوطهن في حين أنها قطعت ما قطعت من
رحلة في إثر رحلة ، وسارت ماسارت من ليل في أعقاب نهار لم تحوج حاديتها إلى أن
يسمعها زجره ، بل تسمعه صوتا موسيقيا موقعا منغما ، كأنه عزف ناي ، ينبعث هذا
الصوت الموسيقى من اصطدام وظيفها بالحصى الغليظ ؛ سواء أ كان مسيرها في بطن الوادى
أو في ظهره .

كأن ناقتى تلك للجل وجهها ، وسفعة وجنتيها نور وحشى ، لون ظهره يخالف لون
وجهه ، إذ في وجهه سفح كأنه الدم المتجمد ، وظهره أبيض كأنه ملتف بالوبل الندى .

النقر :

وصف المثقب يبعد كثيرا عن وصف طرفه وبشامة ، فقد أقل من وصف الأعضاء ،
فلم يفصلها تفصيل طرفه ، ولا اجتزا ببعضا دون بعض كما فعل بشامة ، وإذا كان قد
جاراها في شيء ففي وصفها جملة بالصلابة والاكتناز ، فأجل نعمتها في الثلاثة الأبيات
الآتية :

ينبى تجاليدى وأقتادها ناو كراس الفدن المؤيد

عرفاء ، وجناء ، جمالية مكربة أرساغها جلعده

تمى بنهاض إلى حارك ثم كركن الحجر الأصلد

ولكنه تحدث عن حسن سيرها ، وسهولة قيادها ، وشدة يقظتها ، وعظم صبرها ، فأجاد
إجادة بالغة ، فهي :

تعطيك مشيا حسنا مرة حنك بالمرود والمحصد

ويعجبنا منه قوله : تعطيك فهي استعارة جميلة ، وكأنه قد شبهها كذلك بالفرس يتحكم
فيه اللجام ، ويخشى السوط المحكم المحصد ، ولكنها ليس لحاديتها ما يتحكم به فيها غير حبها

إياه ، وطاعته له ، ثم رسم يديها إلى وسط بطنها ، وأنها إذ تقدمهما وتؤخرهما في سرعة سريعة ذات صوت ورنين تشبه ابنة الجون الصائحة النادية .

وهذه صورة لا تنقصها الظلال ، فأحسب أن الغبار الذي تثيره الناقة هو لون مجلد ابنة الجون ، وتشبيه السوط بالمجداف تشبيه جميل ، فكلاهما وسيلة سير ، وكلاهما مبسوط ممتد ، وكلاهما عريض من قبضته ، دقيق في نهايته .

ونفيه عنها رفع صوت حادها لها ؛ استحثاثا لإرقاها بعد مسيرة بعيدة المدى في حين أن كراهم النياق مازال في بدء سيرها ، فيه تكريم لها ، واعتزاز بها ، ولكن فيه كذلك مبالغة وغلو ليسا من سمة الجاهلي .

ووصفه صوت وظيفها عند ما يصدم الحصى بأنه كالنعراف أن كسب الجو جمالا يشعر به من يعرف أثر الخداء والغناء في قوة الإبل عند ما تشعر بالآين والإعياء ، فكأنها تغنى لنفسها ، وتحذو بوظيفها إذا غفل راكبها عن الخداء لها .

والناظر بين أبيات الثقب وأبيات طرفة وبشامة يجد أبياتا قليلة متماثلة ، أنحكم بأن طرفة وبشامة أخذتا من الثقب ، أم أنها معان مطروقة ؟ أما أنا فأعتقد أنها معان مطروقة ، وذلك كقوله :

تمى بنهـاض إلى حارك ثم كركن الحجر الأصـلد
إذ مثله قول طرفة :

وأتلع نهـاض إذا صعدت به كسكان بوصى بدجلة مصعد
وبيت طرفة أجمل ؛ لأنه أوسع معنى ، وأدق تصويراً . ويشبه قول بشامة ابن الغدير :

تمـز المطى جماع الطريق إذا أدلج القوم ليلا طويلا
قوله :

لا يرفع الصوت لها راكب إذا المهارى جودة في البـد

وبيت بشامة أضفى مدحا مع قلة في المبالغة ؛ لأنه وصفها بالسبق طوال الطريق .
أما أسلوب المثقب فهو سلس سهل ، لاعوج فيه ولا أمت ، وفيه من التشبيهات
الجميل الجيد ، والواضح الساطع كقوله :

كأنما أوب يديها إلى حيزومها فوق حصى القدف

نوح ابنة الجون على هالك تنديه رافعة المجلد

وقد اتفق طرفه معه في وصف الطريق في الاستقامة والوضوح بأنه كالبرجد ،
وبيت طرفه أجمل ، على أن له فضلا في كثير من هذه المعاني ، فقد سبق طرفه
بفترة طويلة .



٤ — وقال زهير بن أبي سلمى * من قصيدة بدأها بقوله :

غَشِيتُ الدِّيَارَ بِالبِقِيعِ فَتَهَمَّدِ دَوَارِسَ قَدِ أَقْوِينَ مِنْ أُمِّ مَعْبِدِ (١)

وَقَفْتُ بِهَا رَأْدَ الضَّحَاءِ مَطِيقِي أَسَائِلُ أَعْلَامًا بِيَدَاءِ قَرَدَدِ (٢)

فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّهَا لَا تُجِيبُنِي نَهَضْتُ إِلَى وَجْنَاءِ كَالْفَضْلِ جَلْعَدِ (٣)

جُمَالِيَّةٍ لَمْ يُبْقِ سَيْرِي وَرِحْلَتِي عَلَى ظَهْرَهَا مِنْ نَيْمٍ غَيْرِ مُحْفَدِ (٤)

مَتَى مَا تُكَلِّفُهَا مَأْبَةً مِنْهُلٍ فَتَسْتَمِفْ أَوْ تُنْهَكْ إِلَيْكَ فَتَجْهَدِ (٥)

١٨٩ : تَرْدُهُ وَلَمَّا يُخْرِجِ السُّوْطُ شَأْوَهَا مَرْوَحًا ، جَنُوحَ اللَّيْلِ ، نَاجِيَةَ الْغَدِ (٦)

* ترجمته الشاعر : هو زهير بن أبي سلمى بن زهير الزنبي الشاعر الحكيم ، المجيد في جميع

فنون الشعر ، وبخاصة الحكمة والمدح والوصف ، ويمتاز من غيره بتفصيح شعره ، وتهذيب قريضه ، وتنقيته من كل زيف وبهرج ، حتى تخرج قصائده متينة الرصف ، محكمة البناء ، ولذلك كان له قصائد تعرف بالحوليات لأنه لا ينشدها إلا بعد عام كامل على نظمها ؛ توفي سنة ٥٩ هـ

التفسير اللغوي : (١) غشيت : نزلت . البقيع وهمد : مكانان بالمدينة . دوارس :

زوائل . أقوين : أققرن ، ورحل عنهن أهلهن . أم معبد : زوجته .

(٢) رأد الضحاء : وقت ارتفاع الشمس وانسباط ضوئها . المطية : الناقة ، ثم أطلقت

على كل ما يعتطي ظهره . أعلاما : جمع علم ، وهو ما يهتدى به في الصحراء . الفردد الأرض الغليظة المرتفعة .

(٣) الوجناء : الناقة الضخمة الوجنتين . الغليظة الحدين . الجلعد : الشديدة الصلبة .

(٤) جمالية : تشبه الجمل في عظم خلقها ، وقوة جسمها . النى : الشعم . المحفد : الأصل ،

ومثلها المحفد ، والمحكذ ، أو أن المحفد الأصل للسنام خاصة .

(٥) مأبة منهل : المأبة أن تسير الناقة نهارها ، ثم تثوب إلى المنهل للشرب عشيا .

فتستعف : يؤخذ ما عندها من السير من غير كد . تنهك : يبلغ منها بالضرب والإجهاد . تجهد : تتعب .

(٦) ترده : ترد للمنهل . لما يخرج السوط شأوها : لم يستخرج ضرب السوط كل عفوها

وما تسمح به نفسها من طاقة وقدرة وطلق . مروحا : نشيطة مرحة . جنوح الليل : ميالة في سيرها يمينا وشمالا في الليل كجنوحها في النهار ، وذلك لنشاطها . ناجية الغد : مسرعة في غدها

كَهْمُكَ إِنْ تَجَهَّدَ تَجِدُهَا نَجِيحَةً صَبُورًا ، وَإِنْ تَسْتَرِخْ عَنْهَا تَزِيدُ^(٧)
وَتَنْضَحُ ذَفَرَاهَا بِجَوْنٍ كَأَنَّهُ عَصِيمٌ كُحَيْلٍ فِي الْمَرَاكِيلِ مُعَقَّدُ^(٨)
وَتُلَوِي بَرِيَّانَ الْعَسِيبِ ثَمَرَهُ عَلَى فَرْجٍ مَحْرُومِ الشَّرَابِ مُجَدَّدُ^(٩)
تُبَادِرُ أَغْوَالَ الْعَشِيِّ وَتَتَّقِي عَلَالَةَ مَلَوِيٍّ مِنَ الْقَدِّ مُحْصَدُ^(١٠)
كُحْنَسَاءَ سَفَاءِ الْمَلَاظِمِ حُرَّةً مُسَافِرَةً مَزْدُودَةً أُمَّ فَرْقَدِ^(١١)

١٩٤ :

(٧) كهملك : هي كما يهملك منها وترجو . إن تجهد : إن تطلب جهدها وإسراعها .
نجيحة : سريمة . صبوراً : كثيرة الصبر على الجهد . تسترخ : تجعل لها السير سهلاً . تزيد :
تسير سير التزيد ، وهو ضرب من السير فوق العنق .

(٨) تنضح : ترشح . الذفري : عظم ناني خلف الأذن ، ويكثر عرق البعير في هذا
المكان . الجون . الأسود والأبيض والأول هو المراد . العصيم : البقية من كل شيء .
الكحيل : القطران أو النفط ، ويقال : إن الإبل أول ما يبدو عرقها أسود ، ثم يصفر .
قال الشاعر :

يصفر للبيس اصفرار الورس من عرق النضح عصيم الدرس
معقد : مطبوخ .

(٩) تلوي : تضرب بمنة ويسرة . ريان العسيب : تمتلئ الأصل ، وهو يعني ذنباً غليظاً ،
والعسيب : عظم الذنب ومنبته من الجلد والعظم . ثمره : تذهب به وتجي . محروم الشراب :
كناية جميلة عن عدم حملها . مجدد : لابلن في أخلافها من جد الشيء يجده كنصره ينصره
قطعه ، وشاة جداء قليلة اللبن ، يابسة الضرع ، ويقال : ناقة جدود ومجددة .

(١٠) تبادر : تسارع . أغوال : أبعاد مفردة غول ، وهو بعد المفازة ، لأنه يغتال من عبره ،
ويقال : هون الله عليك غول هذا الطريق أي خفف عليك بعده . العلالة : البقية . ملوي
من القد : مقتول من الجلد ، وهي كناية عن السوط . محصد : شديد الفتل محكمه .

(١١) الكنساء البقرة الوحشية للتأخر أبقها في رأسها . السفع : السواد في حمرة ،
والمقصود بهذا الوصف خذاها . إذ للملاطم : الحدود لأنها تلطم . حرة : كريمة عتيقة . مسافرة :
كثيرة الأسفار وقطع الأرض . مزودة : مدعورة ، يقال : زئد الرجل فهو مزود ، والاسم
منه الزؤد . الفرقد : ولد البقرة الوحشية .

تحليل الأبيات :

نزلت بديار أم معبد ، تلك الديار التي تقع بين البقيع وشهد من مدينة يثرب ، وقد درست آثارها ، واحمت معالمها بعد أن فارقتها تلك الزوجة الغالية ، ونأت عنها هذه الحبيبة الغانية .

وقفت بها مطيتي وقد انبسط ضوء الشمس ، وامتدت أشعتها هنا وهناك ، وقفت أسائل أعلام تلك البيداء الغليظة ، والصحراء الوعرة ، أسائلها أين ذهب الذين مروا بها مرتحلين ؟ ومن حزن ومن أسى أن الديار لم تجب لي نداء ، وأن الدوارس لم تلب لي دعاء ، فوثبت حزينا باكيا إلى ناقتي الغليظة ، الضخمة الوجنات ، الوثيقة الأعضاء التي تماثل الجمل في خلقها ، وانبساط جسمها ، وإن لم يبق سفرى الطويل الدائم ، ورحلى المستمر من شحم سنابها سوى أصله ، ولم يخلف منه غير رسمه ، ولكنها مع هذا الجهد الجاهد إذا ما كلفتها قطع مفازة ، أو عبور فلاة ذات مناهل وعيون لم تن في العدو ، ولم تدخر شيئا من النشاط ، شأن كرائم الإبل ، وعتاق النياق ، بل هي تبذل نشاطها كله لا تستبقى منه شيئا حتى تبلغ ذلك المنهل من دون أن تجهد بالضرب ، أو تنهك بالزجر ، ترده قبل أن يخرج السوط نهاية شوطها ، أو غاية طلقها ، ترده نشيطة مرحة ، قوية جلدة ، لم يزل منها أن سارت الليل كله ، فهي تميل يمينا وشمالا ، سريعة في العشي والغدو ، في الليل والنهار ، هي كما تريد منها بحبيبة مدعانة ، إن أجهدها بالسير الطويل ، أو الإرقال السريع وجدتها فجيحة سريعة ، مروحا نشيطة ، صبوراً جلدة ، وإن تركتها دون إجهاد سارت متزيدة ، فهي لك كما تبغى ، وهي في مسيرها على ماتهوى ، وإن نال منها الجهد ، وأدركها الأين حينئذ تنضح ذفراها بعرق أسود كأنه بقية قطران انعقد في المراحل ، وطبخ على النار في الأواني .

وهي إذ تسير تضرب بذنبها الممتلى الريان العسيب ، الغليظ الضخم المنبت ، تضرب به سابقها ، ثم تذهب به وتجيء على فرج قد حرم الشراب ومنع من الضراب ، فهي لم تحمل ولم تحلب ، ولا لبن في أخلافها ، يمتصه ويمتص معه غذاءها فصلان ، فغذاؤها وحدها

وطعامها وقف عليها دون سواها ، فهي لذلك الجلدة الصبور ، وإذا سرت بها في مهمه فيحيا أسرع بك إسراعا كأنه جرى الريح خشية أن يكون بعد المسافة في العشى سبب اغتيال ، فهي تبغى لك الحياة ، وإن كانت من كثرة أسفارك في شقاء ، وتطلب لك النجاة ، وإن أصابها من تعدد رحلاتك العناء ، وهي شديدة الخوف كثيرة الفرع ، تخاف أن تعطل بذلك السوط المحكم المقتول ، المقدود من الجلد .

ما أشبه ناقتي تلك بالبقرة الخنساء قد سفعت وجنتاها ، وهي إلى هذا الحسن والجمال كريمة عتيقة ، حرة عزيزة ، قطاعة آفاق ، جوابة أنحاء وأقطار ، شديدة الذعر ، جياشة الفؤاد ، تكاد تشبه لشدة ذعرها ، وجيشان فؤادها البقرة الرموم الحريضة على فرقدها الحسن الجميل .

النقر :

معاني هذه القطعة من قصيدة زهير تشبه شيئا وانحما معاني قطعة بشامة بن الفدير أستاذة العظيم ، فالناقة وجناء كالنحل الغليظ الضخم ، وهو معنى سبقه إليه بشامة ، بل إن بيت بشامة أجمع :

فقربت للرحل عيرانة عذافرة عنتريسا ذمولا

وإن يكن زهير قد وصفها — دون غيره ممن تقدمه — بأنها نضو أسفار ، وطيح آفاق ، وذلك إذ يقول :

جمالية لم يبق سيري ورحلتى على ظهرها من نيا غير محفد وأحسب أنه لو أكرمها لأراحها ، كما أراح علقمة ناقتة في قوله :

قدعريت زمناحتى استطف لها كترخافة كير القين مليم

وأراه متناقضا ، فقد ذكر أنه يكرمها ، ويضاعف لها غذاءها ؛ لأن فرجها محروم الشراب ، وذلك مفهوم من قوله :

وتلوى بريان العسيب تمره على فرج محروم الشراب مجدد

ثم هي مضانة من السفر ، مضانة من الرجل ، وذلك غير قول أستاذه بشامة :

لها قرد تمالك نيله تزل الولية عنقه زليلا

وكأني زهير في بيته ذاك قد نظر إلى نفسه لا إلى ناقته ، وهذا المعنى يقال عن غيره من أولئك الشعراء الذين يصفون مطاياهم بالنضو والضنى والهزال .

ولقائل أن يقول : إن زهيراً كان جواب آفاق ، فأما بشامة فقد كان قعيد داره ، لا يكاد يبرحها ، فناقته مكنتزة السنام ، وكلاهما وصف ناقته بالكرم والعنق والجنوح والنجاء ، والرح والنشاط ، ولكن معنى جديداً أورده زهير واضحاً ساطعاً ؛ ذلك أن ناقته تشعر بشعوره ، وتحس باحساسه ، فهي إذا ما أرخى الليل سدوله ، وخيف على المسافر الفتك والاعتيال :

تبادر أغوال العشى ، وتتقى علالة ملوى من القد محصد
ويؤيد هذا المعنى أيضاً قوله :

كهمك إن تجهد تجدها نجحة صبوراً ، وإن تسترخ عنها يزيد
وهذان البيتان واضحان عن قول المسيب بن علس :

مرحت يداها للنجاء كأنما تكرو بكفى لاعب في صاع
فعل السريعة بادرت جدادها قبل المساء تهم بالإسراع

ولم وصف زهير سوطه بأنه علالة ؟ لأنه قطعه بضربه إياها ؛ أم لأنها لا تحتاج إلى ضرب ، فاكتمت بالبقية الباقية منه ؛ الوجه أنه عرفها كريمة عتيقة ، فاستغنى عن السوط الكامل بملاحة منه .

وزهير يمتاز على جميع شعراء عصره بدقة التحديد ، فديار أم معبد « بالبيع قهمد » وقد كان وقوفه « رأد الضحاء » والرجل لم يبق من « نيه غير محفد » وهي « جنوح الليل ناجية الغد » وتجيء دقة معانيه تابعة للدقة في ذلك التحديد سواء أكان التحديد مكاناً أم زماناً ، معنى أم صورة .

كما أنه دائم الجنوح إلى الحقيقة ، وهذا أثر من آثار حكمته التي أخذها عن أستاذه
بشامة ، فهو لم يقل ما قاله طرفة في وصف انفراج ما بين مرقبها :

كأن كناسي ضالة يكتفانها وأطر قسي تحت صلب مؤيد
ولم يسر على نهج أستاذه ، فيقول كما قال :

وصدر لها مهيع كالتخفيف تخال بأن عليه شليلا
ولكن في الأبيات غير التشبيهات الكنايات الطريفة كقوله :

وتلوى بريان العسيب تمره على فرج محروم الشراب مجدد
وقوله :

كخساء سقاء الملاطم حرة مسافرة مزودة أم فرقد

وبعد فعانى زهير أقل من معاني من سبقوه ، وتشبيهاته أدنى من تشبيهاتهم ، ولعل ذلك
لأنه كان يؤثر الحقيقة ، وفي التشبيه نوع من المبالغة ، وصوره ليست متكاملة كأكثر
صورهم : وأسلوبه في جملة أقل رنينا من أساليبهم .



[اليداع]

٥ — وقال المسيب بن علس* من قصيدة أولها :

أرَحَلتَ مِنْ سُلَى بِفَيْرِ مَتَاعٍ قَبْلَ الْعُطَاسِ وَرُعْتَهَا بَوْدَاعٍ؟^(١)
 قَنَسَلٌ حَاجَتَهَا إِذَا هِيَ أَعْرَضَتْ بِخَمِيصَةٍ سُرُوحِ الْيَدَيْنِ وَسَاعٍ^(٢)
 صَكَّاءَ ذِعْلَبَةٍ إِذَا اسْتَدْبَرْتَهَا حَرَجٍ إِذَا اسْتَقْبَلَتْهَا هَلَوَاعٍ^(٣)
 وَكَأَنَّ قَنْطَرَةً بِمَوْضِعِ كُورِهَا مَلَسَاءَ بَيْنَ غَوَامِضِ الْأَنْسَاعِ^(٤)
 وَإِذَا تَعَاوَرَتِ الْحَصَى أَخْفَاهُهَا دَوَى نَوَادِيهِ بِظَهْرِ الْقَاعِ^(٥)
 وَكَأَنَّ غَارِبَهَا رِبَاوَةٌ تَحْزُرُ وَتَمُدُّ ثَنَى جَدِيلِهَا بِشِرَاعٍ^(٦)
 وَإِذَا أَطْفَتَ بِهَا أَطْفَتَ بِكُلِّ كَلٍ نَبْضِ الْفَرَائِصِ مُجَفَّرِ الْأَضْلَاعِ^(٧)
 مَرَحَتْ يَدَاهَا لِلنَّجَاءِ كَأَنَّهَا تَكْرُو بِكَفِّي لَاعِبٍ فِي صَاعٍ^(٨)
 ٢٠٣ : فَعَلَ السَّرِيعَةَ بَادَرَتْ جَدَّادَهَا قَبْلَ الْمَسَاءِ تَهْمٌ بِالْإِسْرَاعِ^(٩)

* ترجمه الشاعر: هوزهير بن علس بن مالك بن عمرو الرمي، خال الأعشى وأستاذه، شاعر مقل مجيد، مدح عمرو بن هند، ولقي عنده طرفة والمتلمس الشعارين، وهذه الأبيات من قصيده جيدة مدح بها القعقاع بن معبد، وكان سيداً كريماً ظريفاً يضرب بظرفه المثل، توفي حوالي سنة ٥٨٠ م.

التفسير اللغوي: (١) العطاس: الصباح. رعتها أفزعها:

(٢) أعرضت: صدت. خميصة: بناقة ضامرة الحصر، منطوية البطن. سروح اليدين: سهلة السير بهما. وساع: واسعة الخطو. (٣) الصكاء: القوة في سيرها، والتي تقارب عرقوبها. الذعلبة: السريعة. الحرج: الطويلة الضامرة. الهلواع: السريعة الحديدية المدعانة. (٤) الكور: الرجل بأدائه. غوامض: خوافي الأنساع: جمع نسع سيور الجلديشدبها الرجل. (٥) تعاورت: تداوت. دوى: صوت. نواديه: شوارده ومتفرقه. القاع: الأرض السهلة. (٦) الغارب: هنا السنام ومن معانيه ما بين الظهر والكاهل. الرباوة: منقطع الغلط من الجبل حيث استرق. الحزم: منقطع أنف الجبل. ثنى: منى. الجدیل: الزمام المجدول للفتول. الشراع: القلع. (٧) الكلكل: الصدر. نبض: حركة. الفرائص: جمع فريصة وهي مضغة بين الكتف والصدر. مجفّر: واسع. (٨) مرحت: نشطت. النجاء: الإسراع. تكرر: تلعب. الصاع: منهبط الأرض. (٩) الجدادة: ما بقي من خيوط الثوب.

تحليل الأبيات :

بدأ المسيب قصيدته في مدح القعقاع بن معبد بفزل لم يتجاوز الأبيات الثلاثة من القصيدة ، فقد صحا في بيته السادس من حله ، وأفاق من شوقه ، ورأى أن الحكمة في اجتناب الصبا ، وذلك إذ يقول :

فرايت أن الحكم مجتنب الصبا وصحوت بعد تشوق ورواح
وإذن فعلى قلبه الواله أن يقسلى عن سلمى إذا ما صدت عنه ، وأعرضت دونه ، فقال له :
تسل عن حاجتك منها بخليلة أخرى تطيعك إن أحببت ، وتقبل عليك متى أردت ،
ولا تصد عنك أو تعرض كنتك الخليفة التي أعرضت عنك وصدت ، تسل بتلك الناقة
النجيبة ، الخبيصة البطن ، الضامرة الخصر ، السهلة السير ، الواسعة الخطو ، البعيدة الشأو ،
كأنها في تقارب عرقوبها ، وقوة نشاطها نعمة تسابق الريح ، فلا تكاد تقينها إذا رأيتها
مدبرة ، فإذا استقبلتها بدت لك طويلة ضامرة ، مطيعة مدعنة ، حديدية البصر ، قوية
النظر ، وكأن ظهرها قنطرة ملساء مدبجة ، مكتنزة قد أثرت سيور الكور التي لا تكاد
ترى لتدخلها في لحمها الكثير ، حتى ملس ونعم مكان تلك الأنساع ، إذا أرقلت
فتداولت أخفافها حصى الطريق المتفرق سمعت له دويًا في الأرض الهينة الناعمة ، كأنه
صوت الريح الحنون .

أما سنامها الضخم المتعالى فأشبهه بأكمة رمل ، أوراوة جبل ، كلاهما يعلو جسما
منبسطا ، وكلاهما ينتهى بقمة متماسكة متداخلة ، وتحملك على أن تبسط المنثنى من زمامها
المفتول ، وخطامها المجدول ، عند ما تمد في مسيرها عنقا مستطيلا ، كأنه الشراع المطوى ،
أو الرقل المستعرض المتين .

وإذا تأملت ، وتدبرت محاسنها ، وأحطت بأعضائها أخذك ما تراه من قوة
في صدرها ، وامتداد في كلكتها ، ذلك الصدر الذى تنبض بالحركة الدافقة فرائضه ،
وتشتد بالخفقان السريع عروقه ، وتنسع أضلاعه ، قد نشطت قائمتها الأماميتان ، فهما
تندفمان للعدو اندفاعا ، حتى ليحسبها من يراها تدفعهما بتلك القوة تريد أن تحفر بهما

الأرض ، فهما ككفتي لاعب ماهر ، قد نشط للكرة يقذفها بكلتا يديه في أرض منخفضة سهلة ، وقد انهمك في اللعب حتى سال عرقه ، وجرى فوق أعضائه ، تلك الناقة تشبه في تتابع قائمتيها عند إرقالها امرأة تريد أن تنتهي من ثوب تنسجه قبل أن يحل بها المساء ، ويطوى النهار ، فهي تبادر إلى ما بقى من خيطها تعمل فيه يديها في قوة وإسراع .

الفقر :

يغلب على وصف المسيب الحسية البصرية ، فهو يعتمد على عينيه الاعتماد كله ، أليست ناقته « بخميصه سرح اليدى وساع » ؟ ويقاملها مدبرة ومقبلة فيقول :

صكا ذعلبة إذا استدبرتها حرج إذا استقبلتها هلواع

وكان قنطرة بموضع كورها ملساء بين غوامض الأنساع

وكانه أخذ هذا المعنى من طرفه ؛ إذ يقول :

لها مرقان أفتلان كأنما تمر بسلمى دالج متشدد

كقنطرة الرومى أقسم ربها لتكتفن حتى تشاد بقرمد

وإن قوله : « ملساء بين غوامض الأنساع » فيه تصوير واضح ؛ إذ أظهر انطواء جلد الناقة فوق الأنساع حتى ما تظهر أوتيين ، وفيه دلالة على اكتنازها ورقة جلدها ، وتصويره تعاور أخفافها الحصى بأن له دويا أوحى إلى السامع أشياء :

منها تصوير تلك القلاة التى تقطعها بأنها وعرة ، وأن السير فيها لا يهون إلا على النياق الوثيقة الأخفاف ، الصلبة الأرساع ، وتوحى بأن السامع أذنا موسيقية تعرف كيف تميز الأصوات ، وكيف تصورهما ، وأن قوتها في مسيرها أطارت الحصى ، فضرب بعضه بعضا ، وهو قريب من قول المثقب العبدى :

تسمع تعزافا له رنة فى باطن الوادى وفى التردد

وتشبيهه سنامها بأنه كربة الجبل تشبيه جميل ، وإن يكن مطروقا على ألسنتهم جميعا ،

فهو يشبهه بقمة الحبل ، والمثقب العبدى يشبهه برأس القصر ، وهو يدل على خيال حضري ، فيقول :

ينبى تجاليدى وأقتادها ناو كراس الفدن المؤيد

وتشبيهه قائمتيها الأماميتين بكفى لاعب الكرة يقذفها بكلتا يديه ليكون مرماها بعيداً . تشبيه جميل ؛ لأنه يدل على بعض ألعابهم ، وجميع تشبيهاته مستمدة من بيئته ، فغاربها ربوة مخرم ، وزمامها كالشرع أو كالدقل الذى يفضلته القدماء ، وإن كنت لا أرى ما يمنع تشبيه العنق بالشرع المطوى ، والخصى يدوى نواديه بظهر القاع ؛ وقد جرى الشاعر على الطبيعة الجاهلية ، فلم ينظر فى أبياته تلك إلى ترتيب بل كل ما عين له من معان ينظمه ، وذلك شأن الشاعر المطبوع فى ذلك العصر .



تحليل الأبيات :

بدأ علقمة قصيدته بمفاجأة قلبه في موقفه من خليلته ، أ يحافظ على سرها ، ويحكم
مكنون أمرها ، أم أنه وقد نأت عنه سيقطع صلته بها ، ثم يفشى سرها ؟

ثم أخذ يصف رحيل الغواني وأثره ، وجهالهن وسحره ومسكنهن وعطره ؛ حتى انتهى بعدئذ
إلى أن العين كالذئب اعتمدت على أحد جانبيها ناقة دهاء ، قد ظهر من فوق قتبها المحزوم في كاهلها ،
فما الدلو لهذا الليل دائم الانسكاب ، وهو بعد هذا التمهيد يسير في وصف الناقة ، فيقول :

إنه يعز ناقته ويكبرها فلا يستخدمها إلا قليلا ، قل أن يضع الرجل فوق ظهرها ،
فهو في أكثر الأحيان عريان ، لذلك هو مكتنز صلب كخافة كبر الحداد ، وقد ذهب عنها
العر ، وزال الجرب ، بما بذله من العناية بها ، فأثار القطران الخالص تشمل جميع
أجزائها ، وهذا في ذلك العصر دليل الغنى والثروة .

مثل ذلك القطران يسقى جميع أجزاء هذه الناقة كمثل الماء يسير في طرقة ومجاريه ؛
ليسقى الحدائق والرياض ، قد زالت عنها أوراق الأشجار ؛ فالقطران يسير من أعلاها إلى
أدناها ، فيتفرق على قوائمها وعنقها وذيلها وجميع أجزاء جسمها ؛ تفرق الماء يسير إلى
الرياض من المرتفعات إلى الوهاد ، فيسقيها جميعها .

هل تلحقى تلك الناقة العزيزة المكربة بأخرى الطعائن اللأئي ظنن ، وهي الظعينة
التي علق بها قلبي ؟ ولم لا تفعل ؟ وهي ناقة قوية صلبة كأنها الصخرة نضب عنها الماء ،
فبدت ناعمة ملساء ، وكأنها - وقد علا مشفرها وخدها ولحيها الزبد المختلط بخضرة
العشب - قد غسلت بالخطمي .

بمثل تلك الناقة القوية الجلدة تقطع الفلوات ، وتجاوب المغازات دون أن تبالها
أو تخشى مجاهلها ؛ تلك الجاهل التي يصوت في أقطارها اليوم ، ذلك الصوت المنكر
الضئيل المختلس ، كأنه يخاف أن يسمعه صائد فيودى به ويقضى عليه ، وهي إذ تسير
تراقب سوط راحبها ، وتنظر إليه بمؤخر عينها جلدة صورا لا تشكو سيرا ، ولا تحس
ضجراً ، مثلها في النظرة الشزراء والطرف الحذر ؛ كمثل الثور الوحشي الطاوي الكشح ،
الضامر الخصر ، المنقط الجسم ، يتوجس الشر ، فيسمع كل نامة ، ويرهب كل حركة ،
فهو لا يأمن كائناً ، ولا يصاحب مخلوقاً .

النقد :

لم يقتضب علقمة في قصيدته غزله كما اقتضبه سائر من اخترنا من شعرهم في الوصف ، فقال طرفه : « وإني لأمضى الهم عند احتضاره » وقال بشامة بن الغدير : « فحسب لي إذا هي للرحل عيرانة » .

وقال المثقب العبدى : « حتى تلوفيت بلسكية » ، وقال زهير بن أبى سلمى : « وقفت بها رأد الضحاء مطيقي » ، وقال المسيب بن علس : « فتسل حاجتها إذا هي أعرضت » .

لم يفعل كما فعلوا وإنما مهد للوصف تمهيداً طريفاً على غير عادة الجاهليين ، فقال : إن عينه مثلها كمثل الدلو تحمله ناقة دهاء قوية ، وقد مالت الدلو إلى أحد جانبيها فهي تسيل ، ثم انصرف إلى وصف تلك الدهاء .

وفي القطعة معان طريفة مختصرة لم يمر لها نظير في شعر الخمسة الشعراء الذين قدمنا لهم نماذج في وصف النوق ، فناقته عزيزة عليه عزتها على الآخرين ، ولكنه لا يرهقها كما فعل زهير ، بل :

قد عريت زمنا حتى استطف لها كثر كحافة كير القين ملموم

قد أدبر العر عنها وهي شاملها من ناصع القطران الصرف تدسيم

ومن الطريف تشبيهها في صلابتها وملاسه جسمها بالصخرة الغليظة الضخمة يجرفها السيل ، فتبقى في الماء دهراً فتزول خشوتها ، وتبقى لها قوتها ، فيقول :

هل تلحقني بأخرى الحى إذ شحطوا جلدية كأتان الضحل على كوم ؟

وهو يتخير الألفاظ الصلبة لمعانى الصلابة ، مثل : جلدية ، على كوم ، ضامرة ، كثر .

والقطعة على قصرها تدل على أن علقمة كان من مجيدى الوصف البارعين فيه ، فأى صورة كاملة للقطران يعم أجزاء الناقة أدق من تشبيهه بالماء يسيل من الروابي والنجاد إلى المنخفضات والوهاد ، فيصل جميع أجزاء الروض .

نظرة فاحصة عن معاني الشعراء في وصف الناقة

هؤلاء الشعراء الستة الذين أردنا أن نجعل منهم عناوين لبقية شعراء هذا العصر في وصف الناقة ليسوا بأشعرهم في الوصف ، وليسوا بأفوقهم في الشعر ، ولكننا اخترناهم ؛ لأنهم ينتسبون إلى قبائل متعددة ، ويعيشون في أقاليم متباعدة ، وينشئون في عصور مختلفة وإن بدت متقاربة ، فطرفة كان ينتسب إلى بكر ، ويعيش في البحرين وإن رحل منها إلى غيرها ، وكان بشامة بن الغدير غطفانيا ، ويعيش في نجد ، والمنقب عبديا ، ويعيش في العراق ، وكان زهير مزنيا ، ويعيش في نجد ، والمسيب بن علس بكريا ، ويعيش في العراق ، وكان علقمة الفحل تميميا ، ويعيش في نجد ، وليس كون بعضهم متفقيين في الوطن أنهم متفقون في الفكرة ؛ إذ كانوا جميعا ما عدا بشامة بن الغدير من الشعراء الرحالين ، وللرحلات أثر في الأدب ؛ إذ ينهل الشاعر من البيئة التي يرحل إليها نهله من البيئة التي يرحل عنها ، هذا إلى أن العراق ونجدا إقليمان واسعان مختلفان اختلافا كبيرا في نظم الحياة .

ونحن نرى هؤلاء الشعراء - ما عدا طرفة - يكادون يتشابهون في المعاني التي أوردوها ، ولم نستثن طرفة لأنه لم يشاركهم في معانيهم ، بل لأنه أورد معاني كثيرة اتسع لها طول وصفه ، وهم يعتمدون على الحس دون العطف الاعتماد كله ، وبخاصة حاستا السمع والنظر ، ولكنهم يتفاوتون في الاعتماد عليهما ، فمنهم من يؤثر النظر ، ومنهم من يؤثر السمع ، وقلما يشيرون إلى الشعور الداخلي ، ومن ذلك القليل قول زهير :

تبادر أغوال العشى وتتقى علالة ملوى من القد محصد

فقد أشار إلى إحساسها وشعورها حينما يغطيها الظلام ، ويفشأها الليل ، ولكنها مع ذلك إشارة عابرة ، ومنه قول علقمة :

بمثلها تقطع المومة عن عرض إذا تبغى في ظلماته البوم

فهو يشير إشارة مبهممة أو خفية إلى أنها تسعى جاهدة لتقطع هذه المومة بعد أن بسط الليل جناحيه الأسودين ، يشمرنا بهذا الذي يعنيه قوله : تبغى فهي وحدها الموحية بهذا الشعور .

ومع تباعد أوطانهم وأنسابهم وأعمارهم تكاد معانيهم تنبع من معين واحد ، فكلهم وصف ناقته بالصلافة والقوة ، فقال طرفة :

أمون كألواح الإيران نسأتها على لاحب كأنه ظهر برجد
وقال بشامة بن الغدير :

فقربت للرحل عيرانة عذافرة عنقريسا ذمولا
وقال المثقب العبدى :

عرفاء وحناء جمالية مكربة أرساغها جلمد
وقال زهير بن أبى سلمى :

جمالية لم يبق سبرى ورحلتى على ظهرها من نينا غير محفد
وقال المسيب بن علس :

صكاء ذعلبة إذا استدبرتها حرج إذا استقبلتها هلواع
وقال علقمة الفحل :

هل تلحقنى بأخرى الحى إذ شحطوا جلدية كأنان الضحل علىكم؟
وقال أيضا :

فالعين منى كأن غرب تحط به دهاء حاركها بالقتب محزوم
وقد استنبطت قوتها من كلمة دهاء ؛ إذ الإبل الدم معروفة بالقوة والسرعة ، فهو فى تناوله هذا المعنى غير المسيب بن علس الذى نعتها بنعوت القوة كصكاء وحرج ، فالصكاء القوية ، والحرج الطويلة ، وكلاهما غير زهير الذى صورها جملا ، وهو دون شك أقوى من الناقة وأبسط جسما ، وثلاثتهم أقل من المثقب العبدى الذى وصفها بأنها عرفاء ، ووجناء ، وجمالية ، وبأنها مكربة وجلمد الأرساغ ، فهذه خمسة نعوت كل نعت منها يشعر بالقوة والصلافة ، أما بشامة فيصف قوتها فى بيتين متتابعين :

فقربت للرحل عيرانة عذافرة عنقريسا ذمولا
مداخلة انخلق مضبورة إذا أخذ الحاققات المقيلا

أما طرفة فقد وصف أعضائها عضوا عضوا ، وصفها بالوثاقة والإحكام ، وهذا يستلزم قطعاً نعتها بالقوة والصلابة ، وكلهم وصفها بالإرقال والتجويد والتزيد ، فقال طرفة : « تبارى عتاقا ناجيات » ، وقال بشامة : « تمز المطى جماع الطريق » ، وقال المثقب العبدى : « لا يرفع الصوت لها راكب » ، وقال زهير : « كهملك إن تجهد تجدها نجيحة » ، وقال المسيب بن علس : « مرحت يداها للنجاء » . وقال علقمة : « هل تلحقنى بأخرى الحى ؟ » فإن لحاقه بأخرى الطعائن يثبت لها السرعة .

وأكثرهم تحدث عن السوط ، وإن اختلف الحديث بعض الاختلاف ، فقال طرفة : « فإن شئت لم ترقل ... » وقال المثقب : « تعطيك مشيا حسنا ... » وقال زهير : « تبادر أغوال العشى ... » وقال علقمة : « تلاحظ السوط شزرا » .
أما بشامة والمسيب فيظهر أن الرحمة التى ملأت قلوبهما دفعتها إلى أن ينسيا أداة العذاب ، لما لا يستحق العذاب ، فكلهم وصفها بالجلد والصبر والسرعة ، فما داعى السوط ؟ ووصفوها بالصبر والجلد فى كفايات طريفة ، كقول طرفة فى أول أبياته :
« وإنى لأمضى الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغدى »
إذ السير بالليل والنهار دون أن يصيبها نصب أو تعب يدل على هاتين الصفتين ، وقول بشامة :

تمز المطى جماع الطريق إذا أدلج القوم ليلا طويلا
يدل على صبرها وسرعتها فى آن ؛ لأنها تمز المطايا السائرات الليل الطويل ، وقول المثقب :
كلفتها تهجير دوية من بعد شأوى ليلا الأبعد
يدل على صبر جميل ؛ لأنها تكلف قطع الدوية ، فى المهجير بعد سير ليل ونهار ، وقول زهير :
متى ما تكلفها مابة منهل فتستعف أو تنهك إليك فتجهد
ترده ولما يخرج السوط شأوها مروحا ، جنوح الليل ، ناجية الغد
يدل على الصبر سواء أجهدها بالضرب أو الزجر ، وقد انفرد زهير بإجهادها وإنها كها ، وذلك يثبت جلال صبرها لا على قطع الطريق فحسب ، بل على كل ما يصيبها فى سبيل إبلاغ صاحبها المكان الذى يريد ، وقول المسيب :

صكاء ذعلبة إذا استدبرتها حرج إذا استقبلتها هـ
هذه الصفات تحمل معها الصبر والجلد ، وقول علقمة :

تلاحظ السوط شزرا وهي ضامرة كما توجس طاوى الكشح موشوم
يتحدث في هذا البيت عن صبرها وجلدها ، وشدة حذرهما من أن ينالها مكروه .

تلك هي الصفات الخلقية التي تناولوها ، وهي صفات ترفع أحط الأجناس إلى أعلى
مراتب الخلائق ، فكيف إذا وصفت بها الإبل التي جعلها الله من مظاهر عظمتها ، فقال :

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟ » .

أما الصفات الجسمية فقد اختلفوا فيها باختلاف طول القطعة وقصرها ، فطرفة يصف
الناقة جميعها جزءا جزءا ما عدا سنامها ، وإن استطعنا أن نقول : إن الصفات التي وصف
بها ناقته تحمل في ثناياها وصفه بالضخامة والاكتناز ، فأما بشامة فقال : « لها قرد
تامك نيه » . وقال المثقب : « بني تجاليدى وأقتادها ناو ... » وقال زهير خالفا جميع الشعراء

جمالية لم يبق سبى ورحلى على ظهرها من نيه غير محمد

فكثرة أسفاره ، وتعدد رحلاته قد أزال السنام ، فلم يبق منه غير أصله ، وقال المسيب :

« وكأن غاربها رباوة مخرم » وقال علقمة : « قد عريت زمنا حتى استطف لها »

وقد يطول بنا المقال لو استقصينا ما قالوه في الأوصاف الجسمية ، ونستطيع أن نقول :

إن كل معنى جسمي تناولوه تناوله طرفة فأحسن تناوله ما عدا السنام كما سبق لنا القول .

وكان للبيئة التي نشأ فيها هؤلاء الشعراء أوزنهم إليها أعظم الأثر في أوصافهم ،

فطرفة الناشئ في بلاد البحرين ، والتي تدل حياته على كثرة انتقال ، كما تدل على حضارة
وثقافة يجيء بمعان تدل على الحضارة كقوله :

أمون كألواح الإزاف نسأتها على لاحب كأنه ظهر برجد

فالتابوت الثمين الألواح ، والبرجد الواضح الألوان يدلان على الحضارة ، ومثل قوله :

تربعت القفين بالشول ترتعي حدائق مولى الأسرة أغيد

فنبات الربا في الحدائق التي توالى عليه المطر أنعم وأجود من سواه ، ولا يعرفه من يعيش في صحارى الأحقاف أو في النفود أو في الدهناء ، ثم جمعه الحدائق يدل على كثرتها وانتشارها ، ومثل قوله :

لها خزان أكل النحض فيها كأنهما بابا منيف ممرد

فتشبيهه الفخزين ببابي القصر المنيف دليل مدنيتهما ؛ حتى إنهم يشيدون قصورا ممردة متعددة الأبواب ، وتستطيع أن تتبع أبيات القصيدة لتجد دلائل الحضارة ومظاهر المدينة واضحة ساطعة ، وتجد أثر الحضارة في تشبيه آثار ارتطام الحصى بأرساغ الناقة بالغناء في قول المنقّب :

تسمع تعزافا له رنة في باطن الوادي وفي القرد
وفي قول المسيب :

وإذا تعاورت الحصى أخفافها دوى نواديه بظهر القاع
أما آثار الثقافة في شعر طرفة فمظاهرها كثيرة كذلك ، ومنها قوله :

كقنطرة الرومي أقسم ربها لتكتفن حتى تشاد بقرمد
فهو قد أشرنا بأن الروم يحسنون البناء ، ويمجدون فن الهندسة ، وقوله :

وخذ كقرطاس الشامي ومشفر كسبت اليماني قدّه لم يحرر

ففي هذا البيت صورة لقرطاس الشامي ، فهو رقيق أبيض عريض ؛ لأنه يريد وصف خد الناقة بهذه الصفات ، ولأن هذه الصفات من أسباب الجمال في النوق والمشفر كسبت اليماني نستشعر منه أن سبت اليماني أحمر لين مستقيم ؛ لأن هذه صفات المشفر الجميل ، وقوله :

وعينان كالماويتين استكتتا بكهفي حجاجي صخرة قلت مورد

فتشبيه العين بالمرأة يدل على ثقافة وحضارة ؛ إذ هو يعرف في المرأة الصفاء ، وكثرة العرب تشبه العين بالنبع ، أو النبع بالعين ، أما تشبيهها بالمرأة فلا .

على أنه لا ينسى البادية بل يذكرها ، فالفاظه في جملتها من أجزل ألفاظ البادية ، والكثير من معانيه وتشبيهاته وكنائياته أضفت عليه البادية الكثير من القوة والرصانة ، وذلك كقوله :

ترجع إلى صوت المهيب وتتقى بذى خصل روعات أكلف ملبد
فهذه السكنايات في البيت من ملاحظات أهل البادية ، وكتوله :
كأن كناسي ضالة يكتفانها وأطر قسي تحت صلب مؤيد
لها مرقان أفتلات كأنما تمر بسلي دالج مقشدد
كلها من إملاء البيئة البدوية التي لا تشوبها شائبة من الحضارة ، فإن القسي من أدوات
الغابة لا من نبات الحديقة .

وهذا الذي ذكرناه عن طرفه يذكر بعضه عن الشاعرين الآخرين المنتسبين إلى العراق ،
ونقول بعضه لأنهما لم يطيلا كما أطال ، ولم يكن لهما ماله في ذلك الجال ، وإن يكن لهما
من الصور الشعرية ما يملأ النفس روعة ، كقول المثقب العبدى :

كأنما أوب يديها إلى حيزومها فوق حصى الفدند
نوح ابنة الجوف على هالك تنديه رافسة المجلد
فهذه صورة واضحة كاملة لحركة القائمتين الأماميتين لا تنقصها ألوان ولا خفقان ، وهذه
النفمة الموسيقية التي تصورها المسيب بن علس فأحسن تصويرها لا يمكن أن نقض من
شأنها بالإشارة إليها دون عرضها ، وهي قوله :

وإذا تعاورت الحصى أخفافها دوى نواديه بظهر القاع
أما الشعراء النجديون وهم بشامة وزهير وعلقمة ، فمع أن اثنين منهم كانا حكيمين ،
والحكمة توحى إلى صاحبها بالركة والسهولة ، واللين والسباحة فإنك تشعر أن للبيئة فيهما
مالها في غيرها ، فاستمع إلى هذا البيت ينشده رجل هو قعيدة بيته ، وحكيم قبيلته ، وهو
بشامة بن الفدير :

فقربت للرحل عيرانة عذافرة عنتريسا ذمولا
أربع كلات كأنها منحوتة من الصخور في بيت واحد ، ولو أنها وزعت في إحدى المطولات
لألبيتها شملة الأعراب ، ثم قوله .

لها قرد تامك نيه تزل الولية عنه زليلا

أما تلميذه زهير ؛ فشأنه هو شأنه المعروف رقة لفظ وعذوبة أسلوب ، فإن خرج عن طبعه فلأن الكلمة التي قهر عليها مما لا يغنى عنها غيرها ، أو لأن الشعراء جرت بها أسنتهم ، فصارت كالجزء من وصف الناقة ، وذلك كقردود وجلعد ، ومزوءة ، فأما علقمة فقد كان شعره جميعه منخولا مصفى ؛ حتى أخبر عنه حماد الراوية قال : « كانت العرب تعرض أشعارها على قریش ، فما قبلوا منها كان مقبولا ، وما ردوا منها كان مردوداً ، فقدم عليهم علقمة بن عبدة فأنشدهم القصيدة التي منها هذه الأبيات ، فقالوا : هذه سمط الدهر ، وكان الفرزدق يقول عنه :

والفحل علقمة الذي كانت له حلل الملوك كلامه يتنخل

وقد قدمنا أنه كثير الرحلات فلعل هذا من أسباب رقة شعره ، ويعجبنا منه ذلك الخيال في قوله يصف مسيل القطران الخالص على أطراف الناقة :

تسقى مذائب قد زالت عصيفتها حدورها من أنى الماء مطوم

فالقطران لا يجدى الجدوى كلها إلا إذا كان جسم الناقة خاليا من الشعر ، وهو ما أشار إليه بقوله : « قد زالت عصيفتها » وقوله في وصف خضرة مشفرها من أثر الرعى :

كأن غسلة خطمي بمشفرها في الخلد منها وفي اللحيين تلغيم

كما يعجبنا قول زهير في وصف عرقها خلف أذنيها :

وتنضح ذفراها بجون كأنه عصيم كحيل في المراجـل معقد

فهذا الوصف لعرق الإبل الذي يتحدثون عنه بأنه أسود في أول أمره ، ثم ما يليث أن يصفر حتى يصير كالقطران المطبوخ تشبيه دقيق يدل على علم بدقائق حياة الإبل .

وبعد فهذه نظرات فاحصة قد تكون إلى الإيجاز أقرب منها إلى الإطناب ، ولكنها مع ذلك محصية مستقصية ، فهي إتمام لما بدأناه في تحليل القطع الست ، وإيفاء لما قد نكون عهدها عبراً ، وإيحاء إلى من يريد أن يتبين أصول وصف الناقة في العصر الجاهلي ، وحسبك من الزاد ما بلغك الحل ، ومن النقد ما رسم لك الطريق .

تحليل الأبيات :

غنى امرؤ القيس في معلقته الخالدة خلود الفن والأدب بواحد وخمسين بيتاً أودع فيها ألواناً من الفن ، وأفانين من الجمال ، مختلفة مؤتلفة ، مختلفة لاختلاف أصواتها ، مؤتلفة لاختلاف أوصافها ، فهي جميلة رائعة ، سواء أكانت في وصف الأطلال أم في وصف أم الحويرة ، أم في وصف يوم بدارة جلجل ، أم في ذلك الحوار الأخاذ بالألبياب بينه وبين عزيزته ، أم في وصف مغامراته في سبيل حبه ، ومخاطراته ليقضى حق قلبه ، أم في وصف الليل وهوله ، أم في خدمته لآله وصحبه ، أم في قطعه وادياً كجوف العير تموى فيه الذئاب ؟ أليست هذه كلها أصواتاً مختلفة ، وألحاناً متباينة ، ولكنها مع هذا متسقة المعاني ، متسامية الخيال ؟ وإذن فهي مختلفة مؤتلفة .

والشاعر لم ينبهر لطول الغناء ، ولم يبيع صوته لكثرة الإنشاد ، بل زاده ذلك جلاء ووضوحاً ، وحسن نغمة ، وجمال ترجيع ، فأخذ يغنى بمحاسن جواده .
وامرؤ القيس الشاعر هو امرؤ القيس الفارس الذى صادق الخيل فتى وشاباً ، ورجلاً وكهلاً ، الذى صادقها فى لهوه وجدده ، وسلمه وحربه ، وصيده وطرده ، فكانا الكريمين فى صداقتهما ، وفاء فى الشدة والرخاء ، وصفاء فى السراء والضراء ، فليس غريباً أن يغنى بمحاسن جواده خمسة عشر بيتاً ، فيقول :

قد أغدو بكرة مرحاً نشيطاً ، وأى نشاط أوفر من نشاط أسبق به رمز النشاط ، أسبق به الطيور التى لا تزال فى وكراتها لما تصح لتشقشق وتفرّد ، أغدو معتلياً صهوة جواد كريم ، قد انحسر شعره لوفرة سمته ، جواد ماض لا يقف فى طريقه كائن ؛ حتى إنه ليقيد بسرعته الوحوش الأبدية ، فما تستطيع حراكاً ، وهو الفرس النهدي العظيم ، المكر فلا يسبق ، المفر فلا يلحق ، المقبل حين تريد إقباله فلا يصد ، المدبر إذا رغبت فى إدباره فلا يرد ، وهذه الصفات متجمعة فى قوته ، لا أنه يأتيها جميعها ، كأنه فى سرعته وصلابته حجر عظيم أسقطه السيل الزاحف ، من السمو إلى الهوى ، هذا الفرس الكميّ الضخم الجسم ، المكتنز اللحم ؛ حتى ليسقط اللبد عن أوسط ظهره سقوط الصخرة للساء بالمطر

الهائل ، وهو ضامر ذابل كثير الجيشان ؛ حتى لتخال تكسر صوته إذا جرى في عدوه جيشان الماء في الرجل .

يصب هذا الجواد عدوه صبا ، فيأتي بأفانين تتيح له سبق ، في الوقت الذي أدرك الجياد السابحات الونى والكلال ، ويبدو ذلك الإعياء من أنها تثير من الأرض الصلبة الغبار ، يزلق الغلام النحيف الخفيف الذي لم يدرب على القروسية عن صهوته ، ويرمى بأثواب الفارس العنيف الماهر الشديد في جهات ثلاث ، يرمى بها إلى أعلى وإلى شمال وإلى يمين ، وهو يستدرّ عدوه ، ويوالى جريه كما تدر ذوات اللين ضرعها إدراراً متتابعاً ، أو هو في تتابع أفانين سبقه كخزروف الصبي أحكم قتل خيطه ، وتتابع كفافه في إدارته بخيط قطع ثم وصل ، فهو كالخزروف يبدأ هادئاً ، ثم يشتد شيئاً فشيئاً بين انبساط وانقباض .

ترى لذلك الفرس النهدي خاصرقي ظبي ، وساقى نعامة قصيرتين صلبتين ، وسيراً كبير الذئب ليس بالشديد ولا البطيء ، وتقرباً في سيره بين قوائمه كما يفعل ولد الثعلب عند ما يسرع إذ تقع قدماه الخلفيتان مكان قدميه الأماميتين ، فهو قد أخذ من كل حيوان أجل ما يتصف به ، فأخذ من الظبي خصره الضامر ، ومن النعامة ساقها القصيرة الصلبة ، ومن الذئب سيره المرخي ، ومن التنقل تقريب قوائمه في سيرها .

وهو مع ضمور خصره العظيم الأضلاع ، ممتلئ الجنين ؛ إذا تأملته مستدبراً رأيته يسد القضاء الذي بين قائمته بذنبه الضافي السابغ الذي يكاد يصل إلى الأرض ، في استقامة واستواء ، كأن ظهره الأملس حينما ينزع عنه سرجه قائماً أمام البيت في صفائه وملاسته مذاك عروس أو صلاية حنظل ، واختياره مذاك العروس ؛ لأنه دائم الطيب ، وصلاية الحنظل لأنه يسيل منها دهن فتلع جوانب الصلاية وتبرق ، وكذلك جلد الفرس فيه نصاعة وصفاء ، ولعان وبريق .

هذا الفرس يقيد الأوابد ، ويدرك الهاديات الشوارد ، وفارسه حينئذ يطعنها طعنة

عميقة يتدفق منها الدم غزيراً ، فيضرج نحر ذلك الفرس الكريم ، فإذا هو كالشيب
الرجل بالحناء ، لقد عرض لنا قطع من البقر الوحشى هو آية الجمال ، وعنوان الحسن ،
فظهرها بيض نواصع ، وقوائمها سود حوالك يشبهن فتيات عذراوات ، يملك صفاء
بشرتهن القلوب ، وقد أسبغن على أرجلهن ملاء سودا ذوات أذيال سابقة ، ويختلن اختيال
أولئك العذارى إذ يدرن حول صنم يقدسنه ويعظمنه ، وإذ هن فى تلك الحال الملائى
بأسباب المسرة بدوت لهن ففرعن أعظم الفزع ، وأدبرن متفرقات ، وكن من حين متجمعات
مختالات ، فبدون فى تفرقهن كالجزع سائر أبيض وأطرافه سود ، وقد فصل بعضه عن
بعض بجوهر كريم ، يزدان به عنق غلام نبيل ، فهو كريم الأعمام والأخوال ، ولكن
تفرقهن لم يغنهن شيئاً ؛ إذ ألحقنا الجواد الكريم بالسوابق منهن ، وترك من خلفه الجواخر
المتخلفات ، فإدراكه للأوائل كفيل باقتناص الأواخر .

وهى إذ تفرقت تفرقت جماعات ، فعادى بينها عدااء ، ووالى الجرى موالاة ، بين
ثيران ونعاج ، فأدركهن لم يحده الإدراك ، ولا أشقاء العدو ، فلم يسئل منه عرق ، فيفسل
جسمه .

النقر :

والناظر فى هذه الخمسة عشر بيتاً يجد ضرباً من الوصف رائعة ، وألواناً من الجمال
فاتنة ، تشع ألفاظها معانى أوسع مما تعارف عليه اللغويون ، وتصب معانيها صوراً لا يخلق
مثلها المصورون ، بل هى ترسل وميضاً تشعر به ولا تصوره ، فهى مفعمة بالصور الكاملة ،
زاخرة بالحياة النابضة ، فكأنك حيالها فى ميدان أو فى حلبة فرسان .

أى حياة نابضة أوضح من حركة الكر والفر ، والإقبال والإدبار ؟ كلها فى شطر
واحد ، إن هذه لا تصدر عن جواد فى لحظة ، ولكنها تلح فى حلبة ، وإننا لتتخيل
الصخرة العظيمة تسقط من شاهق ، فتمتلئ القلوب من سقوطها هلعاً ، قد تتصورها ،
ولكننا نعجز عن تصور أثرها فيمن تسقط عليه ، إلا أننا نستشعره إذ نسمع :
« بكلمود صخر حطه السيل من عل » .

وأى حياة خافقة نابضة أقوى من حياة تستقصيك جميع حواسك ، فترى منها
وتسمع ، ولا تكتفى بالسمع والبصر ، بل تطالبك باللمس وبغير اللمس ؟ هذه الحياة تبدو
في قوله :

على الذبل جياش كأن اهتزاه إذا جاش فيه حميه غلى مرجل

إن الألفاظ مع قوتها لا تغنيك شيئاً كثيراً في تصور « اهتزاه » ولا في تصوير « غلى
مرجل » وتخيّل حيواناً يتألف من جملة أجزاء لعدة حيوانات ؛ حيوان له خصر كخصر
الظبي ، وساق كساق النعامة ، وسير كسير الذئب ، وتقريب كتقريب التفتل ، أليس
ذلك الحيوان سيكون نوعاً فريداً بين سائر أنواع الحيوان ؟

وإنك لتتخيل الغلام الغر بالقروسية يعتلى صهوته ؛ بل صهواته ، وفرق بعيد بين
اللفظين وإن أديا معنى واحداً ، فإن هذا الجمع يشعر بالنعامة والضخامة ، والحول والهول ؛
حتى ليكاد الغلام يزل دون ركوب ، إنه لن يثبت على ذلك القرس الجبار ذي الصهوات ،
لن يثبت عليه لا لجوحه فهو عتيق أصيل ، ولكن لاندفاعه فهو القوى الشديد ، وتتصور
صورة ذلك الفارس العنيف العنيد تتطاير أوثابه ، فلا يستطيع جمعها ، فهو مشغول بجسمه
عن ثوبه ، وتتصور أوثابه تتطاير في جميع الجهات ، فكأنها جناحان لطائر جارح .
وتتخيل حرارة طفل قد أحكم قتل خيطها ، وأجاد اللعب بها ، إنك لا تستطيع أن
تبين الخدروف لسرعة دورانه ، ولتتابع حركة الصبي به .

وأمرؤ القيس هو الشاعر الذي يستطيع - دون تكلف - أن يفعم قصائده بالصور
المتكاملة الظلال ، فلنعد هذا النوع لنقف وقفة قصيرة عند نوع آخر تظهر فيه عبقريته .

الدقة في التعبير سمة امرؤ القيس الظاهرة ، وآيته السافرة ، فتأمل هذا البيت :

كميت يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل

فحال متنه وسط ظهره ، وهنا تبدو الدقة ، فقد يزل اللبد لأنه لا يتوسط الظهر ، ولكنه
وقد توسطه لا يزل إلا لملامسة ظهره ، واكتناز لحه ، ومثل :

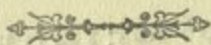
مسح إذا ما السابحات على الونى أثرن الفبار بالكديد المكل

قد يشور الغبار إذا كانت الأرض رملية أو متربة أو سهلة ، وليس في ثورانه حينئذ ما يدل على الونى أو الكلال ، وإنما الذى يدل عليهما هو إثارة الغبار من الكديد ، ومثل :

ضليع إذا استدبرته سدّ فرجه بضاف فوق الأرض ليس بأعزل
قد يكون الذيل ضافيا سابغا ولكنه معيب ؛ لأن صاحبه يتعثّر فيه لطوله فى عدوه ،
ولذلك احتس من هذا المعنى بقوله : « فوق » دون فوق لتفيد قربه من الأرض دون
ضفوه عليها .

وتستطيع متابعة التأمل لتحكم بأن الدقة يراعيها كل المراجعة ذلك الشاعر الذى حكم
له بأنه استنبط للشعراء معانى ، وفتح لهم فى الشعر منابع وعيوننا .

وليس عجبا على امرئ القيس أن ينال زعامة الشعر ، وأن تكون أقوى أسباب زعামته
وصف فرسه ، فقد صاحبه من مهده إلى لحدّه ، وبين الصاحبين مجاورة هي أقوى عوامل
الإجادة والإحسان .



٢ - وقال بشر بن أبي خازم * من قصيدة أولها :

ألا بان الخليطُ ولم يزاروا وقلبك في الظَّعائن مستعار^(١)
فأبلغ إن عرضت بنا رسولا كنانة قومنا في حيث ساروا^(٢)
كفينا من تغيب واشتبحنا سنام الأرض إذ قحط القطار^(٣)
بكل قياد مُسنفة عنود أضر بها السالْحُ والفوار^(٤)
مُهارشة العنان كأن فيها جرادة هبوة فيها اصفرار^(٥)
كأن بين خافئ عقيب تقلبني إذا ابتل العذار^(٦)

* ترجمه الشاعر : هو بشر بن أبي خازم بن عمرو بن عوف شاعر مجيد وفارس مغوار ، وهو ينتسب إلى بني أسد ، وقد كان يهجو أوس بن لأم الطائي هجاء مقنعا حتى ذكر في هجائه أمه ، فتحين له أوس الفرص حتى أسره في إحدى حروبه مع طي ، وكان أوس قد أهدر دمه إن مكن الله منه ، فقالت له أمه : خل الرجل فإنه لا يمحو ما قاله غير لسانه ، فعفا عنه ، فجعل بشر مكان كل قصيدة هجاء قصيدة مدح ، توفي حوالى سنة ٥٣٠ م .

التفسير اللغوي : (١) بان : بعد . الخليط : المخالط أو المخالطون يطلق على المفرد والجمع ، وهم الأحياء . الظعائن : جمع ظعينة ، وهى الإبل فوقها الهوداج فيها النساء . مستعار : مأخوذ منك معهن .

(٢) عرضت بنا : تحدثت عنا . رسولا : رسالة . قومنا : بدل من كنانة .
(٣) كفينا : حمينا . اشتبحنا : جعلناها مباحة لا أحد يحميها ، سنام الأرض : نجدها . قحط : القطار : قل المطر ، ونضب الغيث ، فأجذبت الأرض وأمحلت .

(٤) قياد : عنان . المسنفة : الفرس شد عليه السناف ، وهو لب يشد من وراء السرج . إلى صدر الفرس لثلا يتأخر السرج . العنود : التي تعاند الفارس فتأبى إلا قطعها . السالْح : المراقب والثغور . الفوار : الغارة ، وهو مصدر لغاور .

(٥) المهارشة : المقاتلة . العنان : جلد اللجام ، وتقاتله لنشاطها ومرحها . الهبوة : القبرة ، وخص جرادة الهبوة لأنها أشد طيرانا ، ثم خص الأصفر ، لأنه ذكر الجراد ، وهو أخف من الأنثى في الطيران .

(٦) الخافية : جمعها خواف الريش الصغير ، وضدها القوادم . عقاب : نسر . ابتل العذار : كناية عن العرق ، والعذار : الشعر الذى يحاذى الأذن .

نَسُوفٍ لِلحِزَامِ بِمِرْقَتَيْهَا يَسُدُّ خُوءًا طُبَيْهَا الثُّبَارُ (٧)
 تَرَاهَا مِنْ يَبِيسِ الْمَاءِ شُهَبًا مُخَالِطَ دَرَّةٍ مِنْهَا غِرَارُ (٨)
 يَكُلُ قَرَارَةً مِنْ حَيْثُ جَالَتْ رَكِيَّةٌ سُنْبُكٍ فِيهَا انْهِيَارُ (٩)
 كَانَ حَفِيفٌ مُنْخُورُهُ إِذَا مَا كَتَمَنِ الرَّبُّو كَبِيرُ مُسْتَعَارُ (١٠)
 وَجَدْنَا فِي كِتَابِ بَنِي تَمِيمٍ « أَحَقُّ الْخَيْلِ بِالرَّكْضِ الْمَعَارُ » (١١)
 يُضَمَّرُ بِالْأَصْـ نَائِلٌ فَهُوَ نَهْدٌ أَقْبُ مَقْلَصٌ فِيهِ اقْوَرَارُ (١٢)
 كَانَ سَرَاتَهُ ، وَالْخَيْلُ شُعْتُ غَدَاةٌ وَجِيفُهَا مَسَدٌ مُغَارُ (١٣)
 ٢٤١ : يَظْلُ عَارِضُ الرُّكْبَانِ يَهْفُو كَانَ بَيَاضُ غُرَّتِهِ خِمَارُ (١٤)

(٧) نسوف : دفعوع . خواء : خلاء طبيعتها : مثني طبي ، وهو من الفرس ما يشبه الخلف من الإبل ، والضرع من ذى الحف .

(٨) ييبس الماء : متجمده ، ويقصد جاف العرق . شهباء : بيضا . الدرة : كثرة العرق . والغرار : قلته .

(٩) القرارة : الأرض الطمينة . الركية : موضع حافر في الأرض ، وأصلها البراء . السنبك : مقدم حافر الفرس . انهيار : سقوط .

(١٠) الحفيف : صوت نفس الفرس . المنخر من الفرس ما يشبه الأنف من الإنسان . الربو : النفس المرتفع . الكبير : النفاخ الذى ينفخ به الحداد ناره . مستعار : مأخوذ ثم يرد . أو متداول من تعاوروا الشيء إذا تبادلوه .

(١١) الركض : دفع الفرس للعدو . المعار : الضمر ، أو المنتوف الذنب ، أو المسمن ، أو المتروك دون قيد حرأ ، وكلها تصلح لأنها دليل العناية به .

(١٢) يضممر : يصير ضامرا . الأصائل : جمع أصيل ، وهو الوقت بعد العصر وقيل المغرب . نهـ : قوى ضخم . أقب : ضامر البطن . المقلص : المشمر الطويل القوائم . الاقورار : الضمور . (١٣) سراته : أعلاه ، ويقصد ظهره . شعـ : جمع أشعث ، مغبرة . غداة : صبيحة . وجيفها : إسراعها . مسد مغار : حبل مفتول محكم القتل .

(١٤) يظل : يستمر سائر النهار كله . يعارض الركبان : يبارى الحيوـ وينافسها . يهفو : يسرع . الغرة : البياض في جهة الفرس . الخمار : القناع .

تحليل الأبيات :

يتحسر بشر حسرة موجهة أن رحل عنه خطاؤه . وفارقه خلاصاؤه دون أن يهيئ له الدهر السعادة بمرآهم ، فقلبه قد استعارته هذه الظعائن ، ثم يسير مسيراً طويلاً في عرض حنينه ، ونعت وجده ، ووصف جمال هؤلاء الظعائن ، ومن ثم ينتقل إلى أغراض آخر تصل به إلى وصف فرسه فيقول :

أبلغ أيها الخليل إن تحدثت عنا ، وجرى على لسانك ذكرنا لدى قومنا بني كنانة ، حيث اتجهوا وساروا ، وكيفما كانوا وصاروا ، أننا كفينا من تغيب منهم مئونة الحرب ، وتحملنا دونهم أعباء القتال ، وأننا استبحنا حرم المجد ، واستفتحنا سنام الأرض ؛ إذ الفيث ضنين ، والمطر بخيل ، والقطار لا يعطى ولا يجود ؛ فالناس في قحط وإعدام ، والقوم في جذب وإحمال ، نحن حينئذ نقتحم كل منيع ، ونبلغ كل حصن حصين ، فننزل حينها يغيض الماء ، ويقطع المطر حيث نشاء ، بكل فرس جواد قد شدت لها السناف ، حتى لا يسقط عنها سرجها عندما يغلى رجلها ويشدت عدوها ، وهي عنود للأرض ، مطواعة للفرس ، فتأبى في عنادها إلا أن تطوى الأرض طيا مهما يطل الأمد ، وتنسع الشقة ، وهي فرس كريمة قد اختيرت لحماية الثغور ، ومراقبة المسالح حتى أضنتها ، وانتخبنا للمرابطة عند الحدود حتى أضرتنا ، وعودت شن الغارات حتى تعودتها ، هي آية في النشاط حتى إنها لتعارك العنان ، وتعرك اللجام ، تريد كراً وفرأ ، وفارسها يعني منها سكوناً وانتظاراً ، فهو لا يفتأ طائراً وما يزال متوثباً ، كأني حيناً أعتلى صهوةها ، وأمتطى منها ، وتأخذ في العدو حتى يجري حميمها ، ويسيل عرقها فيبتل عذارها ، كأني أمتطى خافيتي عقاب ، تميل بي كل الليل ، تدفع بمرقبيها حزامها حيناً تشتد في السبح بيديها ، فيسد ما بين طبييها الغبار الثائر من بين سنابكها .

ترى الخليل التي منها فرسى تلك حيناً يحف عرقها فوق أجزاء جسمها ، وقد خالط

كثيره قليله ، وامتزج غامره بفراره ؛ تراها بيضا لوامع ، وشهبها سواطع ؛ إذا سارت تلك الخيول في أرض سهلة مطمئنة أثرت فيها سناكبها الصلاب تأثيرا بالغا ، حتى لتبدو هذه الآثار كالحفائر المنهارة ، أو الآبار المطمورة ، وكأن صوت ذلك الفرس عندما يشتد عدوه ، وتكتم الخيول أنفاسها في مناخرها كير حداد قد استعاره مستعير ، فهو شديد الحرص على أن يرده إلى صاحبه فور وقته ، فهو ينفخ فيه بشدة ، ليقضى به حاجته قبل أن يضطر إلى رده لصاحبه .

ونحن نسمن خيلنا ، ونكرم أفراسنا ، حتى تكون على العدو في الحرب قوية الإغارة ، وتظهر قديرة على الركض ، فقد نقل عن بنى تميم أن أجدر الخيل بالركض المضرة المسعنة ، وهو يشير بهذا إلى قول أحد شعراء بنى تميم القدامى :

أعبروا خيلكم ثم اركضوها أحق الخيل بالركض الممار

فرسى هذا موضع عنايتي ، ومحل تكريمي ، إنا أنا أضمره أصيل كل يوم ، وهو نهدي ضخم ، ضامر البطن مشعر القوائم ، كأن ظهره وقد اغبرت شعور الخيل ، وتشعثت أعرافها من طول السفر ، وتغيرت ألوانها من غبار الطريق ساعة سيرها السريع ، كأن ظهره جبل شديد القتل محكم البرم ، يشبهه في شدته وامتداده ، واملاسه واستوائه ، يظل يومه الأطول يعارض كرائم الخيل ، ويبارى المذاكي العتاق ، فهو يهفو ليسبقها ، ويمدو ليبيها ، هو وضاح الغرة ، مشرق الجبهة ، كأن غرته الحمار الأبيض يغطي رأس المليحة الفيداء .

النقد :

بشر في هذه الأبيات يتفق مع امرئ القيس وقد كانا متعاصرين في بعض معانيه ، ويختلف معه في البعض الآخر ، ولكنه على أي حال لا يبلغ مبلغه ، ولا يعدو في طلقه ، وإن تكن المعاني التي انفرد بها بشر معاني جيدة ، منها : الطريف المبتدع ، والجمل المخترع ، وهذه نظرة فاحصة لذلك الذي أجهلناه :

قال امرؤ القيس في وصف جيشان جواده عند عدوه :

على الذبل جيش كأن اهتزاه إذا جاش فيه حميه غلى مرجل

وقال بشر :

كأن حفيف منخره إذا ما كتمن الربو كبر مستعار

وبيت امرئ القيس أدق في الوصف والتصوير ، فالفاظه تكاد تشعر بك بصوت الشهيق والزفير اللذين يصدران عن الفرس عندما يشتد عدوه ؛ فقد جمع امرؤ القيس في بيت واحد بين جيش ، واهتزاز ، وحميه ، وغلى ، ومرجل ، وكل هذه الألفاظ توحى بالصورة التي يريد الشاعر ، فوق أنه وصفه في أول البيت بالضمور ، وإسناد الجيشان إليه مع الضمور فيه بقطة حسية . فقد يكون مبعث الجيشان الضخامة والسمنة والاكتناز ، أو الهرم ، أو غيرها .

أما بيت بشر فإنه وإن يكن دون بيت امرئ القيس ، فإن فيه حسنا مبعثه الإشارة إلى توالى التنفس وتتابعه بقوله : « كبر مستعار » ولكنه على أيّ دون بيت امرئ القيس ، والبون بينهما شاسع .

ومن المعاني التي اتفقا فيها وصف الفرس بالملاسة والصلابة ، فقال امرؤ القيس :

كأن سراته لدى البيت قائما مذاك عروس أو صلاية حنظل

وقال بشر :

كأن سراته والخليل شعث غداة وجيفها مسد مغار

وكلا البيتين يشتمل على معان غير الملامسة ، فامرؤ القيس وصف الظهر بالصفاء ، ولم يرد هذا المعنى في بيت بشر لأن المسد لا يوصف بالصفاء ، وأشعرنا بطيب ريحه بنسبة المذاك إلى العروس ، وباللعان بنسبة الصلاية إلى الحنظل ، وجميع هذا خلا منه بيت بشر ، ولا أظن أن من المستحسن أن يكون الظهر كالخليل المبرم المقتول ، فاستواء الحبل مهما أحكم قتله غير ملاحظ ، فهو ينثى وينطوى ، والجمال في البيت يبدو في قيد استقامة ظهره عند مباراته

الخيول الأخرى ؛ لأن الفرس حينئذ يشتدّ ظهره شداً قويا ، ووصف الخيل بأنها شعث
أشعر بأن فرسه ليس كذلك لأنه يغسله ، وإن لم يواته اللفظ الدال على صفائه كما واتى
امراً القيس .

أما المعاني التي انفرد بها بشر ، وهي معان جميلة طريفة فمنها :

مهاشة العنان كأن فيها جراحة هبوة فيها اصفرار
كأن بين خافيتي عقاب تقلبني إذا ابتلّ العذار

فن شأن كرائم الخيل أن تعلق الجامها ، وتشدّ عنانها كأنها تقاتله ، وعدم تشبيهها
بالجراحة بأن جعل الجراحة جزءاً من أجزائها معنى دقيق ، وعمق في التصور ، ثم تصويره
نفسه حينما يعتلى صهوتها بأنه بين خافيتي عقاب تصوير جميل ، يشعر بأنه لا يأمن على نفسه ،
وهو الفارس الجبار ، ومنها قوله :

نسوف للحزام بمرفقيها يسدّ خواء طبييها القبار

ويشبهه قول سلمة بن الخرشب ، وسيرد فيما بعد :

إذا كان الحزام لقصريها أماما حيث يمتسك البريم
يدافع حدّ طبييها وحينما يعادله الجراء فيستقيم

وبيت بشر خير من بيتي سلمة ، وأوفى منهما معنى ، وألسن لفظاً .



٣ — وقال غنرة بن شداد العبسي * من قصيدة أولها :

عَجِبْتُ عُيْلَةً مِنْ * فَنَى مَتَبَذِّلٍ عَارِي الْأَشَاجِعِ شَاحِبِ كَالْمَنْصُلِ ^(١)
وَلَرُبَّ مُشْمَلَةٍ وَزَعَتْ رِعَالَهَا بِمَقْلَصٍ نَهْدٍ لِلرَّائِكِلِ هَيْكِلِ ^(٢)
سَلَسِ الْمَذَرِ لَاحِقِ أَقْرَابِهِ مُتَقَلِّبِ عَيْثًا بِفَاسِ الْمَسْحَلِ ^(٣)
نَهْدِ الْقِطَاعِ ، كَأَنَّهَا مِنْ صَخْرَةٍ مَلَسَاءِ يَغْشَاهَا الْمَسِيلُ بِمَحْفَلِ ^(٤)
وَكَأَنَّ هَادِيَهُ إِذَا اسْتَقْبَلَتْهُ جِذْعٌ أَذِلُّ ، وَكَانَ غَيْرُ مُذَلِّ ^(٥)
٢٤٧ : وَكَأَنَّ مَخْرَجَ رُوحِهِ فِي وَجْهِهِ سِرْبَانِ كَانَا مُوَلِّجَيْنِ لِحَيْالِ ^(٦)

* ترجمه الشاعر : هو غنرة بن عمرو بن شداد العبسي ، أحد فرسان العرب وأغربتهم وأجوادهم وشعرائهم ، وكانت أمه زبيبة أمة حبشية ، وأبوه من سادات بني عبس ، وكانت العرب لا تلحق بأنسابها أبناء الإماء ، فبقي غنرة عبدا منبوزا حتى ظهرت فروسيته في حرب داحس والغبراء ، فنسب إليه وأصبح بعدئذ سيدا من سادات بني عبس توفي سنة ٦١٥ م .
التفسير اللغوي : (١) عيلة تصغير علة ، وهي ابنة عمه أحبها وشففه جها ، ولكنه حرمها ، فعاش حياته يفرد باسمها ويتغنى بجمها . متبذل : مستخف غير محتشم . الأشاجع : العروق المتصلة بأصول الأصابع . وفي عربها كناية عن الضعف والهزال . شاحب : متغير . المنصل : السيف .

(٢) المشملة : وصف للكتيبة المنفرقة في كل وجه . وزعت : فرقت . رعالها : جمع رعلة ، وهي القطعة من الخيل . بمقلص : بفرس طويل القوائم . نهدي : ضخم جميل . الرائيكل : جمع مراكل موضع ركل الفرس . هيكلي : عظيم ضخم .

(٣) سلس : لين . المذري : موضع العذار من كاهل الفرس . لاحق الأقرب : ضامر الخواصر . الفأس : الحديدية القائمة من اللجام في حنك الفرس . المسحل : حلقة في طرف الشكيمة . (٤) نهدي القطاعة : عظيم العجز . يغشاها : يقرئ بها . المسيل : مجرى الماء . بمحفل : مجتمع الماء ، وفيها كناية عن الاكتناز .

(٥) الهادي : العنق وجمعه هواد . أذل : سهل ونعم . غير مذل : غير منعم ومسهل . (٦) مخرج روحه : كناية عن فتحي منخره . سربان : مثني سرب سردابان . موليئين : مدخلين . لحيال : لضبع .

- وكان متفيه إذا جرّدته ونزعت عنه الجلّ متنا أيل^(٧)
 وله حوافر موثق تركيها صمّ النّسور كأنها من جندل^(٨)
 وله عسيب ذو سيب سابغ مثل الرّداء على الغنى المفضل^(٩)
 سلس العنان إلى القتال، فعينه قبلاه شاخصة كمين الأحول^(١٠)
 وكان مشيته إذا نهنته بالكلّ مشية شارب مستعجل^(١١)
 فعليه أقتحم الهياج تقحما فيها وأقتض انقضا الأجل^(١٢) : ٢٥٣

- (٧) متفيه : ثنية متن ، والمثن الظهر ، وهو هنا يريد جانبه ؛ لأنهما يكتنفان صلب الظهر عن يمين وشمال . جرّدته : رفعت عنه الجلّ . الجلّ : ما يوضع فوق ظهر الفرس ليصان به ، وهو كالثوب للإنسان . الأيل : نوع من الظباء ، جانباً ظهره أملسان ناعمان ، وله قرون متشعبة لا تجويف فيها .
 (٨) موثق : محكم . صمّ : جمع أصم ، وهو الصلد الصلب . النّسور : جمع نسر ، والنسر لحمه في باطن حافر الفرس . جندل : صخر صلد .
 (٩) العسيب : هو أصل عظم الذنب ومنبت الشعر منه . ذو سيب سابغ : له شعر ضاف طويل . الرّداء : الثوب . المفضل : الزائد في طول رداءه عن جسمه .
 (١٠) سلس العنان : لين القياد ، وهي كناية . قبلاه : ناظرة إلى أعلى ، ومثلها شاخصة . الأحول : الرجل ينحرف إنسان عينه إلى أحد الجانبين أو إلى أعلى ، وهو المراد هنا .
 (١١) نهنته : زجرته وكففته . بالكلّ : بحديدة اللجام . شارب : يقصد سكران . مستعجل : مسرع .
 (١٢) أقتحم : أخطرق . الهياج : كناية عن الحرب ، وهو في الأصل الثورة . تقحما : قويا مشتدا . أقتض : أثب . الأجل : الصقر .

تحليل الأبيات :

بدأ عنتره قصيدته بالفزل الباكي الحزين ، وقد كان عنتره في غزله صادق اللوعة ، فلم يبك الديار ، ولم يقف على الأطلال ، فإنما يبكيهما من سعد فيهما ، أما هو فقد تحدث عن عجب عبيلة منه إذ تراه فتى غير محتشم ، لا يبالي شيئا ، ولا يأبه حتى للدهر ، قد عرى جلده من اللحم ، وتغير لونه من هول الحرب ، فصار كالسيف رقيقا ولكنه يفرى ، ودقيقا إلا أنه يودى ، وسار في قصيدته بعدئذ في غزل مشرب بالحماسة ، أوفى حماسة ممزوجة بالفزل ، فهو « شعث المفاقر » ، « ولم يدهن حولا ولم يترجل » ، وهو « لا يكتسى إلا الحديد إذا اكتسى » .

جرى على نهجه هذا حتى بلغ وصف فرسه بعد خمسة عشر بيتا أزال فيها عجب عبيلة ، ووصف لها فيها شجاعته وفروسيته ، وليس أملك للفواني من الأبطال والفرسان ، فكأنهن يرين منهم فرسانا في الحب ، كما أنهم فرسان في الحرب ، حتى قال :

وكم من كتيبة ضخمة وزعت مجتمعا ، وفرت منظما بفرس طويل القوائم ، جميل المراكل ، ضخم الجسم ، عظيم الأعضاء ، لين القياد ، سهل العنان ، كريم لا يرتضى لنفسه الجروح ، ضامر الخصر ، لاحق الأقرب ، متلبب بحديد لجامه ، فلا تثنيه ضخامته عن تلعبه ؛ لا يثنيه مسجل ، ولا يمنعه عبثه فأس ، أو هو لا يستقر على حال ، ولا تظمن له قدم الضخامة فأس اللجام ، ولكبر مسجل الشكيمة ، عظيم الكفل ، ضخم المعجز ، فكأنه لا كتنازه باللحم ، وامتلائه بالشحم ، صخرة ناعمة ملساء ، ينزل بها السيل المنهر فلا يستقر قراره ، وكأن عنقه إذا استقبلت وجهه جذع قد صقله صاقله ، وثقفه مثقفه ، كان قبل خشن الملس ، ولكنه بعد الصقل والتثقيف قد زالت خشونته ، وبقيت له ضخامته ، وكان منخرية لانساعها سردابان مفتوحان تستكن فيهما ضبع ، وكان جانبي ظهره إذا ما نزعته عنه جلده ، وخلعت عنه ثوبه جانبا أيل ، لهما منه صفاء اللون ، ونعومة الملس ، وامتداد الظهر .

أما حوافره فوثيقة محكمة ، صلدة صلبة ، صماء النسر ، كأنها كونت من صخر ، وله

ذنب ذو شعر سابع ، وسبيب ضاف ، مثله في سبوغه وضمفوه ، كمثل الرداء يطيله السيد
الثرى ، ويضفيه العظيم الفنى .

هو فرس سلس القياد ، سهل العناق ، ليس ذلك شأنه في السلم فحسب ، إذ السلامة
مكفولة ولكن في الذهاب إلى ساحات القتال ، حيث الطعن والضرب ، والشد والجذب ،
واختلاف طعنات الفرسان ، واختلال ضربات الأقربان ، فلا أمن ساعتئذ ولا اطمئنان ،
حينئذ يظهر كرمه وعتقه ، فهو أسلس ما يكون عنانا ، وأيسر ما يرجى قيادا .

إن عينيه في ذلك الحين تنظران إلى أعلى ، وتشخصان إلى شخصي ؛ كأنما علقنا
في وجهي خشية أن يصيبني مكروه أو يلحقني سوء ، فهو ينسى نفسه ليدكر فارسه ،
فكأنهما عينا رجل أحول ، وحوله إلى ما فوقه دائما ، وهو إذ تزجره بالنكل وتنهيه
بالشك يمشى متلعبا متوثبا كمشية النشوان المبجل .

على هذا الجواد العتيق اخترق الماعم ، وأقحم المواقع ، وأثب على الجحافل وثوب
الأجادل على الحائم .

الفرد :

الآيات جميعها في أوصاف شيات الفرس ، وما أقرب الشبه بينها وبين آيات طرفة
في وصف الناقة ؛ إلا أن أوصاف طرفة كانت أدق وأجزل ، وأنت لا تحس لهذه الآيات
بالحياة والحركة التي أحسست بها في آيات امرئ القيس ، ولا تجد الصور الرائعة التي
وجدناها هناك .

غير أنى أتخيل عنقته وقد وقف بجذاء فرسه يتأمله جزءا جزءا ، ثم يرسمه عضوا
عضوا ، دون أن يسير في رسمه على نظام مستقيم ، فهو يصف قطانه وكفله ، وكان عليه أن
يصف بعدهما عسيبه وذنبه ، ولكنه يصف هاديه وعنقه .

وفي الآيات تشبيهات جميلة كتشبيه العنق بالذئع المصقول ، وتشبيه القطاة بالصخرة
الملساء ، وتشبيه المنخرين بالسربين ، وفي هذا البيت صورة ملموحة ، فالسرب يحفره

ساكنة في صخرة أوفى أصل شجرة ، والمنخر في رأس الفرس التي قد يكون فيها من أعضاء الجسم ما يشبه الثقوب والتقوى في الصخرة ، ففيها العينان ، وفيها الأذنان ، وفيها العذار ، وفيها الشفتان ، وكل هذه تقرب شبه الرأس بالصخرة غير للمساء .

وبعد فعنترة دون امرئ القيس في هذه الأبيات وفي غير هذه الأبيات ، ولكنه يبدو بشراً في هذه الأبيات وفي غير هذه الأبيات ، وليس بناقص من قدر عنترة أن يكون دون امرئ القيس ، فالعبقري لا يعاب من لا يساويه ، وأين قول عنترة في وصف ذيل فرسه ؟ وله عسيب ذو سبيب سابغ مثل الرداء على الفنى المفضل من قول امرئ القيس :

ضليع إذا استدبرته سدّ فرجه بضاف فوق الأرض ليس بأعزل

إن وصف عنترة ناقص من وجوه عن بيت امرئ القيس :

أولاً : إن رداء الفنى المفضل ينسحب على الأرض فيتمتع فيه إلا إذا رفعه بيديه ، وهذا ما احترس منه امرؤ القيس إذ قال : « فوق الأرض » .

ثانياً : أن السبيب يخالف الرداء من نواح : فشعراته غير متساوية الطول ، ولو قال : إنه ثوب ذو أهداب لكان أقرب إلى السداد ، والثوب يبدو ضيقاً من أعلى وواسعاً من أدنى ، وليس ذلك شأن الذيل .

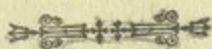
ثالثاً : بيت امرئ القيس اشتمل على صفات ثلاث : فهو ضليع ، وهو ضافي الذيل ، وذيله مستو مستقيم ، فوق أنه أشعرنا بأنه كثيف لأنه يسد ما بين ساقيه ، وليس في بيت عنترة شيء من ذلك .

هذا إلى أن في البيت صورة رجل وقف يتأمل فرساً من خلفه ، فهو يراه على الصورة التي رسمها ، ولكن عنترة أحسن وصف شعور فرسه ، إذ صورته ناظراً إلى أعلى يتأمل فارسه ، وكأنه يريد أن يدفع عنه عواذي الزمن ، فهو متأهب لهذا الدفاع ، أشعرنا أن فرسه هذا نبيل كريم ، وأن حياة فارسه أعز عليه من حياته ، فقد

لا يتقى هو طعنة قد توجه إليه ، وهو شاخص ببصره إلى فارسه ، هذا إلى أنه يشارك فارسه في ابتغاء النصر ، وإدراك الظفر .

أما اللغة فكلها تتبع من عين واحدة ، ولا تكاد تجد فرقا كبيرا بينهما ، ولكننا إذا أنعمنا النظر حكمنا بأن ألفاظ عنقرة أرق من ألفاظ امرئ القيس ، مع أن حالهما كانت تستأهل غير ذلك ، فعنقرة من عبدان العرب وأغربتهم ، وامرؤ القيس من أواسطهم وملوكهم ، وعنقرة يجب أن يكون خشن الملمس ، غليظ القول ، وعكس هذا كان يجب لامرئ القيس .

وأرى أن الجاهليين ومقلديهم كانوا يؤثرون في وصف الفاقة والفرس وما يجري مجراها اللفظ الجزل ، فالعدول عن هذا انحراف عن مذهبهم ، ولا يعتبر مزية يمتاز بها صاحبها بل يعتبر ذلك قصوراً منه وعجزاً .



٤ — وقال سلمة بن الخرشب * من قصيدة أولها :

تَأْوَبُهُ خِيَالٌ مِنْ سُلَيْمٍ كَمَا يَعْتَادُ ذَا الدِّينِ الْغَرِيمِ ^(١)

وَمُخْتَضٍ تَبِيضُ الرُّبْدُ فِيهِ تَحْوِي نَبْتَهُ فَهُوَ الْقَمِيمِ ^(٢)

غَدَوْتُ بِهِ تَدَافِعِي سَبُوحٍ فَرَّاشُ نُسُورِهَا عَجَمٌ جَرِيمِ ^(٣)

مِنْ التَّلَفُّتَاتِ بِجَانِبِهَا إِذَا مَا بَلَّ تَحْزِمُهَا الْحَمِيمِ ^(٤)

إِذَا كَانَ الْحِزَامُ لِقُصْرَيْيَهَا أَمَامًا حَيْثُ يَمْتَسِكُ الْبَرِيمِ ^(٥)

٢٥٩: يَدَافِعُ حَدًّا طَبِيبَهَا يُعَادِلُهُ الْجَرَاءُ فَيَسْتَقِيمُ ^(٦)

* ترجمه الشاعر : هو سلمة بن عمرو بن نصر بن حارثة العطفاني ، ولقب أبيه الخرشب ومعناه الطويل ، وهو شاعر جاهلي ، ولكننا لم نَقَعْ له فيما بين أيدينا من كتب على ترجمة مطولة .
التفسير اللغوي : (١) تأوبه : راجعه . الخيال : الطيف . سليمى : محبوبته . يعتاد : يعاود . ذا الدين : الدين . الغريم : الدائن .

(٢) المختاض : للوضع الذي يخوض فيه الناس ، لكثرة عشبهِ والتفاف نبتهِ . الربد : مفردة ربداء ، وهى النعام . تحوى : تحاماه الناس فلم يرعوه خوفا . العميم : الكثير الشامل للتلطف بعضه على بعض .

(٣) غدوت به : بكرت إليه . تدافعى : تدفعى . السبوح : الفرس التى تسبح بيديها ، كما يسبح الإنسان فى الماء . فراش نسورها : الفراش : ما تطاير منها . والنسور : جمع نسر ، وهى قطع اللحم الصلب فى باطن الحافر ، وصلابتها موضع المدح منها . عجم : نوى . الجريم : المبروم وهو المقطوع ، وهو ما طال مكثه فى نخله حتى جف وصار تمرا ، ونواه أصلب النوى .
(٤) من التلقتات بجانبها : من الخيل التلقتات ، والجملة كناية عن نشاطها ومراحها .

الحزم : موضع الحزام ، وهو أول ما يمسح العرق . الحميم : العرق .
(٥) لقصر يها : لضلعها السفليين . البريم : الحيط المبروم ، أو السير من الجلد تشده المرأة حول وسطها .

(٦) الطيبان : مثنى طبي ، وهو ما يشبه الخلف من الناقة والثدى من المرأة ، والضرع من ذات الظلف . يعادله : يقيمه ويعدله . الجراء : الجرى ، فيستقيم : فيعتدل فى سيره .

- كَيْتٌ غَيْرُ مُحَلَفَةٍ وَلَكِنْ كَلُونِ الصَّرْفِ عَلَّ بِهِ الْأَدِيمُ^(٧)
تَعَادَى مِنْ قَوَائِمِهَا ثَلَاثُ بِتَحْجِيلٍ ، وَقَائِمَةٌ بِهِمْ^(٨)
كَأَنَّ مَسِيحَتِي وَرَقِي عَلَيْهَا نَمَتْ قُرْطَانِيهَا أُذُنٌ خَزِيمٌ^(٩)
تَعَوَّذُ بِالرَّقَى مِنْ غَيْرِ خَبَلٍ وَتَعْقِدُ فِي قَلَانِدِهَا التَّمِيمَ^(١٠)
وَتُمَكِّنُنَا إِذَا نَحْنُ اقْتَنَصْنَا مِنَ الشَّحَاجِ أَسْعَلَهُ الْجَمِيمَ^(١١)
هُوَ عُقَابُ عُرْدَةِ أَشْأَزَتْهَا بَذَى الضَّمْرَانِ عِكْرِشَةُ دَرُومٍ^(١٢)

(٧) الكيت : الأحمر يميل إلى السواد . غير محلفة : خالصة اللون لا يحلف عليها أنها ليست كذلك . الصرف : صبغة حمراء تصبغ بها الجلود . عل : سقى مرة بعد مرة . الأديم : الجلد .

(٨) تعادى : تابع وتوالى . بتحجيل : التحجيل البياض في موضع القيد من قوائم الفرس . البهم : الأسود أو السوداء .

(٩) المسيحة : الصفيحة أو السيكة . الورق : الفضة . نمت : رفعت . قرطيمها : حلقيمها . خذيم : مخدومة مثقوبة .

(١٠) تعوذ : يدعى لها بالحفظ . الرقى : جمع رقية التمام ونحوها . الخبل : الجنون . تعقد : تربط . القلائد : جمع قلادة العقود . التميم : جمع تيممة التعاويذ .

(١١) تمكنا : تهيء لنا . اقتنصنا : خرجنا للصيد والقنص . الشحاج : الحمار الوحشي يشجع بصوته دون أن يفصح به . أسعله : جعله مسعلاً نشيطاً كالسُعلاة ، وهي الغول . الجميم : الكثير من النبات .

(١٢) هوى : سقوط . العقاب : النسر . عردة : اسم لهضبة . أشأزتها : أقلقتها واستخففتها . بذى الضمران : بذلك المكان . العكرشة : أنثى الأرنب . الدروم : المقاربة الخطو .

تحليل الأبيات :

زار قلبه طيف سليمى ، التى لا يفارقه خيالها ، فهو معه فى كل زمان ومكان ،
يلازمه ملازمة الدائن لمدينه ، ويعاوده معاودة الغارم من غريمه ، ثم انتقل بعد بيت واحد
إلى غرضه الأصيل فأخذ يصف فرسه ، فقال :

ورب مرعى مخصب ، ومختاض موفور العشب ، ملتف النبت تحاماه الناس وخافوه
لكثرة هوامه وكواسره ، وتوقوه خشية وحوشه وجوارحه غدوت إليه فى بكرة النهار
لا أخشى بأسا ، ولا أخاف فيه فتكا ، فإنى أعتلى صهوة جواد سبوح لا يطلب راكبها ،
ولا يدركها طالبها ؛ إذا عدت تطاير من نسورها حصى له صلابة الحديد ، أو نوى التمر الذى
طال تجفيفه ، فأصبح نواه صلبا صلداً ، فإذا لزجها ، أو ركل مركلها تلعبت بمتنيها ،
وتلفتت بجانيبيها ، يحدث منها هذا عند ما يبيل العرق موضع حزامها ، وذلك لحدة نشاطها ،
وكثرة مراحها ، وإذا عدت وحزامها محكم الربط عند ضلعها السفليين فإن عدوها ،
وانقباض بطنها ، وضغطها على أضلاعها يجعل ذلك الحزام عند طيبيها ، وأحيانا يقيمه
ويعدله استقامة عدوها ، واعتدال جريها .

فرسى تلك كميث خالصة اللون صافية الأديم ، لونها فى شدة حرته ، وأديمها فى صفاء
كمتته ، كلون الصبغ الأحمر ينهل منه الأديم ويعل ، لينال صافى لونه ، وخالص قانيه ،
وهى محجلة القوائم الثلاث دهاء الرابعة ، والضد يظهر حسنه الضد ، فى قوائمها يظهر حسن
الضدين ، وكأن سبائك من الفضة الرقيقة قد صنع منها لكل قائمة قرطان ، ورفعا إليها ،
فكان الأقراط فى آذان مثقوبة .

هذه الفرس كريمة على ، أثيرة عندى ، فأنا لذلك أحفظها بالرقى ، وأقيها الشر
بالتعاويد دون أن يكون ذلك لحبل أصابها ، أو لمس نزل بها ، فهى سليمة من كل عيب ،
خالصة من كل شين ، وأنا أعقد فى قلائدها التمام ، وأضع فى عقودها التعاويد ، كأنها ولد
عزيز على أحبيه من عيون الحاسدين .

وهى تهيب لنا إذا خرجنا للصيد أن نصطاد أشق أنواع الحيوان صيدا ، فتصيد بها

الحمار الوحشى الذى قد أصبح لسكثرة ما رعى ، ووفرة ما أكل كالنول يخيف كل صائد ، وينأى عن كل قاصد ، فهى تهوى عليه كما يهوى عقاب تلك الهضبة القوية العقبان ، أقلقها أن ترى بذلك المكان أرنبا متقاربا فى خطوه ، متدانيا فى سيره ، فهى لابد أن تنقض عليه فتقصر أجله .

النقر :

هذه قصيدة كاملة فى وصف الفرس لم تتجاوز منها إلا بيتا واحداً ، فهى ثلاثة عشر بيتا ، ونقص بهذا أن الشاعر محتفل بغرضه ، حاشد له جميع قواه ، ولكنه لم يبلغ فيه المبلغ الذى كان يرجوه ، فبماذا جاء من المعانى ؟

تكد تحصر المعانى التى اشتملت عليها قصيدته فى العناصر الآتية :

- ١ - فرسه سبوح ذو سور صلبة قوية . ٢ - تلعب بجانبها عند ما تستثار للعدو .
- ٣ - ينقبض بطنها فيجرى عليه حزامها المحكم . ٤ - هى كملت اللون خالصة الكتة .
- ٥ - محجلة القوائم الثلاث دهاء الرابعة . ٦ - كأن قوائمها البيض مقرطة بأقراط فضية .
- ٧ - معوذة بالرقى والتأمم لإعزازها . ٨ - تنيح لنا الصيد مهما يكن المصيد .
- ٩ - تهوى كما يهوى العقاب على الأرنب .

هذه هى المعانى التى أوردتها الشاعر فى قصيدته ، وجميعها معان مطروقة ، والجديد منها ليس بذى بال كتمويذه إياها ، وتعليق التأمم فى القلائد ، وهو أمر يعرفه الخاص والعام ، فمن الناس حتى اليوم من يعوذ فرسه لاعتقادهم أن العين تصيبها قبل أن تصيب سواها ، والحق أن تخيله بياض قوائمها بأنها أقراط فضية خيال لا بأس به .

هذه هى المعانى التى لم يتناولها الشعراء ، وإن تناولوها ، فقد نهجوا فى تناولها غير نهجه ، وساروا بها فى غير طريقه ، أما ما سواها فكلها معان معروفة ، فقله :
غدوت بها تدافعنى سبوح فراش نسورها عجم أديم
يشبه قول عنتره :

وله حوافر موثق تركيبها صم النسور كأنها من جندل

وفي كل من البيتين ناحية جمال يمتاز بها عن الآخر ؛ فبيت سلمة يمتاز بأنه وصف
فرسه بصفتين هما سبحة في عدوه ، وصلابة نسوره ، وبيت عنتره يمتاز بأن تشبيهه أقوى
من تشبيه سلمة فتشبيه النسور بالجنادل أقوى من تشبيهها بالنوى مهما تكن صلابته .
وقول سلمة :

إذا كان الحزام لقصريها أماما حيث يمتسك البريم
يدافع حد طبيها وحينما يعادله الجراء فيستقيم
كقول بشر بن أبي خازم :

نسوف للحزام بمرفقيها يسد خواء طبيها الغبار
وبيت بشر أجمع من بيتي سلمة ، فقد زاد في معناه أن الغبار الثائر في مسيره يسد ما بين
مرفقيها ، أما القيود التي أوردتها سلمة فليست ذات قيمة فنية بقوله : « أماما حيث يمتسك
البريم » قيد ثقيل في لفظه وفي معناه .

وإذا كانت الألفاظ توحى بمعانيها ، وتشعر بمدلولاتها ، وذلك هو دليل حسن اختيار
الأديب للفظه ، فإن إجماع الألفاظ هنا على مدلولاتها إجماع ضعيف ، ودلالاتها على مدلولاتها
غير كاملة ، فاختياره كلمة عكرشة لأنثى الأرنب لا رقة فيه ، فخروف الكلمة ، وتجمع
هذه الحروف بعضها مع بعض يوحي بأنها اسم لغير الأرنب .
ومن الأبيات ما ليس واضح المعنى لأن صورته غير كاملة ولا منسقة ، وذلك يظهر
في قوله :

كأن مسيحتي ورق عليها نمت قرطيهما أذن خذيم
فإن المعنى جميل ، ولكن التصوير غير كامل التكوين .

٥ — وقال عوف بن عطية من قصيدة أولها :

أَمِنْ آلِ مَيِّ عَرَفَتِ الدِّيَارَا بِمَيْثُ الشَّقِيقُ خَلَاءَ قِفَارَا؟^(١)
 وَأَعَدَدْتُ لِلْحَرْبِ مَلْبُونَةً تَرُدُّ عَلَى سَائِسِيهَا الْحِمَارَا^(٢)
 كَمَيْتًا كَحَاشِيَةِ الْأَتْخَمِ يَّ لَمْ يَدْعِ الصَّنْعُ فِيهَا عَوَارَا^(٣)
 رَوَاعُ الْقَوَادِ يَكَادُ الْعَنِيفُ إِذَا جَرَّتِ الْحِيلُ أَنْ يُسْتَطَارَا^(٤)
 لَهَا شُعْبٌ كَأَيَادِ اللَّغْبِيطِ فَضَضَ عَنْهَا الْبِنَاءُ الشُّجَارَا^(٥)
 لَهَا رُسْعٌ مُكَرَّبٌ أَيْدٍ فَلَا الْعَظْمُ وَاهٍ وَلَا الْعِرْقُ فَارَا^(٦)
 لَهَا حَافِرٌ مِثْلُ قَعْبِ الْوَلِيدِ يَتَخَذُ الْقَارُ فِيهِ مَقَارَا^(٧)
 لَهَا كَفَلٌ مِثْلُ مَتْنِ الطَّرَا فِي مَدَدٍ فِيهِ الْبِنَاءُ الْخِتَارَا^(٨) : ٢٧٣

* ترجمه الشاعر : هو عوف بن عطية بن عمرو بن عبس من بني تميم شاعر فارس إلا أنه مقل . واختلف فيه أهو مخضرم أم هو جاهلي صرف ، والظاهر أنه لم يدرك الإسلام .
 التفسير اللغوي : (١) مَيِّ : اسم حبيته . الشقيق : ماء لبني أسد بن عمرو بن تميم . قفارا : ماحلا .

(٢) الملبونة : التي تسقى اللبن إكراما لها . سائسيها : فرسانها . الحمار : يقصد الحمار الوحشي .
 (٣) الحاشية : الأطراف . الأتخمى : ضرب من البرود منسوب إلى أتخم باليمن .
 الصنع : الدواء الذي تصنع به في ضمورها . العوار : العيب .
 (٤) رواع القواد : ذكية القلب . العنيف : الشديد الغليظ . يستطار : تحمله على أن يطير من فوقها .

(٥) شعب : جمع شعبة ويقصد قفار الظهر أو هي ما أشرف منها كالكاهل والعنق ، وهو أنسب للمعنى . الإياد : المقدم من الغييط . الغييط : الرجل . فضض : فزع وفرق . الشجار : خشب المودج .

(٦) الرسخ : الموضع المستدق بين الحافر وموضع الوظيف من اليد والرجل . مكرب : شديد موثق ، وهو وصف للجبل المحكم القتل . أيد : قوى شديد . واه : ضعيف . فار العرق : انتفخ ، والانتفاخ يضعف القوائم .

(٧) القعب : القدح . الوليد : الصبي . المغار : الحجر .

(٨) الكفل : مؤخر الظهر . الطراف : البيت من الجلد . الختار : خيط يشد به الطراف

تحليل الأبيات :

بدأ الشاعر قصيدته بالاستفهام التمجيزي ؛ إذ كيف تعرف ديار آل مى الواقعة بالقرب من ذلك الماء ؟ لقد أصبحت خالية مقفرة ، لا أحد من الإنس يسكنها ، فلتختر سكنها الوحوش الأوباد ، بعد أن كانت مهبط الغيد النواعم ، ثم أخذ يتنقل فى وصف عشقه ولهوه فى شبابه وشيبه من معنى إلى معنى ؛ حتى بدأ يصف فرسه ، أليس هو من أكبر أسباب اللهو ؟ فيقول :

إنى أعددت ليوم الكر والفر ، والضرب والطنن ، فرسا غذيتها باللبن ، فكانت فتية قوية ؛ إذا طارد بها فارسها حمارا وحشيا رذته إليه مذنعا مطيعا ، فكأنها قيد الأوباد . أعددتها فرسا كملت اللون ، كأنها فى صفاء لونها ، ووثاقة جسمها أطراف ذلك البرد النينى ، قد أحكم ناسجه نسجه ، فليس فيه ما يعاب به .

هى فرس ذكية الفؤاد ، متوفرة الإحساس ، نهاية للأرض ، جوابة للقفر ، تكاد تطير من فوق صهوتها الفارس العنيف حينما تبارى عتاق المذاكى ، فقار ظهرها فى صلابتها كإياد الرجل أزيل عنه خشب الهودج ، فبدت للأنظار متانتته ، ورسغها موثق محكم ، مفتول مكرب ، فليس عظمها واهيا ، ولا عرقها منتفخا فائرا ، فيضعف ذلك من قوة قوائمها ، ويوهن من صلابة أرجلها ، وحافرهما فى استدارته وتقعيبه مثل قدح الصبى ، بعيد الغور ؛ حتى ليتمكن أن يتخذ فيه الفأر حجرا ، ويجعل منه مقارا ، وكفلها مثل ظهر البيت المتخذ من الجلد ، المشدودة أطرافه ، فبدا أملس ناعما ، ممتلئا مكتنزا .

النقر :

التأمل في هذه الأبيات يجد الشاعر قد أمعن في نعتها ، فله في كل بيت معنى أو أكثر من معنى ، وكلها معان مطروقة لا جدة فيها ، وإن لم نعتبر للسابق فضلا على اللاحق ، فكلهم ينظرون ويسمعون ، فينعتون ويصفون ، ولا يمنع ذلك من أن نجتمع بين بعض معانيه ، وبعض معاني من قدمنا عنهم القول ، يشبه بيته الأول بعض الشبه بيت امرئ القيس :

وقد أغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكلا
وبيت امرئ القيس أطرف معنى ، وأقوى أسلوبا ؛ إذ ذكر ساعة صيده ، ووصف فرسه بأنه منجرد الشعر ، وقيد الأوابد ، وضخم الجسم ، وقوله : قيد الأوابد من معجزات الشعر .

وبيته الثاني يشبه بيت سلمة بن الخرشب :

كيت غير محلفة ولكن كلون الصرف على به الأديم
وبيت سلمة أفضل من وجوه ، أجملها ذلك الاحتراس « غير محلفة » فقد أكد المعنى وأكسبه روعة ، وتشبيه لونه « بأنه كلون الصرف على به الأديم » تشبيه بديع ، وقول عوف :
رواع الفؤاد يكاد العنيف إذا جرت الخيل أن يستطارا
بيت جميل وإن تكن فيه مبالغة من ناحية ، وقصور من أخرى ، أما المبالغة ففي استطارة العنيف ، أو قربها ، وأما القصور ، فشرطه الاستطارة بجريان الخيل معها ، ولم تكن المبالغة من سمات الشعر الجاهلي ؛ كما أن القصور اللفظي قد يوجد ، أما القصور المعنوي فقل أن يوجد .

٦ - وقال المرقش الأصغر* من قصيدة أولها :

أَمِنْ رَسْمِ دَارٍ مَاءٍ عَيْنِيكَ يَسْفَحُ غَدَا مِنْ مَقَامِ أَهْلِهِ تَرَوُّهُوا؟^(١)
 غَدُونَا بِصَافٍ كَالْعَسِيبِ مُجَلَّلٍ طَوِينَاهُ حِينًا فَهُوَ شَرِبُ مَلُوحٍ^(٢)
 أَسِيلٌ نَبِيلٌ لَيْسَ فِيهِ مَعَابَةٌ كَمِيتٌ كُلُونِ الصَّرْفِ أَرْجَلُ أَقْرَحٍ^(٣)
 عَلَى مِثْلِهِ آتَى النَّدَى مُخَايَلًا وَأَغْمَزُ سِرًّا ، أَيْ أَمْرِي أَرْبَحُ^(٤)
 وَيَسْبِقُ مَطْرُودًا ، وَيَلْحَقُ طَارِدًا وَيَخْرُجُ مِنْ غَمِّ الْمَضِيقِ وَيَجْرَحُ^(٥)
 تَرَاهُ بِشِكَاتِ الْمُدَجِّجِ بَعْدَ مَا تَقَطَّعَ أَقْرَانُ الْمَغِيرَةِ يَجْمَحُ^(٦)
 شَهِدْتُ بِهِ فِي غَارَةٍ مُسَبِّطَةٍ يُطَاعِنُ أَوْلَاهَا فَنَامَ مُصْبَحُ^(٧)
 كَمَا انْتَفَجَّتْ مِنَ الظُّلْبَاءِ جِدَايَةٌ أَشْمُ إِذَا ذَكَرْتَهُ الشَّدَّ أَفْيَحُ^(٨)
 ٢٨٢ : يَجْمُ جُحُومَ الْحَمِي جَاشَ مَضِيقُهُ وَجَرَّدَهُ مِنْ تَحْتِ غِيلٍ وَأَبْطَحُ^(٩)

* ترجمه الشاعر : هو ربيعة بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة البكري عم طرفة بن العبد، والمرقش الأكبر عمه ، والأصغر أشعر ، وأطول عمرًا ، وقد أجاد الغزل ؛ لأنه من العشاق ، والوصف لأنه من الفرسان . توفي حوالي سنة ٥٠٠ م فهو أقدم من امرئ القيس .

التفسير اللغوي : (١) الرسم : بقية آثار الديار . يسفح : يسيل ويجري . غدا من مقام : أصبح من إقامة إلى رحيل : تروحوا : ساروا في وقت الرواح ، وهو من زوال الشمس إلى الليل . (٢) غدوننا : سرنا مصبحين . بصاف : بفرس خالص اللون . كالعسيب : كطرف السعفة في صفاء لونه . مجلل : وضع عليه الجلال . طويناه : ضمنا . شرب ملوح : ضامر متغير من حر الشمس . (٣) أسيل نبيل : أملس جميل . كميت : أحمر مائل إلى السواد . الصرف : صبغ أحمر يصبغ به الجلد . أرجل : محجل . أقرح : أغر الجبهة . (٤) الندى النادى : مخايلا : مختلا . أغمز : أشير . (٥) مطرودا : يطرده فارس وراءه . طاردا : يطرد غيره أمامه . غم المضيق : يجرح : يصيد ، ومنه جوارح الطير . (٦) الشكات : جمع شكة ، السلاح . المدجج : اللابس السلاح . تقطع أقران المغيرة : تمزق نظراء الكتيبة . يجمح : ينفرد ويشرد . (٧) مسبطة : ممتدة طويلة الأمد . فنام : جماعة . مصبح : مغار عليها صبحًا . (٨) انتفجت : ثارت . جداية : شابة . أشم : على الأنف . أفيح : فسيح الخطأ . (٩) يجم : يجتمع شدة . الحسى : الرمل على الصخر يجتمع الماء تحته . جاش : غلى . الغيل : الماء الكثير . الأبطح : الحصى .

تحليل الأبيات :

يسائل الرقش نفسه ، أن رأيت آثار الحبيبة تسيل الدموع من عينيك مدرارا .
وتجري العبرات من مآقيك غزارا ، لأن من كانوا يحلون تلك الديار غدوا مرتحلين ، وأموا
غيرها مقروحين ؟

ثم يأخذ في نسيب رقيق ، ووصف بديع لريق الحبيب في أحد عشر بيتا يقتضب
بعدها نسيبه إلى وصف فرسه ، فيقول :

لقد غدونا إلى الصيد بفرس صافي اللون ، ضامر البطن ، مكرم عندي ؛ إذ الجلال فوق
متنيه يحميه من الحر والقر ، وقد ضممرناه حيناً حتى صار ضموره عنوان جماله .

هو أملس الجسم ناعمه ، جميل الخلق رائعه ، ليس فيه ما يعاب ، فهو كمت اللون كمتة
كأنها الصurf ، محجل القوائم ، أغر الجبهة « كأن بياض غرته خمار » .

وهو مظهر سراء وشرف لمتطيه ، فأفد به على نادى قومي معجبا مختالا ، معتزاً مرهوا ،
أسائل نفسي « أى أمرى أريج ؟ » أيوم أخرج به للصيد ، فأبلغ ما أرجو من قنص الشوارد ،
وصيد الأوابد ، أم يوم أستريح فأفد به إلى ذلك النادى الذى ينتظم سراة قومي ،
وأشراف قبيل ؟ .

إنه حيناً أخرج به للحرب والغارة يسبق إذا كان مطروداً ، ويلحق إذا كان طارداً ،
فهو ينجى من المآزق ، ويفرج من المضايق ، ويشاركنى فى حربى ، فيضرب ويمرح .

وهو إلى كل هذه الصفات كريم ذلول ، سلس العنان ، سهل القياد ؛ إذا حمل فارسه
مدججاً بسلاحه ، مقلداً عتاده جعل النصر غايته ، فيعمل مع فارسه لإدراكه ، فإذا ما فرق
فارسه الأقران ، وجدل الأبطال ، عاوده المرح والنشاط ، فإذا هو الفرس المعبوب الجوح ،
أليس قد شارك فى فوز فارسه ، وأسهم فى نصر سيده ؟

كم قد شهدت به غارات طويلة الأمد ، بعيدة الأجل ، يطاعن طليعة المغيرين جماعة
مصبتون ، فأولئك وهؤلاء يدقون الرماح بالرماح ، ويكسرون النصال على النصال ،

فتسمع للفرس ثورة وهممة ، وانتفاجا وزجرجة ، كأنما هو في ثورته وانتفاجه ظبية فنية ، نشيطة قوية ، لاتهدأ ولا تسكن ، ولا تقف ولا تهمد .

هو فرس أشم طويل ، واسع الخطا ، إذا ذكرته بالشدة على العدو اندفع اندفاع الحسى ينبع منه الماء تلو الماء ، وعراء مما حوله الماء المتدفق ، والحصى المتفرق .

النقر :

المرقس من الشعراء المجيدين ؛ لأنه كان عاشقا فارسا ، والعشق والقروسية من عناصر الشاعرية ، ومن مقومات الوصف بصفة خاصة ، ويظهر في هذه الأبيات الممدودة أنه نحا في وصفه نحوا يخالف إلى حد ما الطريق الذى نهجه بعده أكثر الشعراء ، أو أنهم لم ينهجوا نهجه فلم ينصفوه ، فعندى أن نهجه أوضح من نهج أكثرهم .

إنه لا يصف أجزاء الجسم عضواً عضواً ، وإنما يلم بهذه الأعضاء إلاما ، ثم ينصرف إلى غيرها ، نقره :

أَسِيلٌ نَبِيلٌ لَيْسَ فِيهِ مَعَابَةٌ كَيْتٌ كُلُّونُ الصَّرْفِ أَرْجُلُ أَقْرَحُ

فها هو ذا قد وصفه بست صفات فى بيت دون أن يقال : إنه قصر فى وصفه .

أما النحو الجديد الذى نحا فهو الربط بينه وبين فارسه ، وتصويرهما صديقين متعاونين على ما يكسب المجد ، وينشر عنهما طيب الحديث ، فهو :

كَلَى مِثْلِهِ آتَى النَّدَى مُخَايَلًا وَأَغْمَزُ سِرًّا أَيْ أَمْرِي أَرْبَحُ؟

وَيَسْبِقُ مَطْرُودًا وَيَلْحَقُ طَارِدًا وَيَخْرُجُ مِنْ غَمِّ الْمَضِيقِ وَيَخْرُجُ

تَرَاهُ بِشِكَاكِ الْمُدَجَّجِ بَعْدَمَا تَقْطَعُ أَقْرَانُ الْمَغِيرَةِ يَجْمَعُ

وهو بارع الإجابة عند ما يصور اندفاعه بين جماعة الخيل ، فيصوره باندفاع الحسى ، ضاق مسيله ، وجرده من تحته الماء والحصى ، إنها صورة دقيقة ، وإن ضاقت الألفاظ عن المعنى ، ولو أنه غنى بتكوين الصورة ، وتوضيح الغاية لكان قد بلغ أسمى ما يريد من التصوير ، والبيت هو :

يَجْمُ جُحُومَ الْحَسَنِ جَاشَ مَضِيقُهُ وَجَرَّده مِنْ تَحْتِ غِيلٍ وَأَبْطَحَ
ويعتمد المرقش على المقام الاعتماد كله ، فيقول مثلاً :

غَدُونَا بِصَافٍ كَالْعَسِيبِ مُجَلَّلٍ طَوِينَاهُ حِينًا فَهُوَ شَرِبُ مَلُوحٍ
فإلى أين غدا به ؟ إلى الحرب أم إلى الصيد أم إلى غيرها ؟ إنه لم يحدثنا من قبل عن
شيء من هذه الأشياء .

ثم ما الأمران اللذان يسأل عن معرفة الأربح فيهما ؟ في قوله :

على مثله آتى الندى مخايلاً وَأَغْمَزَ سِرًّا أَى أَمْرَى أَرْبَحَ ؟

إنه غامض ، فنحن لا ندرى الصيد يريد أم السباق ، أم الحرب أم اللهو ؟ وأنجاء يريد
أم الطلب كما يرى بعض الأدباء ؟ وقد عرضنا رأينا في التحليل ، ولعله أقرب الآراء إلى المعنى
الذى أراده .

وإذا تجاوزنا هذا الغموض حكمنا المرقش بقوة الأسلوب وجماله ، ورونقه وحسنه ،
فأى جمال وقوة يفوقان جمال هذا البيت وقوته في طباقه الهادى ، ولفظه الجزل ؟
ويسبق مطروداً ، ويلحق طارداً ويخرج من غم المضيق ويخرج
وبعد ، فإن المرقش شاعر قد جاء قبل أوانه ، وفرغ أهل زمانه .



نظرة فاحصة عن معاني الشعراء في وصف الفرس

أكثر أولئك الشعراء الذين اخترنا لهم بعض ما قالوه في وصف الفرس نجدون مقاما أو انتقالا ، ومن لم يكن منهم نجديا فقد طبع على أخلاق النجديين ، فأهل نجد في القديم والحديث أولونجدة وعزة ، وأصحاب فروسية و بطولة ، ولعل بلادهم العالية ، وإقليمهم الثابت أورثهم آيته ، وخلع عليهم طوله وعلياءه .

وإذن فليس عجيبا أن يجيدوا وصف الخيل ، وأن يبرعوا في نعت الجياد ، وأن يبرزوا غيرهم من الشعراء في رسم شياتها ، وتصوير سماتها ، فالخيل النجدية لاتزال مضرب المثل في الحسن ، وليس عجيبا ألا تتفق معانيهم ، وألا تتحد أفكارهم وأخيلتهم في وصفها ونعتها ، كما لمسننا ذلك في وصف الناقة — فإن محاسن النياق تكاد تكون محصورة في أجزاء جسمها ، وصلابة خلقها ، وليس الشأن كذلك في الخيل ، فمحاسن الخيل تتجاوز التكوين الخلقى ، والله در المتنبى إذ يعرف هذا المعنى فيقول :

وما الخيلُ إلا كالكرامٍ قليلةٍ وإن كثرتْ في عينٍ من لا يجربُ

إذا لم تلاحظ غيرَ حسنِ شياتها وأعضائها فالحسنُ عنك مغيبُ

هناك وصفها بمداركة الصيد ، ومتابعة الطرد ، وهناك وصفها عند المباراة في الحلبة ، والسباق في الميدان ، وهناك وصفها في الحرب ؛ إذ تشارك في الضرب والطنن ، وهناك وصفها في اللهو ، وهناك تصوير عدوها ، وتشخيص جرائمها ، ووصف خنانها وجيشانها إلى غير هذه المعاني التي مرت بنا ، وأفضنا القول في تبيانها .

وليس أولئك الشعراء الذين اقتبسنا قبسا من شعرهم في وصف الخيل بأقدر شعراء العصر الجاهلي على وصفها ، ولكنهم من أقدرهم ، كما أن أولئك الذين اخترنا لهم بعض شعرهم في وصف الناقة ليسوا بأبرع من وصفها ، ولكنهم من أبرعهم ، ولكننا رمينا إلى الإكثار من عدد الشعراء ، فلم نختار لشاعر اخترنا له قبل في وصف الناقة ، وذلك لنظهر أن

هذا العصر غنى بالشعراء الذين أجادوا القول في كل مجال ، والذين سبقوا في كل ميدان ، ولو نهجنا غير هذا النهج لوجدنا أكثر من شاعر له في وصف الخيل الباع الأطول ، والقول الأفضل ، ومع ذلك ، ألم يفضل علقمة الفحل على امرئ القيس في نعت الخيل بصفة خاصة ؟ إننا لا نؤيد هذا الحكم ، ولكننا نسوقه دليلا على أن من الشعراء الذين تجاوزناهم من هم شعراء وصافون لا يشق لهم غبار .

ونحن في هذا المجال نجتمع ما تفرق من المعاني في التحليل ، لعل فيه ما يسر على الناقد بهيمته ، ويبصره بمنهج وغايته .

يكاد الشعراء الستة الذين اخترنا لهم يتفقون في وصف أجزاء الفرس وشيائه ، وإذا كان بينهم خلاف فهو في القدر والكيف ، ولكنهم يختلفون في تصوير شيء غير تصوير الجسم ، وغير شيائه ، ذلك الشيء هو خلقها وكرمها ، وحسنها ونبلها ، فإذا قال امرؤ القيس في وصف فرسه بالضخامة والجسامة :

وَقَدْ أَغْتَدَى وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا
بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلِ

وجدنا غيره ممن تقدمه في النشأة ، وسبقه إلى نعت الخيل بشر بن أبي خازم يقول :

يُضْمَرُ بِالْأَصَائِلِ ، فَهُوَ نَهْدٌ أَقْبُ مُقْلَصٌ فِيهِ اقْوِرَارُ

والقينا من جاء بعدها قد تابعهما في نعت جواده بهذه الصفة ، فيقول عنقرة :

وَلَرُبَّ مُشْعَلَةٍ وَزَعْتُ رِعَالَهَا
بِمُقْلَصٍ نَهْدِ الْمَرَاكِ هَيْكَلِ

ولكننا نلمح في بيت بشر معنى لم يتناوله باللفظ هو عنايته بذلك الفرس ، ورعايته له

في قوله : يضم بالاصائل ، فذلك التضمير من مظاهر العناية والتكريم .

وإذا وصف امرؤ القيس جواده بحدة النشاط ، وقوة الركض ، وشدة العدو ، فقال :

مِكْرٍ مِفْرٍ ، مُقْبِلٍ مُذِرٍ مَعَا
كَجُلُودِ صَخْرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

وجدنا من تقدموه قد تناولوه على نحو يقارب هذا النحو ، فقال بشر بن أبي خازم :

مَهَارِشُهُ الْعِنَانِ كَأَنَّ فِيهَا
جَرَادَةَ هَبْوَةٍ فِيهَا اضْفِرَارُ

وقال سلمة بن الخرشب :

وَتَمَكَّنُنَا إِذَا نَحْنُ افْتَقَصْنَا مِنْ الشَّجَاجِ أَسْعَلَهُ الْجَمِيمُ
هُوِيَّ عُقَابٍ عَرْدَةٍ أَشَارَتْهَا بِذِي الضَّمْرَانِ عِكْرُشَةُ دَرُومُ

المعاني متقاربة ، ولكن التصوير متباعد ، والتشخيص مختلف ، فبيت امرئ القيس يشعر بالحدة في النشاط ، والقوة في العدو ، ويتخذ من الصخرة يسقطها السيل مادة تصويره في حين يتخذ بشر من مهارشتها عنانها مادته ، ويزيدها تصويرا بقوله : كأن فيها جراحة هبوة ... وسلمة لا يفتنيه في هذا المعنى بيت بل يؤديه في بيتين ، يؤلف فيهما صورتين كاملتين دالتين على أقصى القوة ، وأوفر الحدة .

وامرؤ القيس يصف فرسه بالسكمة ، فيقول :

كَمَيْتٍ يَزِلُّ اللَّبْدُ عَنْ حَالٍ مَتْنِهِ كَمَا زَلَّتِ الصَّفَوَاهُ بِالْمُتَزَلِّ

فترى جميع من سبقوه ومن لحقوه وصفوا جيادهم بالسكمة كأن الجياد العربية أو الخيل النجدية ليس فيها إلا هذا اللون ، فيقول سلمة بن الخرشب :

كَمَيْتٌ غَيْرُ مُحَلَفَةٍ ، وَلَكِنْ كَلَوْنِ الصَّرْفِ عَلَّ بِهِ الْأَدِيمُ
ويقول عوف بن عطية :

كَمَيْتًا كَحَاشِيَةِ الْأَنْحُمِ لَمْ يَدْعِ الصَّنْعُ فِيهَا عَوَارًا
وقبل هؤلاء جميعا قال المرقش الأصغر :

أَسِيلٌ نَبِيلٌ لَيْسَ فِيهِ مَعَابَةٌ كَمَيْتٌ كَلَوْنِ الصَّرْفِ أَرْجُلُ أَقْرَحُ

وهكذا نجد اتفاقا في أكثر الأوصاف الجسمية بينهم ، وبمنظرة عابرة يمكن الجمع بين هذه الأوصاف ، ولكنهم يختلفون في أدائها ، وقد يتباعدون في عرضها .

أما المعاني التي انفرد بها بعضهم دون بعض ، فليست من السكرة بمنزلة المعاني التي اتفقوا فيها ، فمن هذه المعاني قول امرئ القيس :

مِسْحٌ إِذَا مَا السَّابِحَاتُ عَلَى الْوَنَى أَمْرُنَ الْغُبَارَ بِالْكَدِيدِ الْمَرَّ كُلِّ

إنه في هذا البيت يجمع معنيين متضادين دون أن يسمى ذلك طباقاً ، وإذا كان الطباق جيلاً ، فالقدرة على مثل هذا النوع أجمل ، إنه نعمت فرسه بالاندفاع كالآتي ، والانصباب كالسيل ، ونعت السابحات الأخريات بالوئى والكلال ، حتى ليثرن الغبار بضربهن الأرض الصلبة ، وهى صورة للفرس لا يصورها إلا من تتبع حركات الخيل : كبيرها وصغيرها عظيمها وضئيلها ، وهكذا تفتت الخيل المجهدة بسنابكها الثقيلة الأرض الصلبة .

ومن تلك المعانى التى انفرد بها ، فلم يشاركه أحد فيها ، ممن تقدمه أو ممن جاء بعده قوله يصور الدماء المتطايرة من صيده ، والتى خرج بها فرسه :

كَأَنَّ دِمَاءَ الْهَادِيَاتِ يَنْخَرُهُ عُصَارَةُ حَنَاءَ بَشِيبِ مُرْجَلٍ

فالمعنى فريد ، والتشبيه جميل ، والصورة كلها رائعة ، وقوله فى وصف السَّرب الذى عن له ، فارتاع لمرآه ؛ لأنه يعرفه مطارداً عنيفاً ، وصياداً حصيفاً ، فتفرق زرافات ووحداً :

فَعَرَّ لَنَا سَرْبٌ كَأَنَّ نَعَاجَهُ عَذَارَى دَوَارٍ فِي مَلَأَ مُذَيَّلٍ
فَأَذْبَرْنَ كَالْجَزَعِ الْمَقْصَلِ بَيْنَهُ بِحَيْدٍ مُعِمَّةٍ فِي الْعَشِيرَةِ مُخَوِّلٍ
فَأُكْثِفْنَا بِالْهَادِيَاتِ ، وَدُونَهُ جَوَاحِرُهَا فِي صَرَّةٍ لَمْ تَزَلْ

ومن هذه المعانى التى لم يشاركه فيها أحد ، ولم يبلغ مبلغ جمالها شعر وصفه أيطلى الفرس وساقيه ، ثم وصف سيره فى إرخائه وتقريبه ، وذلك فى قوله :

لَهُ أَيْطَلَا ظَنِّي ، وَسَاقًا نَعَامَةً وَإِرْخَاءَ سِرْحَانٍ وَتَقَرِّبُ تَقْفَلٍ

ويعجبنا منه ذلك التقسيم البديع ، فهو فى الشطر الأول يصفه بصفتين جسيميتين ، وفى الشطر الآخر ينعته بنعتين ليسا كذلك ، دون أن يضيق البيت بهذه المعانى ، فكان لكل هذا حامل لواء الوصف فى قديم الشعر وحديثه .

ومن المعانى الفريدة فى أبيات بشر بن أبى خازم قوله يصف شبهة فرسه حينما يبس عليها عرقها ، وجف حميها : درته وغراره :

تَراها مِنْ يَبِيسِ الماءِ شُهْباً مُخَالِطِ دِرَّةٍ مِنْها غِرارُ
وقوله يصور أثر سنا بكها الصلبة في الأرض المطمئنة :

بِكلِّ قَرَارَةٍ مِنْ حَيْثُ جَالَتْ رَكِيَّةٌ سُنْبُكٍ فِيها انْهِيارُ
ولعنتره في وصف الفرس المقام الأول بعد امرئ القيس ، فله فيه معان جواد ، إن لم
تخط بها جميعا ، فحسبنا أن نشير إلى بعضها لندل على براعته .

من هذه المعاني وصفه الفرس حين ينهنه من حدثه ، ويحد من مراحه ، فلا يفتأ
يتلوى ويتثنى بالشارب الثمل ، والنشوان العجل ، وذلك في قوله :

وكانَ مِشِيَّتُهُ إِذا نَهَنَتْهُ بالنَّكْلِ مِشِيَّةٌ شاربٍ مُسْتَعِجِلِ
وكثير من الشعراء وصف قطاة الفرس وكفله ، ولكن أحدا منهم لم يصفه بذلك
الوصف الذي ترك في مخيلة كل قارئ ربما للصخرة الناعمة الملساء ، يغشاها السيل الجارف ،
فلا يستقر لها قرار ، وذلك في قوله :

نَهْدُ القِطاةِ كأنَّها مِنْ صَخْرَةٍ مِلساءٍ يَغْشاها المِسيلُ يَمْخِفلِ
فأما سلمة بن الخرشب ، فقد أبدع في وصف التحجيل إبداعا ، وأجاد في تصويره
أيما إجادة ، وذلك في بيئته :

تَعادَى مِنْ قِوائِمِهِ ثِلاثُ بِتَحْجِيلٍ ، وَقائِمَةٌ بِهِمْ
كانَ مِسيحَتِي وَرِقٍ عَلَيْها نَمَتْ قِراطَها أذُنَ خَدِيمٍ
فتصوير التحجيل في القوائم الثلاث بأنه كالأقراط المصنوعة من الفضة في الأذان المشقوقة
تصوير جميل ، فوق أنه يدل على سراء وثناء ، وحضارة ومدنية .
ولكننا لا ندرى كيف تكون الأذان ثلاثا ، ولا تكون اثنتين أو أربعا ؟ أحسب
أن الصورة غير محدودة .

أما عوف بن عطية فقد جاءت أبياته كلها وصفا لأجزاء فرسه ، وهو قصير النفس
في الوصف ، ولا نجد له معنى مبدا سوى قوله :

لها حافرٌ مِثلُ قَعْبِ الوَلِيدِ يَتَخَذُ الفارُّ فِيهِ مَغاراً

أما المرقش الأصفر فقد قدمنا في نقده أنه نهج في وصف فرسه نهجا جميلا ، لا ندرى لماذا لم يتأثره فيه خلفاؤه ، ولعل عدم الانجاء مبعثه أنه كان شاعرا فارسا ، فهو يجد المادة الغزيرة لوصف فرسه في حربه أكثر من وجود هذه المادة لسواه ، وأكثر من تأمله هو لها في أيام سلمه ، سيان بعد ذلك أن تكون هذه الحرب مع الوحوش الأوابد أم مع الجيوش الجحافل .

وعهدنا بما قدمناه عن جمال معانيه ، وطريف أخيلته وأفكاره قريب ، فلا نعيد مرة أخرى .

وبعد ، فيبدو واضحا أن عناية العرب بالناقة والإبل كانت أعظم من عنايتهم بالفرس والخيول ، إذ شعرهم في وصف الأولى ونعتها أوفر ، وإذ معانيهم في تصوير نفعها وفضلها أكثر ، وإذ أنفاسهم في عد أياديها أطول ، وإذن فنعتهم ترقى برقى الانتفاع بالمنعوت ؛ إذ مما لا ريب فيه أن الناقة للفقير والغنى ، وللفارس وغير الفارس ، وللأهلى والجاد ، وليس ذلك شأن الفرس ، فهذه أداة زينة ولهو ، وفروسية وحرب . كما أنه مما لا ريب فيه أن الفرس أجل من الناقة وأوسم ، ولكن الانتفاع عند الناس جميعا أولى بالرعاية من الانتفاع الخاص .

وقد قدمنا أن الملاحظ أن الشعراء يختمون وصف الناقة أو يبدؤونه بوصف ما يشبهها من البقر الوحشى أو الحمار ، أو الظليم أحيانا ، ويتمون وصف الفرس بذكر الصيد والطرْد ، فوصفهما سبيل إلى نعت سواهما ، فهما إذن — الناقة والفرس — الدعامة الراسخة لهذا الفن ، وعلى نهج الشعراء سنسير ، فنبدأ بوصف الأوابد .

(ح) وصف الأوابد

١ — قال ليلى بن ربيعة * في معلقته يصف البقرة الوحشية :

أَفْتَلَكَ أُمَّ وَحْشِيَّةً مَسْبُوعَةً خَذَلْتَ وَهَادِيَةَ الصَّوَارِ قِيَامُهَا؟^(١)
خَنَسَاءَ ضَيَّعَتِ الْفَرِيرَ فَلَمْ تَرَمِ عَرَضَ الشَّقَاتِقِ طَوْفُهَا وَبُعَامُهَا^(٢)
٢٨٥ : لَمْعَرَّ قَهْدٍ تَنَازَعَ شَلَوَهُ غُبْسٌ كَوَاسِبٌ لَا يُبْنِ طَعَامُهَا^(٣)

* ترجمه الشاعر : هو ليلى بن ربيعة بن مالك بن جعفر البكري ، أحد فحول الشعر في العصر الجاهلي ، وتقول في العصر الجاهلي ، مع أنه عمر في الإسلام لأن مؤرخي الأدب يكادون يجمعون على أنه هجر بعد إسلامه الشعر استصغار الشأن بعد أن سمع القرآن الكريم ، ويزعمون أنه لم يقل بعد إسلامه إلا بيتا واحدا هو :

الحمد لله إذ لم يأتني أجلى حتى اكتسيت من الإسلام سريالا
أو هو قوله :

ما عاتب الحر الكريم كنفه والمرء يصلحه المجلس الصالح
ومن مؤرخي الأدب الحديث من يعد هذه أسطورة ، ويذكر أن في ديوانه كثيرا من الشعر الديني .

التفسير اللغوي : (١) أفنك : اسم الإشارة يعود على الأتان التي شبه بها ناقته في الأبيات السابقة لهذا البيت . الوحشية : يقصد البقرة ، فهي نعت لمنعوت محذوف . مسبوعة : أصابها السبع بافتراس ولدها . خذلت : تركت دون أن تنصر وتعان . الهادية : المتقدم أو المتقدمة . الصوار : القطيع من بقر الوحش ، والجمع الصيران . القوام : ما يقوم عليه الأمر ، أو الشيء . (٢) الخنساء : صفة من الخنس ، وهو تأخر أرنبه الأنف . الفرير : ولد البقرة الوحشية ، وجمعه الفرار . فلم ترم : فلم تبرح . عرض الشقائق : ناحية الشقائق ، والشقائق : الأرض الغليظة مفردا شقيقة . الطوف : الطواف والجولان . البغام : الصوت الرقيق الناعم . (٣) المعفر : الملقى على التراب ، وهو صفة للوليد . القهد : الأبيض . تنازع : تجاذب . شلوه : عضوه ، والجمع أشلاء كأعضاء . غبس : جمع أغبس وغبساء ، وهو مالونه كلون الرماد وهو صفة لموصوف محذوف هو ذئاب . لا يمن : لا يقطع ، ومنه قوله تعالى : « ولا تمنن تستكثر » .

صَادَفَن مِنْهَا غِرَّةً فَأَصْبَنَهَا إِنَّ النِّسَاءَ لَا تَطِيَّشُ سِهَامُهَا (٤)
 بَاتَتْ وَأُسْبِلَ وَكَفَّ مِنْ دِيمَةٍ يُرَوِّى الْجَمَائِلَ دَائِمًا تَسْجَامُهَا (٥)
 يَعْلُو طَرِيقَةً مَتْنَهَا مُتَوَاتِرًا فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومَ غَمَامُهَا (٦)
 تَجْتَاوُفُ أَصْلًا قَالَصًا مُتَنَبِّذًا بِعِجُوبِ أَنْقَاءِ يَمِيلُ هَيَامُهَا (٧)
 وَتُضَى فِي وَجْهِ الظَّلَامِ مُنِيرَةً كَجَمَانَةِ الْبَحْرِىِّ سُلَّ نِظَامُهَا (٨)
 حَتَّى إِذَا انْحَسَرَ الظَّلَامُ وَأُسْفَرَتْ بَكَرَتْ تَزَلُّ عَنْ الثَّرَى أَرْزَامُهَا (٩)
 ٢٩٢ : عَلِمَتْ تَرَدُّدٌ فِي نِهَاءِ صَعَائِدِ سَبْعًا تَوْأَمًا كَامِلًا أَيَّامُهَا (١٠)

(٤) الغرة : الغفلة . فأصبها ، فاتهرتها . لا تطيش : لا تخطئ . سهامها : جمع سهم ، وهو النبل ، وما يرمى به .

(٥) أسبل : أرسل وأسال . الواكف : المطر للنهل . الديمة المطرة التى تدوم نصف يوم على الأقل . الجمائل : جمع خميعة ، وهى كل رملة ذات نبت وشجر . التسجام : الانصباب .
 (٦) طريقة منها : خط ظهرها من الحارك إلى الكفل . متواترًا : متتابعًا . كفر النجوم غمامها : ستر ضوء النجوم الغمام ، والكفر : هو الستر .

(٧) تجتاف : تدخل فى جوف ، والضمير يعود على البقرة الوحشية . أصلا : جذع شجرة . قالصًا : مرتفع الفروع . متنبذا : متنجيا . بعجوب أنقاء : العجوب جمع عجب بسكون الوسط : وهو أصل الذنب ، والأنقاء : جمع نقي وهو الكتيب من الرمل . والمراد أطراف الرمال المتجمعة . الهيام : الرمل ما يزال ينال ولا يتأسك .

(٨) وجه الظلام : أوله ، لأن الوجه أول ما يستقبل الرائي . الجمانة : القطعة من الفضة ، أو اللؤلؤة ، وهى المرادة هنا لنسبتها إلى البحر ، ومنه يؤخذ اللؤلؤ ، لا الفضة . البحرى : النسوبة إلى البحر أو البحرين ، إذ كان أهل إقليم البحرين مشهورين بالغوص على اللؤلؤ . سل نظامها : نزع خيطها .

(٩) انحسر : انكشف . أسفرت : أضاءت وظهرت . بكرت : غدت مبكرة . تزل : تزلق . أزلامها : قوائمه مفردتها زلم .

(١٠) علمت : هلعت وفزعت . نهاء : جمع نهى وهو الغدير . صعايد : اسم مكان . سبعا : أى سبع ليال . توأما : جمع توأم أى بأيامها .

- حَتَّى إِذَا يَتَّبَعْتُ وَأَسْحَقَ خَالِقُ لَمْ يُبْلِهِ إِرْضَاعُهَا وَفَطَامُهَا (١١)
 فَتَوَجَّسَتْ رَزَّ الْأُنَيْسِ فِرَاعَهَا عَنْ ظَهْرِ غَيْبِ الْأُنَيْسِ سِقَامُهَا (١٢)
 فَفَدَّتْ كِلَا الْفَرْجَيْنِ تَحَسَّبُ أَنَّهَا مَوْلَى الْمَخَافَةِ خَلَقَهَا وَأَمَامُهَا (١٣)
 حَتَّى إِذَا يَتُّس الرُّمَاءُ وَأَرْسَلُوا غُضْفًا دَوَاجِنَ قَافِلًا أَعْصَامُهَا (١٤)
 فَلَحِقْنَ وَاعْتَكَرَتْ لَهَا مَدْرِيَّةٌ كَالسَّمْهَرِيَّةِ حَدُّهَا وَتَمَامُهَا (١٥)
 ٢٩٨ : لِتَذُودَهُنَّ وَأَيَقَنْتُ إِنْ لَمْ تَذُ أَنْ قَدْ أَحَمَّ مِنَ الْخُتُوفِ حِمَامُهَا (١٦)

(١١) أسحق خالق : أخلق ضرع ممتلئ ، وليس ذلك هو المراد ، وإنما المراد ضرع مرتفع منضم إلى البطن لجفاف لبنه ، وقد استشهد اللسان على هذا المعنى بيت لبيد هذا . لم يبله : لم يخلقه .

(١٢) فتوجست : فتسمعت خفي الصوت . رز الأنيس : الرز الصوت الخفي ، ويقصد بالأنيس الناس . فإفزعها : فأفزعها . عن ظهر غيب : عن عدم رؤية لأصحاب الأصوات . سقامها : سبب سقامها وضعفها .

(١٣) ففدت : فصارت . كلا الفرجين : الفرج الواسع من الأرض وموضع المخافة ، وما بين قوائم الدواب ، فما بين البدين فرج ، وما بين الرجلين فرج ، وهو المقصود هنا . مولى المخافة : أولى بالخوف ، فمولى بمعنى أولى ، وذلك كقوله تعالى « مأواكم النار هي مولاكم » .

(١٤) الرمأة : الصيادون . غضف : جمع أغضف ، وهي الكلاب المسترخية الأذان . دواجن جمع داجن ، وهي العودات على الصيد . قافلا : يابسا . أعصامها : جمع عصام ، وهي سيور الجلود توضع في أعناق الكلاب .

(١٥) اعتكرت : رجعت وعطفت . المدرية : طرف القرن . السمهرية : الرماح المنسوبة إلى ممهر ، وهو رجل من قرية خطأ إحدى قرى البحرين عرف بتتقيف الرماح ، وكانت له زوجة تسمى ردينة تنسب إليها الرماح كذلك .

(١٦) لتذودهن : لتدفعهن . أحم : حان اللوت . الختوف : جمع ختف وهو اللوت . حمامها : موتها .

فَقَصَّدَتْ مِنْهَا « كَسَابٍ » فَضَرَّجَتْ

بِدَمٍ ، وَغُودَرَ فِي الْمَكْرِ « سُخَامُهَا » (١٧)

فَبِتَلَّتْ إِذْ رَقَصَ اللَّوَامِعُ بِالضُّحَا وَاجْتَابَ أُرْدِيَةَ السَّرَابِ إِكَامُهَا (١٨)

٣٠١ : أَقْضَى اللَّبَانَةَ لَا أَفْرَطُ رِيبةً أَوْ أَنْ يَلُومَ بِحَاجَةٍ لَوَامُهَا (١٩)



(١٧) فَقَصَّدَتْ : فَقَصَّدَتْ . كَسَابٍ : اسم كلبة الصيد . فَضَرَّجَتْ : نَحَضَتْ بِالْدم .
غُودَرَ : ترك . الْمَكْر : مكان الكر . سُخَامُهَا : اسم كلب الصيد ، ويظهر أنه كان أسود ، إِذ
السخام السواد .

(١٨) فَبِتَلَّتْ : الإِشارة إلى الناقة التي تشبه البقرة الوحشية . رَقَصَ اللَّوَامِعُ : اهتزت .
القيافي اللوامع ، فاللوامع صفة لموصوف محذوف . اجْتَابَ : لبس . أُرْدِيَةَ : جمع رداء ، وهي
الأنواب . الإِكام : جمع أكمة المرتفعات .

(١٩) اللَّبَانَةُ : الحاجة . لَا أَفْرَطُ : لَا أَقْصِر . رِيبةً : خوفاً . اللَّوَامُ : الكثير العتب
والقوم .

تحليل الأبيات :

هذه الأبيات من معلقة ليبيد بن ربيعة ، وقد أظهر الشاعر في معلقته ضروبا من الافتنان في جميع فنون الشعر ، ولا سيما الوصف ؛ فقد تناول بالوصف الرائع الديار المقفرة ، والمنازل الدارسة ، والأمطار الواكفة ، ثم تغزل غزلا قصيرا ، وكأني بليبيد كان رجلا جادا كزهير ، إذ لم يلبث أن عاد إلى الوصف ، فوصف الناقة وصفا صافي النبعة ، غزير المادة ، وهذا الجزء أحد تلك التشبيهات ، فهو يشبهها بالبقرة الوحشية فيقول :

أفتلك الأتان « التي كان قد شبه بها ناقته قبل » أم البقرة الوحشية التي قد نكبتها السبع في ولدها ، حين غيبتها عنه ؟ إذ ذهبت ترعى مع صويحباتها من القطيع والصيران ؛ لتعود إليه وقد حفل باللبن ضرعها .

لقد خذلها زعيم القطيع وقائده ؛ إذ لم يستطع عن ولدها دفعا ، فهي هائجة نائرة ، تطلب ولدها ، فلن يستقر لها من دونه قرار .

تلك البقرة الجميلة الخنساء ، المضيفة للفرير ، المفقودة الصغير ، لا تريم عن تلك الأرض الغليظة ، ولا تبرح عرض الشقائق طائفة صائحة صياحا رقيقا حزينا ، وكأنها تناديه فلا يجيبها ، فهي تبكي ذلك الفرير الذي طواه الرغام ، وغطاه التراب ، فغفر حسنه ، وغيب جماله ، تبكي ذلك الأبيض الناصع البياض الذي تنازعت الذئاب أشلاءه ، وتجادبت الغبس أعضائه ، فقد صادف من البقرة غفلة فاتهرزنها ، وأصبن منها غرة فاقنصن فريرها ، ولو لم يكن القضاء نافذا ، والقدر مبرما ما صادف الغفلة ، ولا أصبن الغرة ، ولكن « إن المنايا لا تطيش سهامها » .

ها قد ولى النهار ، وأقبلت جحافل الظلام ، فباتت باكية نائمة ، تشاركها في بكائها ديمة واكفة ، ويشاطرها عبراتها مزنة ماطرة ، تروى الحنائل بمائها المنسكب ، ودمعها المنهمر ، وهي في ليلها المكفهر ينفى طرائق ظهرها ، وخطوط متنها ذلك المطر المتواتر المتتابع ، لا يقبها منه كن ، ولا يحجبها عنه كناس ، وقد ستر الغمام ضوء النجوم ، وكفر الركام نور الكواكب ، فكانت ليلة ليلاء اجتمع فيها على الخنساء الحزن والبرد والمطر ،

فإذا اشتد عليها التهطل جهدت أن تتقيه بالاستتار تحت جذع شجرة مستطيلة الفروع ، ممتدة الأفنان ، وهذه الشجرة نائية عن غيرها من الأشجار .

إنها وقعت في كتيب من الرمل ينهال ولا يتماصك ، ويتساقط ولا يتساند ، فهي لفقد فريرها في حزن ، ومن الطبيعة في صرد ، ومن انهيار الرمل في فزع ، فما أشد منازل بها ! وما أعظم ما انتابها !

هذه البقرة بيضاء ناصعة ، فكأنها إذ تظهر في أول الليل ساطعة واضحة ، درة صدفية ، أو لؤلؤة بحرية ، قد وهى عقدها ، وانفرط نظامها ، فهي لا تستقر في مكان .

فإذا ما انكشف الليل ، وولى الظلام ، وتنفس الصبح ، وأسفر النور ، أصبحت مبكرة تنزع من الثرى قوائمها ، وتزل من التراب أزلامها ، ثم ظلت كما كانت هلمة فزعة ، لم يزابلها هلمها ، ولا جانبها فزعها ، واستمر ذلك حالها في المكان المعروف بصعائد سبع ليال وثمانية أيام تبحث عن وليدها ، وكأنها تقدر أنه غائب وسيثوب :

وكل مسافر سيثوب يوما إذا منح السلامة والإيابا

وهي لم تر أحدا سلبه سلامته ، ولم تلاحظ عدوا انتهب من بين جنبيه روحه ، وإذن فلا بد من إياب .

وها هي ذى - وقد قضت ثمانية أيام سويا تبحث عنه فلا تجده ، وتهيب به فلا يفد عليها - تياس من عودته ، يجف ضرعها ، ويسحق خلفها ، وقد كان امتلاؤه أول الأمر باللبن من أسباب لوعتها وأسأها ؛ إن ضرعها جف لاعن إرضاع بل عن غياب ، وها قد سمعت صوتا خفيا ، وتوجست من الناس شرا ، فارتاعت ولم تر ما يروعها ، وفزعت دون أن تتبين ما يفزعها ، ولكنها مع ذلك حقيقة بأن ترتاع وتفرع ، فالناس بسهامهم أسباب حتوفها ، وهم رسل منيتها ، فهي مضطربة مختلجة ، لا تدري من أين يجيئها حينها ، أمن الأمام فتقيه أم من الخلف ؟ وهذا مالا حيلة لها فيه ؛ لأنها لا تبصره ولا تراه ، وليس لها إلى دفعه من سبيل .

إنها لا تتبين مصدر الصوت حتى تتقى المفاجأة ، وتتفادى المباغتة ، وهي قد فوتت

على الرماة أغراضهم ، فلم يصيبوا منها غرضاً ، ولم يسددوا نحوها سهماً ، فأرسلوا عليها
كلابهم المسترخية الآذان ، المضرة على الصيد ، قد جملت بالقلائد في الأعناق ، وزينت
بالأعصام في الأجياد ، فلاحقت بها الكلاب ، فأبّت إليهن تدافعها عن نفسها :

وإذا لم يكن من الموت بدء فمن العجز أن تكون جباناً

كان ذلك منطق تلك البقرة قبل أن ينطق به التنبي ، وكان مستقيماً ، فلها تلك المدرية
التي هي أشبه بالرمح السميرية في حدة نصلها ، وطول قناتها .

عظفت عليهن ، لتزودهن عن نفسها ، وهي واثقة أنها إن لم تستمت في الدفاع عن
حياتها ، فإن الحنف سيكون مآلها ، قصدها تلك الكلبة الكسوب حتى سميت كساب
فجاجاتها بضربة بقرنها ، فضرجت بدماؤها ، وأقبلت على سخام فتركته مجدلاً ، فكان لها
النصر ، وحقا قيل : « من طلب الموت وهبت له الحياة » .

بتلك الناقة القوية السريعة التي تشبه في قوتها وسرعتها البقرة الوحشية المسبوعة
أقطع المفازات ، في ساعات الهجير ؛ إذ يلمع السراب سخا ، وإذا تلبس الآكام أردية
الآل ، أقطعها لأقصى أوطاري ، وأدرك مآربي ، لا أفرط في طلبها خشية أوارتيابا ،
وما على أن يلومني اللأمون .

النقد :

لقد كان لبيد أطول الشعراء في وصف البقرة الوحشية نفساً ، وهذه الإطالة لم تهن من
قوته ، بل جاء كالفرس الجواد ، كلما طال المدى ظهر كرمه ، وبدأ عزمه ، ذلك شأن لبيد
في وصفه يظهر قدرة فائقة ، ويبدى كفاية نادرة ، ويزجى فنونا من الافتنان ، ويسوق
ضروبا من الإحسان ، لم يزجها شاعر جاهلي بعد امرئ القيس سواه ، ولا سيما في معلقته
التي منها هذه الأبيات ، وفرق بينه وبين طرفه ، فإن طرفه وصف أعضاء الناقة وأجزاءها .
أما لبيد فوصف شيئاً غير أعضائها ، وصف ما تمدح له الناقة ، فشبها بالقمامة الحمراء ،
إذ يقول :

فلها هباب في الزمام كأنها صهباء خف مع الجنوب جهامها

ثم شبهها بالأتان الوحشية ، ثم شبهها بالبقرة المسبوعة ، وغرضه من جميع هذه الأوصاف السرعة .

وليبيد صور شعرية ناطقة ؛ محيطية كل الإحاطة بما يصوره ، فهي تنفذ إلى الأعماق ، وتصل إلى اللباب ، فانظر تلك الصورة البارعة في وصف بياض البقرة :

وتُضِيءُ في وجه الظلام منيرة كجمانة البحرى سُلَّ نظامها
لم يكنه أن يصفه بالجمانة ، فوصف ضوءها في الظلام ، ونسبها إلى موطنها ، ثم فرط عقدها ، لأن ذلك يصور حركتها الدائمة ؛ إذ ليس هناك ما يمسك هذه الحركة ، وانظر إلى قوله في وصف قرنها :

فلَحَقْنَ واعتكرت لها مدرية كالسمهرية جدُّها وتماها
وصف القرن بأنه كالرمح ، وليعطينا صورة كاملة ذكر أنه كان محددا وطويلا ، وانظر إلى قوله يصف الفلاة يرقص فيها السراب :

فبتلك إذ رقص اللوامع بالضحا واجتأب أردية الظلام إكامها
إنها صور لا يجيد رسمها إلا شاعر مصور كلييد .

وميزة أخرى للبيد هي أنه يستطيع أن يجعل الوصف مجالا للحكمة والوعظ كقوله :

صادفن منها غيرة فأصبنها إن المنايا لا تطيشُ سهاها

وقوله :

لتدودهن وأيقنت إن لم تذ أن قد أحمر من الحتوف حمامها

أليست هذه قدرة أخرى امتاز بها لبيد ، ولم يشاركه فيها إلا زهير بن أبي سلمى ، ولم نجد من الشعراء سواهما من هي له من التفوق في هذا الضرب ماهي زهير والبيد .

٢ — وقال النابغة الذبياني* من قصيدته التي أولها :

يَا دَارَ مَيَّةَ بِالْعَلِيَاءِ فَالسَّنَدُ أَقْوَتُ وَطَالَ عَلَيْهَا سَأْفُ الْأَمَدِ^(١)

كَأَنَّ رَحْلِي وَقَدْ زَالَ النَّهَارُ بِنَا يَوْمَ الْجَلِيلِ عَلَى مُسْتَأْنِسٍ وَحِدٍ^(٢)

مِنْ وَحْشٍ وَجَرَّةٍ مَوْشَى أَكَارِعُهُ طَاوِي الْمَصِيرِ كَسَيْفِ الصَّيْقَلِ الْفَرْدِ^(٣)

سَرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجُوزَاءِ سَارِيَةٍ تُرْجَى الشَّمَالُ عَلَيْهِ جَامِدَ الْبَرْدِ^(٤)

٣٠٦هـ فارتاعَ مِنْ صَوْتِ كَلَّابٍ فَبَاتَ لَهُ

طَوْعُ الشَّوَامَتِ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ صَرَدٍ^(٥)

ترجمه الشاعر: هو زياد بن معاوية أحد الشعراء الثلاثة الذين حكم لهم بالسبق في الشعر ، وزعيم قاده ، وذوى البصر به ، كانت تقام له قبة من جلد في سوق عكاظ : ليتحاكم إليه الشعراء ، وكان من سرارة قومه ، ففض مدحه الملوك وأخذهم منهم الصلوات من ذلك السراء ، وأجود شعره ما قاله في الاعتذار إلى النعمان بن المنذر ، وما ساقه في الوصف ، وقيل إنه لقب بالنابغة ، لنبوغه في الشعر بعد أن كبرت سنه توفي سنة ٦٠٤ م .

التفسير اللغوي : (١) مية : خليلته . العلياء : المرتفع من الأرض . السند : ما يقابل الإنسان من الجبل ، وهو فوق السفح . أقوت : خلت أو أقفرت . سالف الأمد : ماضى الدهر . (٢) الرحل : ما يوضع على ظهر البعير ، فيشبه السرج للفرس . زال النهار : حل وقت الزوال ، وهو الوقت الذي تتوسط الشمس فيه السماء . يوم الجليل : بذلك المكان الذي ينبت الجليل وهو الثمام . المستأنس : الذي ينظر بعينه كأنه يطلب الأنيس . وحده : منفرد . (٣) وجرة : فلاة بين مكة والبصرة ، وهي قليلة الماء لذلك لا يسكنها أحد . موشى : منقط . أكارعه : قوائمه ، ومفرده كراع كغراب . طاوى المصير : ضامر المصير ، وجمع المصير مصران ، وجمع الجمع مصارين . الفرد : الفريد الذي لا نظير له . (٤) سرت السارية : سارت السحابة ليلاً . الجوزاء : نجم يظهر صيفاً . سارية سحابة تسير بالليل . ترجى : تسوق برفق . الشمال : الريح تهب من جهة الشام . جامد البرد : الماء المتجمد قطعاً صغار الشدة البرد . (٥) فارتاع : نفزع ، والضمير يعود على الثور الوحشى . كلاب : صاحب كلاب . طوع الشوامت : طيع القوائم ، الشوامت جمع شامة . الصرد : البرد الشديد .

- ١٣٣: قالت له النفس: إني لا أرى طمعاً
 وإن مولاك لم يسلم ولم يصد (١٢)
 ولا سبيل إلى عقل ولا قود (١١)
 في حالك اللون صدق غير ذي أود (١٠)
 سفود شرب نسوه عند مفتاد (٩)
 شك المبيطر إذ يشفي من العضد (٨)
 طعن المارك عند الحجر النجد (٧)
 صمم الكعوب بريات من الحرد (٦)

(٦) فبهن : ففرقهن ، والضمير يعود على الكلاب ، وإذا فهناك غير ضمير وواشق ، ويظهر أن هذين كانا أمهر الكلاب . صمم الكعوب : ضوامر ، ومفرد صمم أصمع ، وهو وصف للقوائم الملس . بريات من الحرد : بريئات من الحرد ، وهو رهل في المفاصل .

(٧) ضمير : اسم كلب . يوزعه : يغريه ويحفزه . الحجر : الملجأ . النجد : الشجاع من النجدة ، أو الذي يعرق من الكرب والشدة ، والأول هو المراد .

(٨) شك الفريضة : طعنها وأنفذ فيها قرنه . والفريضة : قطعة لحم من مرجع الكتف إلى

الحاصرة . المدري : القرن . المبيطر : البيطار . العضد : بالفتح داء يصيب العضد .

(٩) كأنه : الضمير يعود على القرن . صفحته : جانبه . سفود شرب : السفود حديدة يشوى عليها اللحم ، والشرب جماعة الشاربين . نسوه : تركوه ومنه قوله تعالى : « نسوا الله فأنسيهم » أي تركوه فتركهم ، إذ الله جل شأنه لا ينسى شيئاً . المفتاد : موضع النار التي فيها الشواء . (١٠) فظل : فاستمر اليوم كله وليس مراداً وإنما المراد فاستمر . يعجم : يعضغ . الروق : القرن . منقبضاً : منطوياً متجمعاً . الصدق : بالفتح الصلب . الأود : الاعوجاج .

(١١) واشق : اسم كلب آخر ، وسمى بذلك لأنه يشق اللحم . إقصاص صاحبه : الإقصاص القتل السريع الذي نزل بصاحبه ضمير . لا سبيل : لا طريق ولا رجاء . إلى عقل : إلى دية ، ولا قود : ولا إقصاص . (١٢) قالت له النفس : ناجته نفسه وحديثه . وله الضمير يعود على واشق . الرجاء والأمل . مولاك : سيدك . لم يسلم : لم ينج من الحسارة .

تحليل الأبيات :

ناجى النابغة دار محبوبته مية متوجعا متحسرا ؛ لأنه كان منها فى نعيم ، وبعد أن
شغى قلبه بمناجاته إياها ، والتحسر عليها ، أخذ يصف ناقتة فى بيتين انتقل بعدها إلى وصف
الثور الوحشى ، والبيتان هما :

فعدَّ عما ترى إذ لا ارتجاعَ له وأنمَّ القَتودَ على عَيْرَانَةٍ أُجِدِّ
مَقْدُوفَةٍ بِدَخِيسِ النَّحْضِ بَارِزُهَا له صرِفٌ صرِفُ القَعْوِ بِالمَسَدِ
كَأَنَّ رَحْلِي وَقَدْ زَالَ النَّهَارُ بَنَّا

فهو يقول : كَأَنى إذ أضع رحلى ساعة الزوال ، فوق ظهر ثور وحشى غير محدود النشاط ،
فى ذلك المكان الوحش الذى لا أنيس لى فيه يزيل وحشى ، ويؤنس وحدتى .

إنه من وحش وجرة القليلة الماء ، المكدومة الغذاء ، وهو ضامر كالسيف المصقول ،
ليس له فى صقله نظير ، وهو إلى توجهه وخوفه ، وظمئه وجوعه قد أسرت إليه فى ليلة
ضريرة النجم مزنة شمالية لآمل البكاء ، ولا تترك النحيب ، فهى تحمل إليه البرد والبرد ،
وتسوق له معها الخوف والحذر ، والجوع والظما .

لكل أولئك هو مضطرب الحس ، هلع النفس ، قد ضاعف ما هو فيه أنه سمع صوت
صياد جاء يغزوه فى عقر داره ، ويطارده فى فلاته بقوانصه ، ولكنه قدر أن الله منحه
أكارع ملساء ، وقوأم جرداء قد برئت من العيب ، وسلمت من الحرد ، فهى كفيلة بأن
تدفع عنه هذه الكلاب المطاردة .

أقبل عليه زعيمها كما أراد منه سيده ، فإذا انصباب واندفاع ، وقفز ووثب ، ومدائرة
ومراودة ، ومخادعة ومخاتلة ، ثم معركة حامية الوطيس طعن فيها الثور ضمران فى شجاعة
ونجدة طمئة أفذ بها قرنه فى بطنه ، فكان كأنه يطار يشق عن داء ليفسله بالدواء ، وظهر
القرن من الجنب الآخر مضرجا بدم الكلب ، كأنه سفود تركه فوق النار جماعة الشاريين ،
فاهر واشتمل ، فصار كأنه عمود من النار ، وأخذ الكلب فى ثورة ويأس بعض أعلى القرن

الحالك الأسود ، القوى الصلد ، المستقيم الممتد ، وهو متقبض الجسم ، مكفهر الوجه ،
مما يشهر به من آلام الجراح والأوجاع .

وحين رأى واشق ماحل بأخيه من هزيمة وبوار ، واندحار وانكسار ، دون أن يحكم له
أحد بدية يودى بها ، أو قصاص يقتص به من عدوه الفاتك ، حدثته نفسه ، وقد استولى
عليها الفزع ، ونزل بها الجزع أنه لا يرى في ذلك الثور مطمعا ، ولا يرجو من وراء منازلته
مغنا ، فعليه أن يرضى من الغنيمة بالإياب ، فهاهوذا سيده يعود وقد خسر خسارة فادحة ،
دون أن يكسب شيئا ، فما أشق جده ! وما أتعس يومه !

النمر :

كأنى بالناطقة الشاعر الوصاف القاص قد عمد إلى وصف قصة تخيلها ، وقص منظر
تصوره ، غنى بأن يصف الثور الوحشى فى معركة حامية ، وبأن يقص علينا قصة حربية ،
والناطقة يجيد القصص ويحسن التصوير .

أتاح له الإجابة فى هذين النوعين خياله الواسع ، وشرفه الرفيع ، فقد هيأت له حياته
المتحضرة ، ورحلاته المتعددة ، ومناذمته الملوك ، ومصاحبته الأقيال أن يتسع خياله
ويجود تصويره .

اختار لهذه المعركة أسلحتها ، وأعد لها عتادها : الثور الوحشى ، والكلاب المبتوثة ،
والشك والفرائص ، والمدرى والروق ، والبيطر والعضد ، والسفود والمفتاد ، ثم رأى أن
الصلح الشريف غير مستطاع فلا دية ولا قود ؛ فأى ألفاظ ميدان تنقص وصف ذلك
الميدان ؟ وأى صورة للمعارك أدنى من تلك الصورة التى أعد لها ألوانها ، وهيا لها ميدانها ؛
إذ يقول :

وَكَانَ « ضَمْرَانُ » مِنْهُ حَيْثُ يُوزَعُهُ طَعَنَ الْمَعَارِكُ عِنْدَ الْحَجَرِ النَّجْدِ
شَكَّ الْفَرِيصَةَ بِالْمَدْرَى فَأَنْفَذَهَا شَكَّ الْمُبَيْطَرِ إِذْ يَشْفِي مِنَ الْعَضْدِ
كَأَنَّهُ خَارِجًا مِنْ جَنْبِ صَفْحَتِهِ سَفُودُ شَرَبِ نَسُوهِ عِنْدَ مُفْتَادِ

فَظَلَّ يَعْجُمُ أَطْلَى الرُّؤْفَى مُنْقَبِضًا فِي حَالِكِ اللَّوْنِ صَدَقَ غَيْرِ ذِي أَوْدٍ

لقد كانت معركة النابغة معركة أليمة أسال فيها الدماء ، وكأني به كان من تجار الحرب — كما يقال في الأساليب الحديثة — فعاش حياته داعياً إليها ، محرّضاً عليها ؛ حتى بين أنواع الحيوان .

تلك معاني النابغة تدلّ على بيئة حربية ، دلالتها على الخيل الحضرى ، فليس جميع العرب يعرفون : « سَقَوْدَ شَرِبِ نَسُوهُ عِنْدَ مُقْتَادٍ » وإنما هذا خيال من ينادم الملوك والأمراء .

أما أسلوبه فمستقيم لأمت فيه ولا عوج ، ولا تركيب ولا تعقيد ، وإنما هو يسير على نمط عال من القول ، وقوة محكمة من الرصف . وأما الألفاظ فإن النابغة السهل العذب يجزل ويصلب عند ما يتناول وصف معاني الحياة الجزلة الصلبة كالناقة والصحرى ، والأوابد والقيافى ، وكأني به يريد محاكاة تامة للطبيعة ، وهذه إحدى نواحي قدرته وجلاله .



٣ — وقال سويد بن أبي كاهل اليشكري * من يتيمته التي أولها :

بَسَطَتْ رَابِعُهُ الْحَبْلَ لَنَا فَوَصَلْنَا الْحَبْلَ مِنْهَا مَا اتَّسَعَ^(١)

فَكَأَنِّي إِذْ جَرَى الْآلُ ضَحًّا فَوْقَ ذَبَالٍ بِحَدِيدِهِ سَفَعَ^(٢)

كَفَّ خَدَاهُ عَلَى دِيبَاجَةٍ وَعَلَى الْمَتْنِ لَوْنٌ قَدْ سَطَعَ^(٣)

يَبْسُطُ الْمَشَى إِذَا هَيَّجَتْهُ مِثْلَمَا يَبْسُطُ فِي انْخَطَوِ الذَّرْعِ^(٤)

رَاعَهُ مِنْ طَبِئِ ذُو أَسْهَمٍ وَضِرَاءُ كُنَّ يُبْلِينَ الشَّرْعَ^(٥)

٣١٩ : فَرَأَهْنَ وَلَمَّا يَسْتَبِينَ وَكِلَابُ الصَّيْدِ فِيمَنْ جَشَعَ^(٦)

* ترجمه الشاعر : سويد بن أبي كاهل اليشكري ، شاعر مخضرم عمر طويلا في الجاهلية ، ثم أدرك الإسلام ، فأسلم ، وقد عده نقاد الشعر من أجواد الشعراء ، وقصيدته التي منها هذه الأبيات من الرائع النفيس ؛ حتى كان العرب يسمونها باليتيمة لما تشتمل عليه من الحكمة الحكيمة ، والمثل الصادق ، ولا يحفظ التاريخ الأدبي للشاعر غير هذه القصيدة إلا القليل ، وإذن فإن يكن من المجيدين ، فقد كان من القليلين ، توفي سنة ٦١ هـ .

التفسير اللغوي : (١) بسطت : مدت . رابعة : اسم محبوبته . الحبل : يريد الوصل . فوصلنا الحبل : فأطلقنا حبل الوصل . ما اتسع : ما أمكن اتساع الوصل لنا . (٢) الآل : السراب . الذبال : الطويل الذيل من أى حيوان ويقصد هنا الثور الوحشى . سفع : السفع السواد المشرب بالحمرة . (٣) كف : ضم ، ومنه قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « أمرت ألا أكف شعراً ولا ثوبا » يعنى في الصلاة . الديباجة : صفحة الخد . على المتنين . على جانبي الظهر . سطع : ظهر ووضع . (٤) يبسط المشى : يوسع الخطو ويمده . هيجهته : أثره ، مثلما يبسط : مثل بسط . الذرع : الطلا ، وهو ولد البقرة الوحشية . (٥) راعه : أفزعته ، والضمير يعود على الذرع في آخر البيت السابق . لا على الثور . طيئ : إحدى القبائل العربية للنسوبة إلى قحطان ، وكان أبناؤها معروفين بالمهارة في الصيد . ذو أسهم : وصف لموصوف محذوف أى صياد صاحب أسهم ، والأسهم جمع سهم النبال . الضراء : الكلاب المضراة على الصيد ، ومفردها ضار . يبلين : يخلقن . الشرع : الأوتار ، مفردها شرعة . (٦) فرأهن : ضمير النسوة عائد على الضراء ، والضمير الفاعل عائد على الثور : لما يستبين . لما يتحقق ويتبين . الجشع : الطمع وشدة الحرص على الصيد .

ثُمَّ وَلَّى وَجَنَابَانَ لَهُ مِنْ غُبَارِ أَكْدَرِيٍّ وَاتَّدَعَ^(٧)
فَتَرَاهُنَّ عَلَى مَهْلَتِهِ يَخْتَلِينَ الْأَرْضَ وَالشَّاةُ يَلْعَ^(٨)
دَانِيَاتٍ مَاتِلِبَسْنَ بِهِ وَائِقَاتٍ بِدِمَاءٍ إِنْ رَجَعَ^(٩)
يُرْهَبُ الشَّدَّ إِذَا أَرْهَقْنَهُ وَإِذَا بَرَزَ مِنْهُنَّ رُبْعٌ^(١٠)
سَاكِنُ الْقَفْرِ أَخُو دَوِيَّةٍ فَإِذَا مَا آنَسَ الصَّوْتُ امْصَعُ^(١١) ٣٢٤



(٧) وَلَّى : مضى وفر . جَنَابَانِ لَهُ : جانبان له . الْأَكْدَرِيَّ : النسوب إلى الأكر وهو وصف من الكدرة وهي العبرة . اتَّدَعَ : تراخى في جريه ، ولم يجهد نفسه في عدوه ، لاطمئنائه إلى بعده .

(٨) مَهْلَتِهِ : تمهله وتباطؤه . يَخْتَلِينَ : يقطعن ، ومنه اختلى العشب : جزه وقطعه . الشاة : اسم للثور الوحشى . يَلْعَ : يستخف بهن ، ولا يجحد في بعده عنهن .

(٩) دَانِيَاتٍ : قريبات : مَاتِلِبَسْنَ : لم يخلطن به . وَائِقَاتٍ : موقنات . بِدِمَاءٍ : بحرمان دماء أو بمحركة تسيل فيها الدماء . إِنْ رَجَعَ : إِنْ عاد إلين وقرب منهن .

(١٠) يَرْهَبُ الشَّدَّ : يخيف العدو السريع فيطيعه . أَرْهَقْنَهُ : أعبته وأعجلته . بَرَزَ مِنْهُنَّ : بعد عنهن ، ومنه برز الفرس إذا سبق الخيل في الميدان وبعد فلم يدركه . رُبْعٌ : اطمأن فأقام ، يقال « اربع على نفسك » أى توقف مطمئناً على نفسك .

(١١) سَاكِنُ الْقَفْرِ : كناية عن الثور الوحشى ؛ لأنه يعيش في القفار ، ومثلها أخودوية . آنَسَ : سمع وأحس . امْصَعُ : ولى ، يقال : مصع الفرس : مر مرا خفيفاً .

تحليل الأبيات :

بدأ سويد قصيدته بالغزل ، فأخبر أن حبيبته قد بسطت له حبل وصلها ، ومدت له في مرضاتها ، فبادلها شعورها ، ثم سار بعد الغزل في أفانين من الوصف حتى بلغ وصف ناقته ، فشبها بالثور الوحشى ، فقال :

كأنى فى تلك الفلاة المقفرة — وقد برق فيها السراب ، ولمع أمام السائرين ، وتألّق وسطع فى عيون الناظرين ؛ إذ الشمس مشرقة ، والأشعة متألّثة — أركب نوراً ضافى الذيل ، أسيل الخد ، نبيل الصفحة ، نخداه أسفغان فى سوادها حمرة تمنحهما حسنا ، وتكسوهما رونقا ، قد ضما على صفحة سوداء ، وجعما على ديباجة سفعاء . أما جانباً ظهره فناصعا البياض ، ساطعا الإشراق ، يبسط المشى ، ويوسع الخطو إذا ظهر له ما يهيج به ، أو لمح ما يثيره ، حينئذ يبدو للرأى ، وكأنه الطلا سرعة عدو ، وشدة ركض .

وها هو ذا يظهر له ما يحتاجه ويثيره ، ظهر له صياد ماهر ، من قبيلة طيى المشهورة بالرماية ، المعروفة بالتسديد ، أسهمه لديه موفورة ، وكلابه معه مضرة ، فهى لكثرة استخدامها توهى أوتار الأسهم .

لقد رأى الثور هذه الكلاب ، ولم قد رآها من قبل ، ولم عرف ضراوتها وقوة مراسها ؛ إنه يراها على مدى بعيد ، ومن بعد سحق ، يعرفها حريضة على صيده ، طموعا فى قنصه ، فولى دونهن مدبراً ، وقد اغبر جانباه ، واكدر متناه من الغبار المنشر من كره وفره ، ومن شدّه وعدوه ، وإذ وثق بنأيه عنهن ، وأيقن عدم قدرتهن على لحاقه سار فى تراخ وتباطؤ ؛ كأنه يشمت بهن ، ويسخر منهن ، فهن يقطعن الأرض عاديّات ، ويختلن المغازة بسرعات ، أما هو فيسير متمهلاً ، « فكأنه آس يحبس عليلاً » إنها تدنو ولكنها لا تلحقه ، وتقرب من مكانه ولكنها لا تدانيه ، حينما يزداد قربها منه يخيف العدو فيطيمه ، ويهيب بالشد فيجيبه ، فإذا هو عاد راكض حين يرهقنه لحاقاً ، ويمجلنه إدراكاً ، فإذا ما أبعد عنهن ، وقف ينظر إليهن مطمئناً إلى قوته ، مغتبطاً بسبقه وتفوقه .

إن هذا الثور ابن الصحراء ، وأخو المقازات شديد الإحساس ، متوفز الإدراك ،

فإذا ما أحس نامة ذهب عدوا ، وإذا شعر بحركة راح ركضا ، فإذا هو عن الشر بعيد ، ومن عدوان العدو أمين .

النقر :

في هذه الأبيات صورة واضحة لطرد الكلاب للثيران الوحشية ، فهي تحاول أن تختلها عن نفسها ، وتجاهدها لتقتنصها ، ولكن الأخرى دائماً اليقظة ، شديدة الحرص على ألا تقع في أيدي أولئك المعتدين .

انظر إلى الحركات في تلك الصور الشعرية : يراها عن بعد ، فيترقبها ، ثم يبتعد عنها عدوا ، ثم يقف متراخيا ناظرا إليها ؛ ليراه إلى أين تسير وإلى أي جهة تقصد ؟ فهو يعرف في الكلاب الدهاء والخداع ، والمواربة والمناورة ، فإن سارت الكلاب يمينا سار هو شمالا ، وإن أقبلت تلك أدبر ذاك حتى يئأس الصياد من الصيد ، وتعجز الكلاب عن الطرد . إن الثور لا يطرف له طرف ، ولا يغمض له لحظ ، فذو الأسهم من ورائه حريص ، فإذا غفل عنه أصابه البوار .

كل هذه الصور رسمها سويد في أسلوب واضح قوى جميل ، فأى وضوح وقوة وجمال ينم عنها الشعر وتبدو في الصور يبرز قوله ؟

رأه من طيء ذو أسهم وضراء كنَّ يُبْلِينَ الشَّرْعَ
فَرَأَهُنَّ ، وَلَمَّا يَسْتَبِينَ وَكِلَابُ الصَّيْدِ فِيهِنَّ جَشَعُ
ثُمَّ وَلَى وَجَنَابَانِ لَهُ مِنْ غَبَارٍ أ كَدَرِيٍّ وَانْدَعُ
فَتَرَأَهُنَّ عَلَى مُهْلَتِهِ يَخْتَلِينَ الْأَرْضَ وَالشَّاةُ يَلْعُ

أى تصوير لساكن الصحراء أروع من ذلك التصوير ؟ وأى معان لمركبة باردة « على حد تعبير رجال السياسة في هذا العصر » أوفر من هذه المعانى ؟ وأى ألفاظ مؤدية لهذه المعانى أدق من هذه الألفاظ ؟

الألفاظ مؤدية للمعانى أتم الأداء لولا أن القافية فيها غرابة حيناً ، وثقل حيناً ،

ولعل ذلك لطول القصيدة ، ولقلة الألفاظ التي تناسب الوزن ، فمن الألفاظ الثقيلة « اتدع ، امصع » .

ويختلف سويد عن النابغة في أن النابغة أحال الحرب الباردة إلى حرب حارة، فسويد يكتفى عن المنازلة بالتحائلة ، فحين يقول النابغة :

كَأَنَّهُ خَارِجًا مِنْ جَنْبِ صَفْحَتِهِ سَقُودُ شَرَبٍ نَسُوهُ عِنْدَ مُقْتَادٍ

يقول سويد :

دَانِيَاتٍ مَاتَلَبَّسْنَ بِهِ وَاقَاتٍ يَدِمَاءُ إِنْ رَجَعُ

لقد سلك كل منهما مسلكا أراداه ، ولكن النابغة كان أوعر مسلكا، وأجل صورا، وهذا أمر عرف عن النابغة ، فقد كان أميل شعراء عصره إلى المبالغة وإلى التصوير .



٤ - وقال امرؤ القيس * يصف الحمار الوحشى :

- كَأَنَّ وَرَحْلِي فَوْقَ أَحْقَبَ قَارِحِ^(١) بشربة أوطاوعِ عِرْنَانَ مُوحِسِ^(١)
تَعَشَّى قَلِيلًا ، ثُمَّ أُنْحَى ظُلُوفُهُ^(٢) يُثِيرُ التُّرَابَ عَنِ مَبِيتٍ وَمَكْنَسِ^(٢)
يُهِيلُ وَيُذْرِي تَرْبَهَا وَيُيْرِهَا^(٣) إِثَارَةَ نَبَاشِ الْهَوَاجِرِ مُخْمِسِ^(٣)
فَبَاتَ عَلَى خَدٍّ أَحْمَ وَمَنْكَبِ^(٤) وَضِجَمَتُهُ مِثْلُ الْأَسِيرِ الْمُكَرَّدَسِ^(٤)
وَبَاتَ إِلَى أَرْطَاةٍ حِقْفٍ كَأَنَّهَا^(٥) إِذَا أَلْتَقَتَهَا غَبِيَّةٌ بَيْتُ مَعْرِسِ^(٥)
٣٣٠ : فَصَبَحَهُ عِنْدَ الشَّرُوقِ غُدِيَّةً^(٦) كِلَابُ ابْنِ مَرْ أَوْ كِلَابُ ابْنِ سِنْدِسِ^(٦)

* ترجمه الشاعر : انظر ترجمته في وصف الفرس ص ١٠٩ .

التفسير اللغوي : (١) الأحقب : الحمار الوحشى الأبيض مكان الحقيبة . القارح : الذى شق

نابه . شربة : اسم عين ماء . طاو : جائع غرثان . عرنان : عرنان : اسم جبل . موجس : حذر خائف .

(٢) أنحى ظلوفه : عدل أظفاره استعدادا للنبتش والنبت . يثير : يسف ويذرى : المبيت : اسم مكان من بات مكان البيات . المكنس : الكناس والسكن .

(٣) يهيل : يسقط . يذرى : يطير ويثير . نباش الهواجر : النباش فى أوقات الظهيرة ، وهذا الوصف يلب للضبة . مخمس : خامس خمسة .

(٤) أحم : أسود أو أبيض فهو من أسماء الأضداد ، والوصف بالياض هو المراد ، إذ وصفه فى أول بيت بأنه أحقب . المنكب : مجتمع الكتفين . المكردس : المقيد ، والكردسة التقييد .

(٥) إلى أرتاة : إلى جانب شجرة أرتاة ، وثمر هذا الشجر يشبه العناب . الحقف : الرمل المجتمع . ألتقتها : بللتها وندتها . غبية : الغبية الدفعة الشديدة من المطر . المعرس : المتخذ له عرسا .

(٦) فصبحه : جاءه عند الصباح . غدية تصغير غدوة ، ويصح غدية بفتح الغين ، فتكون من غير تصغير . ابن مروان بن سبب : صيادان ماهران من قبيلة طي ، وقد قدمنا أن هذه القبيلة معروفة بمحسن الرماية ، وسداد الإصابة .

- مُغْرَمَةٌ زُرْقًا كَانَ عُيُونُهَا (٧) مِنَ الذَّمْرِ وَالْإِيْحَاءِ نُورًا عَضْرَسِ
فَأَدْبَرَ يَكْسُوها الرِّغَامُ كَأَنَّهَا (٨) عَلَى الصَّمَدِ وَالْأَكَامِ جَذْوَةٌ مُقْبِسِ
وَأَيْقَنَ إِنْ لَا قَيْنَهُ أَنْ يَوْمَهُ (٩) بِذِي الرِّمْتِ إِنْ مَاوَتْنَهُ يَوْمَ أَنْفُسِ
فَأَذَرَ كَنَّهُ يَأْخُذْنَ بِالسَّاقِ وَالنِّسَا (١٠) كَمَا شَبَّرَقَ الْوُلْدَانُ ثَوْبَ الْمُقَدَّسِ
٣٣٥: وَغَوَّزْنَ فِي ظِلِّ الْفَضَا وَتَرَكَنَهُ (١١) كَقَرَمِ الْهَيْجَانِ الْفَادِرِ الْمُتَشَمِّسِ



التفسير اللغوي : (٧) مغرمة : جماعة لتكون أشد فتكا ، وأقوى عدوا . الذمر :
الإثارة واللوم والتعريض . الإيحاء : الإيحاء والإشارة . نوار : زهر النبات . العضرس : شجر له
نور أحمر . (٨) فادبر . فرجع . يكسوها الرغام : يغطيها الغبار ، حتى كأنه لها
كالكساء . الصمد : المكان المرتفع . الأكام : جمع أكمة وهي كالصمد في المعنى . جذوة :
شعلة . مقبس : طالب قبس من نار . (٩) أيقن : وثقن ، والضمير عائد على كلاب ابن
مرو ابن سنيس . بذى الرمت : كناية عن مكان به من شجر الرمت الكثير . وهو شجر
يشبه الفضا ، وترعاه الإبل . ماوتنه : صابرنه وجالده حتى الموت . يوم أنفس : يوم زهاق
أنفس . (١٠) يأخذن : بعضن . الساق : ما بين الكعب والركبة . النسا : عرق
من الورك إلى الكعب . شبرق : مزق . الولدان : الغلمان . المقدس : الرجل المطهر نفسه
من الأدناس . (١١) غورن : سرن في الأرض المنحدرة . كقرم الهيجان : كالفضل
الكريم . الفادر : الناقة المنفردة . الشمس : الشموس النفور .

تحليل الأبيات :

في هذه الأبيات صور نابضة بالحياة ، وصور ساكنة هادئة أحيانا ، فهي تمثل الحياة أروع تمثيل ، أليست الحياة حركة وسكونا ، وحياة وهمودا ؟

إنك إذ تقرأ هذه الأبيات تتمثل البادية بحمرها الوحشية ، وشجرها النبت في أطرافها ونواحيها ، ورمالها الصفراء ، وصحرائها الفيحاء ، وكلابها المضرة ، وصيادها المحتالين ، فهي صورة مرتبة واضحة ، أجزاءها متناسقة ، وألوانها متألقة ، لاتجد في بعضها نبوا عن بعض ، ولا تسمع في حركة من حركاتها نشوزا ، وذلك هو الحس والخيال ، والروعة والجمال .

شبه امرؤ القيس ناقته من فوقها رحله بالحمار الوحشى الفتى ، ثم انصرف عنها إليه ، فهو ممتلئ نشاطا وعراما لأنه قارح ، أو لأنه طاوى الكشح ، أو لأنه قارح طاوى الكشح معا ، وهو قبالة عين ماء ، أو فوق جبل متباعد الأنحاء ، إنه هنا وهناك ؛ لأنه لا يسكن ولا يهدأ ، فهو خائف متوجس ، حذر متربص ، لم ينل من الطعام في أمسيته ما يسد جوعته ، أو يمسك صلبه ، إنه جامع أظلاله يهيل بها التراب ، كأنه يبحث عن مكس أو مسكن ، مثله إذ يهيل الثرى ويذريه كمثل الضباع تنبش التراب ساعة الظهيرة ، فإذ هيا له مناما هدا عزمه ، وفتر نشاطه ، ونام على خد ومنكب أبيضين ، وهو في ضجعته الهادئة كالأسير المقيد لا يبدى حركة ولا يحدث ضجيجا .

قد اتخذ كناسه إلى شجرة تجمع حولها الرمل ، فكأنها إذا بللتها دفعة من المطر ، أوندتها مزنة من سحاب ، بيت رجل أعرس ، فهو هادئ ساكن ، ولكنه إذ ينفجر الفجر ، ويتنفس الصبح تصبغه كلاب مضرة على الصيد كأنها في ضراوتها ودربتها « كلاب ابن مر أو كلاب ابن سنس » .

وهي إلى هذه الضراوة مغرثة بمجاعة ؛ لتكون أشد فتكا وأقوى عراما ، فعيونها لقسوة ذمرها وحرضها ، وشدة ثورانها وهياجها حراء مشتتة كأنها نوار غمرس .
رأى الحمار هذا الكلاب يذمر كلابه ، فشد يخلف من ورائه سحابا من الغبار ،

يكسو هذه الكلاب فكأنه - إذ يعلو الأصماد والآكام ، ويرتفع إلى الربا والنجد ، ويختلط الغبار المتطاير ببياضها ، فتغير لونها - جذوة من نار .

وكما أيقن أنه إن لاقى هذه الكلاب في وادي الرمث ، فإن نفوسا ستهلك ، ودماء ستهرق ، قد تكون نفسه إحداها ، وقد يكون دمه هو الدم المهرق سابق الريح ، وأمعن في شدة ؛ لا يبقى من عدوه على شيء .

ثم إنه يتصور أنها إن أدركته فستاخذ بساقيه ووركيه ، فتمزقها تمزيقا ، تمزيق الغلمان الأغرار ألقين الراهب المطهر ذا التقوى والبركات آثبا من بيت المقدس ، فهم يتبركون به ، فيمزقون ثيابه التماسا للبركة ، وطلباً للغفرة .

هذه الكلاب انحدرت إلى ظل أشجار الغضا بعد أن يئسن من لحاقه ، وأيقن عدم القدرة على إدراكه ، وتركه قويا شيطا لم يمسه نصب أو لغوب ، فهو كالفحل الهجان ، المنفرد في حظيرته ، الشموس لا يقوى أحد على مواجهته .

النقر :

في معاني امرئ القيس وسويد بن أبي كاهل تشابه كثير ، وليس عظيما على سويد أن يقبس من امرئ القيس ، فإننا لا نكاد نجد شاعرا لم يكن عالما على امرئ القيس في معانيه ، فإذا قال امرؤ القيس :

وَأَيَقَنَ إِن لَّا قَيْنَهٗ أَن يَوْمَهٗ بَذَى الرَّمْثِ إِن مَّاوَتْهٗ يَوْمُ أَنْفُسِ

ألفينا سويدا يقول :

دَانِيَاتٍ مَّا تَلَبَّسْنَ بِهِ وَاتَّقَاتِ بِدِمَاءِ إِن رَجَعْ

ومع أن واجب الأخذ أن يزيد الأخذ عن أخذ منه في المعنى أو في الأسلوب ، فإن هذا الواجب لم يؤده سويد ، فبيت امرئ القيس أدق في المعنى ، فقد حدد المكان الذي يكون فيه التماوت ، وهو أجل في الأسلوب ، وإذا قال امرؤ القيس :

فَبَاتَ عَلَى خَدِّ أَحَمَّ وَمَنْكِبِ وَضَجَعْتَهُ مِثْلَ الْأَسِيرِ الْمَكْرَدَسِ

حاول سويد أن يتابعه ، فقال دون أن يبلغ تصوير امرئ القيس :

كُفَّ خَدَّاهُ عَلَى دِيبَاجَةٍ وَعَلَى الْمَتْنَيْنِ لَوْنٌ قَدْ سَطَعَ

فبيت امرئ القيس فيه وصف وفيه صورة : الوصف في الشطر الأول والصورة في الشطر الأخير ، أما بيت سويد فليس فيه غير الوصف .

وقد وصف امرؤ القيس الكلاب ، وهي عماد الصورة ، ولكن سويدا مر عليها عدوا ؛ كأنه خشى إن تريت ليصفها أن تلحقه ، « وأدركته يأخذن بالساق والنسا » أو يشبرقنه « كما شبرق الولدان ثوب المقدس » وتصور امرئ القيس الهدوء والسكون بأنه كهدهو الرجل المعرس يرسل لنا شعاعا عما كانت عليه بيوت المعرسين بعد أن ينفض السامرون .

لانبالغ فنقول : إن امرأ القيس أعظم شاعر عرفه العالم ، فقد نجد من يتعصب عليه ، أو يرمينا بالتعصب له ، ولكننا نقول : إنه أعظم شاعر عرفته الأمة العربية ، ونحن على ثقة أننا لن نجد معارضين ، حتى ولا أولئك الذين يقولون : « إن الشعر الجاهلي كان جنابة على الأدب العربي » .



٥ - وقال علقمة الفحل * يصف الظليم من قصيدته التي أولها :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم^(١)

كانها خاضب زعر قوادمه أجنى له باللوى شرى وتنوم^(٢)

يطل في الحنظل الخطبان ينقعه وما استطف من التنوم مخدوم^(٣)

فوه كشق العصا لأيا تبينه أسك ما يسمع الأصوات مصلوم^(٤)

حتى تذكر بيزات وهيجه يوم رذاذ عليه الريح مغيوم^(٥)

٣٤١ : فلا تزيد في مشيه نفق ولا الزيف دوين الشد مسوم^(٦)

* ترجمه الشاعر : انظر ترجمته في وصف الناقة ص ٩٨ .

التفسير اللغوي . (١) استودعت : أوغنت . نأتك : هجرتك . مصروم : مقطوع .

(٢) الخاضب : الظليم احمر ساقاه وجلده ، وخاضب صفة لموصوف محدوف : هو الظليم ، وهو ذكر النعام ، وهو يشبه ناقته به لسرعتها . زعر : جمع أزعر ، قليلة الشعر . قوادمه : جمع قادمة ، وهي الريشات الكبار في مقدم الجناح ، وفي رواية قوائمه . أجنى النبات : نضج ونهياً للجنى . اللوى : ما انعطف من الرمل . الشرى : شجر الحنظل . التنوم : شجر يشبه ورقة ورق الآس ، يسقط ورقه صيفاً ويتعرع شتاء . (٣) الحنظل الخطبان : هو الحنظل

فيه خطوط تضرب إلى السواد ، وهو أشد ما يكون مرارة . ينقعه : يستخرج حبه . استطف : ارتفع وأمكن . مخدوم : مقطوع لياً كله . (٤) فوه : فم . لأيا : شدة وبطأ . تبينه : تراه . أسك : أصم ، وأذن سكاء : صماء صغير الأذن لاصقها بالرأس : مصلوم : مقطوع .

(٥) هيجه : أثاره . يوم رذاذ : يوم مطر خفيف ، عليه الريح : فيه الهواء . مغيوم : ملبد بالغيوم . (٦) التزيد : السير السريع . النفق : بكسر الفاء السريع الاقطاع من كل شيء ، يقال فرس نفق أى لا يطيل الركض . الزيف : نوع من السير دون الشد . دوين :

تصغير دون . الشد : المدو السريع . مسوم : مملول .

* هذا البيت منسوب في لسان العرب لدى الرمة ، ولكنه منسوب في شعراء النصرانية وفي الفضليات لعلقمة ، ثم إن لدى الرمة قصيدة من هذا الوزن والقافية ولكن البيت ليس فيها ، فلعل وزن القصيدة هو الذي خلط الأمر على صاحب اللسان .

- يَكَادُ مَنَسِمُهُ يَخْتَلُّ مُقْلَتَهُ كَأَنَّهُ حَازِرٌ لِلنَّخْسِ مَشْهُومٌ (٧)
وَضَاعَةٌ كِمِصِّي الشَّرْعِ جُوجُوهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاهَى الرَّوْضِ غُلْجُومٌ (٨)
يَأْوِي إِلَى حِسْكَ كُلِّ زُغْرِ حَوَاصِلُهُ كَأَنَّهُنَّ إِذَا بَرَّكُنْ جُرْثُومٌ (٩)
حَتَّى تَلَا فِي وَقَرْنِ الشَّمْسِ مُرْتَفِعٌ أَدْحَى عَرَسَيْنِ فِيهِ الْبَيْضُ مَرَكُومٌ (١٠)
يُوحِي إِلَيْهَا بِانْقَاضٍ وَنَفَقَةٍ كَمَا تَرَاظُنُ فِي أَفْدَانِهَا الرُّومُ (١١)
صَعْلٌ كَانَ جَنَاحِيهِ وَجُوجُوهُ بَيْتٌ أَطَافَتْ بِهِ خَرَقَاءُ مَهْجُومٌ (١٢)
تَحْفَهُ هِقْلَةٌ سَطْعَاءُ خَاضِصَةٌ تُجْبِيهِ بِزِمَارٍ فِيهِ تَرْنِيمٌ (١٣)

(٧) منسمه : ظفره ، والمنسم خاص بالبعير والنعام والليل ونحوها . ويختل مقلته : يصيب عينه . حاذر : متأهب مستعد . النخس : غرز عود أو نحوه في جنب الدابة ، أو مقدمها أو مؤخرها لاستفزازها إلى الجري . المشهوم : الفزع المروع ، وأصله من شهم الفرس زجره ، وأيضا المشهوم الذي الفؤاد وليس مقصودا .

(٨) وضاعة : صيغة مبالغة من الوضع ، وهو نوع من عدو الإبل السريع ، والتاء في وضاعة للمبالغة لأنه وصف للظلم . الشرع : الآثار مفردا شرعة . جوجوه : صدره . التناهي جمع تنية ، وهي الأماكن المظلمة ينتهي إليها الماء . علجوم العلجوم البعير الطويل المظلي بالقطران ، والوعل ، والثور المسن ، والشديد السواد ، ولعله يقصد الوعل .

(٩) يأوى : يلجأ . حسكل : الحسكل الصغار من ولد كل شيء ، وخص بعضهم بالحسكل ولد النعام أول ما يولد وعليه زغبه الواحدة حسكلة ، ورواية اللسان « يأوى إلى حسكل زغب حواصلها » والحواصل جمع حوصلة معدة الطائر . بركن . استنخن . جرثوم : جمع جرثومة وهي أصل الشجر . (١٠) تلافي : تدارك قرن الشمس : أول ما يبدو من قرصها . الأدحى : مبيض النعام . عرسين : يقصد الظلم ونعامته . مركوم : مجمع متراكم بعضه فوق بعض . (١١) يوحى إليها : يشير إليها ، ويصوت لها . الانقاض : التصويت ، أُنْقَضَت العقاب صوت ، ومثله النفقة ، فهي صوت الظلم . التراظن : تفاهم الأعاجم . الأفدان : جمع فدن بفتح الفاء والبدال ، وهي القصور . (١٢) الصعل : الدقيق الرأس والمنق من النعام أو النخل أو الناس ، والأول هو المراد . أطافت به : أحاطت به ، ودارت حوله . خرقاء : وصف لموصوف محذوف يقصد لامرأة خرقاء غير حازمة . مهجوم : ساقط مهدوم .

(١٣) تحفه : تحيط به . الهقلة : النعامة . السطعاء : الطويلة العنق . الخاضعة : التي تميل رأسها عند الرعى . الزمار : صوت أثنى النعام . الترنيم : الغناء والتنغيم .

تحليل الأبيات :

هذه الأبيات تكملة للأبيات التي اخترناها لعلقة في وصف الناقة ، فإنه بعد أن قال :
تلاحظُ السَّوطَ شَرَّراً وهي ضامِرةٌ كما توجَّسَ طاوى الكَشْحِ مَوْشُومٌ
سار في وصف ذلك الطاوى الكشح ، فكان هذا البيت تمهيد الوصف العظيم .

ذلك العظيم الأحمر اللون ، حتى لكأنه قد خضب بالحناء ، قواده قصيرة الشعر ،
إذ ذهبَت أصولها ، وبقى شكيرها ، له في المكان الذي يعيش فيه نوعان من الطعام قد
استوى نضجهما أو كاد ، هما : الشرى والتنوم ، فهو يظل يومه الأطول في استخراج حب
شجر الحنظل ، فوق أنه يقطع ما يرتفع من شجر التنوم ليكون له غذاء .

فم ذلك العظيم ضيق رقيق الشفتين لا يكاد يرى ، فكأنه شق في عصا ، وهو أصم
الأذنين لا يكاد يسمع ، أو هو مصلومهما ، وهو بهذا الوصف يشعرنا بأن أذنه صغيرة لاصقة
برأسه ، ككأنه لم تخلق له أذن ، وفي المثل عن العظيم : « ذهب يطلب قرنين ، فعاد
بلا أذنين » .

إذا تذكر بيضه في أحديه ، وهو يرى الشرى والتنوم ثار وهاج ، ويزيده احتياجا
سقوط الرذاذ ترجيه الريح ، ويسوقه الهواء الملبد بالغيوم ، وهو إذ يتزايد ليدرك بيضه
ويزف ، لا يستمه طول التزيد ، ولا دوام الزفيف ، فلا ينقطع سيره ، ولا تنفق سرعته ،
حتى يبلغ غايته ، يكاد خفه يصيب عينه ، وذلك عند ما يشتد عدوه ، فيرفع خفه ويخفض
رأسه ، وهو في خفض رأسه كأنه متأهب للنخس ، فهو مروع فزع .

هذا العظيم وضاعة سريع ، صدره في تقوسه كعصى الأوتار ، كأنه في الأماكن
الآنسة بالسكان ، المنتهية بالماء بين الرياض وعل قد أنس ، فهو يلجأ إلى فراخه
الصغار الزغب الحواصل ، التي تشبه - وقد برك بعضهن بجانب بعض - أصل النخيل ،
فما زال يوضع حتى تدارك أحديه ، وقد برز قرن الشمس ، وارتفعت أشعتها ؛ أدركه -
ومعه عرسه - مجتمعا متراكما لم يكسره أحد ، ولا سطا عليه كائن ، فشرع عندئذ ينقض

لها فتفهم إنقاضه ، وينتقن فتجيب على نقنقته دون أن يفهم أحد من إنقاضه ونقنقته شيئا ، فكأنه وإياها روميان يتراطان في أحد قصور الروم .

ذلك الظليم دقيق الرأس والعنق ، تراه عند ما ينشر جناحيه حول صدره بيتا من الشعر تقيمه امرأة غير صناع ، فكلمها أقامته سقط ، وهو بهذا يشير إلى أن الظليم ينشر جناحيه ثم ما يلبث أن يضمهما ، يصنع ذلك الصنيع مرات في أويقات .

إذا سار ذلك الظليم حفت به عرسه المديدة العنق ، الميالة الجيد ، ذات الصوت الرخيم ، والتنغيم الجميل

النقر :

هذا نوع فريد في تشبيه الناقة ، فقد رأينا أكثر الشعراء يشبهونها بالثور أو البقرة أو الحمار ، أما أن أحدا شبهها بالظليم ، فلا ، نعى ممن اخترنا لهم من الشعراء ، وإذن فلن نتاح لنا الموازنة بينه وبين من تقدموه .

وعلقمة حينما شبه ناقته بالظليم وصف الظليم بأوصاف حسية ، وبأخرى عاطفية ، والناحية العاطفة قليلة في الشعر العربي ، فنعت الظليم بالتوجس ، والوشم ، والخضب ، وبالزغب والرعى ، وبضيق الفم ورقة الشفتين ، وصغر الأذنين ، وبالسرعة والصبر على الشد والعدو ، وكل هذه صفات منتزعة من الحس .

أما الأوصاف العاطفية فهي هياجه وثورانه عند ما يتذكر وهو في مرعاه بيضاته ، فإنه ينسى كل شيء إلا أن يصل إلى ذلك البيض ليتفقده بعد أن يمر بحسكه الذي يشبه جرثوم النخل في تراكمه ؛ إنه لتصوير للعاطفة الروم جميل :

حَتَّى تَذَكَّرَ بِيضَاتٍ وَهِيَجَهُ	يَوْمُ رَذَاذٍ عَلَيْهِ الرِّيحُ مَقِيُومُ
فَلَا تَزِيدُهُ فِي مَشْيِهِ نَفَقُ	وَلَا الزَّفِيفُ دُوبِينَ الشَّدِّ مَسْنُومُ
يَكَادُ مَنَسِمِهِ يَخْتَلُّ مُقْلَتَهُ	كَأَنَّهُ حَاذِرٌ لِلنَّخْسِ مَشْهُومُ
وَصَاعَةً كَمَصِي الشَّرْعِ جُوجُوهُ	كَأَنَّهُ بَقْنَاهِي الرُّوضِ عَلْجُومُ

ياؤى إلى حِسْكَلي زُعر حواصله كَأَنَّهُنَّ إِذَا بَرَّكُنَّ جُرُومَ

وأنت ترى إلى جانب الناحية العاطفية أوصافا وصورا كاملة ، كالصورة الأخيرة التي يشبه فيها صغاره وقد بركن مجتمعات متراكبات في أصل النخل .

ثم إن وصف مناجاة الظليم عرسه تصوير لا يصدر إلا عن عاشق متيم حديث للنساء ، يعرف لغة القلوب ، ويفهم ومضات العيون :

يُوحى إليها بِإِنْقَاضِ وَنَمْتَةٍ كَمَا تَرَاظَنَ فِي أَفْدَانِهَا الرُّومُ

ولكن الذى لا أجد له مكانا فى الصورة التى رسمها لتخاطب الظليم وعرسه قوله :
— فى أفدانها — فهل الروم لا يتخاطبون إلا فى الأفدان ؟

ولولا أن من ألفاظ القافية ما هو ثقيل الوقع على السمع لبلغت القطعة الغاية فى الجودة ، مثل تنوم ، وعلجوم ، على أن هذا الثقل ينسيه جمال الصور .



نظرة فاحصة عن معاني الشعراء في وصف الأوابد

كان العرب يأنسون إلى أوابد صحاريهم ، ولكنها لم تكن تأنس إليهم ، ويعجبون بها ، وهي لا تعجب بهم ، بل لا تحبهم ولا ترضى عنهم ، يعجبون هم بجمالها وحسنها ، وتكره منهم بغيتهم وعدوانهم ، ولا عجب أن نرى هواها مختلفا ، فيرون فيها الجمال ، وترى منهم العدوان ، ويشاهدون في شياتها الحسن ، وتشاهد في طباعهم الجحود والكفران ، فكلفوا بها وبحشا عنها ، وركبوا الصعب في صيدها ، ونأت دونهم وأعرضت ، فهم وإياها في نضال مستمر ، وعراك متصل .

وصفوا جمالها ، وكأنهم بتصوير هذا الجمال يُعذِّرون ، ثم طاردوها بكلابهم ، وحاولوا صيدها بقتيلهم ، وهم جميعا يكادون يتفوقون في هذه المعاني .

ومنهم من وصف طريقه إليها ، فوصف الصحراء وما يحف بها من عين جارية ، أو نبت ناجم ، أو سراب خادع ، فكانت معينا يستقون منه ، ومنهلا يصدرن عنه ، فسويد يصف الصحراء ، فيقول :

فَكَأَنِّي إِذْ جَرَى الْآلُ ضُحَا فَوْقَ ذَيْالٍ بِخَدِيَّةٍ سَفْعُ

ويقول :

سَاكِنُ الْقَفْرِ أَخُو دَوِيَّةٍ فَإِذَا مَا آنَسَ الصَّوْتُ امْصَعُ

والنابغة ينسب الوحوش إلى مواطنها التي نشأت فيها فيقول :

مِنْ وَحْشٍ وَجَرَّةٍ مُوشِيٍّ أَكَارِعُهُ طَاوِي الْمَصِيرِ كَسَيْفِ الصَّيْقَلِ الْفَرْدِ

ولبيد يقول في وصف الصحراء ووصف سرايها :

فَبِتِلْكَ إِذْ رَقَصَ اللَّوَامِيعُ بِالضَّحَا وَاجْتَابَ أَرْدِيَّةَ السَّرَابِ إِكَامُهَا

ثم نراهم جميعا يصورون المارك أدق تصوير ، فيثيرون الغبار ، ويسيلون الدماء ، ويصفون الأوراق ، وقد نفذت في الأحشاء ، وقل منهم من ارتضى بأن ينهى الطراد بدون أن

يكون هناك طعن وقتل ، وكلهم يصفون صيادهم بالمهارة ، وينسبونهم إلى قبيلة ،
فيقول سويد :

راعَه من طيء ذُو أَرْهَمٍ وَضِرَاءُ كَنْ يَبْلِين الشَّرْعُ
ويقول النابغة :

فارتاعَ مِنْ صَوْتِ كَلَّابٍ فَبَاتَ لَهُ طَوْعُ الشَّوَامِتِ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ صَرَدٍ
ويقول امرؤ القيس :

فَصَبَّحَهُ عِنْدَ الشَّرُوقِ غُدِيَّةٌ كَلَّابُ ابْنِ مُرٍّ أَوْ كَلَّابُ ابْنِ سِنْدِسٍ

وقد قدمنا أن ابن مروان سنبس صيادان طائيان اشتهرا بالحذق والمهارة . ويقول لبيد
يصف الذئاب والرماة والكلاب والقرون :

لَمُعْرِ قَهْدٍ تَنَازَعَ شِـلْوَهُ غُبْسٌ كَوَاسِبُ لَا يُمْنُ طَعَامُهَا
حَتَّى إِذَا يَتَسَّ الأُمَاةُ وَأَرْسَلُوا غَضًّا دَوَاجِنَ قَافِلًا أَعْصَاهَا
فَلَجِحْنَ وَاعْتَكَرَتْ لَهَا مَدْرِيَّةٌ كَالسَّمْهَرِيَّةِ حُدَّهَا وَتَمَامُهَا

أما تصويرهم للمعارك فتصوير بارع لا نكاد نحكم لأحدهم بالفضل على الآخر ، ولعل
سويداً كان رجل سلام ؛ لأنه أنهى المعركة دون أن تجرى دماء ، فقال :

فَرَاهَنَ وَلَمَّا يَسْتَبِينَ وَكَلَّابُ الصَّيْدِ فِيهِنَّ جَشَعُ
نَمَّ وَلَّى وَجَنَابَانِ لَهُ مِنْ غُبَارٍ أَوْ كَدْرِيٍّ وَاتَدَعُ
فَتَرَاهَنَ عَلَى مُهَلَّتِهِ يَخْتَلِينَ الأَرْضَ وَالشَّاةُ يَلْعُ

أما النابغة فيشير الحرب عنيفة ، والمعركة حامية الوطيس تنتهي بفرائص تشك ، وبدماء
آسيل ، وبروق يعجم ، فيبلغ بتصويره مبلغاً رائعاً ، وذلك إذ يقول :

وَكَانَ (ضُمْرَانُ) مِنْهُ حَيْثُ يُوزَعُهُ طَقْنُ المَعَارِكِ عِنْدَ المَحْجَرِ النَجْدِ
شَكَّ الفَرِيصَةَ بِالمِدْرَى فَأَنْفَذَهَا شَكَّ المَبِيطِرِ إِذْ يَشْفِي مِنَ العُضْدِ

كَأَنَّهُ خَارِجًا مِنْ جَنْبِ صَفْحَتِهِ سَقُودُ شَرْبِ نَسْوِهِ عِنْدَ مَقْتَادِ
فَظْلٍ يَعْجُمُ أَعْلَى الرَّوْقِ مُنْقَبِضًا فِي خَالِكِ اللَّوْنِ صَدَقِ غَيْرِ ذِي أَوْدِ
أَمَّا امْرُؤُ الْقَيْسِ فَأَوْقَدَ نَارَ الْحَرْبِ ثُمَّ أَطْفَأَهَا ، وَكَتَفَى بِالْجُرْحَى دُونَ الْقَتْلِ ، فَقَالَ :
فَأَذَرَ كُنْهَ يَأْخُذُنِ بِالسَّاقِ وَالنَّسَا كَمَا شَبَّرَقِ الْوَلْدَانُ ثُوبَ الْمُقَدَّسِ
وَعُورُنَ فِي ظِلِّ الْقَصَا وَتَرَ كُنْهَ كَقَرَمِ الْهَجَانِ الْفَادِرِ الْمُتَشَمِّسِ
وَلْيَبِيدَ يَجْرَى دِمَاءُ كَسَابٍ وَسَخَامٍ ، فَيَقُولُ :

فَتَقَصَّدَتْ مِنْهَا «كَسَابٍ» فَضَرَّجَتْ يَدِيمٍ ، وَغُودِرَ فِي الْمُسْكَرِّ «سُخَامُهَا»
وَيُظْهِرُ أَنَّ أَخْلَاقَ كُلِّ شَاعِرٍ تَنْطَبِعُ فِي مَعَانِيهِ ، وَتَتَضَحُّ مِنْ أَفْكَارِهِ ، فَالْشُعْرَاءُ الْمَغْرَمُونَ
بِسَفْكَ الدِّمَاءِ ، وَالتَّمَتُّعُ بِرُؤْيَا الْأَشْيَاءِ ، وَشَهْوَةُ أَكْلِ لَحُومِ الْأَعْدَاءِ يَثِيرُونَ الْمَعَارِكَ ،
وَالَّذِينَ طَبَعُوا عَلَى الرَّحْمَةِ ، وَأَشْرَبَتْ قُلُوبُهُمُ الْعُطْفَ وَالْحَنَانَ ، تَنَأَى بِهِمْ نَفُوسُهُمْ عَنِ الْقَتْلِ ،
فَيَنْهَوْنَ مَعَارِكَهُمْ دُونَ قَتْلِ أَوْ مَصَائِينِ .

وَبَعْدَ ذَلِكَ أَجْلَى الصُّورِ تَظَاهَرَتْ فِي وَصْفِ هَذِهِ الْمَعَارِكِ الَّتِي تَتَعَدَّدُ أَسْلِحَتُهَا ، فَهِيَ الْقِسْيُ
وَالرَّمَاخُ ، وَالْخَالَابُ وَالْأَنْيَابُ ، وَالْأُرُوقُ وَالْمِدَارِيُّ ، وَجَمِيعُ هَذِهِ الْأَسْلِحَةِ لَهَا فِي الصُّورِ
الشَّعْرِيَّةِ مَكَانٌ أَيْ مَكَانٌ .



(د) صور متنوعة لمظاهر الطبيعة الحية

١ — قال زهير بن أبي سلمى * يصف معركة مع الحر الوحشية من قصيدته التي أولها:

صحا القلبُ عنِ سلمى وأقصرَ باطله وعُرِّيَ أفراسُ الصَّبا ورَّواحله^(١)

إذا ما غدونا نبتغي الصيدَ مرَّةً متى نَرَه ، فإنَّنا لا نُخاتِلُه^(٢)

فبينما نُبغى الوحشَ جاء غلامنا يدبُّ ويخفى شخصه ويضائلُه^(٣)

فقال : شياة راعاتُ بقرةٍ بمستأسد القران حوٍ مسائلُه^(٤)

ثلاثُ كأقواسِ السَّراءِ ، وناشطٌ قد اخضرَّ من لَسِّ القميرِ جحافلُه^(٥)

٣٥٤ : وقد خرَّم الطرادُ عنه جحاشه فلم يَبْقَ إلا نفسه وحلائله^(٦)

* ترجمه الشاعر : انظر ترجمته في وصف الناقة ص ٨٨ .

التفسير اللغوي : (١) عرى أفراس الصبا : مثل ، ويريد أن يقول : عرى أفراس قد

كنت أركبها في صباي ، فلم يعد هناك ما يدعوني لإسراجها بعد أن كبرت سنى .

(٢) غدونا : بكرنا . نبتغي : نطلب . لا نخاتله : لا نخادعه لثقتنا من إدراكه .

(٣) يدب : يمشى على هيئته كمشى الطفل والضعيف والتمل . يضائله : يصغره . ثلاثه : الصيد .

(٤) الشياة : الحر الوحشية . راعات : راعيات لا عبات . بمستأسد القران : المستأسد

من النبات الذي طال وتم ، والقران مجارى الماء إلى الرياض الواحد قري . الحو : النبات

يضرِب إلى السواد لشدة خضرته . مسائله : يقصد مسايل الماء ، والأصل عدم الهمزة لأن

الياء أصلية ، ولكنهم توهموها زائدة ، فهمزوها كما همزوا مصائب . (٥) أقواس

السراء : السراء شجر تتخذ منه القسي ، فهو يصف الثلاثة بالضمور . ناشط : يخرج من بلد

إلى بلد . اللس : الأخذ بمقدم الغم . القمير : نبت يطول ثم يصيبه مطر ، فيخرج تحته نبت

أخضر ، فيكون غميرا لهذا الطويل أى مغمورا . الجحافل : جمع جحفلة ، وهى لدى الحافر

كالشفة للإنسان .

(٦) خرَّم : فرق . الطراد : الصيادون : جحاشه : صغاره : حلائله : آتته .

- وقال أميرى : ماترى رأى ما نرى أنخذه عن نفسه أم نصوله ؟ (٧)
 فبتنا عراة عند رأس جوادنا يزاولنا عن نفسه وزاوله (٨)
 فنضربه حتى اطمأن قذاله ولم يطمئن قلبه وخصائله (٩)
 وملجئنا ما إن ينال قذاله ولا قدماء الأرض إلا أنامله (١٠)
 فلا يا بلائى قد حملنا غلامنا على ظهر محبوبك ظمء مفاصله (١١)
 فقلنا له : سدّد وأبصر طريقه وما هو فيه عن وصاتى شاغله (١٢)
 وقلت : تعلم أن للصيّد غرة وإلا تضعها فإنك قاتله (١٣)
 فأتبع آثار الشياخ وليدنا كشوبوب غيث يحضن الأكمله (١٤)
 ٣٦٣ : نظرت إليه نظرة فرأيتُه على كل حال مرة هو حامله (١٥)

(٧) أميرى : الذى يؤمرنى ويستشيرنى . نصوله : نجاهره الحرب .

(٨) عراة : مؤترين . يزاولنا وزاوله : يعالجنا ونعالجه .

(٩) قذاله : موضع العذار من رأسه ، وهو أعلى جزء فيه . اطمأن : سكن .
 خصائله : جمع خصلة وهى كل لحمة فى عصب .

(١٠) ملجئنا : واضع اللجام فى قذاله . أنامله : أطراف أصابعه .

(١١) فلا يا بلائى : فبطئا بعد بطء ، وجهدا بعد جهد . محبوبك : مدمج . ظمء : مفاصله :
 عطاشا مفاصله ، والمنصل مجمع كل عظمين ، وإذا كان ظمآن كان أيس له .

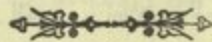
(١٢) سدّد : قوم صدر فرسك . أبصر طريقه : تبين خطة صائبة . وصاتى : وصيتى .

(١٣) تعلم : اعلم . غرة : غفلة ، وأن يؤتى من حيث لا يشعر . وإلا تضعه : وإن لم
 تضع ما أوصيتك به من أن للصيّد غرة فعليه أن ينتهزها .

(١٤) فأتبع : فتبع غلامنا . كشوبوب غيث : كدفعة من المطر . يحضن : يقشر .
 الأكمل : جمع أكمة المرتفعات . وابله : مطره الغزير .

(١٥) إليه : الضمير يعود على الفرس . حامله : الضمير يعود على الغلام .

- يُثْرَنُ الْحَصَى فِي وَجْهِهِ وَهُوَ لَاحِقٌ سِرَاعٌ تَوَالِيهِ صِيَابٌ أَوَائِلُهُ (١٦)
 فَرْدٌ عَلَيْنَا الْعَيْرُ مِنْ دُونِ إِلَهِ عَلَى رَغْمِهِ يَدْمَى نَسَاؤُهُ وَقَائِلُهُ (١٧)
 وَرُحْنًا بِهِ يَنْضُو الْجِيَادَ عَشِيَّةً مُحْضَبَةً أَرْسَاغُهُ وَحَوَائِلُهُ (١٨)
 ٣٦٧: بِذِي مَيْتَعَةٍ لَا مَوْضِعَ الرَّمْحِ مُسَلِّمٌ لِبُطْءِهِ، وَلَا مَآخِلَفَ ذَلِكَ خَاذِلُهُ (١٩)



- (١٦) يثرن: الضمير يعود على الحجر. وجهه: الضمير يعود على الفرس. تواليه: أواخره،
 يرد رجليه وعجزه. صياب: قاصدة مفردها صائب كصاحب وصحاب. أوائله: يدها وصدره.
 (١٧) فرد علينا العير: فقطعه عن إلقه، ورجعه إلينا. من دون إلقه: من غير أمانه.
 يدمى: يسيل دمه. النسا: عرق من الورك إلى الكعب. فائله: الفائل عرق في الفخذ.
 (١٨) ورحنًا به: وأمسينا بذلك الفرس. ينضو: ينسلخ وينخلع. محضبة: ملطخة
 بالدم. أرساغه: جمع رسغ وهو القدم. حوائله: قوائمه، مفردها حاملة.
 (١٩) الميعة: النشاط، وهي هنا الدفعة من السير. موضع الرمح: الكائبة، وهي قدام
 القربوس. قال النابغة «إذا عرض الخطى فوق الكوائب» معناه أن مقدمه لا يخلد مؤخره،
 ومؤخره لا يخلد مقدمه.

تحليل الأبيات :

هذه القصيدة من جياذ شعر زهير ، قالها يمدح بها حصن بن حذيفة الفزاري لامتناعه على عمرو بن هند ، ولكن المدح أضعف أدواتها ، وأقل أسباب جودتها .

فطاعها أبرع مطلع تبدأ به قصائد في الثناء على الأبطال ، وتحدث الرجال عن الرجال . عزف عن اللهو والهوى ، وصحا القلب عن سلى ، وأقصر عن امتطاء باطل الصبا والشباب ، وعريت أفراس كنت أركبها في الصبا .

وبعدئذ عرض للأطلال عرضا يسيرا ، ثم أخذ يصف فرسه ، يخرج به للصيد ، وكان وصف الصيد هو غايته الأولى من القصيدة ، إذ صورته في ثمانية عشر بيتا ، فقال :

حينما نغدو مبكرين نطلب الصيد ، نظاهره الصيال ، ونجاهره النضال ، لانرف مخاتلة ؛ لأن المخاتلة ضعف ، ولا نرتضى لأنفسنا الخادعة فانخداع لؤم ، هذا إلى ثقتنا أن فرسنا كريم لا يفوته الصيد ، وإذا نبحت عن الوحش نصيده أقبل خادمنا يمشى على هيئته ، وبضائل جسمه ، ويخفى شخصه ، خوف أن تراه الشياه ، فتعطى ساقها العنان ، فأنبأنا أن شياها ترتع وتلعب ؛ فهي تعيش في مرعى خصيب ، قد استأسد بنته ، وطال عشبها ، واسودت مسایل مائه ، مسایل القران إلى الرياض .

إنها ثلاث شياه ضامرات كالقسي تصنع من شجر السراء ، منطويات ، لأنهن اجتزان بالرطب عن الماء ، فلم يضحمن وتمتد كدتهن ، وناشط لا يستقر في مكان ، ولا يقيم في بلد ، قد اخضرت جحافلها من أكل النبت المغمور ، وقد فرق الصيادون عنه جحاشه ، وأخذوا منه صفاره ، فهم يطردونه فيدعها ، فيقنصونها ، فلم يبق من حوله إلا نفسه وآتته .

وقال صديقه وأميره يؤامره ويشاوره : ألا ترى الرأى الذي تراه ؟ أنخدعه ونختله أم نصوله ونفاضله ؟ فبقنا عراة مؤتررين عند رأس فرسنا الصعب الذي يحاول الجوح ؛ لما هو فيه من حدة ونشاط ، فيجذبنا ونجذب ، ويعالجنا ونعالج ، فضر بناه حتى سكن

رأسه ، دون أن يطمئن قلبه ، أو تسكن خصائله ، وإذا ما أقبل خادمنا ليلجمه ؛ لم يتهيا له ذلك إلا إذا وقف على أنامله ، فهو فرس نهدي ، هيكلي ضخم .

فبعد جهد ومشقة حملنا وليدنا عليه ، حملناه على فرس مدمج محبوبك ، لم يكتنز أو يترهل ، ومفاصله عطاش ظماء ، فهن صلد صلاب ، فقلنا لفارسه ناصحين : قوم صدر فرسك ، ولا تمل يمنية أو يسرة ، وتبين طريقك الذي تسير فيه ، ولا يشغلك عن وصاتي التي أوصيك بها نشاط الفرس وعلاجه ، وحدته ومراسه .

قلت له : اعلم أن للصيد غرة فاهتبلها ، وفيه - أحيانا - غفلة فاتتهزها ، فإذا لم تضعيها فإنك دون ريب قاتله .

فتدبغ الوليد آثار تلك الحجر ، مثله في اندفاعه إليها ، وانصبابه عليها كمثل دفعة المطر يقشر وابل هذه الدفعة الأكم ، ويزيل ترابها فيظهر نباتها ، نظرت إلى الفرس نظرة تأمل ، فألفيت الوليد يحمل الفرس على الأمر الذي يريد ، فأخذت الحجر الوحشية تثير في وجه ذلك الفرس الحصى ، وهو لاحق بها مدرك لها ، وأخاره سراع ، وأوائله صياب ، فلا مقدمه يخذله ، ولا مؤخره يسامه ، فأمكننا من العير ، ورجعه إلينا من غير أليفه ، رده علينا مرغما مقهورا ، قد سال الدم من عرق النساء والقائل ، فقد طعنه فسد الطعنة ، فرحنا بذلك الفرس يتقدم الجياد وينسلخ منها عشية ، وقد خضبت من دماء العير أرساغه ، وضرجت بدمائه قوائمه ، فلم يكسر من حدة نشاطه مطاردته ، ولم ينل من شدة عرامه مناضلته .

كان ذلك الطرد بفرس ذي ميمة ونشاط لا يسلم كاثبته مؤخره ، ولا تخذل مؤخره كاثبته ، فأجزأوه يسند بعضها بعضا .

النقد :

بدأ زهير وصفه بطريقته في الصيد ، فهو لا يخادع لأن فرسه كريم يقيد الأوبد ،
ثم وصف خروجهم ، وفي هذا الوصف صور غلامهم تصويراً ناطقاً ، فهو يدب ديباً ،
ويخفي شخصه إخفاءً ، ويضائل جسمه ضئلاً ، وهو مصور بارع ، فذلك شأن كل من
يريد أن ينال شيئاً على غرة ، ويدركه في غفلة . ولكنه لا يتفق مع البيت الأول ، إلا إذا
قيل : إن الفارس لا يخاتل ، ولكن غلامه يخاتلون ، وهو عذر واه ، فالغلمان يأتمرون
بما يؤمرون ، ثم وصف المكان أدق وصف ، وفي وصفه إياه إغراء بالصيد ، فالشيء
في مرعى خصب ، فهي من غير شك سمينة غير مترهلة ، على أنه أكد هذا المعنى في البيت
الثاني إذ يقول :

ثلاث كأقواس السراء ، وناشط قد اخضرّ من لَسّ الغمير جحافله

ثم سار في وصف الناشط ، فقال :

إنه قد فرق الطراد عنه صفاره ، وحرموه جحاشه ، فلم يبق إلا هو وأتفه ، وأخذ
يشاور أميره ، والأمير يؤامر غلامه في صيده ، أيجاتلونه أم يجاهرونه ؟ ويظهر أن الغلام
رأيا غير رأى الأمير ، فالأمير من طبعه أنه إذا رأى صيدا مرة ، فإنه لا يجاتله ، ووصف بعد
التشاور فرسه القوى النشط بأنه لا يسكن من حدته ، ولا يهدأ لشدته ، فقال :

فَبِتْنَا غُرَّةً عِنْدَ رَأْسِ جَوَادِنَا يَزَاوِلُنَا عَنْ نَفْسِهِ وَزَاوِلُهُ
فَنَضْرِبُهُ حَتَّى اطْمَأَنَّ قَدَالُهُ وَلَمْ يَطْمِئَنَّ قَلْبُهُ وَخَصَّائِلُهُ

وتلك صورة لما بين الفارس والفرس أتمها بأن الفرس مع أنه قد اطمأن قذاله
إلا أن سائسه أقصر من أن يبلغ قذاله ، فهو لا يلجمه إلا إذا وقف فوق أنامله ، ثم وصف
بعدئذ الصيد ، والحديث الذي جرى بينه وبين الغلام ، وهذا الحديث يؤيد التناقض
الذي وقع فيه زهير في أول بيت من أبيات الوصف ، فوصاته هي :

وقلتُ : تعلمُ أَنَّ للصَّيْدِ غِرَّةً وإلا تضيّعُنَا فَإِنَّكَ قَاتِلُهُ

ثم وصف الطراد ، فوصف الغلام وصفا يدل على قوته ، وينبئ عن منته ، وصوره صورة
تم عن حنكته وحكمته ، فهو يندفع على الشيا : كشوب غيث يحضن الأكّم وإبله ،
وأحكم وصف المطاردة ، فالشيا تثير التراب في وجه الفرس ، وهو لاحق لها ، فتؤخرته
تلحق مقدمتيه أو أواخره - يقصد الرجلين والعجز - تلحق أوائله يعنى اليدين والصدر .
وأدرك الغلام ما كان يرجو فقد أبلغه حصانه غاية :

فردّ علينا العير من دون إله على رنم يدمى نساء وفائله
ورحنا به ينضو الجياد عشيّة مخضبة أرساغه وحوامله

في هذه الأبيات جمال مبعثه حسن التصوير ، وروعة التعبير ، فقافية الأبيات ذات جرس
موسيقى صاف هادى ، ولكن أيناسب هذا الهدوء الصيد والطرْد ؟ إنه يناسب لأن
الحنّالة التى نفاها فى أول بيت هى التى اعتمد عليها فى الصيد ، وترى هذا الجال فى تلك
الدقة فى تصويره « يدب ، ويخفى شخصه ، ويضائله » لم يكتف بالدبيب ، ولم يكتف به
مع إخفاء شخصه بل لابد من تمام الصورة بالمضائلة ، كما تراه فى قوله :

ثلاث كأقواس السراء ، ونأشط قد اخضرّ من أسّ الغمير جحافلُه

ثلاث متشابهات ، وواحد منفرد بصورة ، فلا بد أن يصفه ، فهو لا يقيم فى بلد ، وهو
كثير الرعى ؛ حتى قد اخضرت جحافلُه من أكله بمقدم فمه ؛ وذلك لأنه لا يستقر
عند ما يأكل .

٣ — وقال امرؤ القيس * يصف حرباً ناشبة بين عقاب وذئب :

كأنها حينَ فاضَ الماءَ واختَمَكَ فتخاهَ لَاحَ لها بالفقرةِ الذَّيبِ^(١)
فأبصرتَ شَخَصَه مِن فوقِ مَرَقِبَةٍ ودُونَ موقِعِها مِنْهُ شَنَاخِيبُ^(٢)
فأقبلتَ نحوهَ في الجِوِّ كاسِرةً يَحْتِثُها مِنْ هُوًى اللوحِ تَصْوِيبُ^(٣)
صَبَّتْ عليه ولم تَنْصَبْ مِنْ أُمِّهِ إِنَّ الشَّقَاءَ عَلَى الْأَشْقِينَ مَصْبُوبُ^(٤)
٣٧٢ : كَالدَّلْوِ بَتَّتْ عُرَاهَا ، وَهِيَ مُثْقَلَةٌ إِذْ خَانَهَا وَذَمَّ رِنَهَا وَتَكْرِيبُ^(٥)

* تَرْجُمَةُ الشَّاعِرِ : انظر ترجمته في وصف الفرس ص ١٠٩ .

التفسير اللغوي : (١) كأنها : الضمير يعود على الفرس التي كان يصفها قبل بقوله :

وَالْيَدُ سَائِحَةٌ ، وَالرَّجُلُ ضَارِحَةٌ وَالْعَيْنُ قَادِحَةٌ ؛ وَاللِّثْنُ مَلْحُوبُ
وَالْمَاءُ مُنْهَرٌ ، وَالشَّدُّ مُنْخَدِرٌ وَالْقَصْبُ مُضْطَمِرٌ ، وَاللَّوْنُ غَرِيبُ

الاحتمال : الانتقال . فتخاه : لينة الجناحين عريضتهما ، وهي وصف للعقاب قال الشاعر :

كَأَنِّي بِفَتْخَاءِ الْجَنَاحَيْنِ لَقَوَّةٍ دَفُوفٍ مِنَ الْعِقْبَانِ طَاطَأَتْ شِمَالِي

وفي رواية : « واحتفلت صقعاء » في رأسها بياض .

(٢) المرقبة : المكان المرتفع يعلوه الرقيب . الشناخيب : مفرداها : شنخاب أو شنخوب

أعلى الجبل ، وأعلى الكاهل ، وفقر الظهر ، والأول هو المراد .

(٣) كاسرة : منقضة تكسر جناحها ، أو تكسر ما تصيده كسرا . يحثها : يدفعها .

هوى : سقوط . اللوح : بضم اللام الهواء بين السماء والأرض . تصويب : انحدار .

(٤) صبت عليه . اندفعت إليه . من أمم ، من قرب .

(٥) بتت عراها : قطعت مقابضها ، وهي جمع عروة . مثقلة : ممتلئة ثقيلة . الوزم :

سيور بين آذان الدلو ، ويجمع على وذوم ، وأوذام ، وأوذم . التكريب : جعل الكرب وهو
الحبل في الدلو .

لا كالتى فى هواء الجو طالباً ولا كهذا الذى فى الأرض مطلوب^(٦)
 كالبرق والريح مرآتاها عجب ما فى اجتهاد على الإصرار تغيب^(٧)
 فأدركته ، فنالتة مخاليها فأنسل من تحتها ، والدف منقوب^(٨)
 يلود بالصخر منها بعد ما فترت منها ومنه على الصخر الشايب^(٩)
 ثم استغاثت بمتن الأرض تعفره وباللسان وبالشدقين تتريب^(١٠)
 ما أخطأته المنايا قيس أنملة ولا تحرز إلا وهو مكتوب^(١١)
 ٣٧٩ : يظل منججرا منها يراقبها ويرقب الليل إن الليل محبوب^(١٢)

(٦) كالتى فى هواء الجو : كناية عن العقاب . طالبة : باغية صيدا وحربا . كهذا : اسم الإشارة عائد على الذيب . مطلوب : مرغوب صيده . رويت هذه الأبيات لامرئ القيس رواها الجوهري ، ووهه ابن برى ، وزعمها إبراهيم بن عمران الأنصارى ، ولكن صاحب كتاب شعراء النصرانية نسب بعضها لامرئ القيس .

(٧) كالبرق : يقصد العقاب . الريح : يقصد الذئب ، وهو يكنى عن وصفهما بالسرعة فى الطيران والإرخاء . مرآتاها ثنية مرآة بمعنى منظراها . عجب . عجب غريب . الإصرار . التصميم . التغيب : التقصير . وفى حديث هشام : كتب إليه يغيب عن هلاك المسلمين أى لم يخبره بكثرة من قتل منهم مأخوذ من الغب الورد ، فاستعاره لموضع التقصير فى الإعلام بكنه الأمر . (٨) مخاليها : جمع مخلب أظفارها . فأنسل : فنزع نفسه برفق . الدف منقوب : الجنب منقوب . (٩) يلود : يلجأ ويحتمى . فترت : تراخت . منها ومنه : من العقاب ومن الذئب : الشايب : جمع شؤبوب : يريد شدة اندفاع كل منهما .

(١٠) استغاثت : استعانت ، والضمير يعود على العقاب ، وهى رواية الحيوان تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، ولعلها استغاث ليعود الضمير على الذئب فهو المغلوب المحتاج إلى العون ، وهو أقدر على إثارة الغر ، والشرط الأخير من البيت يؤكد هذا ، تريب : تراكم التراب فوق الشيء . (١١) المنايا : جمع منية ، وهى الموت . قيس : مثل قيد يعنى قدر أنملة ، والأنملة : رأس الأصبع . تحرز : تحصن . مكتوب : مكرور عليه ، مهجوم نحوه من كتب إذا كر . (١٢) يظل : يبقى طوال يومه . منججرا . محتبسا فى الحجر . يراقبها : يلاحظها . يرقب الليل : ينتظره . محبوب : مرغوب فيه لأنه منقذ له .

تحليل الأبيات :

سواء أصححت هذه الأبيات لامرى القيس أم لم تصح فإنها شعر جاهلى ، وإن كنا نكاد نشق أنها لامرى القيس ، فإن روحه ظاهر فيها ، فهو أقدر من سواه على وصف مثل هذا المنظر لكثرة ما شاهد في الصحارى ، ولأن في الأبيات كثيرا من خصائصه التى تبدو فى تسلسل الصور ، وتنوع التشبيهات والكنائيات ، وجمال التقسيم .

وصف فرسه بأنها عند انهمار الماء ، وانحدار الشد ، وانضمام الحصر ، ولحوب المتن كالعقاب ظهر لها فى الأرض القفر ذئب ، ثم تأكد رؤيتها إياه بعد أن تأملت من قفة لا يحجب الناظر منها حاجب ، ولكن بينها وبينه ربا ونجادا ، فلم تحش قطعها ، بل أقبلت نحوه منقضة ، تكسر فى انقضاضها إليه جناحيها ليشتد طيرانها ، يضاعف هويها فى ذلك الجو أنها تنقض منحدرة ، اندفعت إليه من مكان بعيد ، وهوت عليه من مرقب سحيق ؛ لتنزل عليه سخطها ، وتنشب فيه مخالبها ، فما أشقاء ! إن الشقاء ليفد عليه من حيث يدرى ولا يدرى ، وحقا : « إن الشقاء على الأشقيين مصبوب » أو « إن الشقى بالشقاء مولع » .

هوت عليه قوية دافقة ، وانصبت نحوه عازمة عارمة ، كأنها الدلو المثقلة بالماء قد انبقت عراها ، وخانها وذمها وتكريها ، فسقطت كجلود الصخر ، ليس كهذه التى تهوى من الجو تطلب صيدا فى قوتها وعراها طالب ، ولا كذلك الذى يرعى فوق الأرض خوف ذلك الطالب مطلوب .

ما أشبه الطالب والمطلوب بالبرق والريح ، فالريح يعصف من ورائه البرق يلعب ، فنظرهما عجيب ومرآتهما غريبة ، إذ كلاهما يصر على الاجتهاد دون تقصير فيه ، ويعزم على أمر لا يحيد عنه ، هى تعزم على القتك ، وهو يصر على الخلاص منها ، فافى عزميهما تغيب . ولكنها أنفذت إصرارها ، وأدركت ما عزمت عليه ، فنائه مخالبها ، وأنشبت فيه أظافيرها ، ولكنه استطاع أن ينسل من تحتها ، وأن يتخلص من برائتها ، وقد نقب جنبه ، ونقب دقه ، وأخذ يلجأ إلى الصخور يختبئ تحتها ليحتمى بها منها ، وكان الصراع

قد ثبط من همتيهما ، والنضال قد أوهى من قوتيهما ، فانتقل الهجوم والدفاع ، والسكر والفر فوق ذلك الصخر الذى لجأ إليه ، ولاذ به ، فلجأ إلى غير الصخر ، فاستعان بمتن الأرض يثير غباره ، ويهيج غفره ليجذب بذلك التراب عن العقاب شخصه ، فترب لسانه وشذقيه ، دون أن تخطئه المنايا ، أو يغلط الموت فى معرفة مكانه ، لم يخطئ الموت قيد أعملة ، ولا نفعه التحرز والتحصن وهى كارة عليه ، مندفعة إليه ، فهو يظل يومه مخنيا فى الأججار ، مختبئا بين الصخور ، مترقبا الليل المحبوب ليحميه من ذلك العدو الجبار .

النقر :

وقفت العقاب على إرم ، فرأت الذئب بينها وبينه قمم الجبال والربا والنجاد ، فاندفعت إليه تهوى « يحثها من هوى اللوح تصويب » تلك أول الصور التى رسمها امرؤ القيس فى هذه الأبيات .

انصبت عليه كما تسقط الدلو المفعمة بالماء قد انبثت عراها ، وخانها وذمها وتكريها ، وهذه صورة أخرى ، وأجل من هاتين الصورتين تشبيههما بالبرق والريح ، وحقا إن مرآتاها عجب ، وبلوغ هذه الصورة وتكوينها فى كلمتين أغرب وأعجب ؛ ووصف المعركة ، وأن العقاب قد أنشبت فى الذئب مخالبها ، وأنه ينسل من تحتها منقوب الجنب لا ئذا بالصخر ، وصف بلغ القمة فى تصوير الحقيقة ، وصدق الوصف .

إنك واجد فى هذه الأبيات صورا خلاصة منسقة ، كما أنك واجد فى هذه الصور حياة دفاقة ، وأى صورة تتدفق بالحياة أوضح من هذه :

فأدركته ، فنالت ————— مخالبها فأنسل من تحتها ، والدف منقوب
يلوذ بالصخر منها بعد ما فترت منها ومنه على الصخر الشايب

أدركته ، تصور عدوها وملاحقتها إياه ، فنالت مخالبها ، تصور قبضها عليه وإنشاب مخالبها فيه ، فأنسل من تحتها ، تصور محاولته الإفلات من مخالبها حتى استطاعه ، والدف منقوب

تصور الحال التي أفلت عليها ، يلوذ بالصخر ، تصور اختباءه بين الصخور ، بعد فتورها ،
وخود تدافعهما .

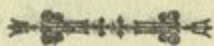
أما جمال الأسلوب فيبدو في أكثر الأبيات بل في جميعها ، فمن الجمال الفتان قوله :

صبت عليه ، ولم تنصب من أم إن الشقاء على الأشقين مصبوب

يعجبك دون شك هذا الطباق السلي ، كما يعجبك ذلك الاحتراس في قوله من أم .
أما الحكمة ، فهي أخلد الحكم « إن الشقاء على الأشقين مصبوب » وأجل ما فيها كلمة
مصبوب ، لأنها توحى باندفاع الشقاء إليه ، وسقوط البلاء عليه ، ومن جمال الأسلوب
قوله :

كالبرق والريح مرآتهما عجب ما في اجتهاد على الإصرار تغيب

وبعد فالأبيات جميلة من جميع النواحي ، وكلما زدتها تأملا زدت شعورا بجمالها .



٣ — وقال عبيد بن الأبرص * يصف العقاب تصيد ثعلبا :

- كأنها لقوة طلوب^(١) تيبس في وكرها القلوب^(٢)
 بانت على إرم عذوبا كأنها شبيخة رقوب^(٣)
 فأصبحت في غداة قر^(٤) يسقط عن ريشها الضرب^(٥)
 فأبصرت ثعلبا سريعا ودونه سبب جديب^(٦)
 فنفضت ريشها وولت وهي من نهضة قريب^(٧)
 ٣٨٥ : فاشتال وارتاع من حسيس وفعله يفعـل المذوب^(٨)

* ترجمه الشاعر : هو عبيد بن الأبرص بن حنم بن مالك بن زهير الأسدي أحد خول الشعر في العصر الجاهلي ، ويقال : إنه لم يكن يقول الشعر إلى أن هجاء وهجا أخته شاعر ، فرفع يديه إلى السماء مبتهلا ، وهو يقول : اللهم إن كان فلان ظلمي ورماني بالهتان ، فأدلى منه ، وانصرتني عليه ، ثم نام ، فأتاه آت في المنام بكبة من شعر ، وألقاها في فمه ، فقام وهو يرتجز هجاء في خصمه ، وقد مات قتيلًا ، قتله المنذر بن ماء السماء سنة ٦٠٥ م .

التفسير اللغوي : (١) كأنها : الضمير يعود على الفرس التي كان يصفها في الأبيات السابقة . القوة : العقاب ؛ سميت بذلك لأنها سريعة التاق لما يطلب . طلوب : كثيرة الطلب ، تيبس : تجف من الخوف والفرع . القلوب : يعني قلوب الطير في أوكارها عند سماع حفيف جناحها .

(٢) الإرم : العلم من الأرض ، العذوب : التي لا تأكل شيئا ولا تشرب ماء . الشبيخة : العجوز . الرقوب : التي لا يبق لها ولد .

(٣) القر . البرد . الضرب : الجليد .

(٤) دونه : أمامه . سبب جديب : فلاة قاحلة مجربة .

(٥) نفضت : حركت وهزت . ولت : طارت مبعدة . هي من نهضة : من طيران .

(٦) اشتال : رفع ذنبه . ارتاع : فزع . حسيس : صوت . المذوب والمزود : الخائف

الفزع .

- فنهضتْ نحو حَيْثَا وحَرَدَتْ حَرْدَةً تَسِيبُ^(٧)
 فَدَبَ مِنْ خَلْفِهَا دَيْبًا والعَيْنُ حِمْلَاقُهَا مَقْلُوبُ^(٨)
 فَأَدْرَكَتْهُ فَطَرَحَتْهُ وَالصَّيْدُ مِنْ تَحْتِهَا مَكْرُوبُ^(٩)
 فَجَدَلْتَهُ فَطَرَحَتْهُ فَكَدَحَتْ وَجْهَهُ الْجَبُوبُ^(١٠)
 يَضْفُو وَمِخْلِبُهَا فِي دَفِّهِ لَا بُدَّ حِزْمِهَا مَنقُوبُ^(١١) : ٣٩٠



- (٧) حَيْثَا : سريعة . حَرَدَتْ : قصدت . تَسِيبُ : تنساب على الرمل .
 (٨) فَدَبَ : فسار في خفاء وحذر . الحِمْلَاقُ : باطن الجفن أو عروق العين .
 (٩) فَطَرَحَتْهُ : فرمته . الصَّيْدُ : يقصد الثعلب . مَكْرُوبُ : مصاب بالكرب والشدة .
 (١٠) فَجَدَلْتَهُ : فقتلته ، وأصله طرحته بالجدالة وهي الأرض . فَكَدَحَتْ : فخدشت .
 الجَبُوبُ : الأرض الصلبة .
 (١١) يَضْفُو : يصيح . مِخْلِبُهَا : ظفرها . دَفِّهِ : جنبه . حِزْمِهَا : صدرها .

تحليل الأبيات :

شرع عبيد يصف فرسه ، فلم يطل ؛ إذ لم يتجاوز في وصفه إياها هذه الأبيات :

فذاك عصرٌ وقد أُراني تحمِلني نهدةً سُحوبُ
مُضَبَّرٌ خَلَقَهَا تَضْيِيرًا يَنْشَقُّ عَنْ وَجْهِهَا السَّبِيبُ
زَيْتِيَّةٌ نَامٌ عَرَوْقُهَا وَلَيْنٌ أَمْرُهَا رَطِيبُ

ثم انتقل إلى تشبيه فرسه في شدة عدوها ، وسرعة شدها بعقاب خفيفة ، سريعة التلقى لما تطلب ، إذا أبصرتها الطيور في أوكارها أدركها حينها ، وبلغها حتفها ؛ إذ تيسر قلبها الرطبة ، وتنفج أفئدتها الطرية ، لأن الدماء لا تجرى فيها ، وذلك لسكرة ماتصيد منها .

قد باتت هذه العقاب فوق رابية عالية ، ومرتفعة ، وإرم مستطيل ، عذوبا عن الأكل ، عزوفا عن الطعام ، كأنها شيخة عجوز ، بلغ منها اليأس كل مبلغ ، فلا رجاء لها في عقب ، فقد أدركتها سن الإياس ، لقد ثكلت تلك الشيخة وليدها ، وأصابها الدهر في وحيدها ، فلم يقر لها في ليلها الأطول قرار ، ولا مس جنينها مجموع ، فأصبحت مبكرة في جو بارد ، وبرد قارس ، تجمد له الماء ، فصار جليدا متساقطا عن ريشها .

وإذ هي على تلك الحال من انقباض النفس وجود الحس ، أبصرت ثعلبا يستحث قوائمه ، وبينه وبينها فلاة قاحلة ، ومفازة مجذبة ، فسيت ما كانت فيه من انقباض وخمود ، ونفضت ريشها نفضا ، ووثبت وثبة قوية ، إذ رأت الصيد مواتيا ، وطارت تجاهه ، فأصبح منها جد قريب ، فشال ذنبه ليهم بالفرار ، بعد أن أفعم قلبه بالارتياح والفرح من ذلك الزيف المفاجئ ، والصوت المباغت ، وصنع ما يصنع الخائف المذعوب ، والفرح المزعود ، فأقبلت عليه مسرعة حثيثة ، وانسابت إليه انسياب الماء الدافق ، فتحول من خلفها حذرا ينظر إليها شزرا . ليتبين ما قدهم به ، فكان حلاق عينه مقلوب ؛ لأنه ينظر في اتجاه العقاب .

ولكن هذا الديب الخفى لم ينفعه ، والدوران من حولها لم يجده شيئا ، والتوجس والحذر لم يدفع عنه قضاء ، فقد أدركته فطرحته على الأرض ، وهى من فوقه جاثمة ، وهو من تحتها فى كرب وقنوط ، فقتلته بعد أن طرحته بالجدالة لا يقوى على دفاع ، ولا ينهض بمقاومة ، وخذشت وجهه بمخالبها الحادة ، وبالأرض الصلبة التى رمته فوقها ، وأخذ قبل أن يودى به يصيح ، وكأنه يتضرع ويستغيث فخالها فى جنبه تنقبه ، وأظفارها فى صفحته تنقبها ، ولكن من ذا يستمع للضراعة ، وأنى يجد للغيث ؟ وأعياء الصياح ، فقد نقت عن صدره ، فثلث به أسوأ تمثيل .

النقد :

فى هذه الأبيات دقة وصف ، وجودة تصوير ، وعلم بطبائع جوارح الطير ، فهى تبدو ساكنة هادئة ؛ حتى إذا أتاحت لها الفرصة فريسة نفضت عنها غبار الهمود ، وخلعت ريش الهدوء ، ونهضت فى وثبة المرح الشيط ، وليس كل إنسان يعرف ذلك الطبع فى العقبان ، وإعما يعرفه رجل البيداء ، وأخو الصحراء .

كما أجاد الشاعر تسلسل العرض ، وأبدع فى تصوير خطوات كل من العقاب والثعلب ؛ فالعقاب ينهض طائرا ، ويشد فى الطيران ، ويقف على مرقبة من الثعلب ، وكأنه يرسم طريق الهجوم عليه ، ويراها الثعلب فيدبر لنفسه مخلصا ، ويقدر له منفذا فيهم بالفرار ، فيفر ، يتلفت ذات اليمين وذات الشمال .

ولكنها وقد قاست الطرق إليه ، وقدرت أقربها نحوه ، تنساب انسياب الأنفى فتدركه فتطرحه فتجدله ، فتنبج جنبه وصدره .

صور حية ، وتمثيلية كاملة لا ينقصها منظر ؛ ولا محتاج إلى مزيد ، كل ذلك فى أسلوب متسق ، فبعض الألفاظ يصور معانيه ، ويشعر باختيار الشاعر إياه ، فسبب أفضل من غيرها من الألفاظ الدالة على الصحارى ، ويظهر أنه أثر الإكثار من بعض الحروف لتلائم

الموقف من هذه الحروف السين والباء ، فتيس ، ويسقط ، سريعا ، وتسيب وحسيس كلها ألقاظ مقصودة لذاتها ، ومن الألقاظ الموحية بالمعاني : فاشتال وارتاع فإن زيادة التاء في الفعلين تشعرك باشتداد اشتياله ، وقوة ارتياعه .

والذى لانكاد نستريح إليه البحر الذى اختاره عبيد لقصيدته ، ويشاركنا فى نظرنا إلى ذلك البحر المضطرب الأمواج ، المختل الأوزان أبو العلاء المعرى ، فيقول :

وقد يخطئ^١ الرأى امرؤ وهو حازم كما اختل فى وزن القريض عبيد

على أن مما يغفر له هذا الاضطراب أنه كان ذا نفس شاعرة ، وإن لم تسكن وازنة ؛ فالشعر كما قدمنا فى أول هذه الفصول إثارة الشعور ، وإهاجة الوجدان ، لا ترتيب الألقاظ ، وتنسيق الأوزان .



٤ — وقال زهير* يصف صفرا يطارد قطاة :

كأنها من قطا الأجبابِ حانَ لها ورِدُّ وأفرَدَ عنها أحتَمَها الشَّبَبُ^(١)
 جُونَيْسَةٌ ، حِصَاةُ الْقَسَمِ مَرْتَعُها بالسَّيِّ ما يُنْدِتُ الْقَفْعاءَ وَالْحَسَكُ^(٢)
 أهوى لها أسفعُ الحَدَيْنِ مُطَرِّقُ^(٣) ريشَ القوادِمِ لم يُنْصَبْ له الشَّرْكُ^(٤)
 لا شَيْءَ أَجودُ منها وَهِيَ طَيِّبَةٌ نَفْسًا بما سَوَفَ يُنْجِيها وَتَتَرَكُ^(٥)
 دونَ السَّماءِ وفوقَ الأرضِ قَدْرُها عِنْدَ الذَّنابِيِّ فلا فَوْتَ ولا دَرَكَ^(٦)
 عِنْدَ الذَّنابِيِّ لها صَوْتُ وَأَزْمَلَةٌ يكادُ يَخْطِفُها طُـوْرًا وَتَهْتَلِكُ^(٧)
 حتَّى إذا ما هوت كَفَّ الغَلامُ لها طارتُ وفي كَفِّهِ مِن ريشِها بَتَكُ^(٧)

* نزهة الساعر : تقدمت في وصف الناقة ص ٨٨ .

التفسير المفرد : (١) كأنها : الضمير يعود على الفرس في الأيات قبل ، إذ يقول :

وصاحي ورده نهـد مراكلها جرداء لا خج فيها ولا صك
 الأجباب : جمع جب مواضع الآبار . حان لها . ظهر لها . ورد : الورد القوم يردون
 الماء ، أو هو ورود الماء ، وهو أنسب . (٢) القطا : الجوني والكدرى . وفي كليهما
 سواد ، والفظاط غيرهما ، أو هو ما اسود جانب أجنحته وطالت أرجله ، واغربت ظهوره غبرة
 ليست بالشديدة ، وعظمت عيونه . حصة القسم : الحصة التي يقسم عليها الماء إذا قل مع
 المسافرين ، فيصبون عليها الماء حتى يغطيها ولا تكون إلا ملساء مجتمعة ، ولذلك تشبه القطاة
 بها في شدتها واجتماع خلقها . السى : ما استوى من الأرض . القفعاء : بقلة ذات نور أحمر .
 الحسك : ثمر النفل تشبه القث ولها نور أصفر . (٣) أهوى : اقتض . أسفع الحدين :
 أسمر الحدين يشوبهما حمرة . مطرق : مجتمع الريش . القوادِم : ريش مقدم الجناح ، وهو ريش
 كبير . لم ينصب له الشرك : كناية عن أنه وحشى لم يؤخذ ولم يذل . (٤) أجود : أسرع .
 طيبة نفسا : راضية مطمئنة . ترك : ترك وتدع . (٥) دون السماء : تحت السماء .
 الذنابي : الذنب . فلا فوت : فلا بعد عن الصقر . ولا درك . ولا لحاق منه لها .
 (٦) عند الذنابي : عند الذنب . لها صوت وأزملة : لها صوت مختلط مضطرب من الفزع .
 تهتك : تجتهد في الإسراع . (٧) هوت : سقطت . بتك : قطع وزنا ومعنى .

- ثم استمرت إلى الوادى فألجأها منه وقد طمِعَ الأظفارُ والحَنَكُ^(٨)
 حتى استغاثتِ بماء لا رِشاءَ له مِنَ الأباطِيحِ فى حافاتهِ البرَكِ^(٩)
 مكلَّلٍ بأصولِ النَجْمِ تنسِجُه رِيحٌ خريقٌ لضاحي مائه حُبُك^(١٠)
 كما استغاثتِ بسَيِّ فَرْ غَيْطَلَةٍ خافَ العيونَ فلم يُنظَرْ به الحشَكُ^(١١)
 ٤٠٢: فزلَّ عنها ، وأوفى رأسَ مَرَقِبَةٍ كمنصبِ العِترِ دُمى رأسه النُسكُ^(١٢)



- (٨) استمرت : أى فى الطير والحرب . فألجأها : غمّلها على الوادى خوفها منه ، لأن بالوادى شجرا يمكن أن تخفى فيه . الأظفار : الخالب . الحنك : المنقار .
 (٩) استغاثت : استعانت والتجأت . لا رِشاءَ له : لا حبل ينزع به الماء ، وفيه كناية عن أنه نَز . الأباطيح : جمع أبطح ، الأرض المستوية . فى حافاته : على شواطئه . البرك : جمع بركة وهى طيور من طيور الماء ، أو هى الضفادع .
 (١٠) مكلل : محيط به النبات كالإكليل . النجم : النبات الذى يقال له التيل ، قيل : إنه لا ينبت إلا على ماء ، أو فى موضع تحته ماء . رِيحٌ خريقٌ : ريحٌ شديدة . لضاحي مائه . لبارز مائه . الحُبك : طرائق ، مفردا حبيك .
 (١١) السي : اللبن الذى فى الضرع قبل أن يدر . الفز : ولد البقرة . الغيطة : الشجر للثقف أو البقرة وهو المراد . خاف العيون : خاف الناس وخشيم . الحشك : احتفال الضرع بالبن .
 (١٢) فزلَّ عنها : فسقط الصقر عن القطة . أوفى : بلغ . المرقبة : المكان المرتفع ينظر منه الرقيب . المنصب : الحجر يعثر عليه . العتر : والعتيرة الدبيحة تذبح تعبدا ونسكا . أو العتر الصم . دُمى : أسال دمه . النُسك : جمع نسيكة ما يذبح عليه .

تحليل الأبيات :

كأن فرسى تلك من قطا أرض ذات عيون وآبار ، فيفد عليها الواردون ، فهي منهم
حذرة وجلة ، ولا سيما وقد قنص أختها شبك الصائد ، وحباله القانص ، تلك القطاة
جونية الشكل ، مستوية الخلق ، فظهرها أكدر ، وباطن جناحيها أسود ، وریش حلقها
أصفر ، واستواء خلقها يحكى استواء حصاة القسم ، يتقاسم عليها السفر ماءهم ، وقد أوشك
أن ينفد ، وهي تحيا في خصب ، وتعيش في رتاع ، فلها في سياتها نوعان من الغذاء : بقلة من
أحرار البقل ، وثمره من ثمر النفل .

وإذ هي سعيدة بوطنها ، متمتعة برغد عيشها انقض عليها صقر ذو خدين أسفعين ؛
أشربت حررتها بسواد ، وانضم ريش قوادمه بعضه على بعض ، وهو صقر كاسر ، لم يذله
قانص ، ولا قنصه أسر ، فهو قوى مخيف .

وبدأت المطاردة ، فليس أجود من القطاة سرعة ، وهي ليقينها بسرعة طيرانها طيبة
النفس ، مطمئة الفؤاد ، غالبة أن جناحيها سيهايان لها النجاة ، فهي تترك بعض
ما تستطيعه ؛ لقد حلقا في الجو ، بين السماء والأرض ، فهي أمامه ، وهو من خلفها ، يكاد
يبلغ ذنبا ، فلا هو يدركها ، ولا هي تفوته ، وحينما تركت طيرانها أهوت إليها كف الغلام
لتقبض عليها ، فاستجمعت قوتها ، وتخلصت من كفه ، وقد بقى فيها قطع من ريشها ، حتى
بلغت الوادى ذا الشجر ، فهي تقدر على الاختفاء في أغصانه ، أو الاختباء بين جذوعه
وأفئانه ، بعد أن طمع ظفره في القنص ، ومنقاره في الخمش والنقر ، ولم تزل تجتهد في الطيران ؛
حتى استغاثت بماء نجل يجري على سطح الأرض ، فليس له غور ، ولا يحتاج إلى رشاء
ينزح به ، لأنه في أبطح مستو يتجمع حول حافات البرك ، هذا الماء يكلله النجم ،
وتحوطه أصول النبات الذى لاسوق له ، فإذا مرت به ريح الشمال الشديدة جعلت
في ظاهر ذلك الماء طرائق وأمواجا كأنها أجزاء النسيج ، وكانت استغاثتها بذلك الماء
كاستغاثة ولد البقرة بالضرع الذى لم يحتفل بعد باللبن ، وهو يخاف أن ينظره الراعى ،
فلا يدعه يشرب حتى ذلك السبي .

قد أجهد الصقر ، واختفت عن عينيه القطاة ، فسقط عن مطاردها مرغما ، ولكنه وقف فوق مرقبة ينتظر أن تبدوله مرة أخرى كحجر العتر الذى يدمى رأسه بدم ذلك العتر .
النمر .

يمتاز زهير بتصوير كثير من مناظر البيئة العربية الدقيقة ، وبرسم عديداً من عادات العرب التى لا ترد على خواطر أكثر الشعراء ، ولعل مصدر هذا أمران : أولهما تجويد شعره ، فذلك التجويد يبعث على التأمل الطويل ، والتدبر فيما يقول ، والآخر طول عمره ، واستمداده حكمته من حياته وحياة أمته ، انظر إلى قوله يصف القطاة باستواء الخلق ، واملاس الظهر :

جونية كحصاة القسم مرتعها بالسي ماتنبت القفعاء والحسك
لقد ذكر لنا عادة من عادات العرب فى أسفارهم ورحلاتهم ، هى قسمهم الماء بينهم ، وذكر هذه العادة يوحى إلينا بقلّة الماء فى بلاد العرب ، وقلة الماء يتبعها قلة العشب ، وندرّة النبات ، ولكنه فى هذا البيت بالذات أشعرنا أن من بلاد العرب أرضا ذات مراعى خصبة ، ومزارع نظرة .

ثم هذه صورة أخرى من الصور الجميلة التى تستطيع أن ترسم منها مصورا لجزء من بلاد العرب دون أن تخاف الخطأ أو توصف بالتجاوز فى الرسم ، تلك هى :

حتى استغاثت بماء لارشاء له من الأباطح فى حافاته البرك
مكلل بأصول النجم تنسجه ريح خريق لضاحى مائه حبك
وصف الماء الذى استغاثت القطاة به بأنه لا يحتاج إلى رشاء ؛ وإذن فهو نجل وأنه ينزّ فى أرض مستوية ؛ ليس فيها أغوار ؛ وأن على حافاته ذلك الطير الأبيض من طيور الماء ؛ أو الضفادع وهو أنسب فى هذا المقام ، ثم إن النبات الصغير يلف ذلك الماء ويحوطه ، وقد تنسج الرياح فوق الماء الظاهر طرائق وحبكا .

ثم هذه النظرة الدينية التى صوّر لنا فيها إحدى عاداتهم فى عبادتهم ، وهى الذبح فى شهر رجب للأصنام تنسكا وتعبدا ، وتلك النظرة فى قوله :

فزّل عنها وأوفى رأس مرقبة كنصب العتر دى رأسه النسك
أما أسلوب زهير فهو الأسلوب المصفى الذى قل أن تجد فيه ما يعيبه ، فقد كان من عبيد الشعر ، فكيف يخون سيده ، أو يهمل شأن أميره ؟

٥ — وقال أبو ذؤيب الهذلي * يصف صيد الحر الوحشية :

فوردن والعيقوق مَقْعَدُ رَائِي الضُّضْرَبَاءَ خَلْفَ النَّجْمِ لَا يَنْتَلِعُ^(١)
فَشْرَعَنَ فِي حَجَرَاتٍ عَذْبٍ بَارِدٍ حَصْبِ الْبِطَاحِ تَغِيبُ فِيهِ الْأَكْرَعُ^(٢)
فَشَرِبْنَ ، ثُمَّ سَمِعْنَ حِسًّا دُونَهُ شَرَفُ الْحِجَابِ وَرَيْبُ قَرَعٍ يُقْرَعُ^(٣)
وَنَيْمَةً مِنْ قَانِصٍ مُتَلَبِّبٍ فِي كَقِّهِ جَشٌّ أَجَشُّ وَأَقْطَعُ^(٤)
٤٠٧ : فَفَكَرْنَاهُ ، فَفَرَزْنَاهُ فَامْتَرَسَتْ لَهُ سَطْعَاءُ هَادِيَةٌ ، وَهَادٍ جُرْشَعُ^(٥)

* ترجمه الشاعر : أبو ذؤيب كنية اشتهر بها الشاعر ، واسمه خويلد بن خالد بن محرت الهذلي ، كان شاعراً غزلاً ، أدرك الإسلام فأسلم ، سئل حسان بن ثابت عن أشعر الناس ، فقال : حيا أم رجلاً ؟ قال سائله : بل حيا ، فقال : حيا هذيل ، ورجلاً أبو ذؤيب ، وهذه الأبيات من قصيدته التي يرثي بها بنيه الحمسة الذين اغتالهم الطاعون في عام واحد بعد أن صاروا رجالاً بأس ونجدة وأول القصيدة هو :

أمن المنون وريها تتوجع ؟ والدهر ليس بتعقب من يحزع

التفسير اللغوي : (١) فوردن : نون النسوة تعود على الحر الوحشية . العيقوق : كوكب يظهر بإزاء الثريا . رائي الضرباء : الراي الرجل فوق الضرباء ينظر ما يفعلون ، والضرباء : جمع ضريب الضاربون بالقداح . لا يتلح : لا يتقدم ولا يرتفع . (٢) فشرعن : ضمير النسوة يعود على الحر ، فمددن أعناقهن ليشربن . الحجرات : النواحي ، مفردها حجرة . الحصب : الماء فيه الحصباء ، وهو أصفى ما يكون . البطاح : بطون الأودية ، مفرده أبطح . الأكرع : جمع كراع مستدق الساق ، ويريد أكرع الحمر . (٣) حسا : صوتا . دونه : بينه . شرف الحجاب : منقطع أرض الحرة ، وقيل : إنما يريد حجاب الصائد ؛ لأنه لا بد أن يستر بشيء . ريب قرع : قرعا يرب ويفزع ، ويريد قرع القوس وصوت الوتر . (٤) نيمية : يريد نيمية القانص ، وهي ما نم عنه ، المتلب : المتقلد كنياته . الجش : القضيب من النبع تصنع منه القسي . الأجش : الغليظ الصوت . أقطع جمع قطع ، وهو النصل العريض القصير .

(٥) ففكرناه : فأنكرناه . فامترست له : فأقبلت عليه ولصقت به . السطعاء : الطويلة العنق . الهادية : المتقدمة . الجرشع : الغليظ الممتلئ الجنين .

- فرى ، فَأَنْقَذَ مِنْ نَجْوَدٍ نَائِطٍ سَهْمًا نَحْرًا ، وَرِيشَهُ مُتَصَمِّعٌ^(٦)
 فَبَدَا لَهُ أَقْرَابُ هَادٍ رَائِعًا عَنْهُ فَمِيتَ فِي الْكِنَانَةِ يَرْجِعُ^(٧)
 فرى ، فَأَلْحَقَ صَاعِدِيًا مُطَجَّرًا بِالْكَشْحِ ، فَاشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الْأَضْلَعُ^(٨)
 فَأَبْدَهْنَ حَتُوفَهُنَّ : فَهَارِبٌ بِذِمَائِهِ ، أَوْ بَارِكُ مُتَجَمِّعٌ^(٩)
 ٤١٢ : يَعْثُرْنَ فِي عَلَقِ النَّجِيعِ كَأَنَّمَا كُسِيتَ بِرُودَ بَنِي تَزِيدَ الْأَذْرُعُ^(١٠)



- (٦) النجود : العلة الطويلة . العائط : التي اعتاطت رحمها فبقيت أعواما لا تحمل .
 متصمع : منضم بعضه فوق بعض من الدم المتجمد عليه .
 (٧) الأقرب : الخواصر ، والذي بدا له قرب واحد فجمعه بما حوله . رائعا : منصرفا
 مائلا . عيث : مد يده إلى كنيانته ليأخذ سهما . يرجع : يمد يده .
 (٨) الصاعدي : نسبة إلى بنات صعدة على غير قياس وهي الحمر الوحشية ، وقيل الأسهم ،
 والأول رأى اللسان . مطجرا : سهما بعيدا . الكشح : ما بين الخاصرة إلى الضلع من الخلف .
 (٩) فأبدهن حتوفهن : فأعطاهن حتفهن وهلاكهن . بذمائه : ببقية نفسه . المتجمع :
 الساقط على الأرض .
 (١٠) علق النجيع : متجمد الدم . بنو تزيدي : بطن من قضاة تنسب إليه البرود .

تحليل الأبيات :

وردت الحر الوحشية الماء وكوكب العيوق يبدو خلف الثريا ، كما يظهر الرقيب خلف لاعبي الميسر ينظر ما يفعلون ، فإذا نهّد قدح حفظه خشية التبديل ، ولا يكون العيوق كذلك إلا آخر الليل في شدة الحر ، فشرعت الحر تشرب من جميع نواحي الماء ، تشرب ماء عذبا خصرأ ، حصب البطاح ، جاريا ليس نجلا ، بل هو فياض تغيب فيه أكرع هذه الحر ، فما زلن يشربن هادئات هادئات ، حتى أزال هدوءهن ، وأقدهن هناءتهن ، صوت بينه وبينهن شرف مرتفع ، فهن لا يتبين مصدره ، فاشتد منه ريبهن ، وعظم فزعهن ، فهو يريب كما يريب قرع القوس أو صوت الوتر ، سمعن صوت وتر ذلك الصياد المتقلد كنانته ، المتلبب بأسهمه ونباله ، الحامل في يده قوسه ، وهو إلى كل هذا ذو صوت أجش ، ونصل عريض قصير .

فأنكرن هذا الصوت ، وكان إنكارهن له سبب نفورهن منه ، وبعدهن عنه ، وأخذ بعضهم يمترس بالآخر ، فتنضم السطعاء الطويلة العنق إلى الجرشع الغليظ الجنين ، كأنها تطلب حمايته ، ويمترسها هو كذلك ؛ كأنه يلتمس حمايتها .

وكان هذا الامتراس قد أضرّ بهن ، فقد رمى الصياد سهمه ، فأنفذه في أتان عجلة طويلة ، قرية مكتنزة ، إذ لم تحمل ولم تلد فتحي قوتها ، فسقط السهم المريش فيها ، وقد انضم ريشه وتجمع ، فكان أقتل وأقتك .

وظهر لذلك الصائد الماهر خاصرة حمار رائغ عن إخوانه ، منصرف عن رفاقه ، فأمال يده إلى كنانته يستخرج منها سهماً ليرمي به ذلك النافر الشارد ، ورمى فأدرك سهمه البعيد الرمي حمرا صاعديا ، أصابه في خصره ، فاشتملت على ذلك السهم المسدد أضلاع ذلك الحمار ، وفرّق الموت عليهن ، ووزع المنون فيهن ، فمنهن من أصيب إصابة غير قتالة فهو هارب بذمائه ، ومنهن من إصابته قاتلة فهو بارك في مكانه لا يستطيع حراكا ، وهذه الآن الهاربات تتعثر في طريقها ، والسهم في أذرعها ، والدم المتجمد يعلوها ، فطرائق الدم في تلك الأذرع كطرائق برود بنى تزيد ، كلاهما يشتمل على خطوط حمر تضرب إلى السواد .

النقر :

الناظر في أبيات أبي ذؤيب يجد صوراً متتابعة متعاقبة ، يأخذ بعضها بأعناق بعض ؛ فالحر ترد الماء سحراً ، فيشرعن يشربن من نواح مختلفات ، وبعد أن شربن سمعن حساً يحجبهن عنهن شرف الحجاب ؛ ونميمة قانص متقلد كفاتته ، فنكرن الصوت والنميمة ، فنفرن فتلاصقن ، وهكذا يسير في تصويره كأنه قطار إبل .

وتلك الصور صادقة صدقاً واضحاً ، ليس للغلو فيها نصيب ، فالحر ترد الماء سحراً إذ العيوق يتخذ له مرقبة خلف الثريا التي تقف دون أن تسير ، وثبتت لا تتلعب ، ثم صورها ترد الماء ملتفات حول شاطئه ، دائرات عند حجراته ، وليس هذا الماء نرا بل تغيب فيه الأكرع .

وكأنك تتأمل الصائد ، وهو يرمى سهمه ، فيصيب هدفه ، فيخر ذلك الهدف ، وقد تصمع ريش السهم من آثار الدم ، وذلك في قوله :

فرمى ؛ فأنفذ من نجود عائط سهماً ، نخر ، وريشه متصمع
وها هو ذا يصف لك الصيد ، فهو أتان عبلة طويلة حرمت الحمل ، فهي فتية قوية ، ويظهر أن فقد أبي ذؤيب بنيه الخمسة جعله يستهين بالحياة ، ويستخف بالبقاء ، فهو في أبياته يصف الصائد بأنه تابع الرمي حتى كاد يفنى الحر ، وينوع مواطن الإصابات ، وهاك قوله ثبت ما نقول :

فرمى ، فألحق صاعدياً مطحراً بالكشح ، فاشتملت عليه الأضلع
فأبدن حنوفهن : فهـارب بذمائه ، أو بارك متجمع
ولا بد أن الصورة في آخر الأبيات ستعجبك ، فهي صورة حقيقية صادقة ، إذ ذلك شأن كل ما يطارده الصائدون ، هروب وإلا فحنوف .

أما الأسلوب فجزل قوى ملائم لموضوعه تشيع فيه حروف تكسبه هذه الجزالة مفردة أو مركبة مع غيرها كحرف الشين مثلاً ، وهناك حروف تتابع ، فلا تحدث تنافراً كقوله : فنكرنه فنفرن ، فقد تكررت في هاتين الكلمتين الفاء ، والنون والراء ، دون أن يشعر القارئ بثقل ، بل لعله شعر برضا عن الشاعر .

وبعد فالأبيات من قصيدة حكم لها بالجمال ، وهذه الأبيات من أروع أسباب جمالها .

٦ — وقال تأبط شراً * يصف الغول ، وقد تقاتلا :

- ألا من مبلغَ قتيانَ فهمٍ بما لاقيتُ عند رَحَى بَطانٍ ^(١)
 بَأْنِي قد لقيتُ الغولَ تهوًى بسهبٍ كالصَّحيفةِ تَحْصَحانٍ ^(٢)
 فقلتُ لها : كلانا نَضُو أين أخو سفر ، نغلى لى مكافى ^(٣)
 فشدتُ شدةً نحوى فأهوًى لها كفى بمصقولٍ يمانى ^(٤)
 فأضربُها بلا دهشٍ ، نغرتُ صريعاً للبيدين وللجِرانِ ^(٥)
 فقالت : عدُ ، فقلتُ لها : رويداً مكانك إني ثبتُ الجنانِ ^(٦)
 فلم أنفك متكِئاً عليها لأنظرَ مضجعا ماذا أتانى ^(٧)
 إذا عينانِ فى رأسٍ قبيحٍ كرأسِ الهرِّ مشقوقِ اللسانِ ^(٨)
 ٤٢١ : وساقا مخدج ، وشواة كلبٍ وثوبٌ من عباءٍ أو شُنانٍ ^(٩)

* ترجمه الشاعر : هو ثابت بن جابر بن سفيان التيمى ، ولقب بتأبط شراً ؛ لأنه تأبط سيفه وخرج ، فسئلت عنه أمه ، فقالت : تأبط شراً وخرج ، وهو من صعاليك العرب الفتاكين ، ومن لصوصهم العدائين ، هذا إلى أنه كان أجمع العرب وأبصرهم ، وأكيدهم وأعداهم ، قيل عن عدوه : إن الخيل لم تكن تدركه ، والظباء لم تكن تفوته ، وله شعر جيد ، توفى سنة ٥٣٠ م .

التفسير اللغوى : (١) فهم : أبوحى وابن عمير بن قيس بن عيلان . رحى بطنان : أرض بالبادية ، (٢) الغول : حيوان لا وجود له ، تخيله العرب فوصفوه ، ومن معانى لفظ الغول الحية . تهوى : تنقض . بسهب : بفلاة . الصحصحان : الأرض المستوية الجرداء . (٣) نضو أين : سقيم نصب . أخو سفر : كثير الأسفار . نغلى : فارتكى . (٤) فشدت شدة : فوثبت وثبة . فأهوًى : فأسقط . بمصقول يمانى : بسيف محدد مرهف منسوب إلى اليمن . (٥) دهش : تحير واضطرب . نغرت : سقطت . صريعاً : مصروعة مقتولة . للجِران : لمقدم عنق البعير . (٦) عد : ارجع للقتال . رويداً : تمهلاً . مكانك : الزمى مكانك . ثبت الجنان : ثابت القلب . (٧) متكِئاً : معتمداً . مصبجاً : عند تنفس الصبح . (٨) الهر : القط . (٩) ساقا مخدج : ساقا حيوان ناقص الخلق لم تتم أيام حمل أمه به . الشواة : قحف الرأس وجلدته . العباء : العباءة . الشنان : السحاب .

تحليل الأبيات :

انتصر تأبط شرا على الغول . قال الجاحظ عنها : إنها اسم لكل شيء من الجن يعرض للسفار ، ويتلون في ضروب الصور والثياب ، ذكر أكان أو أنى إلا أن أكثر كلامهم على أنه أنى ، وإذا كان ذلك أمره ، فهو فيما يرى لا ينتصر عليه إلا الأبطال الأشداء ، فمن حق تأبط شرا إذن أن يذيع نصره لا في قبيلة بنى فهم فحسب ، بل له أن يذيعه في الآفاق ، فهو نصر مؤزر ، وفوز مظفر .

لاقي تأبط شراً - في فلاة مستوية جرداء ، لاماء فيها ولانبات ولاحيوان - غولا تنقض عليه انقضا الصاعقة ، وتنفض إليه انتفاض الجنان ، وتهوى نحوه هوى الصخرة من شاهق الجبل ، فلم يأخذه انقضاضها وهويها ، بل قال لها باغيا لنفسه ولها السلامة : لا عليك بأس ، فكلانا نضو أين ، وسقيم نصب ، وأخوسفر ، فخلي عنى أحلى عنك ، واتركنى لشأنى أتركك لشأنك ، ولكن كيف لها أن تدعه ؟ وأنى لها أن تخلى عنه ؟ لم تصخ إليه ، ولم تستمع له ، ومتى استمع القوى للضعيف أو لمن ظننه ضعيفا ؟

لقد شدت عليه شداً شديداً ، وعدت نحوه عدواً بعيداً ؛ حتى دانت فصار منه قاب قوسين أو أدنى ، فهوى عليها بسيفه المصقول دون أن يصيبه من هجومها دهش ، أو يلحقه من انقضاضها خور ، فسكانت الضربة حاسمة ، فخرت على الأرض مصروعة خائرة ، سقطت على يديها وجرائها ، فأثارها الضربة التي لم تعرفها من قبل ، وأزعجتها الوثبة التي لم تكن تتوقع لها ذلك الأثر .

كيف تهزم ، وقد تعودت الانتصار ؟ لقد صاحبت به أن عد ، فسأريك كيف يكون القتال ، فأجابها ، وقد أفرخ روعه ، واطمأن لضربته فواده ، مهلاً ورويداً ! قفى مكانك ، وأنا منك حيث تشائين ، إننى ثبت الجنان ، لا أفر من ميدان .

واتكأت عليها بظبة سيفي حتى لا تهرب بجراحها فتنجو منه ، بعد أن التمت إليها المسألة فأبتها ، وطلبت إليها المهادنة ، وكلانا في حال تدعو إليها فعصنتى ، اعتمدت عليها

بسيقي إلى أن يتنفس الصبح ، لأتحقق من ذلك العدو الباسل ، ولأتبين في الصباح ماذا
أحمد من سُراى .

فإذا حيوان غريب ليس له في أنواع الحيوان ضريب ، إن عينيه مخفيتين مخبئتين
في رأس مستدير كأنه رأس الهر ، وهو مشقوق اللسان ، وذو ساقين قصيرتين ، كأنهما
الحيوان لم يتكامل خلقه ، ولم يتم تكوينه ، وشواة رأسه كشواة رأس الكلب ، وجلده
ناعم أزرق كأنه في نعومته عباءة ، وفي زرقته قطعة من سحاب .

فذلك الحيوان الصريع قد أخذ من كل حيوان أفتح ما فيه ليكون بشع النظر ،
قبيح الشكل ، مخيفا لكل ناظر إلا إذا كان تأبط شرا .

النقد :

لا يشعر الناقد البصير بقوة هذه الأبيات ، ولو أنه زعم أنها أبيات موضوعة لما عد
مجازا الصواب ، فليست فيها القوة التي يمتاز بها الشعر الجاهلي ، فهو قد هَوَّل تهويلا عظيما
في عجز البيت الأول بذلك الإيهام « بما لاقيت عند رحي بطن » ولكن هذا التهويل
مالبث أن توارى ، ولو أنه أراد الاستمرار فيه لبالغ في وصف الغول ، وفي تصوير اعتدائها
عليه ، ولكنه لم يزد على أن قال : « بأني قد لقيت الغول تهوى » وليس من اللازم
اللازم أن يكون هويها إليه ، ثم إنه أخذ يحاورها ، فقال لها ولم تقل له ، وليس مثل
هذا من الأسلوب الجاهلي .

بقى أنه انتظر إلى الصباح حتى يعرف ما هي ، ويتبين حقيقتها ، وإذن فقد كان قتله
إياها عن جهل بها ، وعدم معرفة لها ، وهذا المعنى يهون من شأنها .

أما الأسلوب فلا نكاد نجد فيه الجزالة البدوية ، ولا القوة الجاهلية ، ولا سيا في مثل
هذا الغرض ، وشعر تأبط شرا في غير هذه الأبيات يفيض بالجزالة ، ويفعم بالقوة .

ويكاد البيتان الأخيران من الأبيات يشهدان بالصنعة ، وهو إذ يصف فيهما الغول
يصفها وصفا لا ينبي بقبح ، فيتم الوصف بالقبح ، وكأنني به لم يستطع أن يحدد لون الجلد
بقوله : وثوب من عباء ، فعطف عليه بقوله أو شنان .

٧ — وقال الشنفرى * يصف الذئب من قصيدته المعروفة بلامية العرب ، وأولها :

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيئِكُمْ فإني إلى قومٍ سِوَاكُمْ لَأُمِيلُ^(١)

وَأَغْدُو عَلَى الْقَوْتِ الزَّهِيدِ كَمَا غَدَا أَزَلُّ تَهَادَاهُ التَّنَائِفُ أَطْحَلُ^(٢)

غَدَا طَاوِيَا يُعَارِضُ الرِّيحَ هَافِيَا يَخُوتُ بِأَذْنَابِ الشَّعَابِ وَيَقْضِلُ^(٣)

فَلَمَّا لَوَاهُ الْقَوْتُ مِنْ حَيْثُ أُمَّة دَعَا فَاجَابَتْهُ نَظَائِرُهُ نُحْلُ^(٤)

٤٢٦: مَهْلَهْلَةٌ شَيْبُ الْوُجُوهِ ، كَأَنَّهَا قِدَاحٌ بِكَفِّي يَاسِرٌ تَتَقَلَّقُلُ^(٥)

* ترجمه الشاعر : هو من بنى الحرث بن ربيعة بن الأواس بن الحجر من الأزد ، شاعر

من أهل اليمن معدود في العدائين الذين لا تلحقهم الخيل ، وكانت فيه شجاعة وحذق ، والشنفرى اسمه ، وقيل لقبه ، وهو ابن أخت تأبط شرا الشاعر السابق ، وقيل عن قتله : إنه حلف ليقتلن مائة رجل من بنى سلامان ، فقتل تسعة وتسعين ، ثم احتالوا عليه فأمسكه رجل منهم اسمه أسيد بن جابر ، ثم قتله ، فمر به رجل من أعدائه . فرفس جمجمة الشنفرى ، فدخلت شظية منها برجله فمات فتمت القتلى مائة ، وهى أسطورة طريفة ، توفى سنة ٥١٠ م .

التفسير اللغوى : (١) أقيموا : ارفعوا . بنى أُمى : كناية عن الإخوة ، والنداء به

يشعر بالعطف والرحمة . صدور مطيكم : صدور اللطايا هواديهما وجرائها .

(٢) أغدو : أصبح مبكراً . القوت : الطعام . الزهيد : القليل اليسير . الأزل : القليل لحم

الوركين : تهاده : تتدافعه . التنايف : جمع تنوفة ، وهى الفلاة . الأطحل : الذئب فى بياضه غبرة .

(٣) طاويا : خميصا جائعا . هافيا : مسرعاً . يخوت : ينقض . الشعاب : جمع شعب ،

وهى المنحنيات فى الجبال . يعسل : يسرع باهتزاز . (٤) لوَاهُ القوت : أماله البحث

عن الطعام وأعجزه . أمه : قصده . دعا : عوى . نظائر : جمع نظير أنداد . نحل . جمع ناحل . المزلجى .

(٥) مهلهلة : قليلة اللحم . شيب الوجوه : كناية عن بياضها . الياسر : اللاعب بسهام

الميسر يحركها بين يديه ، وقداح الميسر سهامها ، مفردتها قدح ، وهو أيضا للسهم قبل أن يرش .

أو الخشرمُ المبعوثُ حَنَحَتْ دَبْرَهُ مَحَابِيضُ أَرَادَهُنَّ سَامٍ مُعَسِّلٌ^(٦)
 مَهْرَتُهُ ، فَوَهُ كَأَنَّ شُدُوقَهَا شَقُوقُ الْعِصَى كَالْحَاتٍ وَبُسْلٌ^(٧)
 فَضْجٌ وَضَجَتْ بِالْبَرَّاحِ ، كَأَنَّهَا وَإِيَاهُ نُوحٌ فَوْقَ عَلِيَاءٍ تُكَلُّ^(٨)
 وَأَغْضَى وَأَغْضَتْ ، وَأَتَسَى وَأَتَسَتْ بِهِ مَرَامِيلُ عَزَاهَا وَعَزَّتُهُ مُرْمِلٌ^(٩)
 شَكَا وَشَكَّتْ ، ثُمَّ ارْعَوَى بَعْدُ وَارْعَوَتْ وَلَلصَّبْرُ إِنْ لَمْ يَنْفَعِ الشَّكْوُ أَجَلٌ^(١٠)
 ٤٣٢ : وِفَاءٌ وَفَاءَتْ بَادِرَاتٍ ، وَكُلُّهَا عَلَى نَكْظٍ مِمَّا يُكَاتِمُ مُجْمِلٌ^(١١)



- (٦) الخشرم : رئيس النحل . المبعوث : المنبعث للسير . حَنَحَتْ : حث وحض . الدبر : جماعة النحل . المحابيض : جمع محبض ، وهى عيدان يتخذها مشتار العسل ، فيثير بها النحل . أَرَادَهُنَّ : مخفف أَرَادَهُنَّ أى ثبتهن وركزهن . سَامٍ : رجل عال مرتقى . معسل : مشتار العسل .
- (٧) مهرة : مشقوقة الأفواه . فوه : جمع أفوه المفتوح الفم . كالحات : عابسات الوجوه . البسل : جمع باسل وهو الكريه المنظر .
- (٨) البراح : الأرض الواسعة لا نبت فيها . نوح : جمع نائحة باقيات صائحات . شكل : جمع ناكل ، وهى الفاقدات الأولاد .
- (٩) أتسى : امتثل واقتفى . مراميل : جمع مرمل ، وهو الذى لا زاد معه . عزاه : سلاها ، وأصل التركيب : عزاه مرمل ، وعزته مراميل .
- (١٠) ارعوى : رجع . الشكو : الشكوى . أجمل : أحسن وأفضل .
- (١١) فاء : رجع . بادرآت : التخط : شدة الجوع . المجميل : المحسن حاله .

تحليل الأبيات :

بنى أمى : أقيموا صدور مطاياكم للرحيل ، واستنضوها من مناخها للسفر ، أما أنا فدعوني أبحث عن قوم سواكم أعيش بينهم ، وأقضى بقية أيامي معهم ، فإني إلى غيركم أميل . ثم انتقل بعد أغراض عدة إلى وصف الذئب متخذاً من تشبيه نفسه بذئب تمهيداً لوصفها . قال : إني أعيش على أيسر الطعام ، وأحيا على أزهد القوت ، شأني شأن الذئب الأزل الأطلحل ، تتقاذفه التناثف ، وتتهاداه المفاوز ، يغدو طاوى المصير ، خميص البطن ، يسابق الريح ، ويمارض العاصفة ؛ ينقض في مؤخرات الشعاب ، ويهوى في طرق الجبال ، باحثاً عن طعامه ، ساعياً إلى قوته ، وإذا امتنع عليه الطعام حيث قصد ، وعز عليه القوت في مسعاه عوى بأثسا ، وناح يائسا ، فأجابته ذئاب نحل ، ونظائر هزل ، ذئاب خفيفة اللحم ، هزيلة الجسم ، بيضاء الوجوه ، شيب الرؤوس ، كأنها خلقتها قداح يحركها يامسر ، ويقلقها قامر ، وكأنه يعسوب النحل قد انبعث للسير ، ودعا جماعات النحل للطيران معه عيدان أنارت تلك الجماعات قد ركزها مشتار السل .

تلك الذئاب مشقوقة الأنواء ، مفتوحتها ، كأن أشداقها في اتساعها شقوق المعصى ، وهى عابسات الوجوه ، كرهية المنظر ، بشعة المرأى ، فضج الذئب البائس ، وأجابته الذئاب البائسات في أرض واسعة لا يسمع فيها إلا الصدى ، ولا يرى إلا السراب ، فكأن الذئاب معه نساء فوق مرتقى من الأرض ، تكن أبناءهن ، فهن ينحن عليهم ويعولن .

وأغضى على الجوع والقذى وأغضت معه ، وامثل ما أريد عليه ، وامثلت ، واتخذت منه أسوة ، وجعلته لها قدوة ، فكلها مراميل سلاها عن فقدان زادها أخ مرملة ، وعزاها عن جوعها أخ جائع .

لقد شكا وشكون ، وانصرفنا عن العواء وانصرف ، ورأين أن الصبر أجمل بهن ، والتجلد أحسن منهن ، ورجع إلى العدو ورجعن إليه بعد أن لم تجد صيداً تطعمه ، ولا قوتا تأكله ، وهن على شدة جوعهن يكتمن أمرهن ، ويتجملن بالصبر .

النقد .

في هذه الأبيات جمال من وجوه عدة ، فمعانيها واضحة تدل على أن الشاعر عالم بما

يقول ، متمكنا مما يصور ، فالشاعر الذى يعيش فى البادية هو الذى تبهره صورة الذئب ،
يعوى من الجوع ، ويصيح من الغرث ، فما تمضى هنيهة على عوائه وصياحه ، حتى تجاوبه
ذئاب أخرى هى أيضا غرثى جياع ، فأى جمال أبدع من قوله ؟

غدا طاويا يعارض الريح هافيا يخوت بأذئاب الشعاب ويعسل
فلما لواه القوت من حيث أمه دعا فأجابته ————— نظائر نحل

ثم من هذا الذى يستطيع وصف الذئاب ذلك الوصف الدقيق لإلارجل عاش فى التنايف
وعاشر الأطالس ، ولاحظ أعضاء جسمها عن قرب ، فأعجب بها ، أو نفر منها ؟ وأى دقة
وصف تعلو دقته ، إذ يقول ؟

مهلهلة ، شيب الوجوه ، كأنها قداح بكفى ياسر تتقلقل
أو الخشرم المبعوث حثث دبره محايض أرداهن سام معسل
مهرتة فوه كأن شـدوقها شقوق العصى ، كالخات وبسل

هذه بعض معانى هذا الشاعر أفاضتها عليه حياته البدوية فأجاد عرضها ، وأبدع
فى تصويرها ، فأى عرض أجود من عرضه ، وأى تصوير أبدع من تصويره إذ يقول ؟

فضـج وضجت بالبراح كأنها وإياه نوح فوق علياء شكل
وأغضى وأغضت ، واتسى واتست به مراميل عزائها وعزته مرمل
شكا وشكت ، ثم ارعوى بعد وارعوت وللعـبر إن لم ينفع الشكو أجمل
وفاء وفاءت بادرات ، وكلها ————— على نكظ مما يكاتم بمجمل

إن الأسلوب ليفرع أقوى الأساليب الجاهلية ، وقد كساه جمالا ذلك التنسيق والتتابع ،
فضج وضجت ، وأغضى وأغضت ، واتسى واتست ... الخ .

لقد نالت القصيدة التى منها هذه الأبيات عناية الأدياء فى القديم والحديث ، فى الشرق
والغرب ، وهى جديرة بتلك العناية ، وأجدرها بها تلك الأبيات التى لم يعرف الشعر العربى
لها نظيرا فى وصف الذئاب ، وقد روى عن الرسول الكريم أنه خاطب أصحابه بقوله :
« علموا أولادكم لامية العرب ، فإنها تعلمهم مكارم الأخلاق » .

٨ — وقال المرقش الأكبر* يصف ذئباً نزل به فأطعمه :

ولمّا أضأنا النارَ عند شِواننا عرانا عليها أطلسُ اللونِ يابسُ^(١)
نَبَذْتُ إليه حَزَّةً مِنْ شِواننا حَياءً، وما خُشِيَ عَلَى مَنْ أَجَالِسُ^(٢)
٤٣٥ : فَأَضَّ بِهَا جَذْلانَ يَنْفُضُ رَأْسَهُ كما آبَ بِالنَّهْبِ الكَمِيُّ الْمُحَالِسُ^(٣)

تحليل الأبيات :

أوقدنا ناراً ، وأرسلنا ألسنتها تطاول السماء ، وتتسأى إلى الجوزاء ، وتدعو الجياع الغرثى ، والسابلة الخماص ، ليشاركونا في شواننا ، ويقاسمونا زادنا ، فنزل بنا ضيف أطلس اللون ، بئس الحال ، خميص البطن ، فرق له قلبي ، وإن يكن هو غليظ القلب ، ورث لبؤسه نفسى ، وإن يكن هو خبيث النفس ، فرميت إليه بقطعة من الشواء حياء أن يقال: بخل عن حيوان جائع ، وإن يكن ذلك الحيوان ذئباً ، وخشية أن يتحدث الناس عنى أنى ضمنت على طارق ، وإن يكن ذلك الطارق من ضواري الوحوش .

لست بالبذئ على الجليس ، وإن لم يكن لى بالأئيس . فرجع بهذه الحزة جذلان فرحا ، ينفض رأسه من الفرح ، ويهزه من الغبطة ، مثله فى غبطته وسروره كمثله الكمى المقاتل لا يترك الميدان ؛ حتى يقضى على خصمه ، ويعود بالفى الكثير .

التقيد :

هى أبيات تصور كرم العربى ، وأنه فى سبيل حسن الأحداثة ، وجميل السيرة ، لا يفرق فى إسداء معروفه بين الإنسان والحيوان .

ولا أرى فيها من الجمال الفنى ما يبهى الناظر إلا فى تصويره لجذله ، فإن ذلك التصوير يوحى بأن الشاعر من كاة الحرب ، وأحلاس الجياد .

* ترجمه الشاعر : هو عمرو بن سعد بن مالك بن ضبيعة البكرى ، والمرقش لقبه ، وهو عم المرقش الأصغر ، ولكن الأصغر أشعر منه ، وهو مع ذلك شاعر فحل مجيد فى غزله وحماسته ، توفى حوالى سنة ٥٥٢ م .

التفسير اللغوى : (١) أضأنا النار : أوقدناها . عرانا : نزل بنا . أطلس اللون : أغبر ، والطلس : العبء إلى سواد . (٢) نبذت له : رميت إليه . الحزة . القطعة . خشي : عيى وبذئ . (٣) فأضَّ : فصار . جذلان : فرحان . ينفض رأسه . يهزه مظهره جذله . آب : رجع . الكمى : الفارس فى كامل عدته . المحالس : الشديد الذى لا يبرح مكانه فى الميدان .

٩ - وقال النابغة * يصف أثر سم الحية ، ويصف خبثها :

فَبْتُ كَأَنَّ سَاوَرْتَنِي ضَيْلَةٌ مِنْ الرُّقْشِ فِي أَنْيَابِهَا الشَّمُّ نَاقِعٌ (١)
يُسَهِّدُ مِنْ لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمُهَا لِحَلَى النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاقِعٌ (٢)
٤٣٨ : تَفَاذَرَهَا الرَّاقُونَ مِنْ سُوءِ سُمِّهَا تَطَلَّقَهُ طَوْرًا وَطَوْرًا تَرَاجَعُ

تحليل الأبيات :

يصف النابغة ما نزل به من هم وأسى، حينما علم ما توعد به أبوقابوس، وما أنذره إياه ؛ إذ بات ليلة الأطول مسهداً كأنما لدغته أفعى دقيقة الجسم، رقشاء اللون، السم الزعاف في أنيابها. يسهر الليل الأطول ، ليل التمام ملدوغها ، لا يتقابل جفناه ، ولا تعرف طريق النوم عيناه ، قد جعل الحلى والخلخال في يديه ، دأمة الجرس ، مستمرة الصوت ؛ حتى لا ينام لديفها ، فيسرى السم في أجزاء جسمه ، ويدب الموت في مفاصله . يخاف الرقاة منها ، ويتناذرون عقباها ؛ إذ ليست لهم بمطواعة دائماً ، فحينما يجيهم ، وحينما تعصيمهم ، وطوراً تطلق الراقى ، فليس له بها شأن ، وطوراً تراجعهم ، فتدعن لأمره .

التفرد :

أجاد النابغة تصوير حال الرجل المهدد ، ينذره من يقدر على ضربه ، كما أجاد في تصوير حال السليم عند العرب ، وفي رسم تطبيبتهم سليمتهم ، فهم يلبسونه الحلى ويحكمونها ؛ لسمع جرسها فلا يقلب عليه النوم ، فيدب السم في جسمه ، وتناذر الرقاة إياها ، ينبئ أنها رقشاء قتل . أما الأسلوب ؛ فيبدو جماله في انساق ألفاظه ، وانتظام حروفه ، وملاءمة بعضها لبعض ؛ فالسين في البيت الثاني يشعر تكرارها بوسوسة الحلى ، وجرسها ، على أن السين أكثر من سواه في البيتين الآخرين ، وجعل خبرات الجملة الاسمية التشبيهية قوى المعنى وجملة .

ترجمه الشاعر : انظر الترجمة في وصف الأوابد ص ١٥٤ .

التفسير اللغوي : (١) ساورتني : واثبتني ، أو وثبت على . ضييلة : رقيقة الجسم . الرقش : جمع رقشاء . وهى الحية فيها نقط سود وبيض . الناقع : البالغ القاتل . (٢) يسهد : يمنع من النوم . ليل التمام : أطول ليالى الشتاء ، والتمام مثلث التاء والفتح أكثرها . السليم : اللسوع ، وسمى كذلك تفاؤلاً بسلامته . القعاقع : الأصوات مفردة قعقة .

١٠ — وقال عنقرة بن عمرو بن شداد العبسي * يصف الثعبان الأسود :

أَتَرْجُو حَيَاةَ يَابْنَ بَشَرٍ بِنِ مِسْهَرٍ وقد عَلِقَتْ رِجْلَاكَ فِي نَابِ أَسْوَدَا (١)
أَصَمَّ جِبَالِي إِذَا عَضَّ عَضًّا تَزَايَلْ عَنْهُ جِلْدُهُ فَتَبَدَّدَا (٢)
بِسِلْعٍ صَفَا لَمْ يَبْدُ لِلشَّمْسِ بَدْوَةٌ إِذَا مَرَّاهُ صَاحِبُ الْيَمِّ أُرْعَدَا (٣)
لَهُ رِبْقَةٌ فِي عُنُقِهِ مِنْ قَيْصِهِ وَسَائِرُهُ عَنْ مَقْنَعِهِ قَدْ تَقَدَّدَا (٤)
رَقُودُ صُحَيَّاتٍ كَأَنَّ لِسَانَهُ إِذَا سَمِعَ الْأَجْرَاسَ مِكْحَالُ أَرْمَدَا (٥)
٤٤٤ : يُفِيَّتُ النَّفُوسَ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ الرُّقَى وَإِنْ أَبْرَقَ الْحَاوِي عَلَيْهِ وَأُرْعَدَا (٦)

* ترجمه الشاعر : انظرها في وصف الفرس ص ١٢٢ .

التفسير اللغوي : (١) ابن بشر بن مسهر : لم تقع له على ترجمة ، وهو كما يبدو أحد أعداء عنقرة . علقت رجلاك : قيدت . أسود : يقصد نفسه ، فهو يصف نفسه بشعبان أسود . (٢) أصم : لا يسمع ، وهو وصف للذكر من الحيات غالبا . جبالى : نسبة للجبل ، ورواه اللسان أصم قطارى ، والقطارى : الضخم . تزايل : تساقط . فتبدد : تفرق ، ورواية اللسان « تزيل أعلى جلده فتريدا » (٣) السِّلْع : بالكسر : الشق في الجبل . الصفا : جمع صفاة : الحجارة الصلدة . صاحب اليم : الراقى . اليم : الحية كما ورد في لسان العرب . أرعد : أصابته الرعدة . (٤) الربقة : بالكسر الجبل . قيصه : يعنى به جلده المنسلخ عنه . سائرُه : جميعه أو باقيه . متنه : ظهره . تقدد : تفرق أو جفّ وبيس . (٥) رقود ضحيات : كثير الرقاد في الضحا . الأجراس : جمع جرس إذا فتحت الهمزة الأصوات ، وبكسر الهمزة التصويت . المكحال : ما يكتحل به ، وهو طبعا أسود من أثر الكحل . الأرمد . الموجدع العين . ومن طريف ما جاء في وصف لسان الحية بالسواد قول الآخر :

كأنما لسانه على فيه دخان مصباح ذكت ذواكيه

قال أبو العباس ثعلب : « يقال إنه لم يسمع في صفة الحية أحسن من هذا البيت » .

(٦) يفيت النفوس : يميها فجأة . تقع الرقى : تحدث الرقى التي ترقى بها جروحه . أبرق الحاوى وأرعد : تهدد وتوعد بما يتلو من العزائم .

تحليل الأبيات :

يهدد عنقثة أحد أعدائه بأن حياته صارت مما يرجى ، وأن بقاءه عاد مما يمتنى ، ولكن هل يجاب الرجاء ، وتحقق الأمانى ؟ أتحقق الأمانى وقد اتصلت رجلاك بناب ثعبان أسود ؟ إنه لن يستمع إلى ندائك ، ولن يلبي دعائك .

والشاعر يقصد بذلك الأسود نفسه ، ثم انصرف إلى وصف الثعبان شأن غيره من الشعراء ، فإذا فى أذنيه وقر ، وفى مسمعيه صمم ، وإذا هو أسود جبلى ، استمد من الجبل غلظته ، وأخذ عنه خشونة طبعه ، وإن يكن ناعم للمس ، إذا عض مساوره عضه تساقط عنه جلده ، وتبدد منه لحمه ، يعيش ذلك الأسود فى سلوع الجبال ، وشقوق الصفا ، ينام نهاره ، ويصحو ليله ، فلا يبدو للشمس إلا قليلا ، فإذا مارآه الحاوى صديق الحيات ارتعد جسمه ، واصططكت أسنانه ، لأنه لم يرم قبله مثله ، ولا عرف له نظيرا ، فيملا قلبه الخوف ، ويستولى على فؤاده الرعب ، وإن كان هو الذى يخيف الأفاعى ، ويرعب الأسود .

هذا الثعبان مطوق العنق ، فكأن له فى عنقه حبلا صنع من جلده المنسلخ عنه ، وثوبه الأبيض الذى يخلمه بين الحين والحين ، لقد خلع سائر هذا الثوب عن ظهره ، ولم يبق منه إلا ما نطق به عنقه ، وهو كثير الرقاد فى الضحا إذ تسطع عليه أشعة الشمس فتسرى الحرارة فى جسمه ، وتذب الحياة المتدفقة بالسّم فى أجزائه ، فإذا أيقظه جرس ، أو نبهه صوت أخرج لسانه الأسود الذى يشبه فى شدة حليكه مكحال الأرمد ، الذى لا يفتأ يذّر به الكحل على عينه الرمءاء .

يقضى على النفوس ، ويقبض الأرواح فى مثل سرعة البرق ، أو ومضة الطرف ، قبل أن يبلغ الرائق برقيته غايته من الشفاء ، وقبل أن يبذل الطبيب لسليمه الدواء ، وسيان عنده بعدئذ أن يبرق الحاوى ويرعد ، وأن يتهدد ويوعد ، فقد قضى لبانته ، وبلغ غايته .

النقد :

ليست الأبيات من الناحية الفنية في قوة شعر عنتره ، حينما يصف الخليل أو الحرب ، فهي أولا غير مترابطة الأجزاء إذا تجاوزنا البيت الثاني ، فالشطر الأول من البيت الثالث لاتناسب بينه وبين الشطر الآخر ، فالشطر الأول يذكر فيه أن وطن ذلك الثعبان سلع صفا ولم يبد للشمس في حين أن الشطر الآخر « إذا مارآه صاحب اليم أرعدا » والعلاقة بين الشطرين معدومة أو تكاد ، وهذا نفسه يقال عن البيت الخامس .

أما الأسلوب فمستقيم واضح ، وإذا كان فيه جمال فإنه يستمد من البيت الثاني والرابع والسادس ، فالبيت الثاني استخدم في الشرط إذا المفيدة لليقين ، أي أنه يتبدد جلد من يلدغه إذا لدغ دون أن يرجى للملذوغ شفاء ، أو ينتظر له دواء ، وقد مهد لهذا الشرط بالوصف « أصم جبالي » .

وجمال البيت الرابع في وصف الثوب المنسلخ عن جلد الثعبان ، وأنه يتفرق عن سائر ماعدا عنقه ، وهي ملاحظة لا يتنبه إليها إلا أبناء التنايف والمفاوز .

وجمال البيت الأخير في قوله : يفيت النفوس فهو تعبير بليغ بإيجازه ؛ وفي استخدام إن الشرطية التي تفيد الشك فقد لا يبرق الخاوي ولا يرعد خشية أن تكون عاقبة الإبراق والإرعاد الثورة والعصيان ، وكذلك في ذلك الطباق الوهمي بين أبرق وأرعد .

وعلى أي فمئرة أقدر من يصف الأسود ، فله من صفاتها حظ أي حظ .

١١ — وقال عروة بن الورد العبسي * يصف الأسد :

تَبَغَّانِ الْأَعْدَاءُ إِمَّا إِلَى دَمٍ
وإِمَّا غَرَضُ السَّاعِدِينَ مُصَدَّرًا^(١)
يَظْلُ الْأَبَاءُ سَاقِطًا فَوْقَ مَتْنِهِ
لَهُ الْعُدُوَّةُ الْأُولَى إِذَا الْقِرْنُ أَصْحَرَ^(٢)

٤٤٧ : كَأَنَّ خُواتَ الرَّغْمِ رِزْزُهُ زَنْبِيرُهُ
مِنَ اللَّاءِ يَسْكُنُ الْعَرِينَ بِعَثْرًا^(٣)

* ترجمه الشاعر : هو عروة بن الورد بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن هرم العبسي ، شاعر فحل ، وفارس صنديد ، وصلوك معدود ، وجواد معروف ، كان يلقب بعروة الصعاليك لجمه إياهم ، وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم ، وقيل لقب بهذا اللقب لقوله :
لحى الله صعلوكا إذا جن ليله مصافى المشاش ألفا كل مجزر
قال عبد الملك بن مروان في حديث عنه : « ما سرنى أن أحد العرب بمن ولدني لم يلدني إلا عروة بن الورد » .

التفسير اللغوي : (١) تبغاني الأعداء : تبغى كابتغى : طلب وتمنى . إما إلى دم : إما إلى قوم أصبهم بدم ، فلهم عني ثأر . عراض الساعدين : عريض الساعدين ، وهى كناية عن موصوف هو الأسد . المصدر : من نعوت الأسد العريض الصدر .
(٢) الأباء : القصب واحده أباءة . المتن : الظاهر . العدوَّة الأولى : الوثبة الأولى . القرن : التنظير . أصحر : خرج إلى الصحراء للمبارزة .
(٣) الخوات : الصوت والدوى . الرزء : بضم الراء وكسرهما : المصيبة . العرين : بيت الأسد فى الأجمة . عثر : مأسدة قبل تبالة .

تحليل الأبيات .

تمنى أعدائي أن يثار منى سوامي ، وأن ينزل بي الحين من غيرهم ؛ لأنهم أضعف من أن يدركوا منى ثارا ، أو ينالوا منى ترة ، فإن لم يبلغوا هذه الأمنية فأمنيتهم الأخرى أن يلقي أسد غضنفر عريض الساعدين ، منبسط الصدر ، يسكن أجمة كثيفة الأشجار ، يغطي متنه قصبها ، ويستر ظهره أبواها ، فلا تتحرز منه قافلة ، ولا تحترس من فتكه جماعة ، فإذا برز منها إلى الصحراء كانت له الوثبة الأولى على عدوه فيدعه مجذلا .

هذا الأسد دوى صوته كدوى الرعد ، أو أن الرعد من زثيره ، وخواته رزه يصاب به سامعه ، فهو يكاد يصم الآذان ، وهو يسكن مأسدة عثر التي عرفت أسودها بالعرامة ، وشهرت بالشراسة والفظاظة .

النقد :

البيت الأول من هذه الأبيات الثلاثة جميل بإشاراته ، رائع بكفائاته ، إذ أشار الشاعر إلى أن أعداءه لا يتناولون إلى سمائه ، ولا يتسامون إلى مصاولته ومعاداته ، ففاية قوتهم أن يتمنوا أن يخلصهم الله منه بأعداء يقتلون به بعد أن قتل منهم ، أو بأسد قوى غشوم يستطيع أن يصصره ، فالبيت يجمع بين الفخر والهجاء والوصف ، وتلك قدرة أي قدرة ، والإيجاز لم يبعث فيه غموضا ، فالقارئ الموحية بالمعنى بارزة واضحة .

وكذلك البيت الثاني جميل ، وإن لم يبلغ جمال البيت الأول ، فقد وصف خلق الأسد وأنه يكن حتى يتمكن ، وحينئذ يثب وثبته فتكون القاضية ، والبيت الأخير أقل الأبيات جمالا ، فوصف صوته أنه كالرعد معنى تنقصه الطرافة ، وكذلك نسبته إلى مأسدة عثر ، وإن يكن أوحى بهذه النسبة إلى أنه ضيف جبار ، فإن القارى قد يحمل الوم إلى أن الشاعر اختار هذه المأسدة بالذات لتستقيم له القافية فحسب .

١٢ — وقال النابغة * يصف الحية أيضا :

صِلُّ صَفًا لَا تَنْطَوِي مِنَ الْقَصْرِ طَوِيلَةُ الْإِطْرَاقِ مِنْ غَيْرِ خَفَرٍ^(١)
 دَاهِيَةٌ قَدْ صَغُرَتْ مِنَ الْكِبَرِ كَأَنَّمَا قَدْ ذَهَبَتْ بِهَا الْفِكْرُ^(٢)
 ٤٥٠ : مَهْرُوتُهُ الشَّدَقِينَ حَوْلَاءِ النَّظَرِ تَفْتَرُ عَنْ عُوجِ جَدَادٍ كَالْأَبَرِ^(٣)

تحليل الأبيات :

وحية خبيثة عاتية تتخذ من الصخر الصلد لونا لها ؛ حتى لا يتبينها الراى ،
 ولا تلتوى على نفسها ؛ لقصر جسمها ، تطيل الإطراق ، وتمن في التهويم دون أن يكون
 إطراقها لحياء أو طأطأة رأسها لجل ، وإنما هو لاهتبال الفرصة ، والاستعداد للعدوة .
 وهى داهية دهياء ، ومصيبة نكراء قد طال أجلها ، فعظم خبيثتها ، وإن صغر جسمها ،
 حتى لكان كثرة الفكر هى سبب سقمها ، وأصل ضآلتها ، ولم لا ؟ أليست تفكر
 فى العدوان ، وتنطوى على الغدر والخيانة ؟
 وهى واسعة الشدقين حولاء العينين ، تفتح شديقها الأهرتين عن أسنان عوج حداد
 كأنها الإبر .

النقر :

أجاد النابغة وصف الحية حتى إنها لتخيف دون أن ترى ، فالصورة التى رسمها لها
 صورة نكراء ، وكذلك أبدع فى وصف خلقها فهى خبيثة داهية « طويلة الإطراق من
 غير خفر » .

وأسلوب النابغة هو أسلوبه الجميل الرائع ، العذب السائغ ؛ فالحية : « لا تنطوى من
 القصر » وهى « طويلة الإطراق » وهى « قد صغرت من الكبر » .

* ترجمه الشاعر : انظر ترجمته فى وصف الأوابد ص ١٥٤

التفسير اللغوى : (١) الصل : الحية الخبيثة جدآ ، الصفا : الحجر الصلد مفردة صفاة .
 الإطراق : إرخاء العينين إلى الأرض . الحفر : الحياء . (٢) داهية : مصيبة . ذهبت
 بها الفكر : كناية عن صفة هى السقم . (٣) مهروثة الشدقين : واسعة الشدقين .
 تفتت : تكشف . جداد : الجداد بالفتح والكسر صرام النخل .

نظرة في شعر الطبيعة الحية عند العرب

عرضنا فيما تقدم صوراً متنوعة لوصف الطبيعة الحية في الشعر العربي ، وقد تناولت هذه الصور أكثر ما خص الله به البيئة العربية من حيوان ، سواء في ذلك الأنس منها والمستوحش ، وإذا كنا قد تركنا من حيوان الجزيرة العربية بعضه ، فليس ذلك لأن الشعراء أهملوه ، وإنما لأننا لم نقصد استقصاء مآقالوه ، ولو قصدناه لبلغ الأمر منا حد الإطالة ، ثم إن بعض ما تناولوه بالوصف عبوه عبراً ، فلم يتجاوزوا فيه البيت أو البيتين أو الثلاثة ، وقد رمينا في هذا الكتاب إلى عرض نماذج كاملة وصور تامة ، إلى أن بعض هذا الذي تركناه ليس بذى أثر عظيم في حياتهم ، فاستمددنا قلة عنايتنا به من ضالة احتفالهم له ، فلم نذكر من الأوانس غير الناقة والفرس والكلاب ، وإن كنا قد ذكرنا الهر فقد جاء ذكره عرضاً لا عمداً ، وذلك لأن الهر ليس له عندهم من نفع ، وإذا كان فهو قليل لايؤبه له ، وإذا كان بينهم من وصف غير الناقة والفرس ففي بيت أو بيتين ، وذلك كقول امرئ القيس يصف المعز :

إذا مالم تكن إبل فعزى كأن قرون جلتها العصي

٤٥٢ : فتملاً يبتنا أقطاً وسمناً وحسبك من غنى شبع وري

ولكننا ذكرنا من الأوابد أكثر ما في بلاد العرب ؛ وذلك لأن الشعراء أكثروا القول في وصفها ، حسياً وعاطفياً وإن لم يرض قولنا هذا زعماء الأدب في هذا العصر ، وإلا فبإذا نفسر وصف متمم بن نويرة حزنه حين يشبهه بوجد الأظفار الروائم في قوله :

وما وجد أظفار ثلاث روائم أصبن مجراً من حواري ومصرعا

يذكرن ذا البث الحزين بيته إذا حنت الأولى سجعن لها ممعا

إذا شارف منهن قامت فرجعت حيننا فأبكي شجوها البرك أجمعا

٤٥٦ : بأوجد منى يوم قام لمالك مناد بصير بالفراق فأممعا

أليس هذا الشعر من أروع ما يمكن أن يكون عليه الوصف العاطفي ؟ وإن كان هذا الضرب من الوصف قليلا نادرا .

وتركنا القليل من حيوان الصحارى وأوابدها ؛ إما لأن الشعراء لم يعيروه اهتماما ، وإما لأننا لم نجد فيه الروعة التي تحملنا على اختياره وتحليله ونقده ، وإما لغير هذا وذلك ، لأننا رأينا من أوصافه ما يمكن أن يندرج تحت غيره ، أو لأننا وجدنا القدر الذى قيل لا يحتمل التحليل ، فلم نقف عند الضبعة لضالة شأنها عندهم ، وإن كانوا قد وصفوها ، من هذا قول متمم بن نويرة حين تذكر أنه سيموت ، وأن الضبع ستأكله دون أن يدفع عنه سيفه :

يا لهفَ مِنْ عِرفاءَ ذاتِ فَلَيْلَةٍ جاءتْ إِلَى عَلَى ثَلاثَ تَحْمَعُ
ظَلَّتْ تُراصِدُنِي وتَنْظُرُ حَوْلَهَا ويُرِيها رَمَقًا وَأَنَّى مُطْمِعُ
وتَظَلُّ تَنْشِطُنِي وتُلْجِمُ أَجْرِيَا وسطَ العَرِينِ وليسَ حَيٌّ يَدْفَعُ
٤٦٠ : لو كانَ سَيفِي بِالْيَمِينِ ضَرْبُهَا عَنِّي ، وَلَمْ أَؤْكَلْ وَجَنَبِي الْأُضْيَعُ

ومن هذا الذى لم نذكر أوصافه لأن غيره من فصيلته يغنى عنه الوعل ، وقد أجاد وصفه فى قصيدة رثاء المرقش الأكبر فقال :

لو كانَ حَيًّا نَاجِيًّا لَنَجَّيَا مِنْ يَوْمِهِ الْمَزَلُّ الْأَعْصَمُ
فِي بَازِخَاتٍ مِنْ عِمَايَةٍ أَوْ يَرْفَعُهُ دُونَ السَّمَاءِ خَيْمُ
مِنْ دُونِهِ بَيْضُ الْأُنُوقِ وَفَوْقُ فَهَ طَوِيلُ الْمَنَكِبَيْنِ أَشَمُ
٤٦٤ : يَرَقَاهُ حَيْثُ شَاءَ مِنْهُ وَإِذْ مَا تَنَسَّاهُ مِنْ مَنِيَّةٍ يَهْرَمُ

وسنورد بعد أن نعرض صوراً للطبيعة الساكنة صوراً للطبيعة المختلطة الجامعة بين المتحركة والساكنة ، لنكون قد بلغنا غاية ما نبغى من كمال لهذا الفن .

ولعل من الخير لنا أن نبدي ملاحظات عن الصور الكثيرة التي عرضناها للطبيعة الحية ، نلم بها إلما لتسكون مفتاحاً لمغاليق هذا الفن ، فيعبره من شاء أن يتبسط فيه :

١ — أكثر الصور التي أوردها الشعراء الجاهليون صور حسية خالصة ، والتقليل منها عاطفي متصل بالحسي ، وتعليل ذلك عندي هو أن كثرتهم كانت تعتمد على حواسهم أكثر مما تعتمد على إحساسهم الباطني ، وشعورهم الداخلي ، إلا في الرثاء فالعاطفة فيه متحركة .

٢ — أغلب هذه الصور واضح التصوير ، كامل التكوين ، وإذا وجدنا في خلال قراءتنا صوراً غير واضحة أو غير كاملة حكمنا بأن رغبتهم في الإيجاز ، وشفههم بالإكثار من الصور والمعاني هي سبب ذلك الغموض أو القصور .

٣ — كل شعرهم خال من التكلف ، فهو فطري كطبيعتهم ، صادق كفطرتهم ، بعيد عن الفلّو والمبالغة إلا قليلاً ، ومن أولئك الذين كانوا يعمدون إلى المبالغة المحدودة النابغة ، وقد ذكرنا ذلك عنه عند تحليلنا شعره .

٤ — كانوا يرسلون أنفسهم على سجيتهما فلا يرعون في أوصافهم ترتيباً ، وإنما يجيء كما يفد على خواطرهم ، فقد يبدؤون بالتأفة ، ويتركون الجليل الشأن ، وقد ينظرون إلى الذنب ويتركون الرأس ، لأن ذلك ورد على خواطرهم دون الآخر ، أو لأن له في نفس أحدهم شأنًا أقوى من شأن ذلك الذي أخره أو أهمله ، وعليك أن تنظر وصف طرفه لناقته لتؤمن بهذا الرأي ، فمع أنه لم يترك من دقائق أعضائها شيئاً فقد أهمل وصف سنامها ، مع أن السنام من أعظم أجزاء الناقة نفعا وقيمة .

٥ — تكاد معانيهم تتفق فيما يعرضون له ، وإن اختلفت الصور ، وذلك لأنهم — كما قدمنا — يعتمدون على الخواص أعظم الاعتماد ، فإذا قال الشنفرى في وصف أشداق الذئاب :

مُهْرَّةٌ فَوْهٌ ، كَأَنَّ شُدُوقَهَا شُقُوقُ الْعِصَى كَالْحَاتٍ وَبُسْلُ

قال علقمة بن عبدة الفحل :

فَوْهٌ كَشَقِّ الْعَصَا لَأَيَّا تَبَيَّنَهُ أَسْكُ مَا يَسْمَعُ الْأَصْوَاتَ مَصْلُومَ

وإذا قال النابغة الذبياني :

سَرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجُزَاءِ سَارِيَةٌ تَرْجِي الشَّمْلُ عَلَيْهِ جَامِدَ الْبَرْدِ
قال لبيد بن ربيعة :

بَاتَتْ وَأُسْبِلَ وَكَفَّ مِنْ دِيمَةٍ يُرَوِّى الْخِمَائِلَ دَائِمًا تَسْجَاهُهَا
وما قدمناه من ذلك التشابه يغنى عن عديد الأمثلة .

٦ — لبيتهم عليهم أعظم الفضل إذ استمدوا منها جميع صورهم وتشبيهاتهم ، وقد قدمنا الكثير من هذه الأنواع ، أليس صفاء سمائهم ، ورقابتهم نجومها وكواكبها هو الذى أوحى إلى أبى ذؤيب الهذلى قوله ؟

فَوَرَدَنَ وَالْعِثْقُ مَقْعَدُ رَائِي الضُّضُ ضَرْبَاءَ خَلْفَ النَّجْمِ لَا يَتَقَلَّعُ
وأليست طبيعة بلادهم ، وما فيها من نجاد ووهاد ، وصخور ورمال ، وجذب وخصب
هى التى هيات لامرئ القيس أن يقول ؟

يَلُودُ بِالصَّخْرِ مِنْهَا بَعْدَ مَا فَتَرَتْ مِنْهَا وَمِنْهُ عَلَى الصَّخْرِ الشَّايِبُ
ثم يقول :

يَظَلُّ مُنْجَجَرًا مِنْهَا يَرِاقِبُهَا وَيَرْقُبُ اللَّيْلَ ، إِنَّ اللَّيْلَ مَحْبُوبُ
وأن يقول زهير :

حَتَّى اسْتَفْأَنْتَ بِمَاءِ لَارِشَاءَ لَهُ مِنْ الْأَبَاطِحِ فِي حَافَاتِهِ الْبُرْكَ
مُكَلَّلٍ بِأَصُولِ النَّجْمِ تَنْسِجُهُ رِيحٌ خَرِيقٌ لِضَاحِي مَائِهِ حُبْكُ

٧ — كانوا حينما يصفون ينتقلون من المشبه إلى المشبه به ثم ينصرفون إليه ، ولا يعودون إلى المشبه ، وقد تقدمت لنا فى هذا الأمثلة الكثيرة فى الانتقال من وصف الناقة إلى وصف البقرة الوحشية ، ومن وصف الفرس إلى وصف الصيد والطرود أو العقاب أو سواها مما يشبهه الفرس فى عدوه وشده .

٨ — كان وصفهم لأوانس الحيوان ، أطول من وصفهم لأوابده لإلفهم إياه ، وعشرته

لهم ، ومقامه بينهم ، وعظم استفادتهم منه ، وكان نعتهم للناقة أحفل من وصفهم للفرس ، وقد عللنا ذلك قبل بأنهم كانوا ينظرون إلى القيمة النفعية للحيوان ، ولأنهم نظروا إلى الجمال والحسن دون غيره لكان وصفهم للفرس أكثر .

على أنهم ليسوا جميعا كذلك ، فالشعراء الفرسان احتفلوا بنعت الفرس أى احتفال ، ونظروا إليه نظرة الحب يرى في كل حركة من معشوقه حسنا وجمالا .

٩ — للتشبيه عندهم المنزلة الأولى بين ضروب البيان ، وأكثر ما يستخدمون من أدواته « كَان » فهى أول ما ينظرون إليه عند إرادة التشبيه ، على أنهم لجأوا إلى المجاز والاستعارة حيناً ، وإلى الكناية الجميلة ، والإيماء الطريف أحياناً ، فن الاستعارة قول الشنفرى :

فلما لواه القوتُ من حيث أمه دَعَا ، فأجابته نَظائرُ نُحُلْ
مُهَلِّلةٌ ، شيبُ الوجوه ، كأنها قِدَاحٌ بِكُنَى يَاسِرٍ تَحْقَلُ
ومنها قول عنتره :

له رِبْقَةٌ فى عُقْفِهِ من قَيْصِهِ وسائرُهُ عن مَتْنِهِ قد تَقَدَّدَا
ومن الكناية البليغة قول المرقش الأكبر :

نَبَذَتْ إِلَيْهِ حَزَّةً من شَوَائِنَا حَيَاءً ، وما غَشَى عَلَى من أَجَالِسُ
فَاضَ بِهَا جَذْلَانِ يَنْفُضُ رَأْسَهُ كَمَا آبَ بِالنَّهْبِ السَّكْمَى المَحَالِسُ
ومنها قول زهير :

أَهْوَى لَهَا أَسْنَعُ الحَدَّيْنِ مُطَرِّقٌ رِيَشَ القَوَادِمِ لم يُنْصَبْ لَهُ الشَّرْكُ
لَاشَىءٌ أَجْوَدُ منها وهى طَيِّبَةٌ نَفْسًا بِمَا سَوْفَ يُنْجِيهَا وَتَتَرَكُ

١٠ — كانوا يؤثرون فى هذا الفن بالذات الألفاظ الجزلة ، والكلمات الضخمة التى تستمد جزالتها من صخور صحاريهم ، وتنال ضخامتها من جلاميد جبالهم ، فإذا انصرفوا عن هذا الفن إلى سواه رقت الألفاظ ، ولانت الكلمات ، فاستمع إلى هذه الأبيات من قصيدة النابغة يصف بها الناقة :

فمَدَّ عِمَاتِي إِذَا ارْتَجَاعَ لَهُ وَأَنَّمِ الْقُتُودَ عَلَى عَيْرَانِهِ أُجْد
مَقْدُوفَةً بِدُخَيْسِ النَّخْضِ بَارِئَهَا لَهُ صَرِيفٌ صَرِيفُ الْقَعْوِ بِالسَّد
كَأَنَّ رَحْلِي وَقَدْ زَالَ النَّهَارُ بَنَا يَوْمَ الْجَلِيلِ عَلَى مُسْتَانِسٍ وَحِدِ
مِنْ وَحْشٍ وَجَرَةٍ مُوْتِيٍّ أَكَارَعُهُ طَاوَى الْمَصِيرِ كَسِيفِ الصَّيْقَلِ الْقَرْدِ

فإذا ما انتقل إلى غير ذلك الفن رق وعذب ، فقال :

فَتَلَكْ تَبْلُغُنِي النِّعَانِ إِنِّ لَهُ فَضْلًا عَلَى النَّاسِ فِي الْأَدْنَى وَفِي الْبَعْدِ
وَلَا أَرَى فَاعِلًا فِي النَّاسِ يُشَبِّهُهُ وَلَا أَحَاتِي مِنَ الْأَقْوَامِ مِنْ أَحَدِ
إِلَّا سَلِيمَانَ إِذْ قَالَ الْإِلَهِ لَهُ : قُمْ فِي الْبَرِّيَّةِ فَاخْذُذْهَا عَنِ الْفَنَدِ
٤٦٨ : وَخَيْسَ الْجَنِّ إِنِّي قَدْ أَذِنْتُ لَهُمْ يَبْنُونَ تَدْمِرُ بِالْصَّفَّاحِ وَالْعَمَدِ

١١ — كانوا يؤثرون مطالع القصائد وأوائلها بهذا الفن ، فهم إذا أرادوا الغزل بدعوا بوصف الأطلال ، ومنهم القليل الذي يعدو وصف الأطلال إلى النسيب ، وهذا قلما يطيل في نسيبه ، وهاك المثال :

بَانَتْ سَعَادُ فَأَمْسَى الْقَلْبُ مَعْمُودًا وَأَخْلَفَتْكَ ابْنَةُ الْحَرِّ الْمَوَاعِيدَا
كَأَنَّهَا ظَبْيَةٌ بَكَرَتْ أَطَاعَ لَهَا مِنْ حَوْمِلٍ تَلَعَاتِ الْجَوِّ أَوْ أَوْدَا
قَامَتْ ثُرَيَّا غَدَاةَ الْبَيْنِ مُنْسَدِلًا تَخَالُهُ فَوْقَ مَتْنِهَا الْعِنَاكِيدَا
وَبَارِدًا طَيِّبًا عَذْبًا مُقْبَلُهُ مُحَيِّفًا نَبْتَهُ بِالظَّلْمِ مَشْهُودَا
٤٧٣ : وَحَرَّةٍ حَرَجٍ تَدْمِي مَنَايِمَهَا أَعْمَلْتُهَا بَنِي حَتَّى تَقْطَعَ الْبِيدَا

١٢ — قلما تخلو قصيدة من الوصف بمعناه الخاص أى وصف الطبيعة الحية أو الهامدة ، وقد مرنا أجزاء من الوصف هي بعض قصائد الباعث عليها الرثاء ، وفي ذلك الدليل على عنايتهم به ، والحجة على احتفالهم له ، وأنه يكاد يبلغ ثلث شعرهم ، وقد قدمنا في الفصول ما يثبت ذلك .

١٣ — كانوا يسمون الأشياء بأسمائها مهما تسكن تلك الأسماء مستهجنة مستقبحة ،

ولا يعدلون إلى السكناية لأنهم لا يعدون ذلك خروجاً على الآداب ، ولا مجافاة للأذواق السليمة ، وليس عليهم في ذلك عاب ، فإن الذي يحملنا الآن على السكناية والإيماء والإشارة عاملان : الدين الذي أدبنا بأدب القرآن ، وأخذنا بأسلوبه العفّ الرفيع ، والمدنية التي علمتنا التحرز في الأقوال دون التحفظ في الأعمال .

وقد تجنبنا عرض شعر فيه الصريح من هذه الألفاظ ، بل قد عدلنا عن نماذج بالغة الروعة تجنبنا لهذه الصراحة المقيمة في هذا العصر .

١٤ — قل الوزن القصير في شعر العصر الجاهلي ، ولعل من أبرز الدوافع إلى اختيار البحور الطويلة فنّ الوصف ، لتكون الصور التي يصورونها كاملة التكوين في البيت ؛ إذ أنهم كانوا يكرهون التضمين ، ولا يعدون إليه إلا مضطرين ، ومعلقة عبيد بن الأبرص - وهي من مخلع البسيط ، وبعضها مضطرب الوزن - على الرغم من روعة بعض صورها منظور فيها إلى تلازم بعض الصور لبعض ، وإن لم يكن ذلك تضميناً ، فانظر إلى قوله :

فَأَذَرَ كَتَمَهُ فَطَرَحَتْهُ وَالصَّيْدُ مِنْ تَحْتِهَا مَكْرُوبُ
فَجَدَلَتْهُ فَطَرَحَتْهُ فَكَدَحَتْ وَجْهَهُ الْجُبُوبُ
يَضْغُو وَخَلْبُهَا فِي دَفْعٍ لَا بُدَّ حَيْرَومِهِ مَنقُوبُ

١٥ — لم يلبثوا إلى الزخرفة اللفظية متمعدين ، ولم يريدوها متكفين ، ولكن ذلك لا ينفي أنهم جعلوا أساليبهم بالطباق ، وبغير الطباق مثل قول امرئ القيس :

مِكْرٌ مِفْرٌ ، مُقْبِلٌ مُذْبِرٌ مَعَا كَجَلَمُودٍ صَخْرٍ حَطَّةِ السَّيْلِ مِنْ عَلٍ

ومثل قول الشنفرى :

مُهِرَّةٌ فَوْهُ ، كَأَنَّ شُدُوقَهَا شُقُوقُ الْعِصَى كَالْحَاتٍ وَبُسْلُ

وقد لفتنا النظر إلى كثير من تقسيماتهم التي تروع بحسنها ، وتخلب بفنها ؛ مثل :

وَأَغْضَى وَأَغْضَتْ ، وَأَتَسَى وَأَتَسَى بِهِ مَرَامِيلُ عَزَّاهَا ، وَعَزَّتُهُ مَرِمْلُ
شَكَاءَ وَشَكَتْ ، نَمِازَعَوَى بَعْدُ وَارَعَوْتُ وَلِلصَّبْرِ إِنْ لَمْ يَنْفَعِ الشَّكْوُ أَجْمَلُ
وَفَاءٌ وَفَاءَتْ بَادِرَاتٍ وَكُلُّهَا عَلَى نَكْظٍ مِمَّا يُكَاتِمُ مَجْمَلُ

وبعد فهذه نظرة لنا بعدها نظرة أخرى في نهاية الكتاب إن شاء الله .

الفصل السادس

الطبيعة الساكنة

الطبيعة الساكنة تنظم جميع الأشياء التي يجري فيها ماء الحياة في السماء والأرض ، فتشمل أجرام السماء وأفلاكها ، ونجومها وكواكبها ، وسحبها وغيوثها ، ورعودها وبروقها ، كما تشمل صحارى الأرض ورياضها ، ووهادها ونجادها ، وجديها وخصبها ، وبحارها وأنهارها ، وكل ما تبتكره عقول العلماء ، وتصنعه يد الإنسان .

وإذن فإنها تنقسم إلى قسمين : الظواهر الطبيعية ، والآثار الإنسانية .

الطبيعة الساكنة عند العرب :

لم يول العرب الطبيعة الساكنة العناية التي أولوها الطبيعة المتحركة ، وليس ذلك معناه أنهم قصرُوا فيها أو صدوا عنها ، فإن لهم في تصويرها ونعتها ما يخلد به أدب أى أمة فى أى عصر ، ولكننا نقيس هذه بتلك فحسب .

كانت حياة العرب قائمة على الانتجاع والارتحال ، والتحمل والانتقال سعياً وراء الكلاً ، وبحثاً عن الماء الذى ينبت الكلاً ، فيقيمون حيث يحلون خيامهم ، وينصبون أنافيتهم ، ويوقدون نيرانهم ، ويحتمع فتيانهم بفتياتهم ؛ إذ لم يكن هناك حجاب مضروب ، ولا شرك منصوب ؛ فالقلوب - فى أغلب أمرها - نقية ؛ والنفوس سامية عن الصفات رابية ، فتنشأ صلات ودوحب ، أكثره حب عفيف عفيف ، وبعضه حب ماجن هازل ، ثم يكون عود إلى الأوطان بعد أن جف الزرع ، وامتلأ الضرع ، واشتد القيظ ، ورمضت الأرض ، فيذكر الشعراء تلك الساعات السعيدة ، والذكرى تهيج لذى الهوى ، يذكرون ما كان بينهم من لقاء وفراق ، وقرب ونأى ، ثم يصفون الأماكن التى نزلوا بها ،

والديار التي رحلوا عنها ، والملاعب التي لعبوا فيها ، ويبكون الأطلال التي خلفوها ، والآثار التي تركوها ، يصلون هذه النعوت بالنسيب ، ويربطون الوصف بالنسيب ، وقل أن تجد نسيبا ليس مسبوqa بوصف للأطلال ، ومشفوعا بوصف للظعان ^{في الحالة} .
لذلك كان وصف الأطلال أهم أوصاف الطبيعة الساكنة ، وأكثرها في شعرهم تناول ، وقد يدفعهم الشوق إلى الحبيب ، والوله بالمعشوق إلى وصف الليل وطوله ، والسهد وأثره ، والنجوم ووقوفها ، والشهب وثباتها .

وإذن فإننا نستطيع أن نحكم بأن النسيب ، وهو من الأغراض الأولى في الشعر العربي كان أحد بواعث وصف الطبيعة الساكنة .

والعرب يعيشون على الغيث ، فهو منبت كلهم ، وباعث زروعهم ، وحياة ضرعهم ، بل الغيث حياة بلاد العرب ، إذ ليس فيها أنهار جارية ، ولا عيون ثور ، فإذا ومض البرق ، أو قصف الرعد ، أو سقط الغيث ، أو كسا السحاب السماء عباة السوءاء آذنتهم السعادة ، وواتاهم رغد العيش ، ففاضت قرايح الشعراء ، وجرت خواطرهم بنعت هذه الظواهر ، فكان وصفهم لها أقوى من وصف مظاهر الأرض عدا الأطلال .

أما وصف الصحراء ، وما تشتمل عليه ، وما يظهر فيها فإنه يحجى تبعا لوصف الطبيعة الحية التي تسكن الصحارى ، وتعيش في التنايف ، فهم يصفونها حينما يعرضون لوصف حيوانها ، فيصفون امتدادها ، أو رمالها ، أو سرابها ، وقد يصفون جوها : بردها وحرها في أبيات قليلة ، ومعان محدودة .

ولأن بلاد العرب ليس فيها أنهار ولا بحار ، فوصف هذين القسمين من أقسام الطبيعة الساكنة ضئيل أو يكاد يكون معدوما إلا إذا جاء عارضا ، كوصف الليل بموج البحر ، أو كوصف نهر الفرات في شعر النابغة ، وقد كان من الشعراء الرحالين ، أو النيل في شعر الأعشى .

فإذا ما انتقلنا إلى وصف الآثار الإنسانية ألقيناهم أو ألقينا أكثرتهم أهل قصف وبحون ، ولهو وعبت ، فرأينا الخمر أهم ما عنوا به من وصف هذه الآثار ، يصفونها ، ويصفون

كثوسها ، ويصفون سقاتها ، وندمانها ، بل يصفون آثارها في شاريها ، ويولونها
الحظ الكبير من العناية والتقدير .

والعرب شعب حربي أوتي أبناؤه صلابة وجلدا ، وعرامة وعزما ، ومنحتهم يئسهم
شراسة ونخوة ، وحرية ومروءة ، فهم لا يقيمون على ضيم ، ولا يرضون بالهون ، فلا تهدأ
سواكنهم ، ولا تخمد خواطرهم ، فغروبهم مشتتة ، وغارات بعضهم على بعض متصلة ،
وأيامهم متلاحقة ؛ وعدوانهم على جيرانهم مستمر ؛ فلا غرو أن يصفوا أسلحتهم ؛ وأن
يتغنوا بعنادهم ؛ بل أن ينسبوا إلى أوطانها ؛ أو إلى صياقلتها ومثقيها اعتزازا بها ؛
وافتخارا بصنعها .

ولا غرو كذلك أن يصفوا الجيوش وكثرتها ؛ والأبطال وأيامها ؛ والحروب وآثارها ؛
سيان في ذلك من يدعو إليها ؛ ومن يفر منها .



٢ - وقال زهير بن أبي سلمى * في مطلع معلقته :

أَمِنْ أُمٍّ أَوْفَى دِمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ بِحَوْمَانَةِ الدَّرَاجِ فَلَمْتَلَمَّ؟ (١)
 ودار لها بالرقمتين كأنها مَرَّاجِعُ وَشَمٍّ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ (٢)
 بها العينُ والآرامُ يمشينَ خِلْفَةً وَأَطْلَاوْهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْمَمِ (٣)
 وقفتُ بها من بعد عشرينَ حِجَّةً فَلَايَا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوْهَمِ (٤)
 أَنَا فِي سَفْعَا فِي مُرَّسٍ مَرَجَلٍ وَنَوَئَا كَجِذْمِ الْحَوْضِ لَمْ يَتَلَمَّ (٥)
 ٤٨٥ : فَلَمَّا عَرَفْتُ الدَّارَ قُلْتُ لِرَبْعِهَا أَلَا نَعَمَ صَبَاحًا أَيُّهَا الرِّبْعُ وَأَسْلَمِ (٦)

* ترجمه الشاعر : انظر ترجمته في وصف الناقة ص ٨٨ .

التفسير المفرد : (١) أم أوفى : زوج زهير طلقها ، وأراد مراجعتها فأبت ، فكان يذكرها في شعره . الدمنة : ما اسود من آثار الديار . لم تكلم : لم تتكلم ، وترد على من يخاطبها . الحومانة : الأرض الغليظة . الدراج فالتلم : موضعان بالعالية . (٢) بالرقمتين : بين الرقمتين ، والرقمتان إحداها قرب البصرة ، والأخرى قرب المدينة ، وهما متباعدتان . مراجع : أو مراجيع جمع مرجوع وهو المحدد . الوشم : الفرز بالإبر حتى يسيل الدم ، ثم يذر عليه السكل ليسود . النواشر : جمع ناشرة عروق المعصم . والمعصم : موضع السوار من اليد . (٣) العين : جمع عيناء ، وهى البقرة الوحشية الواسعة العينين . الآرام : الظباء الخالصة البياض : خلفه : متتابعة يخلف بعضها بعضا . الأطلاء : جمع طلا وهو ولد الظبي . مجمم : مكان الجثوم . والجثوم : التلبد بالأرض . (٤) بها : بالدار أو يقصد بمكانها إذ هى قد زالت . حجة : سنة . فلايا : فجهداً ومشقة . بعد توهم : بعد تفرس وطول تأمل . (٥) أنافى : جمع أنفية ، والأنافى ثلاثة أحجار توضع عليها القدر ، ويقال : رماه الله بثلاثة الأنافى أى بدهاية عظيمة كالجلجل ، لأنهم كانوا إذا لم يجدوا أنفية جعلوا الثلاثة الجبل يسندون عليه القدر . المعرس هنا : موضع الرجل ، والأصل مكان النزول ليلا . النوى : حاجز من تراب يرفع حول البيت لئلا يدخله الماء . الجذم : الأصل . لم يتلم : لم يتهدم . (٦) الربع : مكان الإقامة في فصل الربيع ، ثم أطلق على كل منزل . انعم صباحا : طب صباحا ، ومثله عم صباحا وتقدير الماضى منه وعم يعم ولا ينطق به ، وكان دعاء للملوك ، ويغنى الدعاء بالصباح ، لأن الفارات كانت تبدأ صباحا . اسلم : من النكبات والنوازل .

تحليل الأبيات :

أمن دمن زوجي الغالية التي قلتني عن حب ، وهجرتني عن ودّ ووجد ، دمنة أسأها
فلا تحيب سؤلى بعد طول العهد ، وأناجيتها فلا تبادلني النجوى مع حرقة البعد ؟ تلك
الدمنة في حومانة هذين الموضعين .

كان لأم أوفى أكثر من دار ، فلها أخرى بين الرقتين : رقتى البصرة والمدينة ،
قد انمحت أعلامها ، ودرست آياتها ، فصارت الرسوم والآثار بعد أن جرى عليها السيل
والطر كالوشم المجدد في عروق المعصم ، بعد أن كانت تحمل هذه الدار الزوجة الغالية ، والحبيبة
الغانية صارت مرتع البقر الوحشى الواسع العيون ، والآرام الخالصة البياض ، ينتقلن فيها
من مكان إلى مكان ، ويتبع بعضها بعضا من مناخ إلى مناخ ، وأطلاء هذه البقرات
والظليبات ينهضن من مجاثمن مرحات نشيطات . وقفت على تلك الدمن أتعرف موطن
الحبيبة ، وأتبين دار القاتنة الغالية بعد فرقة طالت دون أن أنسى ذكرها ، إنها فرقة
عشرين عاما ، فبعد جهد ومشقة ، وطول تفرس وتأمل عرفت موقع الدار ، وموطن الأحباب .
ماذا رأيت ؟ رأيت أنافى سودا ، قد اختلطت الحمرة بسوادها في مكان للرجل منها ،
وتبينت النوى الذى كان يحجز عنها الماء عندما يفيض السيل ، كأنه أصل الحوض لم يتهدم ،
وإذ كانت هذه الأشياء هي التي دلتني على آثار الدار ، فقد أخذت أدعو لها بالخير والسلام .

النقر :

بدأ زهير قصيدته بذلك الاستفهام التحسرى ، فكان قويا في مطلعه ، وإن ضاقت
ألفاظ البيت عن معناه ، وفي بيته الثانى أشعرنا أن أم أوفى من ذوات الثراء والسراء ، فلها
أكثر من دار تنتقل فيها كلما أرادت النقلة ، وكذلك جاءت ألفاظ البيت أضيق من معناه ،
وإن تسكن الصورة التي صور بها فعل الأمطار والسيول في ذلك المكان صورة واضحة ،
دلت فيما دلت على أن عادة الوشم عادة بعيدة القدم ، وأوضح من هذه الصورة وأجل ،
الصورة في البيت الثالث فهي صورة كاملة لا ينقصها من أسباب الحسن والجمال شيء ، أما
الصورة في البيت الخامس فصورة غير دقيقة وإن حاول الشاعر أن يهب لها الدقة بذلك
الاحتراس في آخر البيت ، ولم يفت الشاعر أن يدعو للدار بالنعمى ، وأن يتمنى لها السلامة
من الغارات والتكبات .

٣ - وقال لبيد بن ربيعة العامري * في مطلع معلقته :

عفت الديار محلها فقامها بمنى تأبّد غولها فرجامها^(١)
مدافع الريان عرّى رسمها خلقاً كما ضمن الوحي سلامها^(٢)
دمن تجرم بعد عهد أنيسها حجج خلون حلالها وحرامها^(٣)
رُزقت مرايع النجوم وصابها ودق الراعد جودها فرهامها^(٤)
من كل سارية وغادر مدجن وعشية متجاوب إرازامها^(٥)
٤٩١ : فعلا فروع الأبهقان وأطفلت بالجلهتين ظباؤها ونعامها^(٦)

* ترجمه الشاعر : انظر الترجمة في وصف الأوابد ص ١٤٦ .

- التفسير اللغوي : (١) عفت الديار : درست وزالت معالمها . المحل : الموضع يحل به القوم أياما ، ثم يرتحلون . المقام : ما طالت الإقامة به فهو ضد المحل . منى : موضع في ديار بني عامر . غولها فرجامها : موضعان . تأبّد : توحش .
- (٢) مدافع : مجارى السماء جمع مدفع بفتح الميم . الريان : اسم جبل . الخلق : البالى . الوحي : الكتابة ، وجمعه بضم الواو . سلامها : حجارتها جمع سلمة .
- (٣) دمن : جمع دمنة ما اسود من الآثار . تجرم : انقض بتمامه . حجج : سنوات . خلون : مضين . حلالها وحرامها : أشهر الحل والحرم .
- (٤) مرايع النجوم : الأتواء الربيعية مفردة مربع . الودق : المطر . الجود : الغزير من المطر . الرهام : المطر اللين .
- (٥) السارية : السحابة الممطرة ليلا . الغادى : السحاب للمطر غدوة . المدجن : السحاب المطبق يغطى آفاق السماء . الإرزام : الصوت ، ويقصد صوت الرعد .
- (٦) الأبهقان : نبت يطول عريض الورق أحمر الزهر يؤكل واحدة أبهقانة ، أو هو الجرجير البرى . أطفلت صارت ذوات أطفال . الجلهتان : منى الجلهة وهى جانب الوادى .

والعينُ ساكنةٌ عَلَى أَطْلَافِهَا عُوْذًا تَأْجِلُ بِالْقَضَاءِ بِهَامِهَا^(٧)
 وَجَلَّ الشَّيْوَلُ عَنِ الطَّلُولِ كَانَتْهَا زُبُرٌ تَجِدُ مُتَوْنَهَا أَقْلَامُهَا^(٨)
 أَوْ رَجَعُ وَاشْمَةِ أَسْفَ تَنْوَرُهَا كَيْفَ تَعْرِضُ فَوْقَهَا وَشَامُهَا^(٩)
 ٤٩٥ : فَوْقَتْ أَسَافَهَا ، وَكَيْفَ سُؤَالُنَا صَمًّا خَوَالِدَ مَا يَبِينُ كَلَامُهَا^(١٠)



- (٧) العين : البقر الوحشي الواسع العيون ، مفرد لها عيناء . الأطلاء : أولاد البقر الوحشي . العوذ : جمع عاوذ الحديثة النتاج . تأجل : تصير آجلا جمع إجل ، وهو القطيع من بقر الوحش . البهام : جمع بهمة بفتح الباء ولد الضأن ، والمقصود هنا ولد البقرة الوحشية .
 (٨) جلا : كشف . زبر : جمع زبور الكتاب . تجد : تجدد . المتون : الظهور جمع متن .
 (٩) الرجع : التردد . أسف ثورها : ذركلها . الكفف : جمع كفة . تعرض : ظهر .
 الوشام : الوشم .
 (١٠) الصم . الصلاب الواحد أصم . خوالد : بواق . الدارات .

تحليل الآيات .

عفت ديار أحبابي ومحيت آثارها ، لافرق بين ديار يحل فيها للاستراحة والاستراحة ، ثم يرحل عنها ، وبين ديار يقام فيها ، ويطول السكن إليها ، تلك الديار بمنى قد توحشت وتوحش مايجاورها ، فتوحش غولها ورجامها ومجارى المياه في جبل الريان ، عرت رسمها السيول ، وكشفت آثارها الأمطار ، حتى أصبحت تلك الرسوم بالية ، وهذه الآثار خلقة ، وإن كان لا يزال للرسوم بقية ضئيلة تشبه الكتابة فوق الأحجار .

هذه الدمن السود اتقضى عليها من يوم رحيل أهلها عنها حجج كثيرة ، وسنوات عدة ، اشتملت هذه وتلك على الأشهر الحل والحرم ، وهذا تأكيد للمعنى ، إذ السنة الواحدة تشتمل عليهما ، ولقد رزق الله تلك الآثار من أنواء الربيع المطر الغزير ، الذى يصحبه الرعد القاصف ، فأمرعت تلك الحلة وأعشبت ، وكيف لا تفرح وتعشب ، والأمطار تنسكب عليها بالليل والنهار ، فى المساء والصباح ، تتجاوب رعودها ، ويتسامع الناس قصفها ، فاستطال النبات ، وأطلقت الطيلاء ، وباض النعام فأفرخت فى جانبي الوادى ، إذ خلا المكان من السكان ، فأمن على أطفالهن وفرادهن ، والأبقار الوحشية ساكنة إلى أطلالها ترضعها ، إذ هى حديثة عهد بالنجاج ، وأولادها تصبح قطعانا فى تلك الفلاة التى أصبحت مرتع الأوابد بعد أن كانت مرتع الأوانس .

وكان من آثار هذه الأمطار الغزيرة ، والسيول المنهمرة أن كشفت السيول عن تلك الطلول ، التى غطاها التراب ، حتى لكأنها كتب خفيت سطورها لطول عهد كتابتها ، فجاء كاتب فجدها بأقلامه ، أو كان هذه السيول فى كشفها الآثار امرأة واشمة عمدت إلى وشم قد وهى أثره فى اليد ، وضعف ظهوره ، فأعادته بالفرز وبذر السكل عليه ، فعادت داراته واضحة كما كانت .

وقفت أنفرس هذه الرسوم وأتأملها ، ثم أخذت أناجيها وأسألها ، وكيف لى بمناجاة الصم الصلاب ؛ وكيف بمساءلة أحجار لا يبين كلامها ، ولا يظهر حديثها ؟ أسأل من لا يجيب عن أولئك الأحباب ؟ أناجى من لا يبين بحديث الحب والشوق ، والوجد والهوى ؟ إن الوجد يذهل العقل ، وإن الهوى يسلب اللب .

النقد :

ألقى الشاعر الخبر دون تأكيد كأن المخاطب مؤمن بصدقه ، موقن بصحة حديثه ، لذلك كان هذا الخبر أوثق من الإنشاء حديثاً ، وزاد الكلام حسناً ذلك التفصيل بعد الإجمال ، محلها مقامها ، وغولها فرجامها ، وإذن فالببيت الأول قوى كل القوة ، وتشبيهه ما بقى من الآثار بما بقى من الكتابة فوق الأحجار تشبيهه بدبع غريب على الشعر العربى لم نقرأه لشاعر آخر غير لبيد ، قرأنا تشبيه زهير وطرفة وهما :

ودار لها بالزمتين كأنها مراجع وشم في نواشر معصم
نخولة أطلال ببرقة شهمد * * * تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
وقد أورد هو هذا المعنى في قوله .

أورجع واشمة أسف ثورها كففا تعرض فوقهن وشامها
أما البيت الثالث :

دمن تجرم بعد عهد أنيسها حجاج خلون حلالها وحرامها
فيشبهه قول زهير :

وقفت بها من بعد عشرين حجة فلاياً عرفت الدار بعد توهم
وبيت زهير أجمل ، وعندى أن « حلالها وحرامها » حشولاً أن كل سنة تشتمل على هذه الأشهر ، وجعل منه ذلك الطباق « من كل سارية وغاد مدجن » أو ذلك التقسيم في البيت نفسه :

من كل سارية وغاد مدجن وعشيرة متجاوب إرزامها .
إن هذه الأبيات أوفى معانى ، وأكثر صوراً ، وأدق تصويراً من قطعتى امرئ القيس وزهير ، ولعل ذلك أنه كان أشد منهما تأثراً بموضوعه ، ولولا بمض كلمات فيها ثقل كقوله : الأيهقان ، وبالجلهتين ، واجتماعهما في بيت واحد لقلنا إنه بلغ غاية الكمال .

٤ — وقال النابغة الذبياني في مطلع معلقته :

يادَارَ مِيَّةَ بالعِلياءِ فَالسَّنْدِ أَقَوْتُ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَمَدِ (١)
وَقَفْتُ فِيهَا أَصِيلًا لَا أُسَالُهَا عَيْتُ جَوَابًا، وَمَا بِالرَّبْعِ مِنْ أَحَدِ (٢)
إِلَّا أَوَارَى لَأَيًّا مَا أَبَيْتُهَا وَالنُّوَى كَالْحَوْضِ بِالْمَظْلُومَةِ الْجَلْدِ (٣)
رَدَّتْ عَلَيْهِ أَقَاصِيهِ وَلَبَّدَهُ ضَرَبُ الْوَلِيدَةِ بِالْمِسْحَاةِ فِي الثَّأْدِ (٤)
خَلَّتْ سَبِيلَ أَتَى كَانَ يَحْبُسُهُ وَرَفَعَتْهُ إِلَى السَّجْفَيْنِ فَالْتَضَّدِ (٥)
٥٠٦: أَضَحَتْ خَلَاءً، وَأَضْحَى أَهْلُهَا احْتَمَلُوا أَخْنَى عَلَيْهَا الَّذِي أَخْنَى عَلَى لَبْدِ (٦)

ترجمه الشاعر : انظر ترجمته في وصف الأوابد ص ١٥٤ .

التفسير اللغوي : (١) مية : اسم محبوبته . العلياء : مكان مرتفع من الأرض . السند : ما قالك من الوادى ، وعلا من السفح . أقوت : أفقرت من أهلها . سالف الأمد : ماضى الدهر . (٢) أصيلا : الأصيل الوقت قبيل للغرب ، وأصيلا البدل ، إذ تصغيره على أصيلان ، فأبدل بالنون اللام ، وأصيلان أصلها إعلان الذى هو جمع أصيل كـ رغيف ورغفان ، وخطوا من قال بهذا ؛ لأن الجمع لا يصغر إلا إذا كان من جموع القلة ، وهى :

أفعلة أفعّل ثم فعله ثم أفعال جموع قلة

وقالوا بل هو مصدر مثل التكلان والغفران . عيت : عجزت .

(٣) الأوارى : مفردا آرى ، وهو معلق الدابة وعبسها . لآيا : جهدا ومشقة . أبينها : أستبينها . النوَى : الحاجز من التراب يجعل حول البيت والحيمة ليمنع وصول السيل . الظلم : وضع الشئ فى غير محله ، والمظلومة : الأرض التى قد حفر فيها فى غير موضع الحفر . الجلد : الأرض الغليظة الصلبة من غير حجارة . (٤) أقاصيه : جمع أقصى ، وهو ما بعده ، وضده أدنى . لبده : ألصق التراب بعضه ببعض . الوليدة : الخادم الشابة . الثأد : المكان الذى التراب . (٥) خلّت : تركت . الأتى : السيل يأتى من بلد إلى بلد . يحبسه : يمنعه . السجفين : مثنى سجف ، وهو الستر يكون فى مقدم البيت . التضد : ما تضد ونسق من متاع البيت .

(٦) أمست : يريد صارت . خلاء : خالية من السكان . احتملوا : ارتحلوا . أخنى عليها . غيرها وأفسد آياتها . لبّد : آخر نسور لقمان بن عاد ، وهو غير لقمان الحكيم الوارد فى القرآن الكريم ساء لبدا لأنه ظن أنه أبّد فلا يموت ، ولا يذهب ، وزعموا أنه حين كبر ، قال له : انهض لبّد فأنت نسر الأبّد .

تحليل الأبيات :

يناجي الشاعر الديار ، ويتمنى أن تشاطره المناجاة ، تلك الديار الواقعة بين العلياء
فالسند ، أقفرت من أهلها ، وطال إققرارها ، وبعد العهد بسكانها ، لقد وقفت في رسوم
هذه الديار ساعة الأصيل ، وقد تراجعت في نفسى الذكريات ، وتجاوبت العواطف والأفكار ،
وقفت أسائلها عن الأحباب الذين كانوا يسكنونها ، والأصدقاء الذين تساقينا وإياهم كثر
الهوى ، فلم تحر جوابا ، فعجزت عن التعبير ، وكيف تعبر وقد خلت من الأنيس ؟
ليس في رسوم هذه الدار إلا محابس الدواب ومعالف الحيوان ، وحتى هذه لا يكاد
الرأى يتيقنها ، وإلا النوى الذى كانوا يقيمونه مانعا للسيل ، فهو كالحوض فى الأرض
الصلبة الصماء ، لبد ترابه ، حتى يستقر بمضه على بعض .

خلت الخادم السبيل للسيل المنهمر ، والأنى للنسكب الذى كان ذلك النوى يحبس عنه
الدار ، وبلغ سجفا البيت ، بل تجاوزها إلى متاعه المنضد ، وأساسه المنسق ، فليس ما يدعو
إلى حجز الماء عنها ، فقد أفضت خالية من قاطنيتها الذين احتملوا عنها ورحلوا منها ؛ فغيرها ،
وأذهب آياتها القادر على تغيير كل شيء ، وإزالة آثار كل حى ، «أخنى عليها الذى أخنى على لبد»

الفقر :

الناطقة فى هذه الأبيات دون قدره ، وقد دفعه الإيجاز إلى تحميل شعره معانى أكثر
مما تحتمل ، فقد نادى الدار ثم لم يذكر سبب النداء ، إنه يريد أن يتحدث إليها عن
حبيبته ، أين ذهبت بها الأيام ؟ وكيف كان حالها عند احتماها ؟ إلى آخر هذه المعانى التى
ترد بخاطر من يريد إلى الدار خطابا ، وكأنى بالناطقة ناقض نفسه ، فقد نادى الدار ، وأخذ
يسألها ففيت بالجواب ، وما بال ربع من أحد ، فهو يعلم هذا قبل سؤالها إذ يقول :

« أقوت وطال عليها سالف الأمد » وإذن فما كان ينتظر الجواب من السكان بل من
الدار ، والأبيات الثلاثة الأخيرة ليس فيها جمال إلا ذلك الذى يدل على شرفه وسرته ،
فالوليدة تضرب بالمسحاة فى الثأد ، ورفعته إلى السجفين ، وليس كل الناس لديارهم
سجوف ، والشطر الأخير جماله أنه جرى مجرى المثل .

٥ — وقال المرقش الأكبر* من قصيدة أولها :

هل تعرف الدارَ عفا رسمها إلا الأثافي ومبني الخيم^(١) ؟
 أعرفها داراً لأسماء فالد دمع على الخدين مسح سجين^(٢) ؟
 أمست خلاء بعد سكانها مقفرة ما إن بها من إرم^(٣) ؟
 إلا من العيين ترعى بها كالفارسيين مشوا في الكمم^(٤) ؟
 ٥٠٦ : بعد جميع قد أراهم بها لهم قبابٌ وعليهم نيم^(٥) ؟

* ترجمته الشاعر : انظر ترجمته في وصف ذئب أطعمه ص ٢٠٩

التفسير اللغوي : (١) عفا رسمها : زال أثرها . الأثافي : جمع أثفية ، وهي ثلاثة أحجار توضع فوقها القدر . الخيم : جمع خيمة وهي بيت يبنى من عيدان الشجر ، فإذا كان من صوف أو شعر فهو بيت ، وقيل : تطلق الخيمة على جميع ذلك .

(٢) أسماء : هي معشوقته ، وكانت ابنة عمه عوف بن ضبيعة . مسح : مصبوب . سجين : سائل .

(٣) أمست : صارت ويصح أن يراد بها معناها الحقيقي ؛ إذ كانوا يرحلون ليلاً ؛ ليكون ذلك أطيب للسفر ، وأيسر على الطعام . خلاء : خالية . من إرم : من أحد ، أو من إرم من علم يدل عليها .

(٤) العيين : جمع عيناء البقر الوحشي ، ولقب بهذا السعة عينونه . ترعى . ترعى ، والتشديد يزيد الفعل قوة ، فكأنه يقول ترعى كثيراً . الكمم : جمع كمة القلانس .

(٥) بعد جميع : بعد حي . قد أراهم بها : قد كنت أراهم بها . قباب : جمع قبة وهي بناء سقفه مستدير مقعر . عليهم النعم والرغد وهناءة العيش .

تحليل الأبيات :

يناجي الشاعر قلبه ويسأله : أهو يعرف الدار التي محيت آثارها ، ودرست رسومها ، وطمست معالمها ، ولم يبق منها إلا الأثافي ، وما أضال شأنها وأهون أمرها ، وإلا أصل الخيام ؟ وقد أجابه قلبه الجياش بالحب الفياض بالحس ، إنه يعرفها ؛ لأنها دار أسماء العزيزة عليه ، الأثيرة لديه ، فشموره الباطني يوحى إليه بمكانها ، وإن لم يبق من تلك حتى الأثافي ، ولذلك قدموعها على خديها منصبة ، وعبراتها من مقلتها منمهرة .

وا أسفاه ! لقد أمتت تلك الدار خالية من سكانها ، مقفرة من قطانها ، فليس بها من أحد ، لقد احتملوا ليلا ؛ لأنهن منعمات مرفهات لا يمتلن سفر النهار ، ولا يستطعن الظن في حرارة الشمس .

أفرت تلك الدار من الإنس فعرها الوحش ، كانت تسكنها أسماء الحسناء ، فأضحت تسكنها البقرة العيناء ، ترعى عشبها ، وتمرع في مراعيها ، فالبقر لاختياهن بجماهن ، ولبياضهن ، واستدارة قرونها حول رؤوسهن يشبهن الفرس يختالون في قلائسهم .

بعد حي أقنا فيه حيناً ثم تركناه قد أراهم يجتمعون بهذه الدار مرة أخرى ، لهم قباب مرفوعة ، وخيام منصوبة ، وعليهم نعمة سابقة ، وفيهم هناة صافية .

النقر :

معاني المرقش فيها جدة وطرافة لم ترد في شعر من عرضنا بعض أوصافهم للأطلال ، من ذلك مناجاته قلبه ، وادعاؤه أن قلبه هو الذي عرف دارها ، هو لم يذكر قلبه صراحة ، ولكن السياق يعينه ، ثم هذا التشبيه في البيت الرابع فيه صورة جميلة :

إلا من العين ترعى بها كالفارسيين مشوا في السكم

فتصوير القرون تتلاقى فوق رؤوس البقر بالقلانس فوق رؤوس الفرس تصوير لم يقع لشاعر سواه ، وإذا كان لنا ما نأخذه عليه ، فهو الغموض في البيت الأخير ، وقد شرحناه كما هدانا إليه فكرنا ، وشرحه غيرنا غير هذا الشرح ، ولعلنا أن نكون أقرب إلى الصواب .

٦ - وقال بشامة بن الغدير* من قصيدته التي أولها :

لَمَنِ الدِّيَارُ عَفَوْنَ بِالْجَزَعِ بالدَّوْمِ بَيْنَ بُحَارٍ فَالْشَّرْعِ^(١)
 دَرَسَتْ وَقَدِيقَتْ عَلَى حَجَجٍ - بعدَ الْأَيْسِ عَفَوْنَهَا - سَبْعِ^(٢)
 إِلَّا بَقَايَا خَيْمَةٍ دَرَسَتْ دَارَتْ قَوَاعِدُهَا عَلَى الرَّبْعِ^(٣)
 فَوَقَّتْ فِي دَارِ الْجَمِيعِ وَقَدْ جَالَتْ شُتُونُ الرَّأْسِ بِالْذَمْعِ^(٤)
 كَمَرُوضٍ فَيَاضٍ عَلَى فَلَجٍ تَجَرَّى جَدَاوُلُهُ عَلَى الزَّرْعِ^(٥)
 ٥١٢ : فَوَقَّتْ فِيهَا كِي أَسَانِلَهَا غَوَجَ اللَّبَانِ كَطَرْقِ النَّبْعِ^(٦)

* ترجمته الشاعر : انظر ترجمته في وصف الناقة ص ٧٤ .

التفسير اللغوي : (١) عفون : درسن وزلن . الجزع : منعطف الوادى حيث انحى .
 الدوم ، وبحار ، والشرع : أسماء أمكنة .
 (٢) درست : زالت . حجج : جمع حجة سنوات . بعد الأيس : بعد السكان المؤمنين .
 عفونها : محونها . سبع : صفة لحجج ، والفصل بين الموصوف والصفة قبيح .
 (٣) تقدم أن قلنا : إن من رجال اللغة من يقول الخيمة بناء من شجر ، فإذا كان من صوف
 أو شعر مسمى بيتاً ، وقد يطلق على الجميع . دارت قواعدها : مالت قواعمها وأسسها . الربع :
 دار الربيع ، ثم أطلقت على كل دار .
 (٤) دار الجميع : الدار التي يجتمع فيها الحى . جالت : دارت واضطربت . شتون : جمع
 شأن ، وهو العرق الذي يجرى منه الدمع .
 (٥) العروض : النواحي . القياض : الماء الكثير الفيضان . الفلج : النهر العظيم .
 الجدول : النهرات الصغيرة مفردا جدول .
 (٦) غوج اللبان : اللبان الصدر ، وغوج واسع الجلد ، فهو يضرب لسمته . كطرق النبع :
 كالقضيبي من شجر النبع .

تحليل الأبيات :

يتساءل الشاعر في لهفة الفزع الجزع عن أصحاب هذه الديار المقامة بمنعطف الوادى من الدوم بين بحار والشرع فقد عفون ، وزال أثرهن ، وطمست آياتهن ، درست واستمر دروسها سبع سنوات ، ليس بها أنيس تسكن النفس إليه ، وتقرّ العين به ، ويطمئن القلب له .

لم يبق من هذه الديار شيء حتى البقية الباقية من جذوعها درست وغفت ، ومالت قواعدها ، ودارت قوائمها التي كان يقوم عليها ذلك الربع ، فوقفت في الدار التي كانت مجتمع الحى ، ومنتدى القوم ، فأخذتني العبرات ، وجالت في شئوني الدموع ، فإذا دموعي تجري في مجارى الدمع فياضة غزيرة ، فتمتدّ وتفرق كالنهر يفيض بمائه الغزير في نواحيه وعروضه ، فتجري منه جداول ذات اليمين وذات الشمال فوق الزرع .

وقفت في آثار هذه الديار أمتطى فرسا قد ضمّر جسمه ، واتسع جلد صدره لأسائلها أحاديثها عن ساكنيها ، ولأبادلها النجوى عن كان يحل بها من أولئك الذاهبين .

الفقر :

لا أظن بشامة بن الغدير وهو يسأل عن أصحاب الديار العافية يجمل هؤلاء الأصحاب ، وإنما هو تجاهل العارف بعشه في نفسه أنه لا يرى أولئك الأصحاب الأخلاء ، كما لا أظن أنه يعنى هؤلاء الأخلاء صاحبة أو خليلة ، فقد أعفاه الله من العشق ، ولكنه يعنى الأخلاء والخلصاء ، أولئك الذين كان يجتمع بهم في حبيهم ومنتدياتهم ، أليس قوله ؟

فوقفت في دار الجميع وقد جالت شئون الرأس بالدمع

دليلا على هذا ؟

وليس في الأبيات من المعاني ما يبهر ، ولا من الصور ما يسحر ، وأحسب أن تشبيهه الدفع بالنهر الكبير يتفرع إلى جداول تسقى الزروع تشبيه ليس فيه دقة الصور ، ومراعاة أجزاء الصورة .

٧ — وقال الحارث بن حنظلة الشكري :

- لَمَنِ الدَّيَّارُ عَفُونٌ بِالْحَبْسِ ؟ آيَاتُهَا كَهَمَارِقِ الْفُرْسِ (١)
 لَأَشْيءٍ فِيهَا غَيْرُ أَصْوَرَةٍ سَفْعِ الْخُدُودِ يَلْحَنُ كَالشَّمْسِ (٢)
 أَوْ غَيْرِ آثَارِ الْجِيَادِ بِأَغْرَاضِ الْجِمَادِ وَآيَةِ الدَّعْسِ (٣)
 غَبِسْتُ فِيهَا الرِّكْبَ أَحَدِسُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ وَكُنْتُ ذَا حَدَسِ (٤)
 حَتَّى إِذَا التَّفْعُ الظُّبَاءُ بِأَطْرَافِ الظَّلَالِ وَقَلْنُ فِي السُّكْنِ (٥)
 وَيُسْتُ مِمَّا قَدْ شُفِفَتْ بِهِ مِنْهَا وَلَا يُسْلِكُ كَالْيَأْسِ (٦)
 أَمِّي إِلَى حَرْفٍ مُذَكَّرَةٍ تَهْصُ الْحَصَى بِمَوَاقِعِ خُنْسِ (٧)

٥١٥ :

* ترجمته الشاعر : هو الحارث بن حنظلة بن مكروه بن يزيد بن عبد الله بن مالك الشكري من شعراء العراق ، وهو شاعر غزل يضرب به المثل في الفخر ، فيقال أغر من الحارث بن حنظلة ، وهو من أصحاب الملققات ، وزعموا أن معلقته ارتجلها بين يدي عمرو بن هند ، وقال الأصمعي إنه ارتجلها وهو ابن مائة وخمسة وثلاثين سنة وقد توفي حوالي سنة ٥٧٠ م .

التفسير اللغوي : (١) عفون : درسن . الحبس : اسم موضع . آياتها : علاماتها وأعلامها . مہارق : جمع مہرق بضم الميم وفتح الراء ، قال في اللسان وهي الصحيفة البيضاء يكتب فيها ، فارسي معرب ، والجمع المہارق قال حسان :

كم للنازل من شهر وأحوال
 لآل أسماء مثل المهرق البالي

وقال الحارث بن حنظلة : « آياتها كهمارق الحبش » وهو خطأ من ابن بري إذا الروي

السين كما ترى . (٢) الأصورة : جمع صوار بضم الصاد وكسرهما قطعان البقر .

سفع : جمع أسفع وهو الأسود المشرب بالحمرة . يلحن : يظهرن .

(٣) الأعراض : جمع عرض بضم العين والنواحي . الجماد : مفردة جمد مثل رمح ورمح المرتفع من الأرض ، واستشهد اللسان بقول امرئ القيس :

كأن الصوار إذ يجاهدن غدوة
 على جمد خيل تجول بأجلال

الدعس : الوطء . وآيته : أثره وعلامته . (٤) أحدس : أظن . (٥) قلن :

من القيولة ، وهي نوم نصف النهار . الكنس : جمع كناس ، وهي بيت الظبي يحفره في أصل الشجرة ليستتر بها . (٦) شغفت به : أغرمت به . لا يسليك : لا يخفف عنك .

(٧) أممي : أرتفع . الحرف : الناقة الماضية . المذكرة : التي تشبه الفحل في صلابتها .

تهص الحصى : تدق الحصى فتكسره . المواق : المطارق مفردة ميقعة . الخنس : القصار الأنوف ، مفردها خنساء .

تحليل الأبيات :

لمن هذه الديار التي عفت آثارها ، واحت أعلامها بالحبس ؟ إن أعلامها البيض ، وآياتها الواضحات كانت تبدو كالصحف البيضاء التي تنسب إلى أبناء الفرس ، أضحت وليس فيها إلا قطعان البقر الوحشي السفع الخدود ، البيض الظهور ، التي تبدو كأشعة الشمس سطوعا ، وليس فيها غير آثار الجياد ، تبدو في نواحي تلك الديار ، وفي جمادها ومرتفعاتها ، فترى آثار وطئها ، ومظاهرها ركضها .

لقد وقفت عند تلك الديار أجدس وأخن ، وأنفوس وأنجم ، أين أولئك الذين عمروها ؟ أين الخنس الجوارى الكنس اللأى ملأها جمالا وفتنة ؟ أين ملاعبهم وملاعبين التي كنا نقضى فيها أوقات الهوى ، وسويغات اللهو ، أين وأين ؟ وماذا ينفع التساؤل ؟ إنه يجدد الحسرات ، ويبعث دقان الموم والأحزان . وحين توسطت الشمس كبد السماء ، وفات الظباء إلى الظلال ، وقلن في الكناس ، ويئست من بعث الذكريات التي شغفت بها ، وأيقنت أنها لا ترد ماضيا ، ولا تعيد ذاهبا ، كان ذلك اليأس سلواتي ، « ولا يسليك كاليأس » وإذن فلأرفع رحلي فوق ناقة جمالية ترق الحصى بمناسمها .

الفقر :

اتفق بشامة بن الغدير والحارث بن حلزة في المطلع ، والتساؤل عن أصحاب الديار ، والاستفهام عن كان يقطنها ، معنى تواردت عليه خواطر الشعراء ، فليس هناك بينهم آخذ ومأخوذ منه ، ويظهر فضل الحارث على بشامة في أنه شبه آثار الديار وأعلامها بصحف الفرس وهو تشبيه جميل يدل على اتساع ثقافة ، وبعد خيال ، كما تظهر حكمته في قوله :

« ولا يسليك كاليأس » . وجميل من الحارث كذلك وصف الأصورة بأنهن يلحن كالشمس ، فن من الشعراء منحها هذا الجمال ، والجناس قليل في الشعر الجاهلي ؛ وقلته تضفي عليه الحسن ، وقد أبدعه الحارث في قوله :

أو غير آثار الجياد بأعراض الجراد وآية الدعس

وكذلك حبسه الركب ليحدث ويخمن ، وتركه إياك لتحس فيما كان يحدث به ، وتخمن ما كان يخمنه جمال أى جمال ، وبعد فالأبيات جميعها من رائع الشعر .

٨ — وقال عميرة بن جميل * من قصيدته التي أولها:

ألا ياديار الحى بالبردان^(١) خلت حجاج بعدي لمن ثمان^(٢)
 فلم يبق منها غير نومي مهدم^(٣) وغير أوار كالر كى دفان^(٤)
 وغير خطوبات الولائد ذذعت^(٥) بها الریح والأمطار كل مكان^(٦)
 قفار مرورات يحار بها القطا^(٧) يظل بها السبعان يعتركان^(٨)
 يثيران من نسج التراب عليهما^(٩) قيصين أسماطاً ويرتديان^(١٠)
 وبالشرف الأعلى وحوش كأنها^(١١) على جانب الأرجاء عوذ هجان^(١٢) : ٥٢٥

* ترجمته الشاعر : هو عميرة بن جميل بن عمر بن مالك بن الحارث بن حبيب التغلبي شاعر جاهلي يعد من الشعراء البرزين ، وهو فيما يظهر من الشعراء القليلين كذلك ، توفي حوالى سنة ٥٧٠ م .

التفسير اللغوي : (١) الحى : البطن من بطون العرب . البردان : اسم موضع . خلت : مضت .

(٢) النوى : الحاجز من التراب يقام لمنع السيل عن البيت . الأوارى : جمع آرى وهى معالف الدواب ومحابسها . الركى : جمع ركية ، وهى البر . دفان : جمع دفين ، مندفئات .

(٣) الخطوبات : جمع خطوبة ، وهى ما احتطب الإمام وجمعه . الولائد : جمع وليدة الإمام . ذذعت : فرقت .

(٤) قفار : جمع قفر ، وهى الأرض القاحلة الخالية من الزرع . المرورات : التي لا تنبت شيئاً لانعدام الماء فيها . السبعان : مثنى سبع وهو كل ما يفترس من الحيوان : يعتركان : يلتمس كل منهما أكل الآخر لما هما فيه من جذب دفع غيرهما من الحيوان إلى ترك ذلك . (٥) أسماطاً : غير محشوة ، وهو أن يكون القميص طاقاً واحداً .

(٦) الشرف : المرتفع من الأرض . الأرجاء : النواحي مفردها رجا . العوذ : الإبل أو الخيل أو الظباء الحديثة التاج مفردها عائد ، وجمعه عوذ وعوذ وعوذان ، وجمع الجمع عوذات . الهجان : السكرام يستوى فيه المذكر والمؤنث ، والمفرد والجمع .

تحليل الأبيات :

ألا ياديار قومي وخيام أهلي بالبردان ، لقد مضى على تركهم إياك وزوجهم عنك ثمانى
حجج ، وهو زمن طويل يغير الأحوال ، ويبدل الأوضاع ، وإذن فليس غريبا ألا يبقى
منك غير نوى مهدم ، وحاجز مثل ، وغير معالف الدواب ومحابسها التى صارت لطول العهد
وبعد الأمد كالآبار المطمورة ، وغير الخطوبات التى جمعتها الإماء من بقايا الجدور ومتساقط
الأغصان ؛ ليحطن منها وقودهن فى قارس البرد ، لقد فرقها الرياح السافيات ، وجرت بها
الأمطار الغزيرة كل مجرى .

واحرّ قلباه ! لقد أصبحت تلك الديار التى كانت تقيه بأعز الناس ، وأكرم الأجناس
قفارا لا نبت فيها ولا ماء ، ولا إنس فيها ولا وحش ، فهى تنائف يضل فيها القطا ، فلو أن
بها سبمين لأخذا يقتتلان حتى يتفانيا فى سبيل الطعام .

وهما فى تقاتلهما يثيران التراب فينسج فوق ظهريهما ثوبين رقيقين ، لو هبت عليهما
الريح لأزالتهما .

ولكن بأعلى هذه الصحراء وحوشا ضارية كأنها لاستيحاشها فى مختلف النواحي
وجوانب الأرجاء إبل هجان من خلفها سقابها ، أوظباء خنس من ورائها أطلاؤها .

النقد :

جرى الشاعر على ماجرى عليه غيره من الوقوف بالديار بعد حجج يعدها ، ثم غير
الأشياء التى لاتزال دالة على أنه كان فى المسكان ديار ، وكان فى هذه الديار سكان وقطان ،
ولكنه ذكر فيما بقى من الآثار ما لم يذكره سواه ، ذكر الخطوبات ، والحق أن بقاء الخطوبات
بعد حجج ثمان أمر غير منظور ، فالوحوش التى لاتجد غذاء من حق نفوسها عليها أن تأكل
كل ما تجد ، ثم إنه وقع فيما يكاد يكون تناقضا : السبعان يعتركان فيتفانيا ، لأنهما
لا يجدان الغذاء ، وبالشرف الأعلى وحوش كأنهما عوذ هجان . أليس هذا تناقضا ؟
إنه كذلك .

وعلى أى فالأبيات معانيها كمعاني أى شعر آخر فى وصف الأطلال .

٩ — وقال ثعلبة بن عمرو العبدى * فى مطلع قصيدته :

لَمَنْ دِمْنٌ كَأَنَّهُنَّ صَحَافٌ قِفَارٌ خَلَامُهَا الْكَثِيبُ فَوَاحِفٌ^(١)
فَمَا أَحَدَتْ فِيهَا الْعُهودَ كَأَنَّمَا تَلْعَبُ بِالسَّمَانِ فِيهَا الزَّخَارِفُ^(٢)
أَكَبَّ عَلَيْهَا كَاتِبٌ بِدَوَاتِهِ يُقِيمُ يَدَيْهِ تَارَةً وَيُخَالِفُ^(٣)
رَجَا صُنْعَهُ مَا كَانَ يَصْنَعُ سَاجِياً وَيَرْفَعُ عَيْنِيهِ عَنِ الصَّنْعِ طَارِفُ^(٤)



* ترجمته الشاعر : هو ثعلبة بن حزن بن زيد مناة بن الحارث بن ثعلبة العبدى ، وهو شاعر قصير النفس فيما يبدو ، مغمور بين الشعراء ، وإن كان له من القصائد قصيدتان اختارها الفضل الضبي ، كما اختار له البحرى فى حماسته ، وشعراء الجاهلية .

بنوى : الحاجز من التراب يقام لمنع عن البيوت السيل . الرق : جلد رقيق يكتب فيه أو الصحيفة البيضاء . منمنا : مزخرفا .

(٢) أذاعت : نشرت . الأرواح : جمع ريح نسيم كل شئ ، والريح مؤنثة . الحول : العام المحرم : الذى له ذمة وعهد .

(٣) دوارج : جمع دارجة ، وهى الأرواح المغيرة لظواهر الأشياء بما تسفيه من تراب . معلما : معروفا .

(٤) البلى : الإخلاق والقدم . توها . تظننا .

تحليل الأبيات :

يسائل حاتم قلبه ، أتعرف هذه الأطلال الدوارس ، والآثار الطوامس ، والنوى المهدم ، والجذم المثلث ؟ إن الأرض تبدو كالرق ، وهذه الآثار فوقه كأنخط المزخرف ، والرسم المزركش ، لقد نشرت الأرواح في هذا المكان عواصفها بعد أن فارق قاطنوه ، وتركه ساكنوه ، تركوه أياما طويلا ، وشهوراً عدة ، هذه الأرواح تنقلت من مكان إلى مكان ، ودرجت من موضع إلى موضع ، فغيرت ظاهر ترابه ، وكسته ترابا غير ترابه الذي كان له ، وأزالت الأيام معالمه ، وطمست أعلامه .

ليست الرياح فحسب هي التي غيرت المعالم والأعلام ، ولكنه طول البلى ، وقدم المهد ، حتى أصبحت لا أعرف الأطلال إلا بالوم والظن ، ولا أتبين الآثار إلا بالحس والشعور .

النقد :

المعاني التي أوردها حاتم في أبياته تلك معان قليلة ، وليس فيها معنى يمكن أن يقال إنه انفرد به ، ولا أحسب أن الحول يفعل في الديار هذا الذي صورته حاتم ، فقد استقصرنا ثمانى حجج في قصيدة عميرة بن جمل ، ورأينا أن تأثيرها لا يبلغ تصويره ، فكيف بالعام الواحد ؟ هل نقول : إنهم قلدوا زهيراً فلم يحميدوا التقليد ؟ وذلك في قوله :

وقفت بها من بعد عشرين حجة فلأيا عرفت الدار بعد توهم
وكذلك قال حاتم :

وغيرها طول التقادم والبلى فما أعرف الأطلال إلا توها
ولكن بعدكم كان ذلك التقادم والبلى ، إنه بعد :

أذاعت به الأرواح بعد أنيسها شهوراً وأياماً وحولاً محرماً

قد يقال إنه لا يقصد حولاً واحداً ، ونقول بل يقصده ، فلو أراد غير ذلك لاستبدل بأيام أعواماً .

المعاني المشتركة وغير المشتركة في وصف الأطلال

يكاد الشعراء يتفقون في وصف الأطلال ، ولهم في هذا عذرهم ، فالبينة التي توحى إليهم بأفكارهم واحدة ، والمعين الذي يمتحنونه منه واحد ، والمصر الذي يعيشون فيه واحد ، وكل هذه عوامل توجب اتفاق الأفكار .

إذا قال امرؤ القيس محمداً دار محبوبته :

فما نيك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

قال زهير مراعيًا ذلك التحديد :

أمن أم أوفى دمننة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتمش — لم ؟

وقال ليبيد :

غفت الديار محلها فقامها بمنى تأبد غولها فرجامها

وعلى هذا النمط سار أكثر الشعراء بعدهم ، لم يحيدوا عنهم إلا قليلاً .

ثم إذا قال امرؤ القيس إن هذه الدور بعد أن كانت ملعباً للأوانس أصبحت مرتعاً للآرام ، في قوله :

ترى بحر الآرام في عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل
قال زهير :

بها العيين والآرام يمشين خلفه وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم
وقال ليبيد .

والعين ساكنة على أطلالها عوداً تأجل بالقضاء بهامها
وقال المرقش الأكبر قبلهم :

إلا من العين ترعى بهم كالفارسيين مشوا في الكمم

وكلهم أسكنوا هذه الدور العين والظباء والوحوش ، حتى وإن تكن هذه الدور قد صارت إلى فناء وبلى ، وأصبحت صحارى جرداء ، كقول عميرة بن جمل :

قفار مرورات يحاربها القطا يظل بها السبعان يمتركان
يثيران من نسج التراب عليهما قيصن أسماطا ويرتديان
وبالشرف الأعلى وحوش كأنها على جانب الأرجاء عوذ هجان

وأكثرهم وصف فعل الأمطار بها ، وأثر الودق والساريات فيها ، ولكنهم أوردوه
في صور مختلفة ، كلها صور قوية جميلة ، وبخاصة صور لبيد والناطقة ، كما وصفوا فعل الرياح
في تلك الآثار فأجادوا التصوير .

ولكن لبعض هؤلاء الشعراء معاني سبقوا إليها فاتبعوا فيها ، أو لم يتبعوا لشهرة
نسبتهم إلى أصحابها ، فمن هذه المعاني قول امرئ القيس :

قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحول
فكثير من الشعراء جرى في غباره ، ولكنهم لم يبلغوا شيئا وإن أجادوا ، ومن سبقه
منهم جاء بجزء من المعنى ، لم يسقه مساق امرئ القيس في إحاطته وشموله ، وحسنه وجماله ،
قال بشامة بن الغدير :

فوقفت في دار الجميع وقد جالت شئون الرأس بالدمع
وقال المرقش الأكبر :

أعـرفها دارا لأسماء فالد مع على الخدين سح سجم
ومن المعاني التي انفرد بها الحارث بن حازة تشبيه ظهور البقر الوحشى بالشمس في قوله :
لا شيء فيها غير صورة سفع الخدود يلحن كالشمس
حقا إنه لم يجد هذا الذى يلوح ، ولكن التأمل يدفع إليه ، فأول ما يلوح الظهور . ومنها
حبسه الركب ليحدث ويخمن ، وذلك في قوله :

فحبست فيها الركب أحدث في كل الأمور ، وكنت ذا حدس
وقد أجاد ثعلبة بن عمرو العبدى في وصف المصور ، ولم يشاركه أحد في معناه وهو قوله :
فما أحدثت فيها العهد كأنما تلعب بالسمات فيها الزخارف
أكب عليها كاتب بدواته يقسم يديه تارة ويخالف

رجا صنعه ما كان يصنع ساجيا ويرفع عينيه عن الصنع طارف
ومنهم من دلت تشبهاته وصوره على بيئته وثقافته ، ومن هؤلاء النابغة في قوله :
خلت سبيل أتى كان يحبسـه ورفعته إلى السجفين فالنفـد
وقول المرقش الأكبر :

إلا من العـين ترعى بها كالفارسيين مشوا في الكـم
وقول الحارث بن حلزة :

لمن الديار عفون بالحبس آياتها كهـارق الفـرس
وقول حاتم الطائي :

أتعرف أطلالا ونويا مهـدما كخطك في رقـّ كتابا منمنا

وبعد فحسب الشعراء قدرة وتفوقا أنهم حبيبوا إلينا الأطلال ، وإن تكن ظاهرة فراق ،
وشغفونا بالآثار ، وإن تكن رمز جذب وقحط وإفقار ، وهذه عبقرية هي الغاية عند
العباقرة والنابعين .



(ب) وصف الليل

١ - قال مهلهل بن ربيعة * :

أَلَيْتَنَابَذِي حُسْمَ أَنْسِيرِي إِذَا أَنْتِ انْقَضَيْتِ فَلَا تَحْوَرِي ^(١)
فَإِنْ يَكُ بِالذَّنَابِ طَالَ لَيْلِي فَقَدْ أَبَاكَ مِنَ اللَّيْلِ الْقَصِيرِ ^(٢)
وَأَنْقَذَنِي بِيَاضُ الشُّبُوحِ مِنْهَا لَقَدْ أَنْقَذْتُ مِنْ شَرِّ كَبِيرِ ^(٣)
كَأَنَّ كَوَاكِبَ الْجُوزَاءِ عُوذُ مُعْطَفَةٌ عَلَى رَبْعِ كَسِيرِ ^(٤)
كَأَنَّ الْفَرَقْدَيْنِ يَدَا بَغِيضٍ أَلَحَّ عَلَى إِفَاضَتِهِ قَمِيرِي ^(٥)
أَرَقْتُ وَصَاحِبِي بِجَنُوبِ شَعْبٍ لَبَّرَقِي فِي تَهَامَةٍ مَسْطِيرِ ^(٦)

* ترجمه الشاعر : هو أبو ليلى عدى بن ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم بن بكر التغلبي شاعر نجدى مجيد ، قيل عنه إنه أول من قصد القصائد وهلهل الشعر ، وحسبه غمراً أن يكون امرؤ القيس وارث شاعريته ، وقابس عبقريته ، ولقب مهلهلا لقوله :

لما توغل في الكراع هجينهم هلهلت أثار مالكا أو صنبلأ
وحدثوا عنه أنه كان من أصبح أهل زمانه وجها ، وأفصحهم لسانا ، وأشدهم بأسا ، وقد لقبه أخوه كليب بزير النساء لأنه كان صاحب لهو ، كثير المحادثة للنساء ، وفي هذه القصيدة يقول :

ولو نشر المقابر عن كليب لأخبر بالذنائب أى زير
توفي حوالى سنة ٥٠٠ م

التفسير اللغوى : (١) حسم : موضع بالبادية ، ويظهر أنه أقام به فى أحد أيامه . لا تحورى : لا ترجعى . (٢) الذنائب : موضع بنجد على يسار الطريق إلى مكة . (٣) كواكب الجوزاء : أحد أبراج السماء ، واسم نجم يعترض فى جوز السماء ، والأول هو الراد . عوذ : جمع عائذ ، وهى الناقة يعوذ بها ولدها ، وكل أنثى إذا وضعت لمدة سبعة أيام لأن ولدها يعوذ بها . معطفة : منحنية مائلة . الربع : الفصيل ينتج فى الربيع ، وهو أول النتاج ، فإذا نتج فى آخره فهو هبيع ، يقال : « ما لهم ربع ولا هبيع » . كسير : مكسور . (٤) الفرقدان : نجمان قريبان من القطب الشمالى يهتدى بهما ، وأحدهما أقل نورا من الآخر . بغيض : مبغض . إفاضته : دفعه إلى اللعب . قميرى : مقامر .

(٦) أرقط : سهرت . الشعب : الطريق فى الجبل ، أو مسيل الماء ، أو الحى العظيم أو الناحية ، والأول هو المراد . تهامة : أرض منخفضة ، وبلاد جنوبى الحجاز . مستطير : منتشر .

تحليل الأبيات :

أيتها الليلة الليلاء التي قدّرت على أن أقضيها بذى حسم ، لينحسر ظلامك ، وليذهب سوادك ، وليسفر صبحك ، ولينفلق وضحك ، فإذا ما زلت من الأفق فلا تعودى مرة أخرى .
لقد طال ليلي بالذنائب حيث قتل أخى ؛ إذ جافانى النوم ، ولا زمنى السهاد ، وإن يسؤنى هذا فكم من ليال بكيت من قصرها ، وشكوت سرعة كرها ، وأنقذنى من بكائى عليها بياض صبحها ، وإشراق شمسها ، لقد أنقذت من شر كبير ، وأنجيت من ألم كثير .

أما ليلتى تلك فقد وقتت نجومها ، فكان كواكب الجوزاء متجمعات متلبثات نياق عائدات ، قد كسر ربعهن ، فهن لا يرمن دونه ، ولا يتحولن عنه ، أو كأن هذين النجمين المعروفين بالفرقدين يدا رجل مكروه ، مبغوض مقامر ، فهو يلح فى إفاضته ويبالغ فى دفعاته ، فيداه لا تفتثنان تتحركان فى مكان بعينه .

لقد أرقّت وصاحجى الذى يشاطرنى آلامى وأوصابى بجنوب ذلك الشعب ، لبرق لمع من أرض تهامة ، وهو منتشر الضوء ، متباعد المعان .

النقد :

كان قتل كليب المعين الذى فاضت منه شاعرية مهلهل ، والمنبع الذى انبثق منه شعره ، فهو أول من وصف الليل بالطول هذا الوصف الذى جرى عليه الشعراء من بعده ، ومعانيه وإن كانت مكررة إلا أنها بالنسبة إليه مبتكرة ، فهو يقول من قصيدة أخرى ما يشبه أبياته فى هذه القصيدة :

وصار الليل مشتملا علينا كأن الليل ليس له نهار
وبت أراقب الجوزاء حتى تقارب من أوائلها انحذار
ويقول فى قصيدة أخرى :

بات ليلى بالأنعمين طويلا أرقب النجم ساهراً لن يزولا
وهكذا فتح الطريق لمن جاء بعده من الشعراء ، وعلى رأسهم امرؤ القيس وارث شعره ومعانيه .

٢ — وقال امرؤ القيس * في وصف الليل :

وليلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرُخَى سُدُولُهُ عَلَى أَنْوَاعِ الْمَمُومِ لِيَبْتَقِلِي ^(١)

فقلتُ له لِمَا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءً يَكَلْكُلِ ^(٢)
أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انْجَلِي بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ ^(٣)
٥٤٣ : — فَيَاكَ مَنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ بِكُلِّ مَغَارٍ الْفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبَلِ ^(٤) !



* ترجمه الشاعر : انظر الترجمة في وصف القرس ص ١٠٩ .

التفسير اللغوي : (١) ولب : ورب ليل طويل قضيته مسهداً . أرخى : أسبل وأسدل . سدوله : جمع سدل ستوره ، لبيتلي : ليختبر ويمتحن .

(٢) لما : حين . تمطى : تمدد . بصلبه : بظهره . وأردف أعجازاً : وأطال مآخيره ، من قولهم أردف الراكب غيره أركبه ورائه على مطيته ، والأعجاز جمع عجز مؤخر الدابة . ناء بلكل : نهياً لينهض بصدرة فيثقل مقدمه .

(٣) ألا : حرف تنبيه . انجلى : انكشف . الإصباح : ظهور الصباح . بأمثل : بأفضل وأحسن .

(٤) يالك : أسلوب تعجبي ، فهو يتعجب من طوله وامتداد ساعاته . مغار الفتل : محكم الفتل موثق البرم . شدت : ربطت وربطاً محكمًا . يذبل بذلك الجبل الراسخ من جبال نجد .

تحليل الأبيات :

يشكو امرؤ القيس من ليله الذى طال أمده ، فزاد فيه ألمه ، فيقول :
 رب ليل كموج البحر المتلاطم أسدل على ظلمته ، وبسط فوق وحشته ، وأرسل إلى
 ألوانا من الهموم ، وأسدل على أنواعا من الأحزان ، ليختبر منى ، ويمتحن قوتى ، ويقيين
 جلدى وصبرى ، فقلت له وقد رأى منى صبرا وعزما ، وقوة ومنة :
 أيها الليل الطويل أتمنى عليك بعد أن عرفت عزيمتى أن ينفلق صبحك ، وينكشف
 ضوءك ، وأن تزول غياهبك ، وتهتك أستارك ، وإن يكن ذلك الصبح المأمول ليس بأوضح
 منك وجها ، ولا بأمثل منك حسنا ، فكلما مبعث هم ، ومصدر غم وكرب ، ولكنه
 التغيير قد يشعر ببعض الراحة .
 ما أعجبك ليلا ثابتا لا يتزعزع ! راسخا لا يتزعزع ، حتى لكأن نجومه السائرات شدت
 إلى راس من الجبال بمغار القتل من الأمراس والجبال ، فليس لها مسير وإن طال
 بها الأمد .

النقد :

امرؤ القيس أقدر من وصف الليل ، وهذه الأبيات أروع ما قاله فى وصفه ، ومبعث
 روعتها تصويره الليل فى نكره ووحشته ، وهوله ورهبته ، بأمواج البحر تطوى ما يصادفها ،
 وكذلك مناجاته الليل مناجاة تم عن الصبر مع اليأس ، وهذه قدرة لا يؤتاها إلا امرؤ القيس
 « وما الإصباح منك بأمثل » وتصويره الليل بالجلل يمتطى بصلبه ، ويردف بأعجازه ،
 وينوء بكل كلة تصوير جميل لتشبيهه المعنوى بالحصى ، وتصوره النجوم قد ثبتت فى السماء
 لا تريم عن مكانها بأنها مشدودة بأمراس تصور مستمد من البيئة ، أخذ بيراعته
 فى التصور والتصور .

هذا ومن القدماء من عاب على الشاعر التضمين ، بتعليق معنى البيت الثانى بالبيت
 الثالث ، ولا نرى فى ذلك عيبا ، وإنما العيب أن نتكلف جمع معنى فى بيت لا يتحمله .

٣ — وقال النابغة الذبياني * في وصف الليل أيضا :

كَلَيْنِي لِهَمِّ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبٍ وَلَيْلٍ أَقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ ^(١)

تَطَاوَلَ حَتَّى قَلْتُ : لَيْسَ بِمُنْقَضٍ وَلَيْسَ الَّذِي يَرعى النُّجُومَ بَأَثَبٍ ^(٢)

٥٤٦ : وَصَدِرَ أَرَاخُ اللَّيْلِ عَازِبَ هَمِّهِ تَضَاعَفَ فِيهِ الْحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ^(٣)



* ترجمته الشاعر : انظر الترجمة في ص ١٥٤ .

التفسير اللغوي : (١) كَلَيْنِي : اتركيني ودعيني . أميمة : ابنته ، يصح فيها الفتح والضم ، والضم أحسن ، والفتح أشهر ، قال الحليل بن أحمد : من عادة العرب أن ترخم عندما تنادى المؤنث ، فلما لم يرخم « بسبب الوزن » أجرى الترخيم على لفظها ، فأتى بالفتح . ناصب : متعب منصب ، كقوله تعالى : « في عيشة راضية » أى عيشة مرضية ، أولهم ذى نصب . أقاسيه : أكابده . بطيء الكواكب : كناية عن صفة الطول والامتداد .

(٢) تطاول : امتد وطال . ليس بمنقض : ليس بمنته . يرعى النجوم : قيل أراد النجم الذى يتقدم النجوم ، فهو منها بمنزلة الراعى لها ، ويؤيد هذا المعنى رواية : « وليس الذى يهدى النجوم بآثب » وإذا غاب الراعى ضل المرعى ، وقيل : أراد يرعى النجوم يقصد نفسه ، وقيل : أراد به الصبح . بآثب : براجع .

(٣) وصدِرَ : ورب صدر ، يقصد صدر نفسه . أراح : أعاد ورد من راحات الإبل إلى مناخها عشيّاً إذا ارتدت . العازب : النائم البعيد . تضاعف : تكاثر . من كل جانب : من جميع النواحي .

تحليل الأبيات :

دعيني يا بنيتي لهومي وأوصابي ، دعيني لهم ناصب ، وأتركيني لليل قد طال ، حتى أمل ، وامتد إلى أن أثقل وأسأم ، فسكوا كبه بطيئة المسير ، ونجومه كأنها لا تحول .

لقد استطال ذلك الليل لما نزل بي من الهموم والأوجاع ، حتى حسبت أنه لن ينتهي ، وظننت أنه مقيم لا يريد أن ينقضي ، وأن الراعي الذي يرعى النجوم ويهدها سواء السبيل ، ويسوقها إلى غايتها من الأفق البعيد ، قد ذهب إلى غير أوبة ، وتركها دون أن ترجى له رجعة ، وإذن فستبقى تلك النجوم حيرى لا تعرف لها قراراً .

دعيني يا أميمتى لصدر قد أثقلت الهموم ، ورد له الليل ما استطار منها في النهار ، فتضاعف حزنه ، وتكاثف شجنه .

النقد .

هذه الأبيات من أروع ما نظمه في وصف الليل شاعر ، وهوفيها تابع لامرئ القيس ، وإن اختلف القدماء في تفضيل أيهما على الآخر ، فبالغ امرؤ القيس على غير عهد الأدب به ، فسوى بين النهار والليل في الهم ، فقال أنصاره : إن المبالغة هنا أجدى وأفضل ، وقصد النابغة على غير عهد الأدب به أيضاً في قوله :

وصدر أراح الليل عازب هم تضاعف فيه الحزن من كل جانب
واقعدى به الشعراء إيماناً بجمال معناه ، فقال أحدهم :

أقضى نهاري بالحديث وبالمنى ويجمعني والهم بالليل جامع

وقال أنصاره في سبب تفضيله : « إنه جعل صدره مراحاً للهموم ، وجعل الهموم كالنعم السارحة تسرح نهاراً ، ثم تأتي إلى مكانها ليلاً ، وهو أول من استثار هذا المعنى ، ووصف أن الهموم مترادفة بالليل لتقيد الأحاظ عما هي مطلقة فيه بالنهار ، واشتغالها بتقيد اللحظ من استعمال الفكر » .

ومناجاة فثاته من آيات جماله ، قالبت أشد شعوراً بمصاب أيها ، وأوفر عاطفة نحوه ، يشجها شجوه ، ويحزنها هم ، فهي منه قلبه وكبدته .

(ح) وصف السحاب والبرق والغيث

١ — قال امرؤ القيس * يصف ديمة :

ديمة هطلاء فيها وطفٌ طبق الأرض تحرى وتدُر^(١)
تخرج الود إذا ما أشجذت وتواريه إذا ما تشكر^(٢)
وترى الضب خفيها ما هرا ثانياً برئنه ما ينفر^(٣)
وترى الشجر في ريقها كرومٍ وسقطت فيها حمر^(٤)
ساعة ، ثم انتحاه وأبل ساقط الأكناف ، واه ، منهمر^(٥)
راح تمر به الصبا ، ثم انتحى فيه شؤبوب جنوب منفر^(٦)
نجم حتى ضاق عن آذيه عرض خيم ، فخفاف ، فيسر^(٧)

* ترجمه الشاعر : أقرأها في وصف الفرس ص ١٠٩

التفسير اللغوي : (١) الديمة : للطر يدوم في سكون دون رعد ولا برق . الوطف : استرخاء السحابة ، وتدلى ذيلها ، ودنوها من الأرض . تحرى : تتحرى المكان وتثبت فيه . تدُر : تمتلئ .

(٢) الود : اسم جبل ، أو هو الود في لغة أهل نجد ، كأنهم سكنوا التاء فأدغموها في الدال ، وكلا المعنيين ذكره اللسان . أشجذت : أقامت وسكنت . تواريه : تخفيه . تشكر : تهطل بالمطر ، وفي رواية تعتكر .

(٣) الضب : حيوان زاحف يشبه الجرذون ذنبه كثير العقد ؛ حتى ضرب به المثل ، فقيل : « أعقد من ذنب الضب » . البرثن : الخلب . ما ينفر : لا يصيبه العفر ، وهو التراب . (٤) الشجر : الأرض ذات الشجر . ريقها : أولها . حمر : جمع خمار ، وهو للمرأة كالعمامة للرجل .

(٥) انتحاه : قصدها . وأبل : مطر شديد يصدر عنه السيل . ساقط الأكناف : ثابت النواحي . واه : ضيف يتشقق منه الماء ، وينخرق عنه المطر . منهمر : شديد الانصباب . (٦) راح : سار عسياً . تمر به : تستدره . وأصله من مرى الضرع إذا مسحه ليدر ، الصبا : ريح باردة تهب من الشمال . شؤبوب : دفعة من مطر . الجنوب : ريح تهب من الجنوب . (٧) نجم : سال وصب . آذيه : موجه . عرض : ناحية أو اتساع . خيم وخفاف ويسر : أسماء أمكنة قرية من الدهناء ، أو في بلاد بني بربوع .

تحليل الأبيات :

هذه مطرة دائمة التسكاب ، ومزنة ماضية الانصباب ، غايتها ملء أطباق الأرض بدموعها الغزار ، فترى أوتاد الأخبية بادية ظاهرة عند ما تقلع عن السكب ، وخافية متوارية عند ما يحتفل المطر ، ويشد الغيث ؛ فهي تبدو إذا هدأت ، وتتوارى إذا غضبت ، وترى الضب ، وقد أبرزه المطر من جحره سابجا ماهراً ، خفيفا نشيطا ، يثنى برثنه ويبسطه ، كما يثنى السابح ذراعه ويمده ، فلا يتغفر بالتراب ، فقد أذهب طول الانسكاب ، وترى الأرض ذات الأشجار ، وقد غطاها المطر أول دفعاته ، فليس يبدو منها إلا رهوس أشجارها ، فظهرت وقد علاها الزبد كرهوس انفصلت عن أعناقها ، وغطتها خمرها ، استمر هذا الغيث ساعة ، ثم اعتمدها وابل منهمر ، وسيل منحدر ، يعم نواحيها ، ويفعم أكنافها ، فالسحاب متشقق بالماء .

راح ذلك السحاب عشيا - وقد استدرته ريح الصبا ، ومراه بردها - راح يتكاثف ويتراكم ، ثم قصده ريح الجنوب وافدة من بحر الهند مثقلة بالقطار ، فأضافت إليه دفعة أخرى ، فإذا هو ينصب انصبابا حتى ضاق عن آذيه المضطرب وموجه المصطخب عرض هذه الجهات مع اتساع آفاقها ، وامتداد أكنافها .

الفهر :

في هذه الأبيات جمال تحدث عنه القدماء ، فقالوا : « إن هذا أشعر ما جاء في وصف الغيث » وسأل أبو عمرو بن العلاء ذا الرمة : أى الشعراء الذين وصفوا الغيث أشعر ؟ فقال امرؤ القيس وأنشد الأبيات .

ولكنهم تركوا حكمهم دون تحليل شأنهم في جميع نقدهم ، ومواطن الجمال التي أجلاوها هي تلك الصور المتعاقبة ، فالديمة مسترخية الذوائب ، والأوتاد عارية حيناً ، ومغطاة حيناً ، والضب سابح حاذق يثنى برثنه ويبسطه شأن السباح الماهر ، إذ يبسط ذراعيه ويثنيهما ، والأرض الشجراء غطيت ، فليس يبدو منها غير رهوس أغصانها يغطيها الزبد الأبيض ، كأنه الخمر ، وهي صور فيها الكثير من مظاهر البادية ، فيها وتد الخباء ، والضب ، والبرثن والخمر .

٢ — وقال الأعشى * في معلقته يصف السحاب والمطر :

بل هل ترى عارضاً قد بت أرْمَقُه كأنما البرقُ في حافاتِه شعلُ^(١)
له ردافٌ وجوزٌ مُفأَمٌ عملُ مُنطقٌ يسجّالِ الماءِ مُتّصلُ^(٢)
لم يلهني اللهوُ عنه حينَ أرْقَبُه ولا اللذّاذةُ من كَأْسٍ ولا شفلُ^(٣)
فقلتُ للشربِ في درنا وقد تملّوا: شيموا، وكيف يشيمُ الشاربُ الثملُ؟^(٤)
قالوا: نمارُ بطنِ الخالِ ، جادُها فالعسجديةُ ، فالأبلاءُ ، فالرجلُ^(٥)
فالسفحُ يجري ، فغزيرُ ، فبرقته حتّى تدافع منه الربوُ ، فالجبلُ^(٦)
حتى تحمل منه الماءُ تكلفه روضُ القطا، فكثيبُ الغينة السهلُ^(٧)
٥٦١: يسقي دياراً لها قد أصبحت غرضاً زوراً تجانف عنها القودُ والرسلُ^(٨)

* ترجمه الشاعر : هو ميمون بن قيس بن جندل بن بكر بن وائل أحد أعلام الشعر في العصر الجاهلي وأقدر الوصافين للخمر ، وكان لشعره جرس جميل فغني به ولقب بصناعة العرب ، أدرك الرسول الكريم ، وأراد الإسلام نغده عنه بالمال أبو سفيان فمات على غير دين سنة ٦٢٩ م .

التفسير اللغوي : (١) العارض : السحاب يعترض الأفق . أرْمَقُه : أنظر إليه . حافاتِه : جمع حافة أطرافه . شعل : جمع شعلة قطع الشرر .
(٢) رداف : سحاب قد ردفه من خلفه . جوز : جوز كل شيء وسطه . المفأَم : العظيم الواسع . عمل : دائم : منطلق : قد أحاط به فصار بمنزلة المنطقة . سجّال : جمع سجل وهو ملء الدلو ماء . (٣) لم يلهني : لم يشغاني . أرْقَبُه : ألحظه . اللذّاذة : الاشتها . من كَأْسٍ : يعني من خمر . (٤) الشرب : جماعة الشاربين كالركب والسفر . درنا : أحد منافذ فارس ، وهي دون الحيرة ، وقيل : إنها باليمامة : تملوا : انتشوا . شيموا : انظروا إلى البرق . (٥) نمار و بطن الخال : موضعان . جادها : أمطرها . العسجدية ، والأبلاء : موضعان . الرجل : مسایل الماء ، واحدها رجلة . (٦) السفح : منحدر الجبل . البرقة : الأرض الغليظة فيها حجارة ورمل وطين . الربو : ما نشز من الأرض ، وهو هنا اسم موضع . الجبل : موضع باليمامة . (٧) تحمل : احتمل . تكلفة : مشقة . روض القطا : اسم مكان ، قيل : إذا خرجت تريد البصرة فأول ما تخطى السفح ثم الحربة ، ثم قارات الجبل ، ثم بطن السلي ، ثم عيان ، ثم روض القطا ، ثم العرمة ، وهذه كلها من أرض اليمامة . الغينة : الأرض الشجراء ، وهي هنا اسم موضع . (٨) غرضاً : هدفاً . زوراً : ميلاً . تجانف : تباعد . القود : الخيل . الرسل : الإبل .

تحليل الأبيات :

أيها الخليل : هل تبصر عيناك ذلك العارض الذي يمتد في الأفق ، لقد ملك عيناى ،
فما تحولان عنه ، وأخذ قلبي فما ينصرف دونه ، فكأنه إذ يتألق برقه ، فيلتمع نوره
ثم ينطفئ شعله تومض ثم يذهب وميضها ، وشرارة تلمع وما يلبث أن يختفي لمعانها .
لذلك السحاب العارض رداف متتابع ، وركام متكاثف ، ظلمات بعضها فوق بعض ،
لا فرق بين أطرافه وأجوازه ، لجميع أجزائه عظيم ، وكل أقسامه مديد ، فهو دائم السح
والتسكاب ، قد اتخذ من امتلائه بالماء في أطرافه ، واتصاله في أنحائه منطقة يتنطق بها .
لم يشغلني عن رقبته هو أقطع به صبحى ومسائى ، ولا لذادة كأس أغتبق بها
وأصطبيح ، ولا أعباء فوادح تصرف من يرزح تحتها عن كل شيء سواها ، فكل ذلك
دونه عندى منزلة وتقديرا .

لقد دعوت ندمائى فى درنا بعد أن ملك الشراب عليهم حواسهم ، واستولت الراح
على ألبابهم ، دعوتهم أن ينظروا إلى ذلك العارض العريض ، وأن يتأملوا هذا السحاب
المديد ، وأن يشبهوا رقبته ، ما كذا أن الشئ أن يشبه كذا الشئ أن يشبه كذا الشئ .

إن هذا المطر يسقى دياراً فى هذه الأماكن قد أصبحت له هدفاً ، ولما نه غرضاً ، إنها
أرض خشى المسير فيها الخليل والإبل ، والقود والرسل .

النقد

وصف الأعشى السحاب وصف البصير ، وصورة تصوير التقدير ، فى بيتيه الأولين ،
فعرض لنا صورة لا ينقصها تحبير ، ثم انصرف إلى بيان أثره فى محلته ، وإبراز فضله على
قرى اليمامة ، فبالغ فى ذكر القرى ، وكأنه عالم جغرافى يرسم لتلاميذه مسير السحاب
فى تلك البلاد ، فأجاد الشرح وأحسن التفصيل . ولولا مبالغته فى ذكر البلاد لكان قد
بلغ غاية الإحسان .

٣ — وقال عبيد بن الأبرص * يصف السحاب .

إِنِّي أَرِقْتُ ، وَلَمْ تَأْرُقْ مَعِيَ صَاحِ لِمُسْتَكِفٍ بُعِيدَ النَّوْمِ لَوَّاحٍ ^(١)
يَا مَنْ لَبِزَ أَيْتُ اللَّيْلِ أَرْقُبُهُ ! فِي عَارِضٍ كَمُضِيءِ الضُّبْحِ لَمَّاحٍ ^(٢)
دَانَ مُسِيفٌ مُوَيِّقَ الْأَرْضِ هَيْدَبُهُ يَكَادُ يُمَسِّكُهُ مَنْ قَامَ بِالرَّاحِ ^(٣)
كَأَنَّ رَيْقَهُ لَمَّا عَلَا شُطْبًا أَقْرَابُ أَبْلَقَ يَنْفِي الْخَيْلَ رَمَّاحٍ ^(٤)
٥٦٦ : فَنَ بِحَوْرَتِهِ ، كَمَنْ بِعَقْوَتِهِ وَالْمُسْتَكْنُ كَمَنْ يَمْشِي بِقِرْوَاحٍ ^(٥)

* ترجمه الشاعر : اقرأها في وصف العقاب ص ١٨٩ وهذه الأبيات منسوبة أيضا لأوس بن حجر .

(٤) ريقه: أوله . لما علا : حين ارتفع . شطبا : جمع شطبة ، وهي الطريقة أو الخط في متن السيف ونحوه . الأقرباب : جمع قرب وهي الخاصرة . الأبلق : الأبيض فيه سواد . رماح : صاحب رمح ، وينفي الخيل كناية عن سبقة إياها ، وتفوقه عليها .
(٥) الحوزة : الناحية ، وحوزة المملكة ما بين تخومها ، وفي رواية بنحوه . والنحوه للكان المرتفع . العقوة : الساحة ، وما حول الدار والمحلة ، وكلها تصلح للدعى وجمع العقوة عقاء . المستكن الساكن الختبي في مسكنه . بقرواح : بأرض بارزة للشمس ، قال في اللسان : « والقرواح يكون أرضاً عريضة نحو الدعوة ولا نبت فيه ولا شجر ، بل طين وسبالق . والقرواح أيضا : البارز الذي ليس يستتره من السماء شيء ، وقيل هي الأرض البارزة للشمس » ثم أورد البيت .

تحليل الأبيات :

عرف عبيد بن الأبرص بالإجادة في وصف الطبيعة بنوعها : حينها وهامدها ، ومن الأدباء من ينسب القصيدة التي منها هذه الأبيات إلى أوس بن حجر ، ولكنها بشعر عبيد أشبه ، إذ أنه أورد معانيها تلك في غير هذه القصيدة ، كقوله :

ودنا يضيء ربابه غابا يضره حريقه
حتى إذا ما ذرعه بالماء ضاق فما يطيقه
هبت له من خلفه ريح يمانية تسوقه

فاستمع إليه يقول : إني أرقط وصاحبي السهاد ، ولكفك لم تشاركني أيها الصاحب في سهادي ، ولم تقاسمني أرقط لتنظر معي ذلك السحاب اللثف ، وتشيم ذلك البرق المضيء ، ما أجل هذا البرق الذي يهتك حواشي الظلام ، فأنا لذلك أقضى ليلي أخلظه إذ يلعب في سحاب يعترض وجه السماء ، فكأنه الشمس تبدو من الجانب الشرقي فتبدد أسداف الظلام . لقد دنا دنوا شديدا ، وأسف إلى الأرض إسفاقا عظيما ، فكأن مطره خيوط تتساقط على الأرض يوشك الإنسان أن يدهمه براحتيه ، ويزيحه بكفيه ، كأن أوله حينما ارتفع في طرائق وخطط أصول لأخاذ فرس أبلق قد غلب سواده بياضه يتقدم خيولا أخرى ، وينفي عن طريقه القود الجياد ، من فوق صهوته الفارس الرماح .

النقد :

قلنا : إن عبيداً من أقدر وصافي الطبيعة ، وشعره على قلته يزخر بوصفها ، وهو يعتبر زعيم الوصاف الواقعيين ، فتصويره دقيق صادق ، لا تكلف فيه ولا مبالغة ، وصوره واضحة بارزة « يكاد يلصقها من شاء بالراح » وبيته « دان مسف . . . » رائع التصوير صادق التعبير ، وقد كرر معنى قوله : « كأن ريقه لما علا . . . » في قصيدة أخرى فقال :
كأنما بين أعلاه وأسفله ريط منشرة أو ضوء مصباح
إلا أن هذا البيت أوفر معنى ، وأدق وصفاً ، وأصنى أسلوباً .

وبعد فعبيد شاعر معجب بالطبيعة ، فأولته آياتها ، ومنحت شعره محاسنها .
فالناس جميعا في خياله سواء ، لافرق بين من يقيم في حوزة أو نجوة ، ومن يلزم ساحة أو عقوة ، ومن يستكن في قرار مكين ، ومن يسير في أرض تسطع عليها أشعة الشمس ، فلا يحجبها عنها حجاب .

٤ — وقال حنظلة الطائي * في وصف القمر :

ومهما يكن من ريبٍ دهرٍ فاتني أرى قرَّ اللَّيْلِ المُعَذِّبِ كالفَتَى^(١)
يَهْلُ صغيراً ، ثُمَّ يَعْظُمُ ضَوْؤُهُ وصورته حتى إذا ما هو استوى^(٢)
وقرب يخبو ضوؤه وشماعة ويمصحُ حتى يستسِرَّ فما يرى^(٣)
٥٧٠ : كذلك زيدُ الأمرِ ، ثم انتفاضه وتكراره في إثره بعد ماضى

تحليل الأبيات :

مهما ينزل بي من أحداث الزمان ، وصروف الحداث ، فإنني صابر له ، راض به ، لأنني أعلم أن هذه سنة الكون حياة وموت ، وبقاء وفناء ، حتى القمر يعذب كما يعذب الفتى ، ويهنأ كما يهنأ ، فتصيبه النعماء والبأساء ، ويلقى الهناء والشقاء ، أراه يهل صغيراً لا يكاد يرى ، ثم يتعاظم ضوؤه ، وتتكامل استدارته شيئاً فشيئاً ، حتى يستوى على عرشه بدراً منيراً ، ويتألق في سمائه نوراً وضاءً ، ولكنه ما يلبث أن يعود إلى حاله الأولى ، فيأخذ ضوؤه في الخبو ، وشماعه في الانطفاء ، ونوره في الانمحاء ، حتى يغيب عن الوجود ليلة أو ليلتين ، كما تغيب الحياة عن الإنسان فلا يرى ، ويطويه ما يطوى جميع الكائنات .
ذلك شأن المرء يرتفع ثم يهوى ، ويكمل ثم ينقص ، سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

النقد :

الأبيات تصوير دقيق لحال الخلائق في هذا الوجود ، فكل كائن يعتوره ما يعتور القمر ، وينزل به ما ينزل بالإنسان ، وفي الأبيات فلسفة غريبة عن العصر الجاهلي .

* ترجمه الشاعر : هو حنظلة بن أبي عفراء بن النعمان بن حبة بن سبعة الطائي ، ويروي عنه حديث مع النعمان وأنه كان السبب في تنصر النعمان وقومه ، وقصته طويلة ذكرتها كتب الأدب ، وهى إلى الأساطير أقرب منها إلى الحقائق التاريخية ، ولم يبق من شعره إلا القليل الذى لا يدل غليلاً ، وكانت وفاته حوالى سنة ٥٩٠ م .

التفسير اللغوى : (١) ريب الدهر : صرفه وحده .

(٢) يهل : يظهر . استوى : تكامل . (٣) يخبو : ينطفئ . يمصح : يمتدحى ، يقال : مصحت الدار امتدحت أثرها . استسرى القمر : اختفى ليلة أو ليلتين ، وهو من السرار بفتح السين .

(د) وصف الصحراء والبرد والحر

١ — قال الأعشى * من معلقته يصف الصحراء .

و بلدة مثل ظهر الترس موحشة للجن بالليل في حافاتها زجل^(١)
لا ينمى لها في القيظ يركبها إلا الذين لهم في أتوا مهل^(٢)
٥٧٣ : قطعها بطليح جصرة سرح في مرققها إذا استعزضتها فتل^(٣)
تحليل الأبيات .

رب صحراء مستوية ملساء تشبه في استوائها وملوستها ظهر الترس ، موحشة مقفرة لانبات فيها ولا ماء ، ولا إنسان ولا حيوان ، فما يسكنها إلا الجان ، يبدون في الليل إذ يشمل السكون السكون ، فيلبون ويصخبون ، ويلهون ويصيحون ، فرحابو ظنهم الذي لا يشاركهم فيه أحد ؛ لا يعتمد السير فيها إبان الهجير ، ولا يسمو إلى قطعها حين القيظ إلا القوم العطاريف ، والسادة الأشراف الذين يقدمون على الهول ، ولا يعبثون بالخطر .

قطعت هذه البلدة جريثا مقداما بناقة قد أعيأها المسير ، وأضناها الرحيل ، وهي مع هذا جسر ماضية ، لاتهن ولا تنى ، سيرها هين لين ، إذا تأملتها وجدت فيها جمالا وحسنا ، فهي بعيدة ما بين المرققين ، منفرة الجانين .

النقد :

تشبيه الصحراء بالترس تشبيه جميل ؛ إذ أن الترس فوق استوائه فيه لمعان يشبه لمعان السراب في الصحراء ، واستعارة عزيف الجن بالليل بالزجل معنى رائع .

* ترجمه الشاعر : اقرأ ترجمته في ص ٢٦٠ .

التفسير اللغوي : (١) الترس : صفحة من الفولاذ تحمل للوقاية من السيف ونحوه ، جمعه أتراس ، وتراس ، وتروس ، وترسة . حافاتها : جوانبها جمع حافة . زجل : الزجل : للصخب واللعب والضجيج والطرب .

(٢) لا ينمى : لا يعتمد ، ولا يسمو . الهل : بالتحريك التقدم وفلان ذو مهل ذو تقدم إلى ما فيه الخير والشرف .

(٣) الطليح : اللبا الذي أضناه السفر ، ويطلق على الذكر والمؤنث . الجسرة : الناقة الضخمة الطويلة القوية . سرح : لينة في سيرها . القتل : تباعد ما بين المرققين عن الجنين .

٢ - وقال سويد بن أبي كاهل* في وصف الصحراء :

وفلاةٍ واضحٍ أقرابُها بالياتٍ مثلُ مُرْفَتِ القَزَعِ^(١)
يسبحُ الآلُ على أعلامها وعلى البِيدِ إذا اليومُ مَتَّعَ^(٢)
٥٧٦ : فرَكَبناها طَلَى نَجْهولِها بِصَلابِ الأرضِ فيهن شَجَعُ^(٣)

تخليل الأبيات :

رب مومة مقفرة ، وفلاة موحشة ، قد وضحت أقرابها ، وظهرت جوانبها وأطرافها ، فطرقتها باليات لكثرة السير فيها ، فهي لبلاها تشبه المرفت المحطم مما يبق في الجوانب من شعر الرأس ، يجرى الآل على جبالها ، ويسبح السراب فوق أعلامها ، ويلعب في يديها ، عند ما ترتفع أشعة الشمس ؛ وتنتشر في الآفاق خيوطها البيض ، فركبنا هذه الصحراء على جهلنا مسالكها دون أن نخشى فيها ضلالا ، فحسبنا بها علما أقرابها وجوانبها الظاهرة الواضحة ، ركبناها بنخيل صلاب الخوافر ، متوفرة النشاط ، متوافرة المراح .

النقر :

الأبيات الثلاثة فيها حسن وروعة ، وتشبيه الحصى المحطم المكسر بالشعر المتجمع في جوانب الرأس فيه عمق فكرة ، وإن لم يستواء التشبيه كل الاستواء ، وملاحظته السراب فوق الأعلام ملاحظة الرجل البدوي الذي تخلبه مناظر البادية .

* ترجمه الشاعر : اقرأ ترجمته في ص ١٥٩ .

التفسير اللغوي : (١) الفلاة : الصحراء الواسعة ، وتجمع على فلات وفلا ، وفلى . أقرابها : خواصرها ، مفردهما قرب بضم القاف وسكون الراء وضما ، والمقصود هنا الجوانب والأطراف . باليات : رئات خلقات . مرفت : محطم . القزع : جمع قزعة بقايا الشعر في الرأس .

(٢) الآل : السراب . الأعلام : الجبال مفردهما علم . البِيد : الصحارى المقفرة مفردهما بيداء . متع اليوم : ارتفعت شمس .

(٣) صلاب الأرض : كناية عن الخيل ذات الخوافر الصلبة . الشجع : جنون النفاط .

٣ — وقال المرقش الأكبر يصف الصحراء أيضا :

ودويّة غبراء قد طال عهدُها نهالكُ فيها الورْدُ والمرءُ ناعسٌ^(١)
 قطعتُ إلى معروفها مُنكراتها بعينها مة تنسلُّ والليلُ دامسٌ^(٢)
 تركتُ بها ليلاً طويلاً ومنزلاً وموقدَ نارٍ لم ترمهُ القوايسُ^(٣)
 ٥٨٠ : ونسمعُ ترقاءَ من اليوم حولنا كما ضربتْ بعد الهدوءِ النواقيسُ^(٤)



* ترجمه الشاعر : اقرأ ترجمته ص ٢٠٩ .

التفسير اللغوي : (١) الأنامل : هكذا وردت ، ولعلها الأرامل . الطعم : الطعام .

قلص در اللقاح : ارتفع لبن الناقة الحلوب . الصبر : البرد الشديد .

(٢) الإماء : جمع أمة الرقيقات . الجعن : أصل الشجر الواحدة جشنة . البالي : القديم .

عكوفاً : مستديرات حولها . القرارة : ما لزق بأسفل القدر من مرق أو حطام تابل محترق ، أو من أو غيره .

(٣) الودع : حرز أبيض مشقوق كشق النواة . الأهجن : الأبيض . ينباع : يثنى ويتأوى .

(٤) الدر : اللبن . الحروس : النساء ، والبكر أول ولادتها .

تحليل الأبيات :

وصحراء مقفرة قد اسودّ لونها لبعدها بالنبات والماء تنهالك فيها الإبل ، وتتمايل في مسيرها من الأين ، وتأخذ السنة السائر فيها ، ويخالط النعاس عابرها لهموده وخمود نفسه ، قطعت مجهولها إلى معروفها ، ومنكراتها الغامضة إلى مسالكها الواضحة بناقاة قوية جريئة ، تنسل في جنباتها انسلال الأرقم ، والليل دامس ، والظلام طامس .

تركت بهذه الدوية ليلا طويلا سهرته ، ومنزلا طيبا أقمته ، وأنا في نار لم يجرؤ على اقتباس النار منها القابسون ، وكنت تسمع في تسيارك زقاء اليوم وصياحه ، كأنه دق النواقيس بعد أن هدا كل كائن ، وسكن كل متحرك .

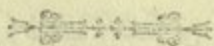
النقد :

اتفق المرقش مع الأعشى وسويد في بعض المعاني ، وزاد عليهم معاني أخرى ، فوصفه الإبل بالتهالك ، والسفر بالنعاس معنى استقل به ، ووصفه الليل بالطول ، والمنزل الذي نزل به والموقد الذي أوقد فيه ناره معنى آخر لم يشارك فيه ، ووصفه زقاء اليوم وتشبيهه إياه بضرب النواقيس معنى ثالث ؛ وإذن فإن المرقش كان أقدر على وصف الصحراء من زميليه ، ومعانيه أجمل من معانيهما ، وصوره أكمل من صورهما ، ولا بد أنك مشاركي في الرأي .

فوق أن في أسلوبه جمالا ملحوظا ، يظهر في ذلك الطباق في قوله :

٤ — وقال عمرو بن قبيصة * يصف البرد :

ليس طعمى طعم الأنامل إذ نلص درّ اللقاح في الصننير^(١)
ورأيت الإماء كالجعنين البيا لي عكوفاً على قرارة قدّر^(٢)
ورأيت الذخايف كالودع الأهـ جن ينباع من وراء السّتر^(٣)
٥٨٤ : حاضر شرّكم ، وخيركم دُرّ رُخروس من الأرناب بكر^(٤)



* ترجمه الشاعر : هو عمرو بن قبيصة بن ذريح بن سعد بن مالك بن ضبيعة ، شاعر جاهلي عاصر امرأ القيس وصاحبه ، ودخل معه بلاد الروم ، وفيها هلك ، فلقب بعمرو الضائع ، وهو الذي يقول عنه امرؤ القيس .

بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكا او نموت فنعذرا

وقد توفي حوالى سنة ٥٣٠ م .

التفسير اللغوى : (١) الأنامل : هكذا وردت ، ولعلها الأرامل . الطعم : الطعام .
قلص در اللقاح : ارتفع لبن الناقة الجلوب . الصنير : البرد الشديد .
(٢) الإماء : جمع أمة الرقيقات . الجعنين : أصل الشجر الواحدة جعنة . البالي : القديم .
عكوفاً : مستديرات حولها . القرارة : مألزق بأسفل القدر من مرق أو حطام تابل محترق ، أو ممن أو غيره .

(٣) الودع : حرز أبيض مشقوق كشق النواة . الأهجن : الأبيض . ينباع : ينثني ويتلوى .

(٤) الدر : اللبن . الخروس : النساء ، والبكر أول ولادتها .

تحليل الأبيات :

ليس طعامي رديثاً دينثا كطعام الأرامل عند ما يقر البرد ، ويشتد الصنبر ، وتتقلص
اللقاح ، ويرتفع اللبن من الضروع ، وعند ما تبدو الإمام عظاما لالحم فيهن ، فكأنهن جذوع
الأشجار انقطعت من أصولها ، فنضب ماؤها ؛ وجف أصلها ، تبدوا أولئك الإمام مستديرات
حول القدور يستخلصن ما لبق بها ، ولصق بقراراتها وحافاتهما من حطام محترق ، أو تابل
ملتصق ، وعند ما ترى الدخان أبيض قد زال أثر وقوده فكأنه ودع الأصداف ينثنى
وراء الأستار .

إنكم قوم شركم حاضر ، وخيركم ذاهب ، مثلكم في نضوب خيركم ، وجفاف مائكم كمثل
لبن الأرنب النفساء البكر لما يدر لبنها ، ويمتلى ضرعها .

النقد :

الأبيات في الفخر بالكرم ، وهجاء أعدائه ووصفهم بالبخل ، ولكنه انحرف إلى
وصف البرد وأثره في الكائنات فأحسن الوصف وأجاد التصوير . ولا سيما في وصف
استدارة الإمام حول القدر ، فهو تصوير واقعي دقيق ، وتصويره الدخان بالودع الأبيض
ينثنى ويتلوى تصوير جميل .



٥ — وقال النابغة الذبياني * يصف الفرات :

فَمَا الْفَرَاتُ إِذَا هَبَّ الرِّيحُ لَهُ تَرْمِي أَوَاذُهُ الْعَبْرَيْنِ بِالزَّبَدِ ^(١)
 يُمِدُّهُ كُلُّ وَادٍ مُتَرَعٍ لِحَبِّ فِيهِ رُكَامٌ مِنَ الْيَنْبُوتِ وَالْخَضَدِ ^(٢)
 يَظُلُّ مِنْ خَوْفِهِ الْمَلَّاحُ مُعْتَصِماً بِالْخِيزُرَانَةِ بَعْدَ الْأَيْنِ وَالنَّجْدِ ^(٣)
 يَوْمًا بِأَجُودَ مِنْهُ سَيْبَ نَافِلَةٍ وَلَا يَحُولُ عَطَاءُ الْيَوْمِ دُونَ غَدِ ^(٤)



* ترجمه الشاعر : انظر ترجمته في وصف الأوابد ص ١٥٤

التفسير اللغوي : (١) الأواذي . الأمواج للفرد آذى . العبران : الشاطئان .
 الزبد : رغاوى الماء .

(٢) يمدّه : يزيد في مائه . للترع : المثلث . اللجب : ذى الصوت : الركام : الحطام
 للتكاثف التراكم . ينبوت : شجر الحشخاش واحده ينبوتة . الخضد : ما خضد وتكسر .

(٣) يظل : يستمر طول يومه . الملاح : صاحب السفينة . معتصماً : ممتعاً . الخيزرانة .
 السكان ، وهو دفة السفينة ، ويروى الحيسفوجة ، وهو الشراع . الأين : التعب والإعياء .
 النجد : العرق والكرب .

(٤) بأجود منه : بأكثر منه عطاء . السيب : العطاء . النافلة : الزيادة .
 لا يحول : لا يمنع .

تحليل الأبيات :

ليس نهر الفرات ، وقد هبت عليه الرياح العواصف ، فثارت أمواجه ، وترامى آذيه على شاطئه بالزبد ، تمده الوديان المترعة ، اللجة بالماء الغزير ، يتناثر فيه الحطام ، ويتجمع من الينبوت والخصد الركام ، فيخشاه الملاح ، ويخافه النوقى ، فيتقيه بسكان سفينه ، ويعتصم منه بدفة مركبه بعد أن بلغ منه الأين والإعياء كل مبلغ ، ونال منه الكرب والشدة كل منال ، ليس الفرات وتلك حاله ، وهذا وصفه عند ما يفيض فيروى ، ويطمو فيغنى ، بأجود منك يدا ، ولا بأكثر منك مدا ؛ إذ الفرات لا يفيض فى كل آن ، وفيضك لا يحد بزمان .

النقد :

جاء وصف الفرات عرضا حين أراد النابغة أن يصف النعمان بالكرم والسخاء ، فصور فيضان الفرات حينما تهب عليه الريح ، وتتلاطم الأمواج ، ويضطخب الآذى ، وصوّر مده ، وما يحمله معه من حطام وركام ، كل ذلك فى أسلوب قوى قوة الماء حين يشور ، والنهر عند ما يفيض ، وقد اصطفى الألفاظ التى لا ينوب عنها غيرها فى معانيها . فالآذى ، والعبرين ، والزبد واللجب ، والركام والينبوت كلها ألفاظ تشعر بالروعة والقوة ، وبالغ كما كان ذلك شأنه ، فلم نشعر إلا أنه صادق فيما روى ، وهذا خير ما يرجى من شاعر .

وصف الآثار الإنسانية

(١) وصف السفينة

١ — قال طرفه* في وصف السفينة من معلقته:

كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ غَدَوَةٌ خَلَايَا سَقِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدٍ^(١)
عَدُولِيَّةٍ أَوْ رَيْنِ سَقِينِ ابْنِ يَامِنْ يَجُورُ بِهَا الْمَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي^(٢)
يَشُقُّ حَبَابَ الْمَاءِ حَيْرُومَهَا بِهَا كَمَا قَسَمَ التُّرْبَ الْمَفَايِلُ بِالْيَدِ^(٣) ٥٩١

* ترجمه الشاعر : اقرأ الترجمة في صفحة ٦١ .

التفسير اللغوي : (١) حُدُوج : جمع حُدُج وهو المركب من مراكب النساء . غَدَوَةٌ : صبحا . خَلَايَا : جمع خلية ، وهي قرارة السفينة ، من خلية النحل ، وهي موضع غسلها ، أو هي السفينة العظيمة ، أو السفينة التي تسير بدون ملاح . النَوَاصِف : جمع ناصفة : وهي الرحبة الواسعة تكون في الوادي . دَد : اسم موضع .

(٢) عَدُولِيَّة : وصف لموصوف محذوف هو سفينة ، وعدُولِيَّة نسبة إلى عدولي إحدى جزائر البحر الفارسي ، وقيل إنها نسبة إلى قوم كانوا ينزلون بهجر . ابْنِ يَامِنْ : ملاح من أهل هجر . يَجُورُ : يميل . يَهْتَدِي : يعضى للقصد .

(٣) حَبَابَ الْمَاءِ : طرائقه وأمواجه . الْحَيْرُوم : الصدر كالقيدوم . الْمَفَايِل : الذي يلعب لعبة الفيل ، وهي تراب أو رمل يكومونه ، ثم يخشون فيه خبيثاً ، ثم يشق المفايل تلك الكومة بيده ، فيقسمها قسمين ، ثم يقول : في أي الجانبين خبأت ، فإن أصاب ظفر ، وإن أخطأ قر .

تحليل الأبيات :

كان مراكب تلك الخليفة الحسية المنسوبة إلى بني مالك - وهي تظعن صباحا في عظمتها وضخامتها تقطع ذلك الوادى الواسع من دد - سفائن عظيمة ، كأنها سفينة عدولية أو من سفن ذلك الملاح الماهر ابن يامن ، فهي في مسيرها تميل إلى الشاطئين حيناً ، وتهتدى في مسيرها ، فتستقيم ولا تنحرف يمنة ولا يسرة حيناً .
هذا الملاح الماهر يشق بصدرها طرائق الماء ، ويقطع أمواجه ، كما يقسم لاعب الفيل الرمل براحته .

النقد :

تشبيه هوداج النساء بالسفن تشبيه دقيق ، فلهوداج كما للسفن قرارات و بطون يجلس فيها السفراء ، والهوداج في امتدادها تشبه السفن في متابعتها ، والوادى الواسع تسير فيه مراكب النساء أشبه ما يكون بالبحر ، وانصرف عن حدود المالكية إلى وصف السفينة العدولية ، فقال : إن ملاحها يميل بها ويقصد على حسب الريح ، وهو حيناً يقصد في مشيه فيشق حيزومها الماء يشبه المقابل عند ما يقسم الرمل ، وقد قال القدماء إن هذا التشبيه من أروع ما تخيله شاعر .



٢- وقال عنتره* يصف الروضة من معلقته :

أَوْ رَوْضَةٌ أَنْفًا تَضْمَنُ نَبْتَهَا غَيْثٌ قَلِيلُ الدَّمَنِ لَيْسَ بِمُعْلَمٍ ^(١)
جَادَتْ عَلَيْهِ كُلُّ بَكْرٍ حُرَّةٍ فَتَرَكْنِ كُلَّ قَرَارَةٍ كَالدَّرْهِمِ ^(٢)
سَحَاوَتِ سَكَابِ فِكْلٍ عَشِيَةٍ يَجْرِي عَلَيْهَا الْمَاءُ لَمْ يَتَصَرَّمِ ^(٣)
وَحَلَا الذُّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِيَارِحٍ غَرَدَا كَفَعَلَ الشَّارِبِ الْمَتَرَّمِ ^(٤)
هَزَجًا يَحْكُ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ قَدَحَ الْمَكْبَ عَلَى الزَّنَادِ الْأَجْذَمِ ^(٥)



* ترجمته الشاعر : اقرأ الترجمة في ص ١٢٢ .

التفسير اللغوي : (١) الروضة في الأصل : المكان اللطيف يجتمع إليه الماء فيكثر نبتة .
الأنف : التام من كل شيء ، وقيل هو أول كل شيء ، وروضة أنف لم يرعها أحد . الدمن : جمع دمنة السرجين ، وقيل معناه قليل اللبث لم يدمن عليها . ليس بمعلم : ليس بمعروف .
(٢) جادت : سحت . البكر : من السحاب الذي لم يطر . الحرة : الخالصة ، وقيل الكثيرة للطر ، وفي رواية عين ثرة ، والثرة : الكثيرة الماء . القرارة : الموضع اللطيف من الأرض يجتمع فيه السيل .

(٣) السح : الصب والانصباب ، والتسكاب : السكب . لم يتصرم : لم يقطع .

(٤) غردا : مغردا . الشارب : السكران : المترنم : المتغنى .

(٥) هزجا : مصوتا تصويتا مسرعا . المكب : القبل على الأمر . الأجزم : المقطوع اليد .

تحليل الأبيات :

وصف عنقرة في بيت يسبق هذه الأبيات رائحة ثغر عبلة بأنه :

٥٩٧: وكان فارة تاجر بقسيمة سبقت عوارضها إليك من القم
أو أن رائحته كرائحة روضة تامة النبات ، موفورة الأزهار ، تسقى سقيا خفيفا ، فلا يضر
الماء الدائم نباتها ، ولا ينال من جمالها ، ولا يقطف الزوار الكثيرون أزهارها ، فعبيرها
محبوس عليها ، وزهرها يفوح في جنباتها .

جاءت على هذا الموضع سحب بكر كثيرة الغيث ، سخية بالماء ، فتركت تلك السحب
المطمئن من أرض ذلك المكان منعما بالماء ، فإذا به في استدارته ولعانه كالدرهم ، وكأني
بالشاعر رجع يصف الروضة قبل أن ينجم نباتها ، فوصف الموضع بأن الماء فاض عليه ؛
حتى اشتعلت أرضه نباتا .

ينصب المطر عليه انصبابا ، وينسكب الغيث في جميع نواحيه انسكابا ، ففي كل
العشايا يند عليه المزن ، فيجري بين جنباته ، ويفيض على حواشيه وطرقاته ، فيهب لنبتة
النمو والزكاة .

وحينما نضرت أزهاره ، وينعت أثماره خلا الذباب بتلك الروضة ، فهو يغرد فيها
تغريدا مستمرا ، مثله في تغريده وترنمه كمثل الشارب النمل قد أفاضت عليه النشوة السرور
والمرح ، فأخذ في الغناء والتنغيم ، لا يقفه عن الغناء سبب ، ولا يمنعه من الترنم مانع .
ذلك الذباب يغنى غناء متتابعا ، ويغرد تغريدا مستمرا ؛ فهو يحك ذراعا بذراع ؛
ويقدح جناحا بجناح ؛ مثله في قدحه كمثل رجل ناقص اليد يقدح النار من الزندين .

النقد :

هذه الأبيات في وصف الروضة وذبابها من أروع ما نظم شاعر جاهلي فوصفه قرارة
الماء بالدرهم تصوير رائع جميل ؛ ووصفه الذباب في تغريده تصوير رائع جميل كذلك ؛
ولقد حكم له زعماء الأدب القديم بأنه أجاد في تصويره كل الإجادة . ولولا الفصل بين
الموصوف والصفة في البيت الأخير لكانت الأبيات آية الجمال

٣ — وقال الأعشى * يصف روضة من معلقته:

ماروضة من رياض الحزن معشبة خضراء جاد عليها مسبل هطل^(١)
يضاحك الشمس منها كوكب شرق مؤزر بعيم النبات مكتهل^(٢)
٦٠٠ : يوما بأطيب منها نشر رائحة ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل^(٣)

تحليل الأبيات :

ضمن الأعشى غزله وصف الروضة فعبه عبرا كما فعل عنقرة قبله ، فإنه ليصف محبوبته
هريرة بطيب النشر ، فيقول :

٦٠١ : إذا تقوم يضوع المسك أصورة والزنيق الورد من أردانها شمل
إذ يرى أن الروضة دونها نشر ، وأقل منها عطرا ، فيقول :

ليست روضة مثاف من رياض الحزن والربا قد أعشبت فنضرت ، واخضرت
فأزهرت ، بما جاد عليها المطر المطل ، والغيث المنسكب ، فزهرها المبتسم ، ونورها الريان
المتفتح يضاحك الشمس وتضاحكه ، يبدو لها في ثوب ضاف من النبات ، وإزار سابغ
من الزرع . ليست روضة هذا شأنها بأطيب من محبوبته نشر ، ولا بأحسن منها
ساعات الأصيل عطرا .

النقد :

الأعشى في وصفه الروضة أكثر دقة من عنقرة ، ويظهر أن حياته أ كسبته معارف
أوسع ، فعرف أن رياض الحزن أنضر من رياض الخفض ، وأن الزهر يفوح عبيره ويذكو
أريجيه في ساعات الأصيل عنه في غيرها من ساعات النهار لتباعد الشمس والفي عنه ،
كما أن تصويره الزهر يضاحك الشمس تصور يدل على حضارة ومدنية .

* ترجمه الشاعر : اقرأ الترجمة في ص ٢٦٠ .

التفسير اللغوي . (١) الحزن : الأرض المرتفعة . وضدها الخفض . معشبة : منبثة .
مسبل : منسكب . هطل : كثير الانسكاب .

(٢) الكوكب : نور الروضة . الشرق : الريان : مؤزر : مؤزر بالنبات .
مكتهل : متكامل .

(٣) النشر : الرائحة الطيبة . دنا : قرب . الأصل : جمع أصيل ، وهو من العصر إلى العشاء .

(ح) وصف الخمر وسقاتها وندمانها

١ — قال الأعشى * يصف المنادمة :

وأبيضَ مُختلطٍ بالكرِ مـ لا يتغطى لإنفادها^(١)
أَتَانِي يُؤَامِرُنِي فِي الشِّمْوِ لـ لَيْلًا ، فَقُلْتُ لَهُ : غَادِهَا^(٢)
فَرُحْنَا نَبَا كَرُّ جَدِّ الصَّبْوِ حـ قَبْلَ الْفَنُوسِ وَحُسَادِهَا^(٣)
فَقَمْنَا وَلَمَّا يَصْحُ دَيْكُنَا إِلَى جَوْنَةٍ عِنْدَ حَدَادِهَا^(٤)
تَنْخُلُهَا مِنْ بَكَارِ الْقَطَا فـ أَزِيرُقُ آمِنُ أَكْسَادِهَا^(٥)
فَقُلْنَا لَهُ : هَذِهِ هَاتِيهَا بِأَدْمَاءٍ فِي حَبْلِ مُقْتَادِهَا^(٦)
فَقَامَ ، فَصَبَّ لَنَا قَهْوَةً تَسْكُنُنَا بَعْدَ إِزْعَادِهَا^(٧)
كَمِيَّتًا تَكْشِفُ عَنْ حَمْرَةٍ إِذَا صَرَّحَتْ بَعْدَ إِزْبَادِهَا^(٨) : ٦٠٩

* ترجمته الشاعر : أقرأ ترجمته في ص ٢٦٠ .

التفسير اللغوي : (١) مختلط بالكرام : مصادق لهم . لا يتغطى : لا يتساكر . لإنفادها : لإنهاؤها .
(٢) يؤامرني : يشاورني . الشمول : الخمر الباردة . غادها : باكرها .
(٣) الصبوح : الخمر تشرب صباحاً ، وضدها الغبوق .
(٤) لما : لم . ديكنا . أى ديك الفجر الذى يؤذن بالصبح . الجونة : الخاية للمطلية
توضع فيها الخمر . حدادها : سمي الخمار حدادا لمنعه الخمر وحفظه إياها وإمساكه لها حتى يندل
له ثمنها الذى يرضيه ، وفى بعض الكتب جدادها بالجيم ، قال الأزهري : هذا حاق التصحيف
الذى يستحي من مثله من ضعفته معرفته ، فكيف بمن يدعى المعرفة الثاقبة ، وصوابه بالحاء .
(٥) تنخلها : تخيرها . بكار القطاف : مباكرة القطف والجنى . أزيرق : تصغير أزرق
وهو صاحبها ، ويكنى به الرومى لأنه أزرق العينين ... أكسادها : بوارها .
(٦) بأدماء : بناقة يخالط يياضها سمرة . مقتادها : صاحب قيادها .
(٧) قهوة : خمرة . تسكننا : تهدئنا . إرعادها : يقصد إزبادها وفورانها .
(٨) كميتا : خمرة يغطي حمرتها سواد . صرحت : صفت . إزبادها : فورانها وانتشار
الحبب فوقها .

فَجَالَ عَلَيْنَا بِأَبْرِيْقِهِ	مُخَضَّبٌ كَفٌ بِفِرْصَادِهَا ^(٩)
فَرُحْنَا تَنَعُّمًا نَشْوَةً	تَخَوُّرُ بِنَا بَعْدَ قُصَادِهَا ^(١٠)
فَقَالَ : تَزِيدُونَنِي تَسْعَةً	وَلَيْسَتْ بِعَدَلٍ لِأَنْدَادِهَا ^(١١)
فَقُلْتُ لِمُنْصَفِنَا : أَعْطَاهُ	فَلَمَّا رَأَى حِرْصَ شُهَادِهَا ^(١٢)
أَضَاءَ مِظْلَتَهُ بِالسَّرَا	جِ ، وَاللَّيْلِ غَامِرُ جُدَادِهَا ^(١٣)
دَرَاهِمُنَا كُلُّهَا جَيِّدٌ	فَلَا تَحْبِسُنَا بِنَقَادِهَا ^(١٤)
فَبَاتَتْ رِكَابٌ بِأَكْوَارِهَا	لَدَيْنَا ، وَخَيْلٌ بِالْبَادِهَا ^(١٥)

٦١٦ :

- (٩) فَجَالَ : فطاف . مُخَضَّبٌ كَفٌ : مصبوغ الكف بخضاب الحناء . بِفِرْصَادِهَا : بصيغها الأحمر ، ويطلق على التوت الأحمر ، وهو شديد التأثير فيما يمسح به .
- (١٠) تَنَعُّمًا : تبعث فينا الشمور بالنعماء . نَشْوَةٌ : أول السكر . تَخَوُّرُ بِنَا : تذهب بقوانا .
- (١١) تَسْعَةٌ : أى تسعة أباريق . بَعْدَلٌ : بمعادلة . لِأَنْدَادِهَا : لنظرائها .
- (١٢) لِمُنْصَفِنَا : لساقينا وخدامنا .
- (١٣) اللَّظْلَةُ : الخيمة . غَامِرٌ : مغط وشامل . الْجُدَادُ : الأهداب .
- (١٤) تَحْبِسُنَا : تؤخرنا في انتظار التقاد : التقاد النقد ، وتبين الجوهر السليم من البهرج الزيف .
- (١٥) رِكَابٌ : جمع ركب الإبل . الْأَكْوَارُ : جمع كور القطيع منها أو أداتها . الْأَبْدَادُ : جمع لبد وهو المجلس تحت السرج .

تحليل الأبيات :

كان الأعشى زعيم المدمنين ، فلا غرو أن يكون للخمر زعيم الوصافين ، ولقد تأثره من جاء بعده من الشعراء في جميع العصور : العصر الجاهلي والأموي والعباسي ، وأبياته هذه قصة شرب كاملة ، فهذا صديقه المشرق الوجه ، النبيل الأصل ، المصادق للكرام الذي لا يتساكر حتى إذا نفذت الخمرة ، قد أقبل يشاوره في الشراب ، ويؤامره على الراح ، أيعاقرها في المساء أم يعاقرها في الصباح ؟ فيشير عليه بأن يفاديهما ، وحينئذ يذهبان لمباكرة الصبح قبل أن يصحو النيام ، ويستيقظ العذال والحساد . قبل أن يصيح الديك مؤذنا بانفلاق الفجر وتنفس الصبح ، يذهبان إلى خاية مترعة يحفظها من الشرب راع أمين ، وخار حريص ، فهو لا يقدمها إلا لمن يثق من وفائه ، ويطمئن إلى سرائه وثرائه ، ومن حقه أن يفعل هذا فقد تخير كرمها ، واصطفى قطنها رجل رومي خير بصناعته ، فهو آمن كسادها ، مطمئن إلى سرعة نفاذها .

قلنا له : هات كئوسك ، وأترع أباريقك ، ثمنا تلك الناقة الأدماء يسوقها لك راعيها إذا لم ترض ثمنها دراهم جيادا ، فقام إلى جوثته فصب لنا منها قهوة معتقة ، تهدي النفوس النائرة ، وتسكن الأجسام المرعدة ، صب لنا خمرة كميता تبدو حمرتها عند ما تزول رغوتها ، ويتكشف صريحها عن زبدتها ، وأخذ يحول علينا بأبريقه ، ويطوف بكئوسه فتى مخضب الكف ، مصبوغ الراحة ، كأنما قد خضبها بالفرصاد ، فصرنا ننعم بالنشوة ، ونهنا بأول السكر ، حتى خارت منا القوى ، وهمدت الأجسام بعد أن كثر في طلبها القاصدون ، ولكن ذلك الصديق لم تكن قواه قد خارت ، ولا جسمه قد همد ، فقال : تزيدونني تسعة أباريق وليست بمعادلة لمثيلاتها ، بل هي أعظم امتلاء ؛ وكأنه يخاطر ويراهن أنه أقدر الشرب على الشراب ، فراهناء على احتسائها ، وقلت لساقينا : أعطه إياها ، وحين رأى حرص الشاهدين على هزيمته أضاء خيمته ، وأشعل سراجيه ، فقد أقبل الليل شاملا السكون بظلامه ، مغطيا الدنيا بستاره ، قلنا للخمار هاك دراهمك ، وكلها جيد ، فلا تجلسنا حتى تنقدها فساها من زيف ، وما فيها من بهرج ، فباتت ركابنا من فوقها أكوارها ، وأمست خيولنا تلوها ألبادها ، فقد شغلنا الشراب النهار ووهنا من الليل .

النقر :

هذه قصة شراب لا يستطيع ترتيب فصولها ، وتنسيق مناظرها إلا رجل عاقر الخمر ،
وعشق الشراب ، فهو القدير على تأليف المناظر ، وتنظيم المشاهد ، فصديقه يؤامره
في الشمول ، فيشير عليه بأن يشربها صبوحة ، ويرسم لك بعدئذ يوما كاملا للمدمنين ،
فيحسن رسمه ، ويجيد الحوار ، ويصور لك أحاديث النشأوى ، حينما تتحكم فيهم الراح :

فقال تزيدوننى تسعة وليست بعدل لأندائها

فقلت لمنصفنا : أعطه فلما رأى حرص شهادها

أضاء مظلتـه بالسرا ج ، والليل غامر جدادها

لقد ذهبت السكره ، وجاءت الفكرة ، فحسبه ما احتسى ، وكافيه ما استقى ؛ والأبيات مفعمة
بالمعاني ، مترعة بالصور ، زاخرة بالجمال ، جمال الأسلوب ، وجمال النغم ، وجمال القافية ،
فأى صورة يستطيع أن يصورها فنان قدير أصدق من تصوير الأعشى الخمر إذ يحتسيها
الاحتسى فتخور قواه بعد أن يعلوها الزبد ، وذلك في قوله :

فقام فصب لنا قهوة تسكننا بعد إرعادها

كميتا تكشف عن خمة إذا صرحت بعد إزبادها

وأى جمال فى الطباق أوضح من « تسكننا بعد إرعادها » ؟

وأليس يروق القارى ذلك الوزن الراقص الذى اختاره الشاعر لخرتيه ؟ .

ولا غرو فناظمها هو صناجة العرب ، وزعيم المدمنين .

٢ — وقال عمرو بن كلثوم * في مطلع معلقته:

أَلَا هُبِّي بِصَحْنِكَ فَاصْبَحِينَا وَلَا تُبْقِي خَمُورَ الْأَنْدَرِينَا ^(١)
 مُشْعِشَةً كَأَنَّ الْحُصْنَ فِيهَا إِذَا مَا الْمَاءُ خَالَطَهَا سَخِينَا ^(٢)
 تَجُورُ بِذِي اللَّبَانَةِ عَنْ هَوَاهُ إِذَا مَا ذَاقَهَا حَتَّى يَلِينَا ^(٣)
 تَرَى اللَّحْزَ الشَّحِيحَ إِذَا أُمِرَتْ عَلَيْهِ لِمَالِهِ فِيهَا مُهِينَا ^(٤) : ٦٢٠

* رَحمَةُ السَّاعِر: هو أبو عباد عمرو بن كلثوم بن عمرو بن مالك بن عتاب التغلبي، كان أبوه من سادات قومه، فتزوج ليلي بنت مهامل بن ربيعة، فولدت له عمرا، فهو شريف من ناحيته، فشب عمرو مزهوا بنفسه، مختالا بقومه؛ حتى قيل إنه سادهم وسنه خمس عشرة سنة، ولا يعرف الأدب له من الشعر غير هذه القصيدة إلا أياتا قليلة ولكنه عد بها من خول الشعراء توفي حوالي سنة ٥٧٠ م.

التفسير اللغوي: (١) هي: استيقظي. بصحنك: بقدحك الكبير. اصبحينا: استيقنا الصبح، وهو شراب الصباح. الأندرين: قرية في جنوبي حلب على مسيرة يوم للراكب. (٢) مشعشة: ممزوجة، يقال شعشع الشراب إذا مزجه بالماء. الحص: نبت له زهر أحمر يميل إلى الصفرة يشبه الزعفران. سخينا: حال من الماء أي حارا، وهناك من يرى أن سخينا فعل وفاعل بمعنى جدنا، والأول أولى لوجهين الأول أن أندرين كانت للروم حينئذ ومن عادتهم أن يشربوا الخمر ممزوجة بالماء السخين، والآخر أنها فعلا وفاعلا تعيب الشعر بالسناد، وهو اختلاف الحركة قبل الروي.

(٣) تجور: تميل. بذى اللبانة: يصاحب الحاجة. عن هواه: عن حاجته ولباته.

(٤) اللحز: الضيق الصدر السيء الخلق. الشحيح: البخيل. أمرت: أديرت. مهينا: محتقرا.

تحليل الأبيات :

ألا استيقظي أيتها الساقية من غفوتك ، واسحى من سنتك ، فأديرى علينا الراح ،
وطوفي بالصبوح ، ولا تدخرى من خمر أندرين كأسا ، ولا تبق من قهوتها صحننا ، أديرها
علينا مشعشة ممزوجة ، فكأنها إذا ما مزجت بالماء السخين قد خلطت بالزعفران ،
فهى حمراء صفراء ، هذه الخمر تنسى صاحب اللبانات لبانتته ، وتصرف ذا المهام عن مهامه ،
فهو ينصرف عند ما يذوقها إليها ، ولا يفكر فيما سواها .

وهى القديرة على تغيير الشئائل ، وتبديل الطبائع ، فتجعل الرجل الضيق الصدر ،
السيء الخلق سمحا وديعا ، سهلا لنا ، وتصير من الرجل الكز الشحيح ، الضنين البخيل ،
سخيا كريما ، لا يبقى على مال ، فإذا أديرت عليه كثوسها أسرف فى إنفاق دراهمه
ودنانيره ، ولم يبق لها وزنا ، ولا عرف لها صونا .

النقد :

عمرو بن كلثوم هو الشاعر الأوحى الذى افتتح معلقته بوصف الخمر ، وخالف بذلك
سنة الشعراء فى عصره ، ولعله فيما صنع كان متأثرا بها ، مشغوبا بشرايبها ، ومن الأدباء من
يرى أن خلطا أصاب نظم القصيدة ، فقدم متأخرا ، وآخر متقدما ، ويزعم أن مفتتح
القصيدة هو :

٦٢١ : قفى قبل التفرق ياظلعينا نخبرك اليقين وتخبرينا

وأيا كان الأمر فقد وصف عمرو الخمر فى إيجاز وصفا بارعا فى بيته :

مشعشة كأن الحص فيها إذا ما الماء خالطها سخينا

ووصف أثرها فى النفوس ، وفعلها فى الندامى وصفا لانهاية الجمال ، ولا غاية لحسن تصويره :

تجور بذى اللبانة عن هواه إذا مذاقها حتى يلينا

ترى اللعز الشحيح إذا أمرت عليه لماله فيها مهيئا

وقد كشف لنا عن بعض عادات أهل الروم فى معاقرتهم الخمر ، وأنهم لا يشربونها شمولاً ،
بل يشربونها حارة كما ذكر ذلك أبو العلاء فى رسالة الغفران .

٣ — وقال علقمة الفحل * يصف مجلس شراب:

قد أشهدُ الشَّربَ فيهم مِزْهُرَ رِئِمٍ والقومَ تصرَّعُهمُ صُهباءُ خرطومٍ ^(١)
 كأسٌ عَزِيزٌ من الأَعْنَابِ عَتَقَهَا لبعضِ أحيائها حَانِيَّةٌ حَوْمٌ ^(٢)
 تَشْفَى الصَّدَاعَ ولا يؤذيكِ صَالِبُهَا ولا يخالِطُهَا في الرُّأْسِ تدْوِيمٌ ^(٣)
 عَانِيَّةٌ قَرَفٌ لم تَطْلُعْ سَنَةً يَخْنُهَا مُدْمِجٌ بِالطَّيْنِ مَخْتَوْمٌ ^(٤)
 ظَلَّتْ تَرَقُّقُ في النَاجُودِ يَصْفَقُهَا وليدُ أَعْجَمَ بالسَّكْتَانِ مَقْدُومٌ ^(٥)
 كَانَ إِبْرِيْقَهُمْ ظَبْيٌ عَلَى شَرْفٍ مُقَدَّمٌ بِسَبَا السَّكْتَانِ مَرْتُومٌ ^(٦)
 أَيْبُضُ أَبْرَزِهِ لِلضَّحْرِ رَاقِبُهُ مُقَلَّدٌ قَضْبَ الرِّيحَانِ مَفْعُومٌ ^(٧)

* ترجمه الشاعر: انظر الترجمة في ص ٩٨ .

التفسير اللغوي : (١) الشرب : جماعة الشاربين . المزهر الرئم : العود المترنم .
 الصهباء : خمر من عصير العنب الأبيض . الخرطوم : أول ما ينزل منها صافية .
 (٢) العزيز : الملك . عتقها : جعلها قديمة معتقة . حانية : قوم حارون نسبوا إلى الحانة ،
 الواحد حاني . الحوم : الطائفون حولها من حام يحوم كدار يدور وزنا ومعنى .
 (٣) الصداع . وجع الرأس ، ومثله الصالب . التدويم : الدوران .
 (٤) العانية : النسوبة إلى عانة ، وهي إحدى قرى الجزيرة . الفرقف : الخمر ترعد
 الشارب . لم تطلع سنة : مكثت في خايتها سنة دون أن يكشف عنها . يخنها : يسترها . المدمج :
 الدن طين بالطين . مختوم . معلم عليه .
 (٥) ترقق : تضطرب وتهتز . الناجود : الباطية العظيمة . يصفقها : ينقلها من ناجود
 إلى ناجود . مقدوم : مغطى فمه عند السقي . وكان الأعاجم يغطون فم الساق ، ومثلها مقدم .
 (٦) شرف : مرتفع من الأرض . مقدم : مغطى فم الإبريق . بسبا السكتان : بسباب
 السكتان ، خذف جزءا من الكلمة ، والسباب الشقق . مرتوم : المكسور أنه .
 (٧) أبرزه : أخرجه لتصبه الريح . الضح : الشمس . راقبه : مراقبه وحافظه . مقلد :
 معلق . مفعوم : مسدود بالريحان .

تحليل الأبيات :

يفخر علقمة بالخر ويزهو بشربها ، فيقول : إنه قد يشهد جماعة الندامى ومجلس
الشراب والغناء ؛ إذ تصرع القوم الصهباء ، وتستولى على عقولهم الراح ، فتدار علينا
كأس العزيز ، قد عصرت عقارها من الأعناب ، وعتقها خمارون ماهرون ، فهم يطوفون
حولها ، كأنها معبودهم ، ويدورون على بواطيلها ، كأنهم يقدسونها ، هذه الخمر المعتقة
تشفي الصداع ، وتزيل الدوار ، وإن يكن شأن الخمر غير ذلك ، فتأثيرها لنفاسها غير تأثير
سواها ، وكيف لا يكون ذلك أثرها ؟ وهي المنسوبة إلى عانة ، وهي إن أرعدت الجسم
فإنها تزن الرأس ، فقد بقيت في ذنها سنة كاملة ، لم يفض ختامها ، ولا رفع غطاؤها ،
فهي مدحجة بالطين ، تضطرب في جوتها ، وتترقق في ناجودها ، ينقلها من باطية إلى
أخرى فتى أعجمى ، ووليد رومى برع في صناعة الخمر ؛ لأنه يسقى الملوك ، فهو يسقيهم مغطى
القم ، حتى لا يشاركهم في استنشاق عبيرها ، وهو أدب تأدب به في قصور الأمراء
والملوك ، إبريق أولئك الشرب يشبه في بياضه وصفائه وطوله وامتداده ظبيا مستشرقا من
أعلى ، مغطى بشقق من الكتان ، وقد كسر أنف ذلك الظبي .

أبرز الوليد الإبريق الأبيض لبري أشعة الشمس ، وتصيبه ريح الشمال ، وهو يراقبه
ويحافظ عليه ، فله عنده الإكبار والإعزاز ، فهو كالمغطى بأغصان الريحان ، وذلك لطيب
ريحه ، وأرج عبيره ، يفعم الأنوف برائحته العابقة .

النقد :

وصف علقمة الشرب وقد صرعتهم الصهباء فأحسن وصفهم ، كما أنه صور تعتيق الخمر
فأحسن التصوير ، ونفى عن الخمر أبرز ما تعاب به وهو أنها تصدع الرأس ، وتذهب
العقل ، ولكنه لم يوفق إلى دليل يقيمه على ذلك الأثر ، ثم إنه وصفها بأنها قرقف ، وهذه
ترعد الجسم فوق أن اللفظ قبيح ثقيل ، ويظهر أن عانة كانت معروفة بالخمر في العصر
الجاهلي إلى جانب بابل .

٤ — وقال الأسود بن يعفر النهشلي * يصفها ويصف ساقها وندمانها :

- ولقد هُوتُ وللشبابِ لذادةً بسُلافةٍ مُزجتُ بماءِ غوادِي^(١)
 مِن خمرٍ ذى نطفٍ أغنَّ منطقي وأنى بها لدرامِ الإسجادِ^(٢)
 بسمي بها ذو تومتينِ مُشمرٌ قناتُ أنامله من الفِرصادِ^(٣)
 والبيضُ تمشى كالبدورِ وكالدُحى ونواعمُ يمشين بالأرْفادِ^(٤)
 والبيضُ يرمين القلوبَ كأنها أدحى بين صريمةٍ وجِجادِ^(٥)
 ينطقن معروفاً ، وهنَّ نواعمُ بيضُ الوجوه رقيقةُ الأكبادِ^(٦)

٦٣٤ :

* ترجمه الشاعر : هو الأسود بن يعفر بن عبد الأسود بن جندل بن نهشل ، أحد شعراء الجاهلية الفحول كان من ندماء النعمان بن النذر ، قال عنه ابن سلام الجعفي : « كان يكثر التنقل في العرب يجاورهم فيدم ويحمد ، وله في ذلك أشعار ، وله واحدة طويلة رائعة لاحقة بأول الشعر لو كان شفعها بثمنها قدمناه على أهل مرتبته ، وهو يريد القصيدة التي منها هذه الأبيات . توفي حوالى سنة ٦٠٠ م .

- التفسير اللغوي : (١) اللذادة : اللذة . السلافة : خالص الشراب وأوله . الغوادى : جمع غادية السحب تنشأ غدوة .
 (٢) النطف : الأقراط مفردها نطفة . الأغن : الذى يخرج صوته من خياشيمه . منطقي : لابس النطفة . أنى بها : أقبل بها . درام الإسجاد : درام الأكرمة كانت عليها صور يكفرون لها ويسجدون .
 (٣) التومتان : اللؤلؤتان . قنات أنامله : اشتدت حمرة أنامله فضربت إلى السواد . الفِرصاد : صبغ أحمر أو هو التوت الأحمر .
 (٤) البيض وصف لموصوف محذوف يقصد الغانيات . الدحى : جمع دمية التماثيل المصنوعة من الرخام ونحوه . الأرْفاد : جمع رفد الأقداح العظيمة .
 (٥) الأدحى : السكان تبيض فيه النعامة . الصريمة : القطعة من الرمل . الججاد : ما غلظ من الأرض وارتفع .
 (٦) معروفاً : قولاً لنا . رقيقة الأكباد : كناية عن حسن الخلق ولين الجانب .

تحليل الأبيات :

يصف الشاعر نفسه بأنه من أهل اللهو واللجون ، فكم قد لها ومجن ، وللهو شهوة ، وللمجون لذة ، ومن أدوات لهوه سلافة ممزوجة بماء الفوضى ، وشمول مشعشة بابن السحاب يديرها فتى اتخذ من الحسن كساء ، ومن الجمال لباسا ، فأذناه مشنفتان بالنطف ، وصوته محلى بالغنة ، وخصره مزين بالمنطقة ، فهو يضم إلى جماله الطبيعي جميع أسباب الحسن والزينة ، أقبل هذا الفتى على جماعة أثرياء يدفعون ثمن الراح من دراهم الأ كاسرة التي نقشت عليها صور آلهتهم ، وزينت برسم معبوداتهم .

يطوف ذلك الساقى على الندامى وقد زين بلؤلؤتين ثمينتين ، مشمرا عن ساعدين كأنهما صيغا من العاج أو سويا من البلور ، وكأن أنامله وقد صبغتها الخمر مخضبة بالقرصاد . يدع الفتى ذنه لئلا منه الكؤوس قيان روانع يدرن كأنهن البدور جمالا ، والدمى قواما ، وفي أيديهن الأقداح المترعة ، والكؤوس المفعمة يدرنهن على الشرب ، فيرمينهم بمحاجرهن ، ويصبنهن بعيونهن ، فيشقن قلوبهم ، فكأنها وقد نقبتا هذه النظرات أداحي نعام بين صريم وجاد ، فهن ينطقن كلاما ليئا ، ويسقن حديثا عذبا ، في نعومة ورقة ، إلى أنهن « بيض الوجوه رقيقة الأكباد » .

النقد :

أجاد الشاعر وصف الساقى والساقيات ، وأحسن تصوير مجلس الشراب ، وصوره تصويرا كاملا الأجزاء ، تام العناصر ؛ حتى إنه ليجب إلى أولى الزهد والعبادة أن يشهدوا ذلك المجلس الذي يظهر فيه ذلك الساقى ذو التومتين و :

والبيض تمشى كالبدور وكالدمى ونواعم يمشين بالأرقاد

والبيض يرمين القلوب كأنها أداحي بين صريمة وجاد

وأسلوب الشاعر رقيق عذب ، وكأنه اقتبس رفته من راحه ، وأخذ عذوبته من رحيقه ، لا بل من بيضه ونواعمه .

٥ — وقال عدى بن زيد * يصفها ويصف الساقية من قصيدة أولها :

بَكَرَ الْعَاذِلُونَ فِي وَضَحِ الصَّبْحِ يَقُولُونَ لِي أَمَا تَسْتَفِيقُ؟^(١)
وَدَعَوْا بِالصَّبُوحِ يَوْمًا، فَجَاءَتْ قَيْنَةً فِي يَمِينِهَا إِزْرِيقُ^(٢)
فَدَمَّتْهُ عَلَى عُقَارٍ كَمِينَ الدَّيْكَ صَنَّى سُلَافَهَا الرَّاؤُوقُ^(٣)
مُرَّةً قَبْلَ مَزْجِهَا، فَإِذَا مَا مَزَجَتْ لَدَّا طَعْمَهَا مَنْ يَذُوقُ^(٤)
وطفًا فَوْقَهَا فَقَاقِيعُ كَالْيَا قُوتِ حَمْرٍ، يَزِينُهَا التَّصْفِيقُ^(٥)
ثُمَّ كَانَ الْمِزَاجُ مَاءً سَحَابٍ لَا صَدَى آجِنُ وَلَا مَطْرُوقُ^(٦) ٦٤٠ :

* ترجمه الشاعر : هو عدى بن زيد بن حماد بن زيد بن أيوب « وأيوب هذا أول من سمى بهذا الاسم من العرب » شاعر تميمي فصيح ، عاش أجداده بالحيرة وكان أبوه زيد أحرق العرب في الكتابة فتولاها لكسرى أنوشروان ، وتعلم عدى العربية والفارسية والكتابة بهما ، وبعد أن شب صار مقدما عند النعمان الثالث ، وندبما له ، ثم صار كاتباً في ديوان كسرى أنوشروان ، ورحل إلى الشام فأقام بدمشق زمناً ، ثم عاد إلى كسرى ، وخرج من عند كسرى إلى الحيرة ، فتزوج هند بنت النعمان بن النذر ، فبقيت زوجة له حتى قتله النعمان ، فترهبت في دير عرف بإسمها حتى ماتت ، وكان قتل النعمان لعدى حوالى سنة ٥٨٧ م .

- التفسير اللغوي : (١) بكر : قاموا بكرة . العاذلون : اللاثمون . تستفيق : تفيق من غيك .
(٢) الصبوح : الحمر تشرب في الصباح . القينة : الجارية المغنية .
(٣) فدمته : صفته بالفدام ؛ وهو مصفاة أو نحوها توضع فوق الإناء ليصفي ما فيه . العقار الحمر . السلاف : خالص الشراب وأوله . الراووق : المصفاة .
(٤) مزجها : خلطها بالماء . لدا طعمها : التذ بطعمها .
(٥) طفًا فوقها : علا فوقها . التصفيق : نقل الشراب من إناء لآخر ليصفو .
(٦) صدى : متغير . آجن : راكد فاسد . مطروق : مباح للناس .

تحليل الأبيات :

بدأ عدى قصيدته بالغزل ، فذكر أن عاذليه بكروا يعذلونه على وجده ، ويلومونه على جواه ، ويدعونه إلى أن يستفيق من هواه ، وليس هؤلاء العاذلون من الحساد المبغضين ، ولكنهم من الندامى الحبين ، فما إن انتهوا من عذلهم إياه في ابنة عبد الله حتى دعوا بالخر ليضطبحوا ، فأقبلت ساقية فاتنة ، وقينة ساحرة في يمينها الإبريق مترعا بالمدام ، ممتلئتين الخان ، فوقه فدامه على عقار مصفى ، كمين الديك صفاء ولمعانا ، هي قبل أن نمرجها بآبن السحاب مرة ، فلما مرزجناها به راقنا ذوقها ، ولذنا طعمها ، راقنا جميعا ، ولذنا طرا ، لا فرق بين حديث الشراب ومدمنه ، وإذا هي بعد أن مرزجناها تطفو فوقها الفقاعات كاللآلى ، ويعلوها الحب كالدرر ، هذه الفقاعات لها حمرة كحمة الياقوت يزيد حسننها ، ويضاعف جمالها تنقلها بين الأكواب ، وتداولها في الأباريق والكؤوس .

ثم كان مزاجها ماء صافيا مسكوبا من المزن ، ومصبوبا من السحاب ، لا راكدا ولا فاسدا ، فهو غير متغير اللون أو الرائحة أو الطعم ، وليس كذلك مطروقا لكل وارد ، ولا مباحا لكل قاصد ، فيعكره كثرة الواردين ، ويغيره تعدد القاصدين .

النقد :

عدى بن زيد أرق شعراء العصر الجاهلي ؛ لأنه عاش عيشة حضرية ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : « من بدا جفا » .

وعدى في هذه القصيدة أرق من الشعراء العباسيين ، تبدو رفته في أسلوبه ، وفي ألفاظه ، وتبدو الرقة في كثرة تداول الحرف الذي اختاره قافية لقصيدته وهو القاف ، فانظر إلى هذا البيت :

فدمته على عقار كمين الديك صفي سلافها الراووق

وقد أخذ بعض معانيه كثير من شعراء الخمر كالأخطل وأبي نواس وشوقي ، وأخذهم إياها دليل إعجابهم بها .

نظرة في وصف الخمر ومجالسها

(١) كانت الخمر في العصر الجاهلي من مظاهر السراء والثراء ومن دلائل المروءة والنبالة ، ومن أسباب العزة والفتوة ، فأقبل عليها كل من يريد أن يتسامع الناس عنه أنه سري ثري ، كريم نبيل ، ولم ينحرف عن معافرتها إلا قلة ضئيلة رأت فيها غير ما يراه الآخرون ، ولعل أولئك الذين انحرفوا عنها قد شاركوا الآخرين في وصفها ، وأسهموا معهم في نعتها .
وها قد عرضنا خمسة نماذج لوصفها ، وهي وإن تكن قليلة إلا أنها تشعرنا باحتفالهم لها ، واحتفالهم بها ، وجميعهم من ذوى المراكز الخطيرة في الجزيرة العربية سواء كان خطرهم ذلك مؤثلاً أو مستحدثاً ، وقد تفرعت بينهم أساليب الوصف ، فهذا الأعشى يصور لنا مجلساً تبارى فيه الشرب ، في حوار ممتع ، ونجوى رائعة . وفي تصوير بارع ، وتلوين دقيق ، من مثل قوله :

فقام فصب لنا قهوة تسكننا بعد إرعادها

كيتا تكشف عن حمرة إذا صرحت بعد إزبادها

وهذا عمرو بن كلثوم يتحدث عنها حديث الأشراف النبلاء ، فلا يصف أثرها في الجسم ، أو فعلها في الرأس ، وإنما يصف أثرها في الأخلاق ، وفعلها في الخلخال ، فهي :

تجور بذى اللبانة عن هواه إذا مذاقها حتى يلينا

تري اللحن الشحيح إذا أمرت عليه لماله فيها مهينا

أما علقمة الفحل فيصف مجلس الشراب تدار فيه الراح على نفحات المزهر الرنم ، « والقوم تصرعهم صبياء خرطوم » وينسب الكأس إلى أنها « كأس عزيز من الأعناب عتقها » ويصف الإبريق ويصوره تصويراً غير واضح فهو كالظبي المستشرف ، وقد وضخنا وجه الشبه في التحليل على النحو الذي ارتضيناه ، وعلى أى فالخمر معتقة قد :

ظلت تفرق في الناجود يصفقها وليد أعجم بالسكتان مفدوم

كان إبريقهم ظبي على شرف مفدم بسبا السكتان مرثوم

وإذا كان للناقد ما يأخذه على علقمة فهو صلابة لفظه ، وجزالة كله التي لا تلائم الخمر
الرفيقة الساسة ، ونعتها بما لم يعهد فيها ؛ إذ لم يعرف إلا المدمنون — إن كانوا — أن الخمر
تشفى الصداع ، « ولا يخالطها في الرأس تدويم » .

أما الأسود بن يعفر فقد انصرف عن الحديث في الخمر إلى الحديث عن سقاتها ، فأبدع
في وصفهم ، وأجاد في تصويرهم ، فيقول :

والبيض تمشى كالبدور وكالدى ونواعم يمشين بالأرصاد

والبيض يرمين القلوب كأنها أدحى بين صريعة وجاد

ينطقن معروفا وهن نواعم بيض الوجوه رقيقة الأكباد

أى تصوير للجمال أوضح من ذلك التصوير ؟

أما عدى بن زيد فقد وصف الخمر بالصفاء ، فالساقية قد صفت الخمر بالقدام فقال :

قدمته على عقار كعين الديك صنى سلافها الراووق

ولعل قائل أن يقول : ما العقار وما السلاف ؟ فنقول : إن العقار غير السلاف في المعنى

الدقيق ، فقد سميت الخمر عقارا لأنها عاقرت الدن ، أما السلاف فالخمر لأول عهدا ، وهنا

تبدو دقة عدى في استعمال الألفاظ . وكأنى بشوق بك قد نظر إلى قول عدى :

وطفا فوطها فقاقيع كاليا قوت حمر يزينا التصفيق

فتدارك ما فيه من نقص ؛ إذ قال :

حرف كأسها الحبيب فهي فضة ذهب

فالقفاقيع لا تكون كاليا قوت ، وأحسب أن قوله « حمر » هذه حشو فالياقوت لا يكون

إلا أحمر ، فأما صدى في قوله : « لا صدى آجن ولا مطروق » : فلم نثر لها على معنى

صريح يلائم البيت ، فعانى الصدى الصريح لا يؤدي المعنى المراد ، ففسرناها بتابعه ،

وعلى كل فعدى من زعماء وصف الخمر ، وأسلوبه آية الرقة والسلاسة ، ولعل حياته

في فارس والحيرة والشام منحة من المعاني ما لم يمنحه شاعر سواه .

(د) وصف الأسلحة

١ - قال أوس بن حجر * من قصيدة أولها :

صَحَا قَلْبُهُ عَنْ سَكْرَةٍ وَتَأَمَّلَا وَكَانَ يَذْكُرِي أُمَّ عَمْرٍو مُوَكَّلَا^(١)

وَإِنِّي أَمْرُؤٌ أَعَدَدْتُ لِلْحَرْبِ بَعْدَمَا رَأَيْتُ لَهَا نَابًا مِنَ الشَّرِّ أَغْصَلَا^(٢)
أَصَمَّ رُدَيْنِيًّا كَانَ كَمُوبَةٍ نَوَى الْقَسْبِ عَرَاصًا مَزْجَامُنْصَلَا^(٣)
عَلَيْهِ كَصَبَاحِ الْعَزِيزِ يَشْبُهُ لِفَضْحٍ وَيَحْشُوهُ الذَّبَالُ الْمُفْتَلَا^(٤)
وَأَمْسَسَ حَوْلِيًّا كَنَهْيٍ ، قَرَارُهُ أَحْسَنَ بَقَاعٍ تَفْخُ رِيحُ فَأَجْفَلَا^(٥)
كَانَ قُرُونُ الشَّمْسِ عِنْدَ ارْتِفَاعِهَا وَقَدْ صَادَفَتْ طُلُعًا مِنَ النَّجْمِ أَعْزَلَا^(٦) : ٦٤٦

* رَمَحَهُ الشَّاعِرُ : هو أوس بن حجر بن أسيد بن عمرو بن تميم ، كان شاعر مضر حتى أسقطته النابغة وزهير ، واستقرت له شاعرية تميم ، ومن النقاد من يقدم عليه عدى بن زيد ولسنا على رأيهم . توفي سنة ٦١٠ م .

التفسير اللغوي : (١) تأمل : تدبر . بذكرى : بتذكر . أم عمرو : خليلته . موكلا : مشغولا . (٢) أعددت : جهزت . أعصل : ملتويا معوجا . (٣) أصم : صلباً متيناً . ردنيا : منسوباً إلى ردينة العروفة بتنقيف الرماح مع زوجها سمير . القسب : الثمر اليابس . عراصا : كثير المعان . مزجا : موضوعاً له الزوج . منصلا : مركباً له النصل . والزوج : الحديدية في أسفل الرمح ، والنصل الحديدية في أعلاه . (٤) العزيز : الملك . يشبه : يشعله . لفصح : بكسر الفاء من أعياد النصارى ، وبالفتح الصبح ، والأول هو الراد . الذبال : فتيل السراج . المقتول : القتلا محكما . (٥) أأمس حوليا : درعا ملساء قد مضى على نسجها حول ، والدرع تؤثت وتذكر . النهى : الغدير . القرار : القعر . بقاع : بأرض سهلة مطمئنة . فأجفل : تخاف وفزع . (٦) قرون الشمس : أشعتها ، وقرن الشمس أول ما يبدو منها عند شروقها . الطلع : المكان المشرف . النجم : النبات الصغير . أعزل : منفردا .

- ترددَ فيه ضوؤها وشعاعها فأحصن وأزّين لأمرى إن سرّ بلا (٧)
 وأبيضَ هندياً كأنَّ غرارَه تَلَأُلُوْ بَرَقٍ في حَبي تَكَلَّلَا (٨)
 إذا سُلِّ من غمْدٍ نَأْ كَلَّ أَثْرُهُ عَلَى مِثْلِ مِصْحَاةِ اللّجَيْنِ نَأْ كَلَّ (٩)
 كأنَّ مَدَبَ النَّمْلِ يَتَّبِعُ الرُّبَا وَمَدْرَجَ ذَرٍّ خَافَ بَرْدًا فَأَمْهَلَا (١٠)
 عَلَى صَفْحَتَيْهِ مِنْ مُتُونٍ جَلَالَتِهِ كَفَى بِالَّذِي أُبْلِيَ وَأُنْعَتْ مُنْضَلَا (١١)
 وَمَبْضُوعَةٍ مِنْ رَأْسِ فِرْعَ شَطِيطَةٍ بِطَوْدٍ تَرَاهُ بِالسَّحَابِ مُجَلَّلَا (١٢)
 عَلَى ظَهْرِ صَفْوَانٍ كَأَنَّ مُتُونَهُ عَلَانٌ يَدُھْنُ يَرْلِقُ الْمَتَنَزِّلَا (١٣)
 يُطِيفُ بِهَا رَاعٍ يَجْتَنُّ نَفْسَهُ لِيَكَلَّا فِيهَا طَرْفَهُ مُتَأَمِّلَا (١٤)

٦٥٤ :

- (٧) فأحصن : أفعال تعجب من حصن ، أى فما أحسنه . تسربل : لبس السربال .
 (٨) غرارَه : حده . حبي . سحاب . تكلل : لبس الإكليل ، وهو شبه عصاة
 تزين بالجواهر .
 (٩) نَأْ كَلَّ : توهج واشتد لمعانه . أثره : فرنده وجوهره . المصحاة : إناء للشرب ، وفي
 رواية مسحاة ، وهى أداة تشبه المبرد ، ولعلها أنسب . اللجين : الفضة .
 (١٠) مدب : مصدر ميمى ، ديبب . يتبع الربا : يقصد المرتفعات . مدرج : درج .
 القدر : صغار النمل أو هو الهباء المنتشر فى الهواء . فأسهل : فنزل من الجبل إلى السهل .
 (١١) على صفحته : على جانبيه . متون : جمع متن ظهور . أنعت : حسن . المنصل :
 السيف .
 (١٢) المبضوعة : المقطوعة ويعنى بها القوس . الشطية الفلقة من الفصن أو نحوه .
 الطود : الجبل . مجللا : ملتفا بالسحاب .
 (١٣) الصفوان : الصخر الصلد . علان : سقين مرة بدمرة ، والعلل السقى للمرة الثانية ،
 وضده التهل . المنزل : النازل ببطء وحذر .
 (١٤) يطيف بها : يدور حولها . يكلف . ليكلأ : ليردد . طرفه : عينه
 متأملا : متدبرا متمعنا .

- فَلَا قَىٰ امْرَأًا مِّنْ مَّيْدَعَانَ وَأَسْمَحَتْ قَرَوْنَتُهُ بِالْيَأْسِ مِنْهَا وَعَجَلًا (١٥)
 فَقَالَ لَهُ : هَلْ تَذْكُرُنَّ مُحَسَّرًا يَدُلُّ عَلَى غُثْمٍ وَيَقْصُرُ مُعْجَلًا؟ (١٦)
 عَلَى خَيْرٍ مَا أَبْصَرْتَهَا مِنْ بِضَاعَةٍ لِّلْمُتَمَسِّ بَيْعًا لَهَا أَوْ تَبَكَّلًا (١٧)
 فَوَيْقَ جُبَيْلٍ شَامِخِ الرَّأْسِ لَمْ تَكُنْ لَتَبْلُغَهُ حَتَّى تَكُلَّ وَتَعْمَلَا (١٨)
 فَأَبْصَرَ أَهْلَابًا مِنَ الطُّودِ دُونَهُ يَرَى بَيْنَ رَأْسَيْ كُلِّ نِيقَيْنٍ مِّهْبَلًا (١٩)
 فَأَشْرَطَ فِيهَا نَفْسَهُ وَهُوَ مُعْصِمٌ وَالْقَى بِأَسْبَابِ لَهُ وَتَوَكَّلَا (٢٠)
 وَقَدْ أَكَلَتْ أَظْفَارُهُ الصَّخْرَ، كُلَّمَا تَعْيَا عَلَيْهِ طُولُ مَرَقِي تَسْهَلَا (٢١)
 فَمَا زَالَ حَتَّى نَالَهَا وَهُوَ مُشْفِقٌ عَلَى مُوْطِنٍ لَوْ زَلَّ عَنْهُ تَقْصَلَا (٢٢)
 ٦٦٣ : فَأَقْبَلَ لَا يَرْجُو الَّذِي صَغُرَتْ بِهِ وَلَا نَفْسَهُ إِلَّا رَجَاءَ مُؤْمَلًا (٢٣)

- (١٥) ميدعان : عين . أسمعحت : سمحت . قرونته : نفسه ، اليأس : انقطاع الأمل .
 (١٦) غثم : ربح . يقصر : يقصر ويعيا .
 (١٧) للمتمس : لطالب . تبكلا : غنيمة .
 (١٨) جبيل : تصغير جبل ، والتصغير للتعظيم . تكل : تعب وتعب . تعمل :
 تجهد ومتعب .
 (١٩) الأهلاب : جمع لهب وهو الصدع في جانب الجبل . نيقين : ثنية نيق ، وهو
 المكان المرتفع . مهبلا : الهوة الناهبة في الأرض .
 (٢٠) فأشروط : فأعد وأزم نفسه . معصم : ممسك . أسباب : وسائل . توكل :
 اعتمد على الله .
 (٢١) تعيا : أعجزه . مرقى : تسهل . طلب السهل ، وفي رواية توصل .
 (٢٢) مشفق : خائف . زل عنه : سقط عنه : تفصل : تقطع وتفرق جسمه .
 (٢٣) لا يرجو : لا ينتظر نفسه التي صعدت به . رجاء مؤملا : رجاء متمنى منتظرا .

- ✓ فلماً قَضَى مِمَّا يُرِيدُ قَضَاءَهُ وحلَّ بها حرصاً عليها فأطولا (٢٤)
- ✓ أمرَ عليها ذاتَ حَدٍّ ، غرابُها رقيقٌ بأخذٍ بالمداسِ صَيْقلاً (٢٥)
- ✓ على لَحْذِيهِ من بُرَايَةِ عُوْدِهَا شبيهُ سفا البهمى إِذَا مَا تَفَتَّلَا (٢٦)
- ✓ فَجَرَدَهَا صَفراءَ ، لا الطولُ عابِها ولا قِصرٌ أزرى بها فَعُطَّلَا (٢٧)
- ✓ إِذَا مَا تَعَاطَوْهَا سَمِعَتْ لِصَوْتِهَا إِذَا أَنْبَضُوا عَنْهَا نَثِيًّا وَأَزْمَلَا (٢٨)
- ✓ وإن شَدَّ فِيهَا النَّزْعَ أَدْبَرَ مَهْمُهَا إِلَى مُتَعَيٍّ مِنْ عَجْسِهَا ثُمَّ أَقْبَلَا (٢٩)
- ✓ وَحَشَوِ جَفِيرٍ مِنْ فُرُوعٍ غَرَابٍ تَنْطَعُ فِيهَا صَانِعٌ وَتَنْبَلَا (٣٠)
- ✓ ٦٧١ : تُخَيِّرُنْ أَنْضَاءَ ، وَرُكْبَنَ أَنْضَلَا كَجَمْرِ الْفَضَائِي يَوْمَ رِيحٍ تَزِيلَا (٣١)

(٢٤) حل بها : نزل بها . فأطول : فأطال المقام والحلول .

(٢٥) ذات حد : كناية عن السكين . غرابها : حدها . المداس : جمع مدوس كبير آلة الصيقل يشق بها القسي .

(٢٦) براية . بقايا البرى . السفا : من السنبل حسكه . البهمى : نبات يشبه الشعير . تفتل : التف بعضه على بعض .

(٢٧) فجردها : خلعها من قشرها . أزرى بها : عابها . فعطل : فلا تعمل .

(٢٨) تعاطوها : تناولوها . أنبضوا عنها : حركوا وترها . نثيا : صوتا ؛ والنثم صوت القوس والأسد والظبي . أزملا : ريفنا .

(٢٩) أدبر : تحول . عجسها : مقبضها ومثله معجسها .

(٣٠) الجفير : الكتانة توضع فيها السهام . تنطع . تأنق ، ومثلها تنبل .

(٣١) أنضاء : جمع نضو هزلا ، ويقصد به السهم قبل أن يراش . الأنضل : جمع فصل ، وهو الحد . النضا : شجر من الأثل خشبه من أصلب الخشب ، وجره يبق زمنًا طويلا لا ينطق ، تزيل : تفرق وتوزع .

فَلَمَّا قَضَىٰ فِي الصَّنْعِ فِيهِنَّ فَهَمَّهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تُرَاشَ وَتُصَقَّلَ (٣٢)

كَسَاهُنَّ مِنْ رِيَشٍ يَمَانٍ ظَوَاهِرًا

سُخَامًا ، لُوْأَمًا ، لَيْسَ الْمَسُّ ، أَطْحَلًا (٣٣)

٦٧٤ : فَذَاكَ عَتَادِي فِي الْحُرُوبِ إِذَا التَّظَّتْ

وَأُرْدَفَ بَأْسٌ مِنْ خُطُوبٍ وَأُعْجَلَا (٣٤)



(٣٢) فهمه : حذقه ، وفي رواية همه . تراش : يركب فيها الريش . تصقل : تحدد .

(٣٣) يمان : منسوب إلى اليمن . سخاما : ريشا ظاهرا . لواما : ريشا يلائم بعضه بعضا . أطحل : أغبر يميل إلى السواد .

(٣٤) انتظت : اشتعلت وتلظت . أردف : تبع . بأس : شدة .

تحليل الأبيات :

صحا القلب عن سكرته ، وأفارق الفؤاد من غوايته ، وكان من قبل مشغولاً بمحبوبته ،
صحا ومن حقه أن يصحو ، فالعزة تنسى الإنسان ملاذها ، والمجد يصرف المرء عن هواه ،
وهذه الحرب التي هي من أقوى أسباب العزة والمجد قد تكشفت ، فلنأخذ لها أهبتها ،
ولنعد ليومها عتادها .

قد أعددت لها ربحاً صلباً ثقفته رديفة فأحسنتم ثقافه ، فكموبه كنوى التمر اليابس
نعومة وملاسه ، ثم أزجته وأنصلته ، فبدا كأن عليه مصباح ملك يشعله في يوم عيد ،
فيحشوه الذبال المقتل ، والقتيل المحكم ؛ ليكون ضوءه أسطع ، ونوره ألمع .

وأعددت لها درعا ملساء نسجها ناسجها في عام كامل ، فهي في تماوج نسيجها ، وبريق
قتيرها كالغدير تلعب بمائه الريح الهادئة ، ويداعبه النسيم العليل ، فيلمع موجه ، ويظهر
فوقه دوائر بيض ، أو كأن لمعانها أشعة الشمس صادفت مستشرفاً من نبت ناجم ، فضوءها
يتردد عليه ، ونورها ينبسط فوقه ، فكأنه الثوب يتردى به ذلك النجم الأعزل ، فما أعظم
حصانته ، وما أجمل زينته !

وأعددت لها سيفاً مهنداً ، وأبيض مرهفاً كأن حده برق يتلألأ وسط سحب
مستدير ؛ إذا سل من غمده توهج فرنده ، وتأكل رونقه ، فصار في توجهه ولمعانه كمسحاة
من اللجين ، وكان رونقه في التماع صفحتيه ديبب نعال تصعد في الربا يقابله درج هباء
يسقطه إلى الأرض خشية البرد ، وكفى هذا الذي أبلى غمده ، وأحسن نعتة منصلاً !

وأعددت لها قوساً قد بضعت من فرع شجرة نبتت في جبل جليل بالسحاب ، فوق
ظهر صخر أصم ، كأنه قد نهل وعلّ من دهن يزل منه الحذر ، ويزلق من مسيره على
صخره البطيء ، فاكسب من ذلك الصخر صلابته وملاسته ، يدور حول هذه الشجرة
راع يكلف نفسه مالا يطيق ، ويحشمها مالا تستطيع ؛ ليمتع بمرآها طرفه ويردد فيها
بصره ، وإذا هو يتأملها ، ويتمن فيها لاقى امرأ من « ميدعان » وقد يئست نفسه من

الوصول إليها ، ومجالت عن بلوغها ، فقال له ذلك « المبدعاني » أتعرف من يخبر بالخير ويقصر عنه ؟ ويأمر بالبر ولا يفعله ؟ إنه أنا ذلك الخبر الأمر ، إنها خير ما يبصر به المرء الذى يلتمس بيما أو يرجو رجحا ، إنها فوق جبل شامخ القمة ، مستطيل القنة ، ولن تبلغه حتى تتعب وتنصب ، وتعمل فتجهد ، فرأى شقا يستطيع أن ينفذ منه ، ومخرما قد يقدر أن يصعد فيه ، ولكنه يرى بين مرتفعين هوة قد يسقط منها فتودى به ، فالزم نفسه أن يبلغ قمته ممسكا بأسباب الحياة ، معتصما بالتوكل على الله ، لقد ناله فى مرقاه الضر ، فأكل أظفاره التى يتسلق بها الصخر ، فكلما أعياء المرقى ابتغى مرتقى أسير ، فما زال يعالج أمره ؛ حتى بلغه وهو خائف وجل من موطن لوزلت فيه قدمه لتفرقت أوصاله ، فلما قطع مبسوخته ، وقضى لبائته ، وحل بالقمة أطال المقام حرصا على نيل بغيته .

وبعدئذ أمر على الفرع شفرته ، وأرسل فوقه غراب سكينه ، يصقل به ما قد شق فى الوصول إليه ، وإنك لتجد فوق تخذه براية غصنها ، ونفاية عودها تشبه شفا البهيمى إذا التف بعضه على بعض .

فجردها قوسا صفراء لا يعيبها طول ، ولا يزرى بها قصر ، فهى معدة لحينها ، مؤدية أعظم ما يرجى منها ؛ إذا ما تناولها قواسوها ، وأنبضوا وترها سمعت لها صوتا حنوناً ، ونثيا ورنيئا ، وهى لينة صلبة متى شد النازع فيها السهم عاد إلى مقبضها ، ثم ما يلبث أن يتركه فيذهب بعيداً لقوة دفعها ، وصلابة عودها .

وأعددت كنانة محشوة بالسهم المصقولة من فروع أشجار غرائب فى صلابتها ، قد تأنق فيها صانعها ، وتمهل فى صقلها صاقلها ، فاختيرت ، ثم ركبت فيها النصال حمرا محددة كأنها جمر الغضا فى يوم ريح ، فتفرق فى اليمين والشمال ، ثم تطاير فى كل مكان . فلما أتم صنعها ، وأولاهها جميع فهمه وحذقه كساهن ريشا يمانيا سخاما ولؤلؤا ، لينا مغبرا . ذلك عتادى عند تأجج الحرب ، وترادف البأس ، واشتداد الخطب .

النقد :

بلغ أوس بن حجر في قصيدته تلك من وصف العتاد عند العرب ما لم يبلغه شاعر ، وجاء في تصويرها وتحديد آثارها بما لم يجي به كى محارب ، فهو قد استقصى هذه الأسلحة لم يغادر منها سلاحا ، فهي : أصم رديني ، وأملس حولي ، وأبيض هندي ، ومبضوعة من رأس فرع ، وحشو جفير من فروع غرائب .

وقد منح كل سلاح من هذه الأسلحة عنايته ، فوصفه أدق وصف ، وصوره أروع تصوير ، وشبهها بما يلائمها أجمل تشبيه ، فكان فارس الحلبة في هذا الميدان ، وأنا معيد جميع أبياته لو أردت أن أعرض جميل صورته ، وبديع رسمه ، فأى صورة أروع من تصوير درعه وقد لمع قتيورها ، وتلألأت في أشعة الشمس مساميرها ، فبدت مهتزة مضطربة كأنها غدیر تهز ماءه نسائم رفاق ، أو كأنها قرون الشمس ساطعة مرتفعة فصادفها نبت ناجم ، فضوؤها يسطع فيه ، وأشعتها تتردد فوقه ، ما أجمل هذا المنظر ! وما أزينه ! وما أقدر من رسمه وما أحسنه ! هل أقول لقد أوفيته حقه إذ عرضت صورته ؟ لا ، ولكني أكاد أوفيه ذلك إذا عرضت الأبيات التي تشتمل على الصورة لترى فيها الأجزاء واضحة القسمات ، بادية المحاسن ، مقسمة الظلال ، متلائمة الأجواء ، وها هي ذى :

وأملس حوليا كنهى ، قراره أحس بقاع نفح ريح فأجفلا
كأن قرون الشمس عند ارتفاعها وقد صادفت طلعا من النجم أعزلا
تردد فيه ضوءها وشعاعها فأحصن وأزين لامرى إن تسربلا

ومع أنه وهب لكل سلاح عنايته إلا أنه آثر القوس إشارا عظيما ، ولعله كان ذا تأثير في حياته أكثر من سائر عتاده ، فقد وصفها في ثمانية عشر بيتا ، ذكر فيها منبتها الذي نبت فيه ، وبضعت منه ، وباضعها الذي عرف أصلها ، فأطاف بها ، وصاحبه الذي شجعه على قطعها . . . وهكذا ما يزال يرسم خطواته ؛ حتى يصل إلى صوتها عند نزعها فيقول :

إذا ما تعاطوها سمعت لصوتها إذا أنبضوا عنها ثنيا وأزملا
وإن شد فيها النزع أدبر سهمها إلى منتهى من عجزها ثم أقبل

ولست مبالغا إن قلت إن الشعراء السكاة أخذوا جل معانيهم من ذلك الشاعر الذي لم
يكن فارسا من الطراز الأول ، فقد كان يقع في الأسر كثيراً ، ويفر من ذلك الأسر ،
وكأنى به كان يحمس الفرسان والأبطال بوصف العتاد ، وتلك الطريقة إحدى طرق
النصر ، فلم يكن له من أسبابه إلا وصف عتاده لكان قد أدى واجب قبيلته عليه ،
فكيف وقد كان مشاركا فيه ؟

أوس بهذه الأبيات أقدر من وصف القوس ، ومنه اقتبس من وصفها بعده ، وعلى
رأسهم الشماخ بن ضرار .



٢ — وقال الشماخ بن ضرار * يصف قوساً :

تَخَيَّرَهَا الْقَوَاسُ مِنْ فَرْعِ ضَالَةٍ لَهَا شَدَبٌ مِنْ دُونِهَا وَحَزَائِرُ^(١)
نَمَتْ فِي مَكَانٍ كَنُهَا فَاسْتَوَتْ بِهِ وَمَا دُونَهَا مِنْ غَمِيلٍهَا مُتَلَاخِزُ^(٢)
فَمَا زَالَ يَنْحُو كُلَّ رَطْبٍ وَيَاسٍ وَيَنْفُلُ حَتَّى نَالَهَا وَهُوَ بَارِزُ^(٣)
فَأَنْحَى عَلَيْهَا ذَاتَ حَيْدٍ ، غَرَابِهَا عَدُوٌّ لَأَوْسَاطِ الْعِصَاهِ مُشَاوِرُ^(٤)
فَلَمَّا اطْمَأَنَّتْ فِي يَدَيْهِ رَأَى غَفًى أَحَاطَ بِهِ ، وَازْوَرَّ عَمَّنْ يُحَاوِرُ^(٥)
فَأَمْسَكَهَا عَامِنٍ يَطْلُبُ دَرَاهَا وَيَنْظُرُ مِنْهَا مَا الَّذِي هُوَ غَامِزُ؟^(٦)
أَقَامَ الثَّقَافُ وَالطَّرِيدَةُ مَتْنَهَا كَمَا أَخْرَجَتْ ضِفْنُ الشَّمُوسِ الْمَاهِزُ^(٧)
٦٨٢ : فَوَافَى بِهَا أَهْلَ الْوَاوِسِمِ فَانْبَرَى لَهَا يَبِيعُ يُغْلَى بِهَا السَّوْمُ رَائِزُ^(٨)

* ترجمه الشاعر : هو الشماخ بن ضرار التغلبي من ثعلبة بن سعد بن ذبيان ، وال شماخ لقبه واسمه معقل أدرك الإسلام ، وقال عنه الخطيب : إنه أشعر غطفان ، ذكروا عنه أنه أوصف الناس للحمر الوحشية وللحوس ، وأرجز الشعراء على البدية . توفي سنة ١٨ هـ .

التفسير اللغوي : (١) الضالة : شجرة السدر البرية . الشذب : العيدان المشدبة المقطوعة . الحزائر : لم نجد هذا الجمع في القواميس ، وقد فسر في الجمهرة بأنها أصول الشجر العظيم ، ولعلها الجزائر . وهي جمع جزة ، ومن شأن الصوف التفرق .

(٢) كنها : سترها . القيل : الشجر اللتف . متلاخز : متضايق .

(٣) ينحو : يقصد . ينفل : يدخل تحت الشجر ليتخير أقواها جذرا . بارز : ظاهر .

(٤) فأنحى عليها : فاعتمد عليها . ذات حد : كناية عن موصوف هو القاس أو السكين . غرابها : حدها . مشاور : محارب .

(٥) اطمأنت : سكنت يعني القوس . ازور : مال وصد . يحاوز : يغالط .

(٦) درأها : بسطها . القامز : السكان المطمئن فيها ، يعني الشق .

(٧) الثقاف : خشبة تقوم بها الرماح . الطريدة : القصبة التي يعرف بها اعتدالها . الشموس : الفرس الجوح . الماهز : جمع مهمز أو مهماز ، وهي حديدة في مؤخر خف الرائص .

(٨) فوافى بها : فجاء بها . انبرى : اعترض . بيع : مباع . السوم : البيع . رائز : مجرب .

- فقال له : بايع أخاك ولا يكن
لك اليوم عن ربح من البيع لاهز^(٩)
فظل يناجي نفسه وأميرها
أيا بني الذي يعطى بها أم يجاوز^(١٠)
فلما شراها فاضت العين غيرة^(١١)
فذاق ، فأعطته من اللين جانباً
كفى ، ولها أن يفرق السهم حاجز^(١٢)
إذا أنبض الرامون فيها ترنمت^(١٣)
ترنم شكلى أوجعتها الجناثر^(١٤)
هتوف إذا ما خالط الظبي منهمها^(١٥)
وإن ريع منها أسلمته النواقر^(١٦)
كان عليها زعفراناً تميره
خوازن عطار يمان كواثر^(١٧)
٦٩٠ : إذا سقط الأنداء صينت وأشعرت^(١٨)
حبيراً ، ولم تدرج عليها المعاوز^(١٩)

(٩) بايع أخاك : به . لاهز : الجبل ويقصد لا يكن لك مانع أو صاد .

(١٠) يناجي نفسه : يسارها . يجاوز : يقبل متجاوزاً . أميرها : قلبه .

(١١) شراها : باعها . حزاز : حزن يحز في قلبه . حامز : ممض محرق .

(١٢) فذاق : فجرها . يفرق السهم : يضيع يادباره .

(١٣) أنبض الرامون : حركوا الأوتار . ترنمت : شكلى : فاقدة ولدها .

(١٤) هتوف : ذات صوت . ريع : أفزعه الرامي النواقر : قوائم الظبي اللوابة .

(١٥) الزعفران : صبغ أصفر . تميره : تحركه فتطلى به . خوازن : جمع خاذنة ،

وكواثر كذلك جمع كاذنة .

(١٦) الأنداء : جمع ندى . صينت : حفظت . أشعرت : ألبست الشعار . حبيراً : برداً

موشى . المعاوز : الأخلاق .

تحليل الأبيات :

تخير هذه القوس قوَّاس عليم بجيادها ، بصير بأعوادها ، فأتخذها من فرع ضالة قد شذبت زوائدها ، وقطعت أطرافها ، فطالت وزكت ، ونمت في مكان سترها عن العيون ، فاستوت دون أن تمتد إليها يد ، أو يمتص غذاءها جذر ، إذ تباعدت عنها الأشجار التي يمكن أن تسهم معها في الغذاء ، في حين أن غيرها قد التفت بعرضه على بعض ، فغذاؤه ضئيل ، وشرابه قليل .

ما زال هذا القواس يحس الأشجار ، ويتحسس نبعها : رطبها ويابسها ، صلبها ولينها ، وكلها لا ترضيه حينما يتبين جذرها ويتعرف أسها ؛ حتى نالها وهو ظاهر ، فقصدتها بفأسه المرفقة الحد ، العدوَّة لكل عضمة ، المحاربة لكل ضالة ، فلما سكنت في يديه توسم غنى ، قد نزل به ، فصد عن مخالطه .

وأمسكها عامين كاملين يقومها ويبسطها ، وينظر أثر الشق فيها ؛ حتى أقام الثقاف ميلها ، وسوت الطريدة مقنها ؛ مثل الثقاف والطريدة في صقلها وتقويمها كمثل المهامز تخرج ضمن القوس الشموس .

وأقبل القواس على الموسم مزهواً بها ، نفورا بثقافها ، فاعترضه رجل يحسن المساومة ، فأدرك ما فيها من حسن ، فبايعه إياها ، وأغلى له في ثمنها ، وأغراه الربح فهو ينجح نفسه ، ويؤامر قلبه ، أيأبى البيع أم يتجاوز عنها وقد ضمن الربح الكثير ؟

فباعها وعينه تفيض بالعبرات ، وقلبه يتقطع حسرات ، فاختبرها شاريها ، فأعطته اللبان دون أن تضع سهمه ، فلما من صلابتها عن إغراقه حاجز ، فإذا حرك الرامون وترها ترنمت كترنم التكللى التي أكل قلبها الحزن ، تصوت صوتاً حزيناً عند ما يخرق سهمها الظبي ، كأنها تواسيه وتناجيه ، وإن أجفل منها وفزع فحاول البعد عن سهمها لم تطاوعه النواقر .

كأن هذه القوس قد خضبت بالزعفران ، تحركه فيصيبها طلاؤه الحزون عند عطار ،

ويلحقها خضابه المكنوز عند يمانى ، إذا سقط الندى صينت منه ، وألبست شعارا من الحبير الموشى ولم تغط بالخلق من الثياب .

النقر :

قصد الشماخ إلى وصف القوس قصدا ، فلم يشرك معها سواها في وصفه إياها كما فعل أوس بن حجر ، ولكنه مع هذا كان أقصر من سلفه نفسا ، وكانت معانيه أقل من معانى أوس بداعة وحسنا ، وذلك أنهما كليهما وصفا منبت قوسه ، فقال أوس :

ومبضوعة من رأس فرع شظية بطود تراه بالسحاب مجللا
على ظهر صفوان كأن متونه علان بدهن يزلق المتزلا
يطيف بها راع يجشم نفسه ليكلأ فيها طرفه متأملا

فقوسه من رأس فرع شظية بطود مجلل بالسحاب على ظهر صفوان ناعم أملس ، فالوصول إليها يجشم باغيها ، ويؤلم قاصدها ، وهى معان بالغة الروعة فى إعلاء شأن القوس ؛ أما الشماخ فقال :

تخيرها القواس من فرع ضالة لها شذب من دونها وحزائر
نمت فى مكان كنها فاستوت به وما دونها من غيلها متلاحز
فما زال ينحو كل رطب ويابس وينفل حتى نالها وهو بارز

فأين هذا من ذاك ؟ لقد كان عليه أن يستفيد من سلفه ، ولكنه قصر حق عليه العتب ، وكلاهما وصف قطعها وتثقيفها ، فبالغ أوس فى وصف شقاء قواسها وعلى قدر المشقة يكون الأجر ، فكان فضله على خلفه أكثر ، فعاود أبيات كل منهما لتحكم بما نحكم به .

٣ — وقال راشد بن شهاب اليشكري * يصف سلاحه :

- فَهَلَا أَبَا الْخَنَسَاءِ لَا تَشْتُمُنِي فَتَقَرَّعَ بَعْدَ الْيَوْمِ سِنَّكَ مِنْ نَدَمٍ (١)
وَلَا تُوعِدُنِي إِنِّي إِنْ تَلَّاقِنِي مَعِيَ مَشْرِفِي فِي مَضَارِيهِ قَضَمٍ (٢)
وَنَبِلَ قِرَانُ كَالشُّيُورِ سَلَاجِمٍ وَفَرَعٌ هَتُوفٌ، لَا سَقَى وَلَا نَشَمٍ (٣)
وَمُطَرَّدُ الْكَعْبِينَ أَسْمَرُ عَاثِرٌ وَذَاتُ قَتِيرٍ فِي مَوَاصِلِهَا وَرَمٍ (٤)
مُضَاعَفَةٌ جَدَلَاءُ، أَوْ حُطْمِيَّةٌ تَغْشَى بَنَانَ الْمَرْءِ وَالْكَفَّ وَالْقَدَمَ (٥)
٦٩٧ : لَعَادِيَةٍ مِنَ السَّلَاحِ اسْتَعْرَثَهَا وَكَانَ بِكُمْ قَرَّرٌ إِلَى الْغَدْرِ أَوْ عَدَمٍ (٦)

* ترجمه الشاعر : هو راشد بن شهاب بن عبدة بن عصم بن ربيعة اليشكري ، شاعر جاهلي مقل ، لم تقع له على ترجمة واسعة ، وقصيدته هذه يخاطب بها قيس بن مسعود بن قيس ابن خالد الشيباني .

- التفسير اللغوي : (١) فهلا : فترثا وانتظارا ، وفيها معنى الوعيد والتهديد . أبا الخنساء : يعنى قيس بن مسعود . تقرر سنك : كناية عن صفة هي الندم .
(٢) توعدني : تتوعدني وتهتددي . المشرفي : السيف المنسوب إلى مشارف الشام . في مضاربه : في طلبته وحده . قضم : تكسر من كثرة ما أعملته .
(٣) القران : التشابه . السلاجم : الطوال ، الواحد سلجم : فرع هتوف : كناية عن القوس المصوتة . السقى : ما شرب الماء من الأنهار . النشم : الشجر الخوار الضعيف .
(٤) المطرد : كناية عن الرمح المصقول الذي اطرده كعبه ، وزال أثرها ، وقال الكعبيين لأن اطراد كعبين دليل اطراد الباقي : العاثر : الصلب . ذات قدير : كناية عن الدرع ، والقدير رءوس مسامير الدرع . مواصلها : ما يتصل بالخلق . الورم : الاستواء .
(٥) مضاعفة : منسوجة حلقتين . جدلاء : مجدولة بحكمة الجدل . حطمية : منسوبة إلى حطمة بن محارب ، وكان صانع دروع ، أو حطمية لأنها تحطم السيوف . تغشى : تغطي ، كناية عن أنها سابعة .
(٦) العادية : المنسوبة إلى عاد ، كناية عن قدمها .

تحليل الأبيات :

توعد قيس بن مسعود الشيباني شهابا اليشكري ، فأنشأ القصيدة التي منها هذه الأبيات
ينذره حربته ، ويتوعده بطشه ، ويصف له سلاحه ، ويستوهن روحه المعنوية ، فقال :
تريث يا أبا الخنساء ، فلا تشتمنى ، ولا تلغ في عرضي ، فإنك إذا دأبت على شتمى ،
واستمرأت أكل عرضي لم تلبث أن تفرع من الندم سنك ، وحذار أن تهذنى ، فإنك
حين تلقانى سترى فارسا يقهر الفرسان ، قد استكمل أهبتة ، وأتم عتاده وعدته .

إن مى سيفاً مشرفياً ثلثته كثرة الضراب ، ولكنه قاطع حاسم ، ونبلا يشبه بعضه بعضاً ؛
لأنه معدة لقوس واحدة تنزعها كف واحدة ، وهى طويلة لتنفذ إلى الأكباد ، وتصل إلى
شغاف الفؤاد ، وقوسا ذات صوت حنون عند ما أنزع عنها سهمها ، صدقة النبع ، صلدة
الغرب ، لم يربطها أن سقيت من ماء الأنهار ، فنبعها لم يسق بغير ماء السماء ، فليس فيها
ضعف ولا خوار ، وريحاً قد اطردت كمويه ، واستوت عقده ، واسمر لونه ، لشدة صلابته .
ولدى درع يلمع قتيها ، وتبرق مساميرها ، قد استوت مواصلها ، وتضاعف نسبها ، وأحكم
جلدها ، فهى من صناعة حطمة الذى وهب لها فنه ، ومنحها إحكامه ، فهى إذ يلبسها
الفارس تغطى جميع أطرافه ، فتضفى عليه السلامة .

هذه أسلحة استعرتها من الزمن عند ما رأيتم تفتقرون إلى الفدر ، وتحتاجون إلى العدم .

النقر :

مع أن الشاعر أوجز فى وصف عتاده ، إلا أنه استطاع أن يصف كل قطعة منه وصفاً
دقيقاً ، فجاء قديراً فى إيجازه ، قديراً فى دقة أوصافه ، فأى وصف أدق وأبلغ من قوله
فى وصف الدرع ؟

مضاعفة جدلاء أو حطمية تغشى بنان المرء والكف والقدم

لقد وصفها بالثخانة والإحكام ، ونسبها إلى صانعها ، وأنها سابغة لا تترك جزءاً من صاحبها
دون أن تغطيه ، وأو فى البيت بمعنى الواو ، وهذا سائغ شائع .

ثم أى جمال فى الوصف للرمح يبيد قوله : « ومطرذ الكعبين أسمر عاتر » إنه وصفه
فى هذا الشطر بثلاث صفات هى : جودة الثفاف ، والملاسة ، والصلابة .

٤ — وقال ثعلبة بن عمرو العبدى * يصف عتاده :

وَشَوْهَاءٌ لَمْ تَوْشَمْ يَدَاهَا وَلَمْ تُذَلَّ فَقَاطَتْ وَفِيهَا بِالْوَلِيدِ تَقَازُفٌ^(١)
وَتُعْطِيكَ قَبْلَ السَّوْطِ مِلءٌ عِنَانِهَا وَإِحْضَارَ ظَلِي أَخْطَأَتْهُ الْمَجَادِفُ^(٢)
بَلَّتْ بِهَا يَوْمَ الصَّرَاحِ ، وَبَعْضُهُمْ يَحْبُّ بِهِ فِي الْحَمَى أَوْرُقُ شَارِفٍ^(٣)
بِيضَاءٌ مِثْلَ النَّهْيِ رِيحٌ ، وَمَدَّةٌ شَائِبٌ غَيْثٌ يَخْفَشُ الْأَكْمَ صَائِفٌ^(٤)
وَمُطَرَّدٌ يَرْضِيكَ عِنْدَ ذَوَاقِهِ وَيَمْضِي وَلَا يَنَادُ فِيهَا يُصَادِفُ^(٥)
وَصَفْرَاءُ مِنْ نَبْعٍ ، سِلَاحٌ أُعِدُّهَا وَأَبْيَضُ قَصَالُ الضَّرِيْبَةِ جَائِفٌ^(٦)
٧٠٤ : عَتَادَ امْرِئٍ فِي الْحَرْبِ لَا وَاهِنُ الْقَوَى وَلَا هُوَ عَمَّا يَقْدُرُ اللَّهُ صَارِفٌ^(٧)

* ترجمه الشاعر : انظر ترجمته في ص ٢٤٥ .

التفسير اللغوي : (١) الشوواء : القبيحة والجميلة ، فالكامة تجمع في معناها بين الضدين ، والآخر هو المراد . لم تذلل : لم تهين . قفاظت : فأتى عليها القبط . الوليد : العبد . التقاذف : التدافع .

(٢) ملء عنانها : عدوا ملء عنانها . الإحضار : العدو . المجادف : ما يحذف به ويرمى . (٣) بللت بها : ملكتها وكانت في قبضتي . يوم الصراخ : يوم الاستنجاد بي . يحب : يسير به خبياً ، والحبب ضرب من العدو . والأورق : الرمادى ، والورق ألأم الإبل . الشارف : الهرم .

(٤) البضاء : كناية عن الهرع . النهى : الغدير . ريح : أصابته ريح . الشائب : جمع شؤبوب دفعات المطر . يخفش : يقشر . الأكْم : جمع أكمة : صائف : فى الصيف .

(٥) مطرد : كناية عن الرمح لاطراد كعوبه بالتثقيف . ذواقه : اختباره . يناد : يعوج .

(٦) وصفراء : كناية عن القوس . النبع : شجر تتخذ منه القسى والسهام ، وهو ينبت فى أعالي الجبال . وأبيض : كناية عن السيف . قصال : قطاع . جائف : يبلغ الجوف .

(٧) عتاد امرئ : عدة رجل . واهن : ضعيف . يقدر : يقضى . صارف : منصرف .

تحليل الأبيات .

رب فرس حسناء ليس فيها ما يشينها ، فلم توشم يداها لداء أصابها فيهما ، ولم تضعف لمرض نزل بها ، وهى - إذ يحل بها القيظ - النشيطة المرحّة شأنها فى الشتاء تقذف بسائسها ، وتتلعب بالوليد .

تهب لك كل قوتها ، وتمطيك ما يتسع له عنانها ، فتعدو بك عدو الظبي أخطأه الرامي ، ملكت عنانها يوم الاستنجد بى ، وبعض الأبطال تسير بهم النياق الورق خبياً ، وتسعى بهم الإبل الهرمة وثيداً .

ملكنت عنانها فى كامل عتادى ، فقد تسربت بذرع محكمة يلمع قتيورها ؛ كأنه النهى هبت عليه أرواح النسيم ، وأمدته دفعات المطر ، فأزالت عن الأكم الرمل والتراب ، وكانت تلك الشايب فى يوم صائف .

وفى يدي رمح قد اطردت كعابه ، فهو يرضيك عند ما تجربه فى الطعان ؛ إذ يمضى إلى رميته دون انحناء أو انحراف ، ومعى قوس من نبع نبت فوق الربا ، فهو صدق عند النزع ، صلب لدى الرمي ، وإلى كل هذا العتاد سيف صقيل يقصل الضريبة ، ويبلغ جوف المضروب . ذلك عتاد رجل ليس واهن القوة ، ولا ضعيف المنة ، وهو إلى هذا مؤمن بقدر الله ، عالم أنه لا يصرفه صارف ، ولا يدفعه دافع .

النقر :

أوجز الشاعر فى وصفه إيجازاً بليغاً ، وإن كان وصف العتاد ركناً من أركان الفخر ، والفخر يستأهل الإطناب والاحتفال ، إذ الغرض منه بعث الرهبة فى نفوس الأعداء ، والإشادة بالعزة والمجد والكبرياء .

على أن الشاعر مع هذا الإيجاز قد أودع أبياته بعض الصور كاملاً رائعاً ، وذلك كقوله :
بيضاء مثل النهى ريح ... ، وكقوله : ومطر د يرضيك ...

وترضينا منه تلك النزعة الحكيمية التى ختم بها أبياته ، وإن لم ترض أنداده من رجال الحرب والميدان ، « ولا هو عما يقدر الله صارف » إذ أولئك يحسبون أن الآجال فى ظلمات سيوفهم ، وأن الحياة طى بلانهم وجهادهم ، وما بعدها دعوى لا يقيم لها فى غير الشعر ميزان !

نظرة فاحصة عن معاني الشعراء في وصف السلاح

يكاد الشعراء يتفقون في المعاني التي تناولوها في وصف عتادهم ، ولهم في ذلك عذر ، فعتادهم محدود ، وسلاحهم معدود ، لا يعدو السيف والرمح ، والقوس والدرع ، والسهم والنبيل ، وحتى أصول هذا العتاد وأجزاؤه متشابهة بل متماثلة ، فهي لا تزيد على الحديد والشجر ، وصياقلها ومتقنوها معروفون منسوبون ، وإذن فلا عليهم أن يتفقوا ، ولعبدع منهم حينئذ الفضل كل الفضل .

ولعلني لم أتجاوز الحق حين حكمت لأوس بن حجر بالفضل ؛ لأنني حين حكمت له بهذا الحكم استعرضت كثيرا مما قاله الشعراء ممن لم أختر لهم ، لقصر نفسهم فحسب ، كما استعرضت ما اخترته وأثبتته للشماخ بن ضرار ، ولراشد بن شهاب الشكري ، ولثعلبة ابن عمرو العبدى ، فما تجاوزه لقصر نفس الشاعر قول الجميع بن الطماح ، وكان من الفرسان يصف نفسه :

فِي كَفِّهِ لَدَنَةٌ مُتَّقِفَةٌ فِيهَا سِنَانٌ مُحَرَّبٌ لَحِمٌ

مُدْرِعًا رِبْطَةً مُضَاعِفَةً كَالنَّهْيِ وَفِي سَرَارَةِ الرَّهْمِ

ولبشامة بن الغدير يحض قومه على الاستعداد للحرب :

وَحُشُّوا الحُرُوبَ إِذَا أُوقِدَتْ رِمَاحًا طَوَالًا وَخِيَلًا فُخُولًا
وَمِنْ نَسَجِ دَاوُدَ مَوْضُونَةٍ تَرَى لِلْقَوَاصِبِ فِيهَا صَلِيلًا

ولعبد قيس بن خفاف البرجي :

فَأَصْبَحْتُ أَعْدَدْتُ لِلنَّائِبَا تَعْرِضًا بَرِيْشًا وَعَضْبًا صَقِيلًا
وَوَقَعَ لِسَانِي كَحَدِّ السَّنَانِ وَرُمَحًا طَوِيلَ الْقَنَاةِ عَسُولًا
وَسَابِقَةً مِنْ جِيَادِ الدُّرُو عَرَسَمْتُ لِسَيْفٍ فِيهَا صَلِيلًا
٧١٢ : كَلَامُ الْغَدِيرِ زَقَّتُهُ الدُّبُورُ يَجْرُ الْمُدْجُجُ مِنْهَا فُضُولًا

ولربيعه بن مقروم المضرى :

وبالكف زوراء حرمية
وأعجب حشر ترى بالرصا
٧١٤ : من القضب تعقب عزفا نثيا
فيمما يخالط منها عصيا

فنحن نرى أن المعانى التى تداولها من عرضنا بعض شعرهم هى المعانى التى تناولها من لم نعرض لهم ، ولا فرق بينهم إلا فى اعتماد بعضهم على الصور الشعرية دون بعض ، وفى هذا المجال يتفاضلون ، فأوس بن حجر يصف ربحه بقوله :

أصم ردينيا كأن كموبه
عليه كمصباح الميزيشبه
ويصفه الجريح بن الطماح فلا يزيد على أن يقول :

فى كفه لدنة مثقفة
ويصف الشماخ بن ضرار صوت قوسه فيقول :

إذا أنبض الرامون فيها ترنمت
ترنم ثكلى أوجعتها الجنائر
فى حين يقول ربعة بن مقروم :

وبالكف زوراء حرمية
ويصف ثعلبة بن عمرو الدرع ، فيقول :

بيضاء مثل النهى ريج ومده
ولا يبلغ عبد القيس بن خفاف غايته إذ يقول :

وسابقة من جياذ الدرو
كباء الفديرة زفته الدبور
ع تسمع للسيف فيها صليلا
يجر المدجج منها فضولا

وهو يشبه إلى حد كبير قول بشامة بن الغدير ، وقول بشامة أكثر معنى :

وحشوا الحروب إذا أوقدت
ومن نسج داود موضونة
رماحا طوالا ، وخيلا فحولا
ترى للقواضب فيها صليلا

وبعد فلا أحسب إلا أن العرب لم تكن لهم بالآثار الإنسانية العناية العظيمة ، ودليلنا على هذا قلة ما قالوه فى نعت عتادهم مع أنهم شعب حرب وجلاد ، ولعل تقديرهم لآثار الخلق أصغر فى نظرهم آثار الخلق ، وصرفهم عنها إلى ممالك أحاسيسهم ، وأمر مشاعرهم .

نظرة شاملة في معاني الشعراء

في وصف الطبيعة الساكنة

موضوعات الطبيعة الساكنة أكثر كثيراً من موضوعات الطبيعة المتحركة ، وإن يكن الشعراء قد احتفلوا بالطبيعة المتحركة أكثر من احتفالهم بالطبيعة الساكنة ، وهم فيما صنعوا لم يكونوا بدعا من الناس ، ولكنهم نهجوا النهج الذي نهجه سواهم ، وكأني بهم قد احتفلوا أعظم احتفال بما يتصل بالطبيعة المتحركة ، فأكثرنا من وصف الأطلال ، وذكر الديار ؛ لأن الأحباب كانوا يقطنونها فحق عليهم أن يطيلوا الوقوف بها ، ويكثرنا من رسمها وتصويرها ، وقل أن تجد شاعرا جاهليا لم يبك دارا ولم يندب على طلل ، وهم - وإن يكونوا متقاربين في تناول المعاني - متباعدون في الدوافع إلى هذه المعاني ، فمنهم من يبكيها كما يبكي ابن خدام ، ومنهم من يبكيها عن وجد وحرقة ، وأسى ولهفة ، وأنت تشعر كامل الشعور بحال الرجلين حتى وإن تماثلت المعاني وتساوت الصور ، تشعر به من اصطفاء اللفظ ، وتخير الموقف ، فأين من قول امرئ القيس :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
قول ثعلبة بن عمرو العبدى ؟

لمن دمن كأنهن صحائف قفار خلا منها الكتيب فواحف ؟
فثعلبة يسأل عن أصحاب الدمن التي صارت كالصحائف ، قد خلا منها الكتيب فواحف ، ولو كان واجداً لشعر في طريقه إليها باللوعة ، ولهداه لها قلبه بالخفقان والحرقة ، وإذن فلا يمكن أن يكون تقارب المعاني ، بل تماثلها دليلاً على تقارب الشعر أو تماثله ، بل لا بد أن يكون هناك عامل آخر هو الإحساس الباطني بأن هذا الشاعر يتدفق عن شعور ^لويجيء بعد هذا الغرض من وصف الطبيعة الساكنة وصف الليل وطوله ، وقد تناوله الكثير من الشعراء ، وأتوا فيه من المعاني بالغريب البديع ؛ حتى لقد صار له في النقد قواعد راسية ، وقد مر بك اختلاف النقاد في المفاضلة بين أبيات امرئ القيس ، وأبيات

النافذة ، وهناك غيرها وغير من اخترنا لهم لا يقلون عنهم في الإجابة والإبداع ، وهذا
سويد بن أبي كاهل يجيد في وصف طوله ، فيقول :

فَأَيُّتُ اللَّيْلَ مَا أَرَقُّدُهُ وَبِعَيْنِي إِذَا نَجْمٌ طَلَعُ
وَإِذَا مَا قُلْتُ لَيْلٌ قَدْ مَضَى عَطَفَ الْأَوَّلُ مِنْهُ فَرَجَعُ
يَسْحَبُ اللَّيْلُ نَجُومًا ظُلُمًا فَتَوَالِيهَا بَطِيئَاتُ التَّبَعِ
وَيُزَجِّبُهَا عَلَى إِبْطَائِهَا مُغْرَبُ اللَّوْنِ إِذَا اللَّوْنُ انْقَشَعُ

وهذا المرقش الأصغر يتصور أن ليلته تكررت ، ويتخيل أنها تعددت ، فيقول :

وَلَيْلَةٌ بَتَّهَا مُسْمِرَةٌ قَدْ كَرَّرَتْهَا عَلَى عَيْنِي الْهُمُومُ
لَمْ أَغْمُضْ طَوْلَهَا حَتَّى انْقَضَتْ أَكَلُوَهَا بَعْدَ مَا نَامَ السَّلِيمُ

فوجده تركه يقظا في حين أن اللدبع قد أوى إلى فراشه ، فما أشد هذا الوجد ! ،
وما أروع ذلك الوصف !

ثم هم قد نظروا في السماء نظرة الرجاء ، فهي لهم معين الحياة وأصل البقاء ، فوصفوا
سحبها وبروقها ، ونبغوا شهبها ونجومها ، ولم ينسوا أن يذكروا رياحها : صباها ودبورها ،
كما وصفوا آثار الطبيعة من حر لافح ، وبرد قارس ، مما يدل على طول تأمل ، وإن لم
يطيلوا في آثار هذا التأمل ، وإذا كنا لم نذكر صورا لجميع ما قالوه في الظواهر السماوية
فلأن هذه الصور لا تعدو أن تكون لفتات عابرة ، أو أليانا سائرة من مثل قول بشر
ابن أبي خازم يصف كواكب بنات نعل في بيت واحد بأنها تدور وتنعطف ، كما تدور
جماعة البقر الوحشي وتنعطف إذا أدركها ما يخيفها :

فَبِتُّ مُسَهَّدًا أَرِقًا كَأَنِّي تَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِ الْعُقَارِ
أَرَاقِبُ فِي السَّمَاءِ بَنَاتِ نَعَشٍ وَقَدْ دَارَتْ كَمَا عُطِفَ الصَّوَارُ

ومن مثل قول علقمة الفحل يصف الحر وأثر الجوزاء فيه :

٧٢٣ : وَقَدْ غَلَوْتُ قَتَوَدَ الرَّحْلِ يَسْفَعُنِي يَوْمٌ تَجِيءُ بِهِ الْجُوزَاءُ مَسْمُومٌ

حامٍ كَأَنَّ أَوَارَ النَّارِ شَامِلَهُ دُونَ الثِّيَابِ، وَرَأْسُ الْمَرْءِ مَعْنُومٌ
ومن مثل قول المسيب بن علس يصف أثر البرد وقد ساقه في المدح :

وَإِذَا تَهَيَّجَ الرِّيحُ مِنْ ضَرَادِهَا ثَنَجًا يُنْبِخُ النَّيْبَ بِالْجَمْعِ
أَحَلَّتْ بَيْنَكَ بِالْجَمِيعِ، وَبَعْضُهُمْ مُتَفَرِّقٌ لِيَحُلَّ بِالْأَوْزَاعِ

وقد كانوا في تأملهم مبالغين حتى عرفوا جميع صور السماء والكواكب عند ما تنفض
الطبيعة أو تتغير ظواهرها ، فانظر إلى الصورة التي صوروا بها الشمس عند الجذب والبرد ،
لقد صوروها بالورس خضب بالزعفران ، وذلك في قول متمم بن نويرة مادحا :

لَعَمْرِي لَنَعْمَ الْمَرْءُ يَطْرُقُ ضَيْفُهُ إِذَا بَانَ مِنْ لَيْلِ النَّامِ هَزِيعُ
بَذُولٍ لِمَا فِي رَحْلِهِ غَيْرُ زُمَحٍ إِذَا أَبْرَزَ الْخُورَ الرِّوَانِ جُوعُ
إِذَا الشَّمْسُ أَضْحَتْ فِي السَّمَاءِ كَأَنَّهَا مِنْ الْحِلِّ حُصٌّ قَدْ عَلَاهُ رُدُوعُ

وانظر إلى تلك الصورة الرائعة التي رسمها سبيع بن الخطيم التيمي للمطر يسقط
في غدير ، وقد ساق تلك المطرة ريح الجنوب التي تسير مبثثة مثاقلة ، في حين تكف
الصبا سحابة ثقيلة :

وَمُسَيَّبٌ خَصِرٌ ثَوَى بِمَضِلَّةٍ وَإِذَا تَحَرَّكَ الرِّيحُ يُزِيفُ
حَلَّتْ بِهِ بَعْدَ الْهُدُوءِ نِطَاقُهَا مَسَعَ مُسَهَّلَةُ النَّتَاجِ زَخُوفُ
تَرَعُ الصَّبَا رِيْعَانَهُ وَدَنَتْ لَهُ دُلْحُ بْنُوَانٍ عِظَامُهُنَّ ضَعِيفُ
٧٣٣ : أَتَنَّى الْحَصَى حَجَرَاتُهُ ، وَكَأَنَّهُ بِرِحَالٍ حَمِيرٍ بِالضُّحَى مَحْفُوفُ

وإذا جاوزنا السماء وأجرامها ، والرياح وأنواءها ، والسحب وأمطارها إلى الأرض
ألفيناهم وصفوا الصحراء فأطالوا وصفها ، ورسموها وما تشتمل عليه فأجادوا رسمها ، في أبيات
قليلة ولكنها جامعة ، وفي نظرات قصيرة وإن تكن ممعنة ، وألما في خلال تصويرهم
بإياها بالسراب فأكثرنا من ذكره ، وأطالوا في وصفه ، وقد مر فيما عرضناه بعض رسمه ،

وهذه صور أخرى له ، قال المرقش الأ كبر مصوراً الجبال يغطيها السراب حيناً ، ويبرزها حيناً ، فكأنها تطفو وتغرق في خليج من الماء :

وأعرض أعلامُ كأنَّ رُءُومَهَا رُءُوسُ جِبَالٍ فِي خَلِيجٍ تَقَامَسُ
إِذَا عِلْمٌ خَلَفْتُهُ يُهْتَدَى بِهِ بَدَا عِلْمٌ فِي الْآلِ أَغْبَرُ طَامِسُ

وهي صورة رائعة لا يتصورها إلا من عبر الصحراء ، وتأمل جريان الآل فيها .
وقال بشر بن أبي خازم يفخر بقطعه فلاة تعزف فيها الجن ، ونحن بها رياح السَّهَام ،
ويصور الآ كام متخذة من اللوامع دروعا :

وخرقَ تعزفُ الجنانُ فيه فيأفیه تحنُّ بها السَّهَامُ
ذعرتُ ظبَاءَهَا مُتَغَوِّراتٍ إِذَا ادَّرَعَتْ لَوَامِعَهَا الْإِكَامُ

وقال المثقب العبدى يفخر بقطعه البلاد إبان اشتداد الحر ، والتهاب الهجير ، وقد شبه السراب ببيض الثياب ، كما أنه في قلبه يشبهها في طيها :

أَجِدُّكَ مَا يُذِيرُكَ أَنْ رُبَّ بِلْدَةٍ إِذَا الشَّمْسُ فِي الْأَيَّامِ طَالَ رُكُودُهَا
وَصَاحَتْ صَوَادِجُ النَّهَارِ وَأَعْرَضَتْ لَوَامِعُ يَطْوِي رِبْطُهَا وَبُرُودُهَا
قَطَعْتُ بِفَتْلَاءِ الْيَدَيْنِ ذَرِيعَةً يَقُولُ الْبِلَادُ سَوْمُهَا وَبَرِيدُهَا

أما الآثار الإنسانية فكانت عندهم جد قليلة ، فلم تكن لهم قصور عالية ، ولا حصون منيعة ، ولا قلاع حصينة ؛ كما لم يكن لهم أثاث ولا رياش يستولى على مشاعرهم ، ويستبد بعواطفهم ، فعذرهم واضح ، إذ كيف أصف شيئاً لا أجده ؟ وأنى لى أن أصور متاعاً لا أعرفه ؛ على أن منهم من دفعته معارفه إلى وصف أشياء رآها في غير محيطه ، من ذلك قول راشد بن شهاب الشكري يفخر :

بَنَيْتُ بِشَاجِرٍ مِجْدَلًا مِنْ حِجَارَةٍ لِأَجْعَلَهُ عِزًّا قَلَى رَغَمٍ مِنْ رَغَمٍ
أَشْمَّ طَوْلًا يَدْحَضُ الطَّيْرَ دُونَهُ لَهُ جَنْدَلٌ يَمَّا أَعَدَّتْ لَهُ إِرَمُ
وَيَأْوِي إِلَيْهِ الْمُسْتَجِيرُ مِنَ الرَّدَى وَيَأْوِي إِلَيْهِ الْمُسْتَعِيزُ مِنَ الْعَدَمِ

والآيات التي تنسب إلى السموءل بن عاديا يفخر بقصره الأبلق عند ما لجأ إليه امرؤ القيس واستودعه أدرعه ، فضرب به للثل في الوفاء إذ أسلم ابنه للقتل دون أن يخون أمانته ، فيسلم أدرع من لجأ إليه :

وَفَيْتُ بِأَدْرُعِ الْكِندِيِّ إِنِّي إِذَا مَا ذُمُّ أَقْوَامٌ وَفَيْتُ
وَأَوْصَى عَادِيًا يَوْمًا بَلَاءً تُهْدَمُ يَا سَمُوْعُلُ مَا بَنَيْتُ
بَنَى لِي عَادِيًا حِصْنًا حَصِينًا وَمَاءَ كُلَّمَا شِئْتُ اسْتَقَيْتُ

ولكنهم وصفوا من الآثار الإنسانية الخمر ، وأكثروا من القول فيها ؛ لأنها كانت عندهم مظهراً لكثير من أخلاق الفتوة كالشجاعة والسخاء والإتلاف ، وقد دفعهم شغفهم بشرابها ولولعهم بمعاقرتها إلى الاقتنان في المعاني ، والابتداع في الصور ، وقد مر بنا الكثير من تلك المعاني المقتنة المبتدعة ، وكلها يشهد بأنهم سامو الخيال ، ماهرو التصوير ، وما مر بنا ليس بأفضل ما قيل ، ولكنه من أفضله ، وإلا فأى حسن يفوق هذا الذي نسوقه للقرش الأصغر يصف ريق محبوبته ؟ وأن الخمر التي من صفاتها أنها صهباء كالمسك ريحا ، المصفاة بالناجود ، أو المسكيلة بالأقداح التي بقيت في دنها عشرين عاما يطان عليها القرمذ ، وتبرز للريح لتبرد ، قد اشترت من قوم يهود لهم بعصرها خبرة ، وبيننا وبينهم شقة ؛ إلا أن جنبنا لها قرب منا سوقها ، فسمعنا إليها حتى حصلنا عليها ؟ وهامى ذى الآيات :

وَمَا قَهْوَةُ صَهْبَاءٍ كَالْمِسْكِ رِيحُهَا تَعْلَى عَلَى النَّاجُورِ طَوْرًا وَتُقَدِّحُ
تَوْتٌ فِي سِبَاءِ الدَّنِّ عَشْرِينَ حِجَّةً يُطَانُ عَلَيْهَا قَرَمَدٌ وَتُرَوِّحُ
سَبَّاهَا رَجَالٌ مِنْ يَهُودَ تَبَاعَدُوا لَجِيْلَانِ يُدْنِيهَا مِنَ الشُّوقِ مُرْجُ
بَاطِيبٍ مِنْ فِيهَا إِذَا جِثْتُ طَارِقًا مِنَ اللَّيْلِ ، بَلْ فُوَهَا أَلَدٌ وَأَنْصَحُ ٧٥٠ :

وهذا عبدة بن الطيب يقدو وقرن الشمس منفتق ، وكأنه مجل بسواد الليل ؛ إذ الديك يدعو أعضاء أسرته ، يقدو إلى التجار فأعدها شاب معجب بنفسه يجر من خلفه إزاره ، كأنه في حسنه صدر السيف ، له شمائل كريمة ، وأقانين في الخير ، هو رجل جد عند ما يجتد الأمر ويشدد ، ورجل لهو ومجون عند ما يحلو اللهو والمجون ، فاتكنا هند

تاجرها على فراش مرقومة ، ونمارق منقوشة ، عليها زخارف وتهاويل ، فيها صور الدجاج والأسود ، بل فيها تماثيل لكل شيء ، في بيت يشبه الكعبة في شكله أو في قداسته ، شادها بان ماهر ، فزين أركانها وجعل مبانيها ، يضيئها ذبال مفتول ، لنا أصيص كأنه أصل الحوض هدمه تراحم الإبل عليه ، لدى ذلك الأصيص الزق مغلول مقيد ، والكوب أبيض ، في جيده إكليل من الزهر ، قد برد ذلك الكوب بالماء ، فبينه وبين الأصيص جرة ضخمة كأنها في شكلها وسط حمار وحشى قد ثقب جانبه ، والكوب مترع قد علاه الزبد ، وقد أعدت لنا قطعة عظيمة من لحم كبش ، مشكوك في السفود ، يطوف بها علينا خادم عجلى ، تنطق بمنطقته ، وبين يدينا صحفة فيها الأبازير ، ثم شربت صباحا خمر احمر ، لها في شاربها رعدة ، وهى خمر لم يسبقنى إلى معاقرتها إنسان ، شربتها صرفا وإن بدت لرقبتها ممزوجة ، وقد يعللنا مغنّ بشعر كأنه الأصباغ المذهبة للسقوف يتناقله الرواة ، ويحملونه في الآفاق ، ترفع حواشى ذلك الشعر المذهب قينة طويلة الجيد ، تؤنس جلسها ، كأن صوتها للشاربين ترتيل ومزامير ، تمر علينا غدوة تلهينا بغنائها ، فنهب لها البرود والسراويل ، وهذه هى الأبيات :

وَدُونَهُ مِنْ سَوَادِ اللَّيْلِ تَجَلِيلُ	وَقَدْ غَدَوْتُ وَتَرَنُ الشَّمْسِ مُنْفَتِقُ
لَدَى الصَّبَاحِ ، وَهُمْ قَوْمٌ مَعَارِيلُ	إِذَا شَرَفَ الدَّيْكَ يُدْعُو بَعْضُ أَمْرِهِ
رِخْوُ الإِزَارِ كَصَدْرِ السَّيْفِ مَشْمُولُ	إِلَى التَّجَارِ فَأَعْدَانِي بِلَدِّهِ
مُحَالِطُ اللَّهْوِ وَاللَّذَاتِ ضَلِيلُ	خِرْقٌ يَجِدُ إِذَا مَا الْأَمْرُ جَدَّ بِهِ
مِنْ جَيْدِ الرَّفَمِ أَزْوَاجُ تَهَاوِيلُ	حَتَّى انْكَأْنَا عَلَى فُرْشِ زَيْنِهَا
مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُرَى فِيهَا تَمَائِيلُ	فِيهَا الدَّجَاجُ ، وَفِيهَا الْأَسَدُ مُخْدِرَةُ
فِيهَا ذُبَالٌ يُضِيءُ اللَّيْلَ مَفْتُولُ	فِي كَنْبَةِ شَادَهَا بَانَ زَيْنِهَا
وَطُءُ الْعِرَاكِ ، لَدَيْهِ الزَّقُّ مَغْلُولُ	لَنَا أَصِيصٌ كَجِذَمِ الْحَوْضِ هَدْمُهُ
فَوْقَ السِّيَاعِ مِنَ الرِّيحَانِ إِكْلِيلُ	وَالْكُوبُ أَزْهَرُ مَعْصُوبٍ بِقَلْتِهِ

مُبَرَّدٌ بِمَزَاجِ الْمَاءِ بَيْنَهُمَا حُبُّ كَجَوْزِ حِمَارِ الْوَحْشِ مَبْزُولُ
وَالْكُوبُ مَلَانُ طَافٍ فَوْقَهُ زَبَدٌ وَطَائِقُ الْكَبْشِ فِي السَّقُودِ مَحْلُولُ
يَسْعَى بِهِ مُنْصِفٌ عَجَلَانُ مُنْتَطِقٌ فَوْقَ الْخِوَانِ ، وَفِي الصَّاعِ التَّوَابِلُ
ثُمَّ اصْطَبَحَتْ كُمَيْتًا قَرَقَنًا أَنْفًا مِنْ طَيِّبِ الرَّاحِ ، وَاللَّذَاتُ تَعْلِيلُ
صَرَفًا مَزَاجًا ، وَأَخْيَانًا يُلَلْنَا شِعْرٌ كَذَهَبَةِ السَّمَانِ مَحْمُولُ
تُذَرِي حَوَاشِيَهُ جِيدَاءُ آنِسَةٍ فِي صَوْتِهَا لِسَاعِ الشَّرْبِ تَرْنِيلُ
٧٦٦ : تَفْدُو عَلَيْنَا تَلْهِيئَنَا وَنُصْفِدُهَا تُلْقَى الْبُرُودُ عَلَيْهَا وَالسَّرَابِيلُ

أى مجلس شراب آتق من ذلك المجلس ؟ وأى مجلس أحفل بأسباب الأنس والمرح
من مجلس عبدة بن الطبيب ؟ شراب وطعام وغناء ، لقد عز عليه أن يقترح فيه ما يمكن أن
يزيده جمالا .

أما النوع الآخر من الآثار الإنسانية التى عنوانها ، وشغفوا بوصفها فهى عتاد
القتال ، وأسلحة الحروب ، وقد أوفيناها حقها عرضا وبسطا ، ولا يزال حديثنا عنها جد
قريب وحسبنا ما قدمناه .



الفصل السابع

صور لمظاهر مؤتلفة من الطبيعتين المتحركة والساكنة

(١) وصف الطعائن

١ - قال المثقب العبدى * من قصيدة أولها :

أَفَاطِمُ قَبْلَ بَيْنِكَ مَتَّعْنِي وَمَنْعُكَ مَا سَأَلْتُكَ أَنْ تَبْنِي^(١)

لِمَنْ طُعُنَ تَطَالِعُ مِنْ ضُبَيْبٍ فَأَخْرَجْتَ مِنَ الْوَادِي لَحِينَ؟^(٢)

مَرَزَنَ عَلَى شَرَافٍ فَذَاتِ رَجُلٍ وَنَكَبْنِ الدَّرَانِجَ بِالْيَمِينِ^(٣)

وَهُنَّ كَذَاكَ حِينَ قَطَعْنَ فَلَجًا كَانَ مُحُولَهُنَّ عَلَى سَفِينٍ^(٤)

يُسَبِّحْنَ السَّفِينَةَ ، وَهُنَّ بَخْتٌ عُرَاضَاتُ الْأَبَاهِرِ وَالشُّوْنِ^(٥)

وَهُنَّ عَلَى الرَّجَازِ وَاكِنَاتٌ قَوَاتِلُ كُلِّ أَشْجَعٍ مُسْتَكِينٍ^(٦) ٧٧٢ :

* ترجمه الشاعر : اقرأ الترجمة في ص ٨٢ .

التفسير اللفوى : (١) متعني : بالوصل . أن تبني : أن تبعدي .

(٢) الطعن : جمع طعينة ، وهو الهودج فيه النساء . ضبيب : بالضاد أو الصاد موضع . لحين : بعد حين وإبطاء .

(٣) شراف ، وذات رجل ، والدرايح : أمكنة . نكبن : عدلن .

(٤) الفلج : الطريق أو الوادي . الجمول : جمع حمل الهودج كان فيها النساء أو لم يكن . السفين : جمع سفينة .

(٥) البخت : الجمال طوال الأعناق . عراضات : جمع عراضة ، والعراض المفرط في العرض كطوال . الأباهر : جمع أبهر عرق في الظهر . الشوون : جمع شأن ، وهى شعب قبائل

الرأس التى تجرى منها الدموع إلى العينين .

(٦) الرجاز جمع رجازة بكسر الراء مراكب النساء . واكنات : مطمئنتات . الأشجع : الطويل . مستكين : خاضع .

- كفزلانٍ خُذِلْنَ بذاتٍ ضالٍ تنوشُ الدَّانِيَّاتِ مِنَ الغُصُونِ^(٧)
 ظَهَرْنَ بِكِلَّةٍ ، وَسَدَلْنَ رَقْمًا وَتَقَبَّنَ الوَصَاوِصَ لِلْعُيُونِ^(٨)
 وَهَنَّ عَلَى الظَّلَامِ مُطَلَّبَاتٌ طَوِيلَاتُ الدَّوَائِبِ وَالْقُرُونِ^(٩)
 أَرَيْنَ تَحَاسِنًا ، وَكَنَّ أُخْرَى مِنَ الْأَجْيَادِ وَالْبَشَرِ المَصُونِ^(١٠)
 وَمِنْ ذَهَبٍ يَلُوحُ عَلَى تَرِبٍ كَلَوْنِ العَاجِ لَيْسَ بِذِي غُصُونِ^(١١)
 يَتَلَهَّمُ أَرِيشُ بِهَا سِهَامِي تَبَدُّ المُرْشَقَاتِ مِنَ القُطَيْنِ^(١٢)
 عَلَوْنَ رَبَاوَةً ، وَهَبَطْنَ غَيْبًا فَلَمْ يَرْجِعْنَ قَائِلَةً لِحِينِ^(١٣)
 فَقُلْتُ لِبَعْضِهِنَّ ، وَشَدُّ رَحْلِي لِهَاجِرَةٍ نَصَبْتُ لَهَا جَبِينِي^(١٤)
 ٧٨١ : لَعَلَّكَ إِنْ صَرِمْتَ الحَبْلَ مِنِّي كَذَلِكَ أكونُ مُصْحَبَتِي قُرُونِي^(١٥)

(٧) خذلن : تخلفن . ذات ضال : اسم مكان يكثر فيه شجر الضال . تنوش : تتناول الدانيات : القريبات .

(٨) الكلة : الستر الرقيق . سدلن : أرسلن . الرقم : ضرب مخطط من الوشي أو البرود . الوصاوص : البراقع الصغار ، واحدها وصاوص .

(٩) الظلام : بكسر الظاء الظلم . مطلبات : مطلوبات . الدوايب : جمع ذؤابة صفائر الشعر . القرون : خصل الشعر .

(١٠) كَنَّ : سترن . الأجباد . جمع جيد الأعناق . البشر : ظاهر الجلد . المصون : المستورة

(١١) التريب : جمع تربية ، وهى عظام الصدر موضع القلادة . الغصون : ثنى الجلد من الكبير .

(١٢) التلهمة : التسلية . أريش بها سهامي : ألزق فيها الريش لتكون أفتك . تبد : بالبدال والزأى تسبق وتغلب . المرشقات : المستشرقات للنظر . القطين : الخدم والتباع والجيران .

(١٣) الرباوة : ما ارتفع من الأرض . الغيب : ما اطمأن منها . القائلة : القيولة وهى نصف النهار . لحين : لوقت قصير .

(١٤) لهاجرة : عند هاجرة النهار وهو منتصفه نصبت : رفعت . جبينى : أعلى وجهى .

(١٥) صرمت الحبل : قطعت الوصل . مصحبتى : تابعتى . قرونى : نفسى .

تحليل الأبيات :

بدأ الشاعر قصيدته بمناجاة حبيبته ، فقال :

متعيني قبل الفراق بنظرة تكون لى أسعد الذكريات ، فتخف اللوعة ، ويهون الوجد ،
فإن لم تفعل شرت عندئذ بآلم الفراق ، ووجد البين .

ثم انتقل بعد أبيات إلى وصف الظعن ، فسأل تسأول المثلث عن فيها ، فقال :
لمن هذه الظعن تظهر من ضبيب ؟ فإنها لم تخرج من ذلك الوادى من حين ، لكانها كانت
تستريح من سفر غير قاصد ، ومرحلة ليست بالقصيرة ، وكيف لا ؟ وقد مررن بأمكنة كثر :
بشراف وذات رجل ، بعد أن انحرفن عن الذرائع إلى اليمين ، وهن إذ قطعن فلجا تشبه
هوادجهن السفائن ، تشبهها في امتدادها ، وتمايلها في سيرها ، واستواء ماتجربى فوقه ، ونفاة
ماتحملة ، تشبهها مع أنها إبل طوال الأعناق ، عراض الأباهر ومجارى الدموع .

أولئك النسوة فى هوداجهن ساكنات مطمئنات ، يقتلن بسحر جمالهن العشاق من
الشجمان ، ما أشبههن بغزلان تخلفن بأرض يكثر فيها الضال ، فهن يمددن أجيادهن يتلقفن
أوراق الأشجار ، ظهون بوجوههن الوضاعة الواضحة من الأستار الرقيقة المرفوعة ،
وسدلتن رقما مطرزا بالديباج ، موشى بالدمقس ، وثقبن البراقع الصغار بالعيون الناعسات ، وهن
مع ظلهن لنا ، ودلهن علينا ، مطلبات منا ، مرغوبات إلينا ، قد تعددت أسباب حبهن ، أدناها
أنهن طوال النوائب ، مرسلات الغدائر ، أبدين من محاسنهن ما يصح أن يظهر من عيون
نواعس ، وخدود نواعم ، وغدائر مرسله ، وسترن أخرى كالجياذ الناصعة ، والبشر المصون ،
والترائب حليت بقلائد الذهب التى تشبه العاج فى صفاء لونها ، وملاسه بشرتها ، فهن
شواب ناعمات .

أتلهى بفاطمة تلك حين أريش مهابى استعدادا للحرب ، فذكرها تبعث فى النجدة ،
فهى تفوق الفتيات الشاحصات ، وتنير بجماها الغواني المرشقات من القطين والجارات .
علت تلك الظلمات ربا وهبطن وهذا دون أن يسترحن ، فهن يصلن صباحهن بأصيلهن

وإن شق ذلك عليهن ، فقلت لإحداهن ، وهى محبوبتى التى أتتبع خطاها بشد رحلى معها فى الهاجرة ، يستقبل أوارها جيبى : أخشى إن قطعت وصلى ، وصرمت حبل ودى أن تقطع نفسى وصلك ، وتصرم حبل وذك .

النقر :

بدأ وصف الظن بالاستفهام التحسرى ، فأحسن فى البدء ، وبرع فى الاستهلال ، ولولا أنه أكثر من ذكر المواضع والأمكنة لكان قد بلغ الغاية ، كما بلغها فى تشبيهه البخت بالسفن ، فهو تشبيه رائع جميل ، وبيته :

وهن على الرجائز واكنات قوائل كل أشجع مستكين

بيت فارع الحسن بتصويره وبتخييرلفظه ، وما أجمل أن يجمع بين الشجاعة والاستكانة ، فهو شجاع عند ملاقة الأقران ، خاضع لدولة الحسن والجمال ، وليس أقل منه تصويراً ذلك البيت الذى استمد لقبه منه ، وهو :

ظهري بكلمة وسدلى رقيا وثقني الوساوص للعيون

فهو بيت فيه من التصوير الحسى والنفسى ما لا يمكن الغض منه ، هذا إلى ما فى الأسلوب من جمال رائع يبدو فى تلك المقابلات التى لا تكلف فيها من مثل قوله :

أرين محاسنا وكنن أخرى من الأجياد والبشر المصون

وقوله :

علون رباوة وهبطن غيبا فلم يرجعن قائلة الحـين

وإذا كان هناك ما يمكن أن يؤخذ عليه فهو خشية القطيعة إن صرمت حبله ، فالعاشق لا يملك زمام قلبه ، ولا يدفع جماح نفسه وكذلك مما يمكن أن يأخذه عليه نقدة الأساليب تسكير القافية فى البيتين الثانى والثالث عشر ، وهم يقولون صادقين إن التكرار قد يكون مبعثه نضوب معين القافية .

٢ — وقال زهير بن أبى سلمى * من معلقته يصف الطعائن كذلك :

تَبْصُرُ خَلِيلِي هَلْ تَرَى مِنْ طَعَائِنٍ تَحْمَلُنَ بِالْعَلْيَاءِ مِنْ فَوْقِ جُرْثُمٍ؟ (١)
عَلَوْنَ بِأَنْمَاطٍ عِتَاقٍ وَكِلَّةٍ وَرَادِ حَوَاشِيهَا مُشَاكِهَةَ الدَّمِ (٢)
وَفِيهِنَّ مَلَهَى لِلطَّيْفِ وَمَنْظَرٌ أُنِيقُ لِعَيْنِ النَّاطِرِ الْمُتَوَسِّمِ (٣)
بِكُرْنٍ بُكُورًا، وَاسْتَحْرَنَ بِسُحْرَةٍ فَهِنَّ وَوَادِي الرَّسِّ كَالْيَدِ لِلْفَمِ (٤)
جَعَلَنَّ الْقَنَانَ عَنْ يَمِينٍ وَحَزَنَهُ وَكَمْ بِالْقَنَانِ مِنْ مُحِلٍّ وَمُحْرَمِ (٥)
ظَهَرَنَّ مِنَ الشُّوبَانِ، نَمَّ جَزَعُهُ عَلَى كُلِّ قَيْنِي قَشِيبٌ مُقَامٌ (٦)
وَوَرَّ كُنَّ فِي الشُّوبَانِ يَعْلُونَ مَتْنَهُ عَلَيْهِنَّ ذَلِكَ النَّاعِمِ التَّنْعَمِ (٧)
كَأَنَّ فِتَاتَ الْعَهْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الْفَنَاءِ لَمْ يُحْطَمِ (٨)
فَلَمَّا وَرَدَنَّ الْمَاءَ زُرْقًا جِجَامُهُ وَضَعْنَ عِصَى الْحَاضِرِ الْمُتَخَيَّمِ (٩)

* بر. صم. الشاعر : أقرأها في ص ٨٨ .

التفسير اللغوي : (١) تبصر خليلي : تأمل يا صاحبي . طعائن : جمع طعينة ، وهي الإبل فوقها الهوداج فيها النساء . العلياء : بلد . جرثم : ماء من مياه بني أسد .
(٢) بأنماط : أنماط جمع نمط ، وهو ثوب من الصوف يطرح على الهودج . عتاق : كرام . الكلة نوب رقيق يكون تحت الأنماط . وراد : تشبه لون الورد . حواشيها : نواحيها . مشاكهة : مشابهة . (٣) ملهى : لهو . اللطيف : الرقيق لا جفاء فيه . أنيق : معجب . للتوسم : للتفرس . (٤) استحرن : خرجن سحرة . وادي الرس : الرس ماء لبني أسد . (٥) القنان : جبل لبني أسد . الحزن : الموضع الغليظ : محل ومحرم : ذى عهد وغير ذى عهد ، أو عدو وغير عدو . (٦) السوبان : واد . جزعنه : قطعنه . قيني : صفة لموصوف محذوف ؛ أى على كل غبيط قيني ، وهو المنسوب إلى بلقين ، وهم حى من الجن تنسب إليهم الرحال ، وهو قتب طويل يكون تحت الهودج . قشيب : جديد . مقام : موسع . (٧) وركن : ملن . متنه : أعلاه ؛ والمثنى ما ارتفع من الأرض وغلظ . عليهن : على الطعائن . دل الناعم : دلال الرقيق واختيال المرفه . (٨) فتات العهن : منتشر الصوف ما صبغ منه وما لم يصبغ ، منزل : مكان نزول . الفناء : شجر ثمره حب أحمر فيه نقطة سوداء . لم يحطم : لم يكسر . (٩) الجم : ما اجتمع من الماء . وضعن عصي الحاضر : كناية عن الإقامة . المتخيم : المقيم للخيام .

تحليل الآيات :

تأمل أيها الصديق هل ترى ظمائن سائرات ؟ قد تحملن من العلياء محاذيات في مسيرهن ماء جرثم ، رفعن فوق الأمتعة الأنمط والكل ذات اللون الوردى من نواحيها ، المشاكلة للدم في حواشيها ، في رؤية أولئك الظمائن ملهى الرجل الرقيق الذى لاجفاء فيه ، والمنظر الأتيق المعجب للسيد المتأمل الذى يعرف الجلال فيصفه ويطريه .

خرجن إلى رحيلهن بكرة ، وسرن سحرة ، فهن في مسيرهن بوادى الرس ، عالمات بطرقه ، كما تعرف اليد الطريق إلى الفم ، لانبجور عنه ولا تنحرف دونه .

جعلن جبل القنان وحزنه في مسيرهن عن يمينهن اتقاء لخطاره ، فكم به من أقوام لهم ذمة وعهود ، وأقوام لازمة لهم ولا عهود ، خرجن من وادى السوبان ، ثم عرضن له مرة أخرى ، فقطعنه على كل غبيط منسوب إلى بلقين ، لا يزال قشيبا جديدا موسعا من جانبيه ، وملن في وادى السوبان عاليات ماغلظ منه وارتفع ، يبدو على الظمائن دلال المتنعم ، ورفاهية المترفة ، كأن حقات الصوف في كل مكان ينزلن به حب الفنا قبل أن يحطم ، فحين وردن الماء أزرق لتجمعه ، وضمن عصى المتخيم ، ونصبن أخبية المقيم .

النقر :

بدأ زهير أبياته على نحو مابداً به المثقب أبياته ، فكلاهما يستفهم في حسرة عن الظمائن ، وإن كان المثقب قد تجاهل أن هذه الظمائن هى التى فيها مالكة له تخفيفا من وجده ، وكلاهما رسم طريق سير هذه الظمائن ، وصور الوديان التى سرن فيها إلا أن زهيراً كان أقدر على رسم خط السير ، ولكنه قصر في الحديث عن جمالهن ومجدهن ، وإن يكن كثير عزة حكم له بالتفوق في النسيب ، إذ سئل أى بيت أنسب ؟ فأشدد :

فلما وردن الماء زرقا جمامه وضعن عصى الحاضر المتخيم
أما نحن فلا نرى في هذا البيت ما يراه كثير ، وخير منه عندنا قول المثقب :
وهن على الرجائز واكنات قواتل كل أشجع مستكين
كفرلان خذلن بذات ضال تنوش الدانيات من الغصون

(ب) في وصف الفرسان وعتادهم عند الحرب

١ - قال ضمرة بن ضمرة * يصف نفسه في قتال عدوه :

وَمُسْعَلِي كَالطَّيْرِ نَهْنَهَتْ وَرَدَّهَا إِذَا مَا الْجَبَانَ يَدْعَى ، وَهُوَ عَانِدٌ ^(١)
 عَلَيْهَا الْكُمَةُ وَالْحَدِيدُ ، فَمَنْهُمْ مَصِيدٌ لِأَطْرَافِ الْعَوَالِي وَصَائِدٌ ^(٢)
 شَمَاطِيطُ تَهْوِي لِلسَّوَامِ ، كَأَنَّهَا إِذَا هَبَطَتْ غُوطًا كِلَابٌ طَوَارِدٌ ^(٣)
 وَقِرْنٍ تَرَكْتُ الطَّيْرَ تَحْجُلُ حَوْلَهُ عَلَيْهِ نَجِيعٌ مِنْ دَمِ الْجُوفِ جَاسِدٌ ^(٤)
 ٧٩٥ : حَشَاهُ السَّنَانُ ، ثُمَّ خَرَّ لِأَنْفِهِ كَمَا قَطَرَ الْكَعْبُ الْمَوْرَبُ نَاهِدٌ ^(٥)

* ترجمه الشاعر : هو ضمرة بن ضمرة بن جابر بن قطش بن نهشل التميمي ، كان لسانا فصيحاً ، كان اسمه (شقا) فدخل على النعمان بن المنذر فعاب دماسته ، فقال له : أبيت اللعن إن الرجال لا تكال بالقفران ، ولا توزن بميزان ، وإنما المرء بأصغريه ، بقلبه ولسانه ، إن صال صال بجنان ، وإن قال قال ببيان ، فقال له النعمان : أنت ضمرة بن ضمرة يريد أنه كأبيه ، فصار اسمه ضمرة . توفي حوالي سنة ٦٠٠ م .

التفسير اللغوي : (١) المشعلة : السكتية تشعل للحرب ، شبهها بالنار المشعلة . نهنت : كفت . وردها : الورد القطعة من الجيش . يدعى : ينتسب . عاند : منحرف .
 (٢) الكمة : جمع كمي الفرسان في أتم سلاحهم . العوالي : جمع عالية وهي أعلى الرماح .
 (٣) شماطيط : جمع شمطاط أو شمطوط ، أو الشمطيط الفرقة من الجيش . تهوى : تسقط .
 السوام : الإبل الراعية . الغوط : جمع غائط ، وهي الأرض الواسعة المظتنة ، ومنها غوطه دمشق ، وهي أجمل قطعة فيها . طوارد : قوائم .
 (٤) القرن : النظير في النجدة .
 والفروسية . تحجل : تسير على رجل واحدة من الفرح . النجيع : الدم الشديد الحرارة .
 الجاسد : اللازق . (٥) حشاه السنان : دخل في أحشائه . خر : سقط . قطره : رماء على قطريه ، وما جانبا . الكعب : عظم يلعب به . المورب من الكعب : الحاد الأطراف .
 الناهد : الصبي المرتفع .

تحليل الأبيات :

يصف ضمرة شجاعة قومه في قتال عدوهم ، فيقول : رب كتيبة كثيفة منتشرة انتشار الطير كفكفت جموعها ، ونهنت جحافلها ؛ حين يدعى الجبان الدعاوى ، وينسب إلى نفسه البأس والقوة ، وهو عاند عن الجمع ، منحرف عند ملاقاته الحشد ، خشية أن يصيبه الخنف ، يتزعم هذه الكتيبة الكماة الأبطال يغطهم الحديد ، ويتسربلون بالبيض والدروع ، ولكن حديدهم لم يقن عن أكثرهم شيئا ، وبيضهم ودروعهم لم تدفع عن جموعهم قضاء ، فمن هؤلاء المصيد والصائد ، والأسير والأسر .

فرق هذه الكتيبة تنقض على الغنائم انقضا الكلاب الطوارد ، وتهوى على الفئ هوى الطيور الجوارح ؛ لأنها لا تبالى عدوها ، فقد ألجمته السنان ، وكسته الهزيمة العار .

تلك الكتيبة لا تثبت لى فى ضراب ، ولاننى أن تهزم أمامى عند تبادل الطعان .

ورب قرن جدلته وتركته نهش السباع ونهب الطيور ، فهى تحجل حوله تتناش لجه ، وتتنص عظمه ، فوق أجزاء جسمه الدم المتجمد ، وعلى أطرافه النجيع المتجسد ، فقد أوجأت شبة السيف فى أحشائه ، فسقط على وجهه ، كمارمى الفتى الناهد الكعب المحدد ، فيلصق فيما يسقط عليه ، ويستقر فى أحشاء مايرمى به .

النقد :

فى هذه الأبيات تصوير للحرب ، فكم من الناس يقول ويدعى ، حتى إذا دارت رحاها انحرف عنها ، وخاف ميدانها « إذا ما الجبان يدعى وهو عاند » فى هذه الحرب تتصاول الفرسان ، ففيها الصائد والمصيد ، والأسر والأسير ، « مصيد لأطراف العوالى وصائد » .

وفىها تصوير للجند وقد انتهت المعركة ، فهم ينصرفون إلى جمع الغنائم واقتسام الأسلاب ، وحينئذ تقبل الطيور « عصائب طير تهتدى بعصائب » لتجد طعاما ميسرا موفورا .

وفىها وصف للقتلى يخرون على حرائقهم ، وأمرء وسهم ، إذ سددت إليهم الأسنة تسديد اللاعب بالكعب المؤرب ، وهى صور لامبالغة فيها ولا غلو .

٢ — وقال دريد بن الصمة * يصف حرباً قتل فيها أخوه عبد الله :

دَعَانِي أَخِي وَالْخَيْلُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَلَمَّا دَعَانِي لَمْ يُجِدْنِي بِمَقْعِدِ^(١)
أَخِي أَرْضَعَتْنِي أُمُّهُ بِلَبَانِهَا بِشِدَّتِي صَفَاءَ بَيْنِنَا لَمْ يُجِدِّ^(٢)
تَفَادَوْا، فَقَالُوا: أَرَدْتَ الْخَيْلُ فَارِسًا فَقُلْتُ: أَعْبَدُ اللَّهَ ذَلِكَ لَكُمْ الرَّدِّيُّ؟^(٣)
فَجِئْتُ إِلَيْهِ وَالرِّمَاحُ تَنْوِشُهُ كَوَقْعِ الصَّيَاصِي فِي النَّسِيَجِ الْمُمَدِّ^(٤)
وَكُنْتُ كذَاتِ الْبُورِ رِيْعَتْ فَأَقْبَلْتُ إِلَى جِلْدٍ مِنْ مَسَكٍ سَقَبٌ مُقَدَّرِ^(٥)
فَمَارُحْتُ حَتَّى طَرَقْتَنِي رِمَاحُهُمْ وَغُودِرْتُ أَكْبُو فِي الْقِنَا الْمُتَقَصِّدِ^(٦)
فَطَاعَنْتُ عَنْهُ الْخَيْلَ حَتَّى تَنَفَّسْتُ وَحَتَّى عَلَانِي هَالِكُ اللَّوْنِ أَسْوَدِي^(٧)
٨٠٣ : قِتَالِ امْرِئٍ آسَى أَخَاهُ بِنَفْسِهِ وَيَعْلَمُ أَنَّ الْمَرْءَ غَيْرُ مُحْلَدٍ^(٨)

* ترجمه الشاعر : هو دريد بن الصمة ، واسم الصمة معاوية الأصغر بن الحارث بن معاوية الأكبر شاعر خلی ، وفارس شجاع ، كان أطول الفرسان الشعراء غزوا ، وأبعدهم أثراً ، وأكثرتهم ظفراً ، وأمنهم نقيبة ؛ أدرك الإسلام فلم يسلم ، وقتل يوم حنين ، وهو هنا يبكي أخاه عبد الله الذي قتل في حربه مع غطفان .

التفسير اللغوي : (١) أخى : يعنى عبد الله . الخيل : يقصد الفرسان . بمقعد : بتخلف عن القتال ، وفي رواية بمقعد . (٢) اللبان : اللبن . لم يجد : لم يحف لبانه ، وفيه كناية عن دوام الصفاء . (٣) تبادوا : نادى بعضهم بعضاً . أردت : أهلك . (٤) تنوشه : تتناولوه . الصياصي : جمع صيصية ، وهى شوكة يمرها الحائك على الثوب حين ينسجه . الممدد : المطول الممتد . (٥) ذات البو : الناقة يذبح ولدها أو يموت ، فيحشى لها جلده فترأمه . ريعت : فزعت . الجلد : ما جلد من الساوخ وألبس غيره لتشمة أم للساوخ فتدر عليه . المسك : الجلد لأنه بمسك ما وراءه من اللحم والعظم . السقب : ولد الناقة الصغيرة . المقدد : المشقق . (٦) طرقتنى : شقت جسدی وجلت فيه طرقات . أكبو : أسقط . القنا : الرماح . المتقصد : الميت . (٧) تنفست : تفرقت . هالك اللون : يقصد الغبار الكثيف من وقع حوافر الخيول حوله . أسودى : يريد أسودى ، كما قيل في الأحمر أحمرى ، وفي الدوار دوارى ثم خففت ياء النسب بخذف إحداها ، وهى الأولى ، وجعلت الثانية صلة . (٨) آسى : سوى ، محلد : خالد .

تحليل الأبيات :

هذه الأبيات من قصيدة في الرثاء من جياذ الشعر الجاهلي ، لافي الرثاء فحسب ، بل في جميع ما تناولته فنون الشعر .

وقد كان دريد بارعا في وصف القتال ، فبعد أن ذكر دعوة أخيه إياه ، وأنه كان سريع التلبية ، إذ لم يكن عند مادعاه إلى الموت بمقعد ، فهو أخوه رضيعا ثديين جمعا على صفاء ، لم يبس لبنهما ، فلم يحف عطف أمهما ، وصف القتال فقال :

لقد تنادى الأعداء ، وتجاوبت الأصداء ، أرذت الفرسان فارس الميدان ، ومن يكون ذلك الفارس غير عبد الله ، فهو وحده الذي يستحق هذا اللقب ؟

أقبلت عليه والرماح تنتاشه من كل جانب ، والعوالى تتناوله من جميع أقطاره ، فتقع على جسمه الطاهر وقوع الشوكة يمرها على الثوب الناصج ، فهو لم يغلب عن ضعف ، وإنما غلبته الكثرة الكثيرة .

حينئذ كنت كالناقة يذبح سقبا فتراع وتفزع ، فتبث فيها الروعة والفرع النظر إلى ذلك البوتشمه وتحسسه ، فأنا أنامله تأمل الأم المنكوبة في وليدها ، فما نزلت إلى الميدان حتى خرقت جسمي رماحهم ، وجعلته طرائق وخطوطا ، وتركت أكبوا في الرماح الطاعنة .

لقد طاعنت عن جثته الفرسان حتى تفرقت جموعها ، وحتى علا النقع رأسى ، فصرت منه حالك اللون ، أسود البشرة ، لقد قاتلت قتلة أخى قتال أخ صادق في أخوته ، فهو يسوى بينه وبين أخيه حتى في طلب البقاء ، ويحب لأخيه الحياة كما يحبها لنفسه ، قاتلت عنه قتال من يعلم أن كل حى إلى فناء ، « وأن المرء غير مخلد » .

النقد :

الأبيات تسيل بصورها العبرات ، فهو يصور تنادى الفرسان في غبطة بقتل أخيه ، وليس أبلغ في إظهار الغبطة من كلمة « تنادوا » ثم إن شعر الرأس ليقف من الهول عند ما يتصور تناوش الرماح لأخيه ، وهي « كوقع الصياصى في النسيج الممدد » ثم أى تصوير أجمع لذهاب العقل من التسوية بينه وبين الناقة ترأم بوها ؟ لقد بلغ دريد بقصيدته آية الوصف الحسى والعاطفى .

٣ — وقال عنقرة * يصف كتيبة هزمها :

وكتيبة لبستها بكتيبة شهباء بأسلة يخاف رداها^(١)
 خرساء ظاهرة الأداة كأنها نار يشب وقودها بظاها^(٢)
 فيها السكاة بنو السكاة كأنهم والخيول تعثر في الوغى بقناها^(٣)
 شهب بأيدي القابسين إذا بدت بأ كفهم بهر الظلام سناها^(٤)
 صبر أعدوا كل أجرد سابع ونجبية ذبلت وجف حشاها^(٥)
 يعدون بالمستلثمين عوابسا قودا تشكى أينها وجاها^(٦)
 يحملن فتيانا مداعس بالقنا وقرا إذا ما الحرب خف لواها^(٧)
 من كل أروع ماجد ذي صولة مرس إذا لحقت خصى بكلاها^(٨)

* ترجمه الشاعر : أقرأها في ص ١٢٢ .

التفسير اللغوي : (١) الكتيبة : الفرقة من الجيش . لبستها : خلطتها . شهباء : العظيمة الكثيرة السلاح . رداها : هلاكها .

(٢) خرساء : لا صوت لها . الأداة : العتاد . يشب : يشعل . بظاها : بلهبها .

(٣) السكاة : جمع كمي ، وهو الفارس المدجج بالسلاح . الوغى : الحرب . بقناها : برماحها .

(٤) شهب : وصف لموصوف محذوف هو أسنة . بهر : كشف . سناها : نورها .

(٥) صبر : صابرون . أجرد : وصف للفرس خف شعره لسمنه . سابع : يعدو بأقدامه

الأربعة ، كما يعمل السابح بيديه ورجليه . نجبية : ناقة كريمة . ذبلت : ضمرت . حشاها : ما انضمت عليه الضلوع .

(٦) يعدون : يبحرون . المستلثمين : اللابسي اللأمة ، وهي الدرع . عوابس : غضابا .

قودا : جمع أقود الذلول المنقاد . أينها : تعبا . وجاها : حفاها .

(٧) مداعس : جمع مدعس ، وهو الفارس الطعان . وقرا : جمع وقور الساكنون .

خف : اضطرب .

(٨) الأروع الماجد : الذكي الكريم النسب . مرس : ثابت . خصى : جمع خصية بالضم

والكسر . الكلى : جمع كلية وكلوة .

وَصَحَابَةُ شَمِّ الْأَنْوَفِ بَعَثْتُهُمْ لَيْلًا وَقَدَمَالَ الْكَرَى بِطُلَاهَا^(٩)
وَسَرَيْتُ فِي وَعَثِ الظَّلَامِ أَقْوَدُهَا حَتَّى رَأَيْتُ الشَّمْسَ زَالَ ضَحَاهَا^(١٠)
وَلَقِيتُ فِي قُبُلِ الْمَجِيرِ كَتِيبَةً فَطَقَنْتُ أَوَّلَ فَارِسٍ أُولَاهَا^(١١)
وَضَرَبْتُ قَرْنِي كَبِشَهَا فَتَجَدَّلَا وَحَلْتُ مُهْرِي وَسَطَهَا فَمَضَاهَا^(١٢)
حَتَّى رَأَيْتُ الْخَيْلَ بَعْدَ سَوَادِهَا مُحْمَرَّ الْجُلُودِ خُضْبَنٍ مِنْ جَرَّحَاهَا^(١٣)
يَعْتَرُونَ فِي نَقَعِ النَّجِيعِ جَوَافِلًا وَيَطَّانُ مِنْ مُحَمَّى الْوَغَى صَرْنَاهَا^(١٤)
٨١٨ : فَرَجَعْتُ مُحْمُودًا بِرَأْسِ عَظِيمِهَا وَتَرَكْتُهَا جُزْرًا لِمَنْ نَاوَاهَا^(١٥)

-
- (٩) شم الأنوف : مرتفعى الأنوف ، وهى كناية عن العلا والرفعة . الكرى : النوم .
الطلى : جمع طلبة وطلاة العنق ، أو أصلها .
(١٠) وعث الظلام : اختلاط الظلام وشدته . زال : تحرك ، ومصدره زول . ضحاهها :
وقت ارتفاع الشمس .
(١١) قبل المجير : فى أول اشتداد الحر . أولاهها : أولى طعناتى .
(١٢) تجدلا : تكسرا . فمضاهها : فقطعها .
(١٤) نفع النجيع . النقيع : المستنقع والغبار ، والأول هو المراد . النجيع الدم الأسود
المتجمد . محمى الوغى : شدة الحرب . صرعاها . قتلها .
(١٥) محموداً : مشكوراً ، جزراً : جمع جزور ، وهى الناقة تجزر . ناواها : مخفف
ناواها عاذاها .

تحليل الأبيات :

رب فرقة كثيفة من الجند دهمتها بفرقة عظيمة العدد ، موفورة العتاد ، يخشى فتكها ، ويخاف رداها ، يسير أفرادها في سكون لامن خوف بل عن غضب ، فعتادها ظاهر ، وسلاحها لامع ، كأنه نار مشبوبة .

في هذه الفرقة فرسان ورثوا الفروسية عن آبائهم ، يشبهون - إذ تعثر الخيل عند ماتحمى الوغى في الرماح المتساقطة ، والقنا المتهاوية - يشبهون في أيديهم سيوفهم ورماحهم شهباً بأيديهم أقباس من النار ، فيكشفون الظلام ، ويزيحون القتام ، كإكة أجلا ، أعدوا للجلاد الجرد السواح ، والنجب الذوايل الأخلاف ، الجواف الأحشاء ، الضواصر البطون ، تعدو تلك الخيول عواسب غواضب ذللاً ، تشكو ما يلحقها من نصب ، وما يصيبها من أين وتعب .

فرسان قد استلأوا . إنهن يحملن فتياناً فرساناً يحسنون الطعن ، رزناً عند ما يخف عقل الحليم ، ويضيع رشد الوقور ؛ إذا خف لواء الحرب ، فحمل أثناء الرجوع بالفشل ، من كل ندب ماجد ، وأروع ذكى ، ذى جولة وصوله ، وحول وطول ، ثبت عند النزال إذ تبلغ الخصى كلى الفرسان .

ورب صحب عزيزى النفوس ، شم الأنوف بعثت بهم ليلاً فى غارة بعد أن لعب الكرى بأعنة الفرسان ، فسرّيت فى شدة الظلام أقود تلك السرية ، فلم أنفك فى غارتى حتى تحركت أشعة الشمس ، ولقيت فى أول الهجير فرقة ضخمة ، فجعلت أولى طعناتى لأول فرسانها ، وضربت قائدها فخراً بمجدلين ، ثم حملت مهرى على قلبها ففرقتها كل مفرق ، ومزقتها شر ممزق ، وما زلت كذلك حتى رأيت الخيول الدم قد صارت كمتا ، كأنما خضبت من دماء فرسانها ، وحتى رأيتها تعثر فى مجتمعات من الدماء ومستنقعات من النجم ، فتذعر مما ترى ، وتجنل مما تسير عليه ، فهى لم ترطراً كتلك التى تعثر فيها ، فهن إما سائرات فى مستنقعات ، وإما سائرات عند احتدام الحرب فوق رؤوس الصرعى ، ثم عدت مظفراً منصوراً ، محموداً أحل رأس عظيمها ، وتركت الكتيبة كالجزور ينهشها من عاها من الكواسر والجوارح .

النقر .

لعترة في شعره شخصية ، فإنك مستطيع أن تحكم دون تعثر في حكمك عندما تسمع
شعر عترة أنه لعترة دون سواه ، فهو يهول من قوة عدوه ليكون الغلب بعدئذ عظيما قهارا ،
وهو في هذه الأبيات يسير على نمطه الذي اختاره سمة له ، وقد صور لنا الموقعة تصويرا واقعا

فكتيبته : شهباء بأسلة يخاف رداها

خرساء ظاهرة الأداة كأنها نار يشب وقودها بلظاها

والخيل :

يعدون بالمستلثمين عوابسا . قودا تشكى أينها ووجاها

و بصور الحرب أدق تصوير فيقول :

ولقيت في قبل الهجير كتيبة فطعنت أول فارس أولاها

وضربت قرني كبشها فتجدلا وحملت مهرى وسطها فضاها

حتى رأيت الخيل بعدسوادها حمر الجلود خضبن من جرحاها

أما الأسلوب فهو أسلوب عترة القوي الواضح لولا غموض يعتور البيت الثاني من البيتين :

فيها الكماة بنو الكماة كأنهم والخيل تعثر في الوغى بقناها

شهب بأيدي القابسين إذا بدت بأ كفهم بهر الظلام سناها

فوجه الشبه لا يستقيم إذا كان المشبه الكماة والمشبه به الشهب ، وإنما يستقيم إذا كان المشبه
السلاح على أن الأبيات فيها قوة الكتيبة الشهباء .



٤ — وقال سلامة بن جندل * يصف نجدة قومه في حربهم من قصيدة أولها :
 أودى الشبابُ حميداً ذُوَ التَّعَاجِيبِ أودى ذلكَ شأوٌ غيرُ مَطْلُوبِ ^(١)
 كنّا إذا ما أمانا صارِخُ فَرَعٍ كان الصُّرَاخُ له قرعَ الظَّنَائِبِ ^(٢)
 وشدَّ كُورٍ عَلَى وَجَنَاءٍ نَاجِيَةٍ وشدَّ مَرَجٍ عَلَى جَرْدَاءٍ مُرْخُوبِ ^(٣)
 والعادياتُ أسابى الدِّمَاءِ بهَا كأنَّ أعناقها أنصابُ تَرْجِيبِ ^(٤)
 مِنْ كُلِّ حَتٍّ إِذَا مَا ابْتَلَّ مُلْبِدُهُ صافى الأديمِ ، أسيلُ الخُدِّ ، يعبوبِ ^(٥)
 لَيْسَ بِأَسْفَى ، وَلَا أَقْفَى ، وَلَا سَيْلٍ يُعْطَى دَوَاءٌ قَفَى السَّكَنِ مَرْبُوبِ ^(٦)
 ٨٢٥ : تَظَاهَرَ النَّثِيُّ فِيهِ فَهُوَ مُحْتَفِلٌ يُعْطَى أَسَاهِيٍّ مِنْ جَرْنِي وَتَقْرِبِ ^(٧)

* ترجمه الشاعر : هو سلامة بن جندل بن عمرو بن عبيد بن الحارث ، من شعراء تميم
 الفحول ومن فرسانهم الأبطال ، ومن وصف الخيل البارعين ، وهذه القصيدة - فيما يقول
 الرواة - أجود شعره ، توفي حوالى سنة ٥٢٠ م

التفسير اللغوى : (١) أودى : ذهب . التعاجيب : الأعاجيب ، وهو جمع لا واحد له .
 الشأو : الغاية والسبق . (٢) صارخ مستنجد . فرع : خائف . الصراخ : الإغاثة
 الظنائيب : جمع ظنوب حرف عظم الساق ، والجملة كناية عن الاستعداد .
 (٣) الكور : رحل الناقة بأداته . الوجناء : الناقة الغليظة الوجنتين . الناجية : السريعة .
 الجرداء : الفرس القصيرة الشعر . المرحوب : الفرس الطويلة . (٤) العاديات :
 الخيل السريعات . الأسابى : الطرائق ، مفردها إسباءة . أنصاب : جمع نصب حجارة كانت
 تنصب حول الكعبة . ترجيب . تعظيم . (٥) الحت : السريع . ملبدته : موضع اللبد .
 صافى الأديم : صافى الجلد . أسيل الخد : ناعم الخد . يعبوب : كثير الجرى .
 (٦) الأسفى : الخفيف شعر الناصية . الأقفى : الذى فى أنفه احديداب . السفلى :
 المضطرب الأعضاء . الدواء : يقصد اللبن . قفى السكن : الضيف الكريم عند السكن ،
 وهم الساكنون . المربوب . الذى يغذى فى البيوت ، ولا يترك يرود الطعام عند غير أهله .
 (٧) تظاهر النثى : تراكم الشحم بعضه على بعض . المحتفل : الكثير المجتمع . الأساهى :
 الضروب والفنون لا واحد له . التقريب نوع من السير دون الجرى .

- رَفَى الدَّسِيعُ إِلَى هَادٍ لَهُ بَتَّعَ فِي جَوْجُو كَذَاكَ الطَّيْبِ مَحْضُوبٍ (٩)
 فِي كُلِّ قَائِمَةٍ مِنْهُ إِذَا انْدَفَعَتْ شُوبُوبٌ شَدَّ كَفَرِغِ الدَّلُو أَثْعُوبٍ (١٠)
 كَأَنَّهُ يَرْفَى نَامَ عَنْ غَنَمٍ مُسْتَنْفَرٍ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ مَذْعُوبٍ (١١)
 يُحَاضِرُ الْجُونَ مُحْضَرًا جَحَافِلَهَا وَيَسْبِقُ الْأَلْفَ عَفْوًا غَيْرَ مَضْرُوبٍ (١٢)
 مِمَّا يُقَدِّمُ فِي الْهَيْجَا إِذَا كُرِهَتْ عِنْدَ الطَّعَانِ وَيُنْجِي كُلَّ مَكْرُوبٍ (١٣)
 هَمَّتْ مَعْدٌ بَنَاءً هَمًّا فَتَهَنَّهَهَا عَنَّا طِعَانٌ وَضَرْبٌ غَيْرُ تَذْرِيبٍ (١٤)
 بِالْمُشْرِفِ وَمَصْقُولِ أَسِنَّتِهَا صُمَّ الْعَوَامِلِ صَدَقَاتِ الْأَنْيَابِ (١٥)
 ٨٣٣ : سَوَى الثَّقَافِ قَنَاهَا فَهِيَ مُحْكَمَةٌ قَلِيلَةُ الزَّرْبِغِ مِنْ سَنٍ وَتَرْكِيْبٍ (١٦)

- (٩) الدسيع : مغرز العنق في الكاهل . الهادي : العنق أو مقدمه . البتع : الطويل .
 الجوجو : الصدر . المذاك : الصلابة محضوب : مخرج بدماء العدو .
 (١٠) الأساوى : دفعات الجرى . فرغ الدلو : مخرج الماء منها . أثعوب : سائل منشعب .
 (١١) اليرفَى : راعى الغنم . مستنفر : مستثار . مذهب : هجم عليه ذئب .
 (١٢) يحاضرها : يطاولها الحضر ، وهو شدة الجرى . الجون : بالضم جمع جون بالفتح
 يقال للأبيض والأسود ، يريد بها الجر الوحشية . الجحافل : جمع جفلة ، وهى للخيول والحمير
 بمنزلة الشفة بالانسان . عفوا : هادئا .
 (١٣) الهيجاء : الحرب . إذا كرهت : إذا خيفت . مكروب : نازل به وشدة .
 (١٤) همت : عزمت . فتهنها : فزجرها . تذيب : تحيد . وفى رواية غير تذيب
 وهى مبالغة من الذب .
 (١٥) المشرفى : السيف للنسوب إلى مشارف الشام . مصقول : محدد . العوامل :
 جمع عاملة أعلى الرماح ، كعوال . صدقات : صلبات . الأنابيب : ما بين عقد الرماح .
 (١٦) سوى : عدل . الثقاف : مثقف الرماح ، وهى خشبة فيها ثقب تقوم بها الرماح .
 الزربغ : الاعوجاج . تركيب : يعنى تركيب النصال .

- زُرْقًا أَسْنَتَهَا ، حُمْرًا مُشَقَّةً أَطْرَافُهُنَّ مَقِيلٌ لِلْيَعَاسِبِ (١٧)
تَجَلَّوْا أَسْنَتَهَا فِتْيَانُ عَادِيَةٍ لَامُقْرِفِينَ وَلَيْسُوا بِالْجَعَابِيبِ (١٨)
٨٣٦: كَأَنَّهَا بِأَكْفِ الْقَوْمِ إِذْ لَحِقُوا مَوَاتِحُ الْبُئْرِ وَأَشْطَانُ مَطْلُوبِ (١٩)



-
- (١٧) زُرْقًا أَسْنَتَهَا: لشدة صفائها . حُمْرًا: اشتداد الصفاء يبعث حمرة . مَقِيلٌ: مكان قضاء القيولة . الْيَعَاسِبِ: جمع يَعُوبُ ملوك النحل .
(١٨) عَادِيَةٍ: حرب . الْمُقْرِفِ: الذى يكاد يكون هجيناً ، والهجين من أمه رقيقة . الْجَعَابِيبِ: القصار الضعاف .
(١٩) مَوَاتِحُ الْبُئْرِ: الحبال التى ينزح بها الماء من البئر . الْأَشْطَانُ: الحبال الطوال . مَطْلُوبٌ: بئر بعيدة القرار بين المدينة والشام .

تحليل الأبيات :

ذهب الشباب محمودة عواقبه ، كثيرة أعاجيبه ، ذهب وتلك غاية ما كنا نطلبها ،
وشأولم نكن نأمله .

يبكاء الشباب والتحسر على أيامه الزاهيات بدأ الشاعر قصيدته ، ثم انتقل إلى الفخر
بالكرم والنجدة والشجاعة ، فقال :

كنا - وما زلنا - إذا استنجد بنا مستنجد ، أو استصرخ يقومنا مستصرخ كان
الاستعداد للدفع عنه جواب استصراخه ، فنشد الأكوار على الوجناوات النجائب ،
والسروج على الجرد السراحيب ، تلك العاديات التي ترى فوق أعناقها طرائق الدم من
طعننا الأعداء ، فكان هذه الأعناق أنصاب نذبح فوقها الهدى لها ، من كل فرس جواد
سريع عند ما يبتل موضع اللبد منه ، صافي الجلد ، ناعم الخد ، سريع الجرى ، وذلك
الحسن القيام عليه ، ولكرمه وعتقه ، ليس فيه ما يمكن أن يعاب به ، فليس خفيف شعر
الناصية ، وليس محدودب الأنف ، وليس مضطرب الأعضاء ، بل هو كامل الحسن ، بالغ
الجمال ، فنحن لذلك نكرمه غاية الإكرام ، فنسقيه مما نسق منه أكرم الضيوف ، ونغذيه
ما تغذى به أعز الأرباب ، فهو سمين مكتنز ، ضخم محتفل ، له أفانين في العدو والجرى ،
وأساهى في الحضر والتقريب ، يعتلى كاهله عنق يتع طويل ، فوق صدر ناعم أملس ، كأنه
لنعومته وملاسته وكتبته مداك الطيب ، في كل قائمة من قوائمه الأربع عند ما يندفع عاديًا
دفعات من الجرى ، كأنها في شدة وقعها انصباب الماء من الدلو .

كان ذلك الفرس راعي غنم نام عنها ، فعتت فيها الذئب ، فنهض من سباته فزعا
مضطربا يحاول بأسرع عدوه ، وأشد جريه إنقاذها من مخالب مفترسها ، وهو يبارى الحر
الوحشية حضرها ، وقد اخضرت شفاهاها ؛ لما هي فيه من رعى كثير ، ويسبق الألف من
الخيل دون أن يضرب بسوط ، أو يركل بقدم .

ذلك الفرس من الجياد التي تختار لاقترحام الهيجاء إذا خيف اقترحامها ؛ لاشتداد
الضرب والطعن فيها ، فينجى فارسه بكره وفره ، فيسبق مطلوبا ويدرك طالبا .

همت معدًا بناهنا ، وقصدت حر بنا قصدا ، فكفها عن الهم بنا ما تعرفه عنا من طعن

مسدد ، وذب عن حرماننا قوى شديد بالسيوف المشرفية ، وبالرماح المصقولة الأسنة ، الصم
العوامل ، الصلبة الأنابيب ، قد سوى الثقاف قناتها ، فهي محكمة ، عديمة الاعوجاج ،
شديدة التحديد ، صافية الحديد ، فأستنها زرق يخالطها حمرة لشدة صفائها ، مقومة أتم
تقويم ، فأستنها تقيل فيها رءوس قواد الجيش ويعاسيب الجند .

تصقل أسنتها وتجلو أطرافها فتیان حرب ، كلهم نسيب كريم ، ليس فيهم هجين
ولا ضعيف ، كأن هذه الرماح بأ كف المحاربين إذ لحقوا أعداءهم الفارين حبال يمتح بها
ماء البئر ، أو أشطان بئر بعيدة الغور ، فهي لا بد مدركة رؤوس أولئك الفارين .

النقر .

الأصل في هذه الأبيات أنها للفخر ، ولكن الشاعر وصف فيها الاستعداد للقتال
وصفا بارعا في قوله :

وشد كور على وجناء ناجبة وشد سرج على جرداء مرحوب
ثم سار يصف الخيل في حضرها وتقريبها ، وأجزاء جسمها ، وما تقدمه لفارسها من
جهد محمود في قتاله فأجاد الوصف ، ثم وصف الرماح فوفى في وصفه إياها ، وإن يكن كرر
بعض المعاني ، ولعل هذا التكرير مما يلائم الفخر الذي هو الأصل في قصيدته ، وذلك
من مثل قوله :

سوى الثقاف قناها ، فهي محكمة قليلة الزيف من سن وتركيب
زرقا أسنتها حمرا مثقفة أطرافهن مقيل لليعاسيب
تجلو أسنتها فتیان عادية لا مقرفين ، وليسوا بالجمعاييب
ويعجبنا ذلك المعنى في قوله : « أطرافهن مقيل لليعاسيب » فهو قد صور لنا الرءوس
تقيل في أطراف الرماح ، وهو معنى لم يسبق إليه فيما نعلم .

٥ - وقال بشر بن أبي خازم * يصف نجدة قومه من قصيدة أولها :

عَفَتْ من سُلَيْمَى رَامَةً فَكَيْثِبِهَا وَشَطَّتْ بِهَا عَنْكَ النَّوَى وَشُعُوبُهَا (١)
وَكُنَّا إِذَا قُلْنَا : هَوَازُنُ : أَقْبَلَى إِلَى الرُّشْدِ لَمْ يَأْتِ السَّدَادُ خَطِيبُهَا (٢)
عَظَفْنَا لَهُم عَظَفَ الضَّرُوسِ مِنَ الْمَلَا بِشَهْبَاءَ لَا يَمْشِي الضَّرَاءُ رَقِيبُهَا (٣)
فَلَمَّا رَأَوْنَا بِالنَّسَارِ كَأَنَّنَا نَشَاصُ الثَّرِيَا هِمَجَّهَا جَنُوبُهَا (٤)
فَكَانُوا كَذَاتِ الْقَدْرِ لَمْ تَدْرِ إِذْ غَلَّتْ أَتَنَزَّلُهَا مَذْمُومَةٌ أَمْ تَذِيبُهَا ؟ (٥)
قَطَعْنَاهُمْ ، فَبِالْيَمَامَةِ فِرْقَةٌ وَأُخْرَى بِأَوَاطِسٍ تَهْرُ كَلِيبُهَا (٦)
نَقَلْنَاهُمْ نَقْلَ الْكَلَابِ جِرَاءَهَا عَلَى كُلِّ مَعْلُوبٍ يَتَوَرَّ عَسْكَوْبُهَا (٧)
٨٤٤ : لَحُونَاهُمْ لَحَوَ الْعِصَى ، فَأَصْبَحُوا عَلَى آلَةٍ يَشْكُو الْهَوَانُ حَرِيبُهَا (٨)

* ترجمه الشاعر : اقرأ ترجمته في ص ١١٦ .

التفسير النفوس : (١) عفت : درست . رامة : بلد . الكيثيب : الرمل . شطت : نأت وبعدت . النوى : نية السفر . شعوبها : جمع شعب يقصد أهلها .
(٢) هوازن : قبيلة وهي منادى . الرشد : الحلم والسداد . السداد : الإصابة .
(٣) عظفنا لهم : ملنا عليهم . الضروس : صفة لموصوف محذوف هو الحرب ، وإنما توصف بالضروس لأنها تضرس المقاتلين كما تعض الناقة السيئة الخلق حالها . الملا : الصحراء .
الشهباء : السكتيبة علاها الحديد فلمع . الضراء : ما يورى الإنسان من الشجر . الرقيب : الناظر .
(٤) النسار : اسم مكان . نشاص الثريا : ما ارتفع من السحاب بنوئها ، وفيه كناية عن الكثرة . جنوبها : ريح شديدة تهب من الجنوب .
(٥) ذات القدر : صاحبة القدر فيها السمن . مذمومة : أى من الضيف . تذيبها : تذيب سمنها .
(٦) قطعناهم : مزقناهم في حربنا أيام . اليمامة وأوطاس : موضعان كانا ميدان قتال .
تهر : تصيح من خوف . كليها : كلابها (٧) نقلناهم : حملناهم على الانتقال من بلدهم . الجراء : جمع جرو . معلوب : وصف لموصوف محذوف أى طريق معلوب ، وهو المهد . عكوبها : غبارها ، والهاء تعود على الطريق ، وهو يذكر ويؤنث .
(٨) لحوناهم : أخذنا جميع عتادهم ، وهو من لحا الشجرة إذا قشر عودها . الآلة : الحال . الهوان : الدل . حريبها : الحريب المسلوب المال .

لَدُنْ غُدُوَةٍ حَتَّى أَتَى اللَّيْلُ دُونَهُمْ وَأَدْرَكَ جَرَى الْمُبْقِيَاتِ لُغُوبُهَا^(٩)
 جَعَلْنَ قَشِيرًا غَايَةً يُهْتَدَى بِهَا كَمَا مَدَّ أَشْطَانُ الدَّلَاءِ قَلْبِيهَا^(١٠)
 إِذَا مَا حَقَّقْنَا مِنْهُمْ بِكَتَيْبَةٍ تُذَكِّرُ مِنْهَا ذَحْلَهَا وَذُنُوبُهَا^(١١)
 بَنِي عَامِرٍ : إِنَّا تَرَكْنَا نِسَاءَ كُمْ مِنَ الشَّلِّ وَالْإِيحَافِ تَدْمَى عَجُوبُهَا^(١٢)
 غَضَارِيطُنَا مُسْتَبْطِنُو الْبَيْضِ كَالْدُمَى مُضَرَّجَةٌ بِالزُّعْفَرَانِ جُيُوبُهَا^(١٣)
 تَبَيَّتُ النِّسَاءُ الْمُرْضِعَاتُ بَرَهْوَةَ تَفْرَعُ مِنْ خَوْفِ الْجَنَانِ قُلُوبُهَا^(١٤)
 ٨٥١: دَعَا مُنْبِتَ السِّيفَيْنِ إِنَهُمَا لَنَا إِذَا مُضَرُّ الْحَمَاءِ شَبَّتْ حُرُوبُهَا^(١٥)

- (٩) لدن : عند ، وهو ظرف يصلح للزمان والمكان ، وهو المكان أقرب وأخص .
 الغدوة : أول الصباح . المبقيات : الخيل تدخر بعض جريها . اللغوب : الإعياء .
 (١٠) قشيرا : بمعنى قبيلة بنى قشير ، والقصود أن خيل بنى أسد جعلت همها بنى قشير .
 الأشطان : الحبال الطويلة . القلب : البئر . الدلاء : جمع دلو .
 (١١) الكتيبة : الفرقة من الجيش . الذحل : الثأر .
 (١٢) بنى عامر : مادى حذف حرف ندائه . الشل : الطرد . الإيحاف : السير الشديد تدمى : يسيل دمها . العجوب : جمع عجب بسكون الجيم ، وهو نهاية العصم .
 (١٣) غضاريطنا : خدمنا وأتباعنا مفردة غضريط . مستبطنون : داخلون في بطونهم كناية عن أنهم فى أحضانهم . الدمى : جمع دمية التماثيل من الرخام أو الشمع أو غيرها .
 مضرجة : مخضبة . الزعفران : نبت أصفر طيب الرائحة .
 (١٤) برهوة : بأرض منخفضة أو مرتفعة . الجنان : القلب .
 (١٥) دعوا : اتركوا . السيفين : الشاطئين . مضر الحمراء : لقبتم بالحمراء لقبة من جلد أحمر وهبها نزار لمعر .

تحليل الأبيات :

درست لفراق سليمى بلدتها وإن تكن مازال عامرة ، وأوحشت كثنائها التى كانت
تسحر فيها ، وإن كانت ماتفك أنسة ، وبعدت بمحبوبتك عنك نية سفرها مع قبيلها .
بهذا المعنى الحزين بدأ الشاعر قصيدته ، ثم سار فيها متفجعا من الفراق ، موجعا من
النوى ؛ حتى انتقل إلى وصف ناقته ، ومنها نخر بنجدة قومه فقال :

٨٥٢ : أجبنا بنى سعد بن ضبة إذ دعوا والله مولى دعو — وة لا يجيبها
وكنا إذا قلنا : هوازن أقبل إلى الرشد لم يأت السداد خطيبها

ثم أخذ يصف عاقبة هوازن بعد أن حاد عن السداد خطيبها ، ومال عن الجادة حاديها ،
فقال : إننا ملنا عليهم ميل الحرب الشديدة تقبل عليهم من الصحارى بكتيبة كثيفة العدد ،
كثيرة العدد ، لا ينجب رقيبها فى الأشجار ، ولكنه يبدول العيان والأنظار ، فلما رأنا هوازن
فى النصار كأننا السحاب الركام كثرة وهولا هيجهته الجنوب صاروا فى حيرة واضطراب ،
فمثلهم كمثل المرأة تسلا سمنًا ، وقد نزل بها ضيف ، فهى فى حيرة أتم سلا ، فیسأم الضيف
ويظن بها البخل ، أم تنزله ولما ينضج فيذم طعامها ؟ فهى فى الحالين مذمومة ، وذلك حال
هوازن إن حاربوا هزموا وذموا ، وإن أعرضوا لحقهم العار .

مرقناهم فرقا ، وقطعناهم قطعا ، ففرقة باليمامة ، وأخرى بأوطاس تهر كلابها هرير الخوف ،
وتنبج نباح الفرع ، وحملناهم على أن ينقلوا فى الأحياء كما تنقل الكلاب جراءها خشية
الاعتداء ، فذهبوا فى طرق مطروقة يشور الغبار فى وجوههم ، سلبناهم أموالهم كما يسلب العود
لحاءه ، فأصبحوا فى حال تشكو ذلها وهوانها شكوى الضعيف السليب .

حاربناهم من الغدوة إلى العشى ، فلم نترك فيهم رمقا ، ولم يدخروا فى الدفاع عن أنفسهم
جهدا ، فمثلهم كمثل الفرس تبقى بعض جريها ، ثم تضطر فلا تدخر شيئا ، حتى يدركها الأثين
ويعصيبها السلال .

جعلنا نحن - بنى أسد - بنى قشير غايتنا التي نبيغها ، وهدايتنا التي نهتدى بها ، فلم نخذ عن حربهم يمنة ولا يسرة ، كما تمد حبال الدلاء نحو القليب ، فحتى أدركنا منهم فرقة تذكرنا ما بيننا من ذحول وذنوب ، فاشتد القتال ، واحتدم الضراب .

بنى عامر : اذكروا لنا شجاعتنا ، فقد تركنا نساءكم تدمى عجبوهم ؛ إذ حملن على غير وطاء ، وأسرع بهن في السير حتى لا يقعن في الإسار ، واذكروا إذ تركتم بعض نساكنكم ، فاستبطنها خدمنها ، وهن في جملهن كالدمى المطيبة بالزعفران ، أما المرضعات منهن فانهن يستعصمن بالنجاد أو يستترن في الوهاد ، وهن في فزع تطير له القلوب .

فدعوا لنا شاطئ البحر فانهما ملسكننا إذا مضى الحراء شبت حروبها .

الفرد :

قال بشر هذه القصيدة يشيد بانتصار قومه بنى أسد وحلفائهم على بنى عامر ، ففضبت تميم لقتل بنى عامر ، فتجمعوا وقاتلوا طيئنا وحلفاءها ، فهزمت تميم ، فقال بشر قصيدة أخرى منها :

٨٥٣ : غضبت تميم أن تقتل عامر يوم النصار فأعتبوا بالصـ

والقطعة قوية المعاني ، زاخرة بالصور ، ولا نأخذ عليه إلا إسرافه في دعاواه ، وطرحه الخلق العربي الكريم في معاملة السباء من الحرائر ، فما زعمه لا يقره الخلق العربي النبيل . ويعجبنا منه تشبيه تنقل أعدائه هروبا من قومه بنقل الكلاب جراءها ، كما يعجبنا ذلك التشبيه الذي جعلهم فيه مذومين على أى حال .

فكانوا كذات القدر لم تدر إذ غلت أنزلها مذمومة أم تذيبها ؟

(>) وصف سوءات الحرب

١ - وقال زهير بن أبي سلمى * يصف سوءات الحرب من معلقته :

- وما الحربُ إلَّا ما عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمْ وماهوَ عنها بالحديثِ المرْجَمُ (١)
مَتَى تَبْعُوهَا تَبْعُوهَا ذَمِيمَةً وَتَضُرُّ إِذَا ضَرَّ يَتْمُوها فَتَضُرُّمُ (٢)
فَتَعْرُكُكُمْ عَرَكُ الرَّحَى بِثِفَالِهَا وَتَلْقَحُ كِشَافَاتِمُ تَحْمِلُ فَتَنْتَمُ (٣)
فَتَنْتَجُ لَكُمْ غِلْمَانٌ ، أَشْأَمُ كُلُّهُمْ كَأَحْمَرِ عَادٍ ، ثُمَّ تُرْضِعُ فَتَنْفِطِمُ (٤)
٨٥٨ : فَتَغْلِلُ لَكُمْ مَا لَا تَغِلُّ لِأَهْلِهَا فَرَى بِالْعِرَاقِ مِنْ قَفِيزٍ وَدِرْهَمِ (٥)

* ترجمته الشاعر : أقرأها في ص ٨٨ .

التفسير اللغوي : (١) يخاطب الشاعر بآياته هذه حيي عبس وذبيان ، ويذكرهم بالأحداث الجسام التي نزلت بهم أثناء حروبهم . المرجم : المظنون من الرجم بمعنى الرمي بالرجام وهي الحجارة ، فالمعنى مجازي ، قال الزمخشري : رجمه قذفه وشتمه ، ورجم بالظن ، ورجم به رمى به . (٢) تضري : تعود وتدرّب . فتضرم : فتشتعل .

(٣) تعرككم : تدلككم كناية عن الطعن . بثفالها : الثفال خرقه أو جلدة تبسط تحت الرحي ليسقط عليها الطحين ، والباء في بثفالها بمعنى مع . تلقح : تحمل . كشافا : متتابعاً . تنتج : تلد . فتنتم : فتجيء بتوأمين . (٤) الشؤم : ضد الجن ، ورجل مشؤم ، ورجل مشائم كرجل ميمون ورجل ميامين والاشأم أفعل تفضيل من الشؤم ، وجمعه الأشأم وأراد بأحمر عاد أحمر نمود ، وهو عافر الناقة ، واسمه قدار ، وقد تجوز ، إذ تعود يقال لها عاد الأخيرة ، والدليل قوله تعالى : « وأنه أهلك عاد الأولى » يعني قوم هود .

(٥) تغلل : تخرج الأرض الغلة . القفيز : مكيال . درهم : ميزان ، وخص العراق لشهرتها بالغلات .

تحليل الأبيات :

صور الشاعر ويلات الحرب ونكباتها في صور متعددة متجددة ، كل صورة منها كغفلة بدفع الناس عن ركوبها ، وحملهم على الابتعاد عن امتطاء أسبابها ، فقال :
ليست الحرب أيها المتحاربون شيئاً تجهلونهُ فأعزّ فكم به ، فقد خبرتموها وخبرتمكم ،
وذقم ويلها ، وأذاقكم صابها ، وليس حديثي عنها بالحديث الذي يظن فيه الرمي بالغيب ،
أو الرجم بالظن ، وإنما هو حديث الحق المشاهد .

إنكم إن تثيروها تثيروها دمية ذميمة ، كريمة قبيحة ، فهي كالوحش المدرب على الفتك ، المغرى على النهش والقتل ، أو هي كالنار المشتعلة لا تبقى ولا تذر ، لواحة للبشر ،
أو هي كالرحى لا تفتأ تطحن كل ما يقع بين شقيها ، أو كالناقة الشوهاة الولود تلد أشأم مولود ،
أو هي أرض ذات غلة مرة المذاق ، لا تعقب الفنى وإنما تعقب الإملاق ، وتثمر رزايا نفوق في كثرتها ماتمره أرض العراق ، مما يكال أو يوزن ، فبئس هي من عدو للحياة والأحياء .

النقد :

هذه الأبيات في وصف الحرب من أروع ما قال زهير ، وليس لشاعر جاهلي أو غير جاهلي في وصف سوءاتها ما لزهير ، فقد جاء فيها بصور هي آية الروعة ورمز الإبداع ،
ولعل ذلك لأن زهيراً كان يقول عن إيمان ، ويتحدث عن عقيدة ويقين ، فبلغ ما بلغ من الإجادة والافتنان ، ذلك الذي لا يحتاج إلى الإيماء إليه ، والتدليل عليه ، ففي كل بيت صورة أو صورتان ، متكاملة الظلال والألوان كقوله :

فتعركم عرك الرحي بثغالها وتلقح كشافاً ثم تحمل فتتم

٢ — وقال امرؤ القيس * يصف الحرب وسوء عواقبها .

الحربُ أولُ ماتكونُ فتيةٌ تبدو بزيتها لكلَّ جهولِ
حتى إذا حيتْ وشبَّ ضرائها عادتْ عجوزاً غيرَ ذاتِ خليلِ
شمطاء جزّت شعرها وتفكرتْ مكروهةٌ للثمِّ والتَّقْيِيلِ : ٨٦١

تحليل الأبيات :

الحرب في أول أمرها شابة فتية، فيها حسن وخلاصة وفتنة ؛ لأنها توحى بالظفر والنصر وطيب الأحداث ؛ حتى إذا وقع الناس في لهيها ، وحى وطيسها ، واشتعل ضرامها ظهرت على حقيقتها عجوزا نكراء لا تبقى على خليل ، ولا تحتفظ بخليل ، وكيف ذلك ؟ وهي تتخذ منهم غذاءها ، فدمائهم شرابها ، ولحومهم طعامها ، إنها تبدو شمطاء شواء ، قبيحة المنظر ، دمية المرأى ، قد جزت شعرها فزادها ذلك نكرا ، وتفكرت لمن كانت ترعهم أصدقاءها ، فعادت مكروهة للثم والتقييل .

النقد :

مارس امرؤ القيس الحرب أعواما ، فعرفها على حقيقتها ، فهي تغرى وتغوى ؛ تغرى بالنصر ، وتغوى بالظفر والغنيمة ، تبدو في زينة فاتنة ، وصورة ساحرة ، ولكنها ماتلبث أن تظهر على حقيقتها ؛ تنال من الغالب والمغلوب ، وتأخذ من الطالب والمطلوب ، فهي كالدهاية العجوز توقع في الشباك بعد أن تنصب الأشرار .

والجليل في هذه الأبيات أن امرأ القيس استمد صورته من المرأة شابة وعجوزا ، والمرأة هي أول من أثار الشرور ، وحل الأوزار ، وما أشبه قول امرئ القيس بقول سيدنا سليمان عليه السلام : الشر حلواؤه ، مر آخره .

ترجمة الشاعر : انظر ترجمته في ص ١٠٩

التفسير اللغوي : (١) فتية : شابة . (٢) شب ضرامها : اشتعل لهيها . خليل : صديق . (٣) شمطاء : اختلط بياض شعرها بأسوده . تفكرت : تغيرت .

خاتمة عن خصائص الوصف في العصر الجاهلي

الآن وقد عرضنا الوصف في العصر الجاهلي بجميع صورته عرضا مبسوطا ، سواء من ناحية فنونه ، أم من ناحية أخيلته وأفكاره ، أم من ناحية نظمه وتنسيقه نستطيع أن نحكم عليه بما يأتي :

١ — الوصف هو أقدم فنون الشعر على الإطلاق ، لا نستثنى منها فنا ؛ وذلك لأن العربي شديد الحساسية بالجمال ، قوى الشعور بالحسن ، فهو مدفوع إلى التعبير عن حسه بالوصف ، مضطر إلى تصوير شعوره بالشعر ، وليس من اللازم اللابز أن يكون الشعر مستقيما في أوزانه ، فهذا عبيد بن الأبرص ، وهو من أبرز شعراء ذلك العصر يبدو الاضطراب في شعره أحيانا .

٢ — يلتزمون الصدق في أوصافهم ، والحقيقة في أوضح صورهم ، وليس معنى هذا أن الوصف يتجافى مع الخيال ؛ فهو يعتمد على الخيال إلى حد بعيد ، إذ الصدق لا ينافي الخيال ؛ فعنقرة حين يقول مثلا :

يَدْعُونَ عَنقَرَةً ، وَالرَّمَّاحُ كَأَنَّهَا أَشْطَانُ بُئِرٍ فِي لَبَانِ الْأَذْهَمِ .

مَازِلْتُ أَرْمِيهِمْ بِغُرَّةٍ وَجْهِهِ وَلَبَانُهُ حَتَّى تَسْرُبَلَ بِالْدَمِ .

فَازُورَ مِنْ وَقَعِ الْقَنَّا بَلْبَانِهِ وَشَكَا إِلَى بَعْبَرَةٍ وَتَحْمَحُمِ .

٨٦٥ : لَوْ كَانَ يَدْرِي مَا لِحَاوَرَةُ اشْتَكَى وَلَكِنْ لَوْ عَلِمَ الْكَلَامَ مُكَلَّمِي

صادق . كل الصدق في تصويره ، فإن الرماح تبدو مصوبة مستطيلة ؛ كأنها في استطالتها أشطان البئر ، والدم قد يتطاير فيغطي وجه الجواد ، فكأنه متخذ منه سر بالا ، والفرس الجواد يشارك فارسه في حربه ، فليس بدعا أن يقول أرميهم بغرة وجهه ، وقد يتغير الفرس مما يلاقى ، ويشعر فارسه بازوراره وتغيره ، وقد يشكو بالحمة والعبرة فيثير في نفس فارسه الأسى والأسف لشكواه ، ولو استطاع الحاور والمجادلة لاشتكى وساور وجادل .

كل هذا صدق خالص ، وهو مع ذلك خيال سامق .
إنهم صادقون في وصفهم ؛ لأن وصفهم لا تكلف فيه ، وإنما هو صادر عن عاطفة
وشعور ، وهذان هما مبعث الصدق ، يرى امرؤ القيس البرق يومض ويهتز بين الجبال
والوديان ، فيشبهه بحركة اليدين في سحب مستدير كأنه الإكليل ، أو هو في وميضه
ولمعانه كمصاييح الراهب السخى على معبده ، فهو يهين سليطه ويضاعف زيقه ، ويرفع
ذباله المقتل ، والبيتان هما :

أصاح : ترى برءاً أريك وميضه كلع اليدين في حبي مكلل
يضي سناه أو مصاييح راهب أهان السليط بالذبال المقتل

٣ — جميع شعراء هذا العصر لهم في الوصف الفكرة الواضحة ، والمعنى القوى الناصع ،
ولا يمنع ذلك أنهم يتفاضلون في وضوح فكرهم ، ويتميزون في قوة معانيهم ، ونصاعة
أخيلتهم ، إذ كيف لا نحكم بفضل عبيد بن الأبرص على الأعشى مثلاً ، وقد جاء في بيت
واحد بمعنى فصله الأعشى في بيتين ، فقال عبيد يصف المرأة بحرارة جسمها شتاء ،
وخصره صيفا :

تُدْفِي الصَّجِيعَ إِذَا يَشْتَوُ وَتَحْصِرُهُ فِي الصَّيْفِ حِينَ يَطِيبُ الْبَرْدُ لِلصَّاحِي
وقال الأعشى ، وقد يكون آخذاً المعنى من عبيد :

وتبردُ بردَ رداءِ العرو س رقرقت بالصيف فيه العبيراً
٨٧٠ : وتسخن ليلَةً لَا يَسْتَطِيعُ نُبَاحاً بِهَا الْكَلْبُ إِلَّا هَرِيرَا

وقد مر بنا بعض الصور الغامضة التي عاجلناها على نحو قد لا تحتمله ألفاظ البيت
كقول عنقرة :

فيها الكماة بنو الكماة كأنهم وأنخيلُ تعثرُ في الوغى بقناها
شهبُ بأيدي القاسين إذا بدت بأ كفهم بهر الظلام سناها

ولكن الغامض من صورهم قليل لا يعتد به .

٤ — على الرغم من أن صورهم بسيطة غير مركبة ، فإنها رائعة الحسن رائعة الجمال ، فإن التركيب قد يكون صادرا عن تكلف وتصنع ، وليس شيء يفسد الشعر كهذين ، وقد مر بنا من الصور الجميلة في بساطتها ، الرائعة في سهولة مأخذها ما فيه غنية عن الأمثلة .

٥ — يبتهم معين وصفهم ، والعين الثرة لصورهم ، منها يستمدون تشبيهاً بهم ، ويمتحنون استعاراتهم ، وعليها يعتمدون في كنيائهم ، لا فرق في كل ذلك بين السيد الشريف ، والعبء الوضع ، فكل مظاهر البيئة ملكهم جميعا ، وقد مر بك الكثير من المعاني المتشابهة التي اعتمدوا فيها على البيئة .

٦ — أكثر صورهم حسية ، إن لم نقل إنها جميعها حسية ، أخذوها مما يقع تحت سمعهم وبصرهم من أحداث الطبيعة ، وتقلبات الكون ، وتطورات الأيام ، ومن صور الإنسان والحيوان والجماد والنبات ، وهم شديداً التأمل لما يرون ، بعيدو التدبر لما يسمعون ، وأى تأمل وتدبر أكثر من قول عنتره يصف ذباب الروض ؟

وَحَلَا الذَّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِيَارِحٍ غَرِدَا كَفَعْلَ الشَّارِبِ الْمُرْتَمِّمِ
هَزِجًا يَحُكُّ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ قَدَحَ الْمَكْبُ عَلَى الرَّنَادِ الْأَجْدَمِ

وأى تأمل وتدبر أكثر من قول امرئ القيس يصف عيون الوحش وهو ينظر إليه حمداً ؛ لأنه يدرك أنه يسعى لصيده ؟

٨٧١ : كَأَنَّ عُيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خَبَائِنَا وَأَرْحُلُنَا الْجَزَعُ الَّذِي لَمْ يُثَقِّبْ

٧ — كان الوصف سجلاً لكثير من عاداتهم وأخلاقهم وسياستهم ، وقد مر بنا الكثير من الصور الدالة على هذه العناصر الثلاثة ، فليس هناك ما يدعو إلى التكرار أو الإفاضة فيما هو في متناول أيدي الجميع .

٨ — يميلون في الوصف — بالذات — إلى الإطناب ، فقد يبدون ويعيدون ، وقد عللنا ذلك بأن المعنى أطربهم ، فأرادوا إيراده في أكثر من صورة واحدة ، وهم بذلك مخالفون لما كانوا يلتزمون في غير الوصف من الإيجاز البليغ .

فمن الإطناب قول النابغة يصف سيف آل جفنة :

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سِيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ السَّكَنَائِبِ
تُخَيِّرْنَ مِنْ أَرْزَامٍ يَوْمَ حَلِيمَةٍ إِلَى الْيَوْمِ قَدْ جُرِّبْنَ كُلَّ التَّجَارِبِ
تَقْدُّ السَّلَاقِيَّ الْمَضَاعِفَ نَسْجُهُ وَتَوَقِّدُ بِالصَّفَّاحِ نَارَ الْهَبَاحِبِ

٩ — صورهم في وصف الطبيعة المتحركة والساكنة تجمع بين الحركة والسكون ،
والجلبة والهدوء ، وكأني بهم يلائمون بين الصور وأسبابها ، وبين الحقيقة وخيالها ، وقد
مرت بنا صور متنوعة ، ولكن ذلك لا يمنعنا أن نعرض صوراً أخرى فيها حركة
وجلبة ، وسكون وهدوء ، وملاءمة بين الصور ومصورتها ، ومناسبة بين الأوصاف
وموصوفاتها ، ألسنت تحس الصخب والضجيج ، والجلبة والاضطراب في قول الحارث
ابن حلزة الشكري ؟

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عِشَاءَ فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ
مِنْ مُنَادٍ ، وَمِنْ مُجِيبٍ ، وَمِنْ تَصْهَالٍ خَيْلٍ خِلَالِ ذَاكَ رُغَاءُ
تُشعر بهذا الصخب من المعنى ومن اللفظ ، ومن الأسلوب ، وهذه أبيات لعمر بن كلثوم
تحس فيها الصلابة والقوة لأن الموقف يقتضيهما :

بَأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمَرُو بَنَ هِنْدٍ تُطِيعُ بَنَا الْوُشَاةِ وَتَزْدَرِينَا ؟
بَأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمَرُو بَنَ هِنْدٍ نَسْكُونُ لِقَيْنِكُمْ فِيهَا قَطِينَا ؟
تَهْدِدُونَا وَتَوَعِدُونَا . رُؤَيْدَا !! مَتَى كُنَّا لِأَمَلِكْ مُقْتَوِينَا ؟
فَإِنَّ قَتَانَا يَا عَمْرُو أَعْيَتْ عَلَى الْأَعْدَاءِ قَبْلَكَ أَنْ تَكَلِّمَنَا
إِذَا عَصَّ الثَّمَاثُ بِهَا أَشْمَازَتْ وَوَلَّتْهُ عَشَوْرَةَ زَبُونَا
٨٨٢ : عَشَوْرَةَ إِذَا انْقَلَبَتْ أَرَنْتَ تَشْجُ قَمَا الْمُتَقَفِ وَالْجَيْنَا

أليس خيالك سيصور لك ذلك الموقف وقد وقف عمرو متنكباً قوسه ، متقلداً سيفه ،
مر بد الوجه ، مختلج النفس ، يتخير الألفاظ تحييراً ، ويقذف بها عمرو بن هند كأنها قطع الصخر ؟
إن خيالك لا بد سابع بك فريك هذا المنظر .

وانظر إلى الأعشى يصف كرم آل الحلق ، فمتخير أوسع الألفاظ معاني ، وأضخمها حروفاً ، فيقول :

نَفَى الدَّمَّ عَنْ آلِ الْمُحَلَّقِ جَفَنَةً كَجَابِيَةِ الشَّيْخِ الْعِرَاقِيِّ تَهَقُّ
يَرُوحُ فُتًى صِدْقٍ وَبَعْدُو عَلَيْهِمُ بِمَلْءِ جِفَانٍ مِنْ سَدِيفٍ يُدَقُّ
تَرَى الْقَوْمَ فِيهَا شَارِعِينَ وَدُونَهُمْ مِنْ الْقَوْمِ وَلَدَانٍ مِنَ النَّسْلِ دَرَدَقُ

فاذا ذكر الخمر رق وعذب ، وأسمعنا لفظاً كأنه مقتبس من رقبتها ، وعرض علينا صوراً توحى بمجلس أنس لجماعة من فتيان هذا العصر ، كقوله :

نَارَ عَنَهُمْ قَضَبَ الرِّيحَانِ مُتَكَيِّئًا وَقَهْوَةً مَرَّةً رَأَوْقَهَا خِضْلُ
لَا يَسْتَفِيقُونَ مِنْهَا وَهِيَ دَائِرَةٌ إِلَّا بَهَاتٍ ، وَإِنْ عَلَوْا وَإِنْ نَهَلُوا

وهذا عنتره الرجل الغليظ القلب ؛ يسيل رقة عند ما يناجى عبلة فيقول :

أَعْبَلَةٌ قَدْ زَادَ شَوْقِي وَمَا أَرَى الدَّهْرَ يَذْنِي إِلَى الْأَحْبَبَةِ
وَكَمْ جَهْدٍ نَائِبَةٍ قَدْ لَقِيتُ لِأَجْلِكَ يَا بِنْتَ عَمِّي وَنَكْبَةِ
٨٩٠ : فَلَوْ أَنَّ عَيْنَكَ يَوْمَ اللَّقَاءِ تَرَى مَوْقِفِي زِدْتِ لِي فِي الْمَحَبَةِ

١٠ — لم يكونوا في أوصافهم للطبيعة الساكنة يطيلون ، وقد علنا ذلك قبل ، وإذا كان منهم من أطال فإن إطالتهم في موضوعات خاصة كوصف الخمر ومجالسها في شعر الأعشى وأضرابه ، ووصف الحرب وأسلحتها في وصف الشعراء الفرسان ، ونحن إذا ضمنا هذه الخصائص إلى ماسبقناه عن الطبيعة المتحركة والساكنة بدت لنا خصائص الوصف كاملة تامة . وبعد فأرجو أن أكون قد بلغت الغاية التي رمت إليها من عرض صورة واضحة للوصف في العصر الجاهلي تتيح للدارس الحكم السليم على منزلة الشعر العربي وبخاصة الوصف بين آداب الأمم عامة .

وأرجو أن يهب لي الله القوة لإظهار بقية أجزاء هذا الكتاب لتمام بإظهارها حلقة لامة

في سلسلة الأدب العربي .

وعلى الله قصد السبيل .

أهم المراجع التي اعتمدنا عليها في هذا الكتاب

- (أ) كتب أجنبية :
- الأغاني : لأبي الفرج الأصفهاني .
 الأمالي : لأبي علي الفاي .
 البيان والتبيين : للجاحظ .
 الحماسة : للبحري .
 الحيوان : للجاحظ .
 الروائع : لقواد البستاني .
 الشعر والشعراء : لابن قتيبة .
 الصناعتين : لأبي هلال العسكري .
 العقد الفريد : لابن عبد ربه .
 العمدة : لابن رشي .
 المثل السائر : لابن الأثير .
 المفضليات : للضي .
 المملقات السبع : للزوزني .
 المملقات العشر : للتبرزي .
 المملقات العشر : للشنقيطي .
 النثر الفنى : للدكتور زكي مبارك .
 الوسيط : للأستاذين السكندري وعناني .
 تاريخ آداب اللغة العربية : للأستاذ السباعي يومى .
 » » » : « جورجى زيدان .
 » » » : « محمد هاشم عطية .
 جمهرة أشعار العرب : لأبي زيد القرشى .
- دواوين الشعراء :
- ديوان امرئ القيس .
 » الأعشى .
 » النابغة .
 » زهير .
- ديوان طرفة .
 » علقمة .
 » الحماسة : لأبي تمام .
 ساعات بين الكتب : للأستاذ العقاد .
 شعراء النصرانية : للآباء اليسوعيين .
 طبقات الشعراء : لابن سلام الجحى .
 فى الأدب الجاهلى : للدكتور طه حسين بك .
 مجمع أذمائل : للميداني .
 مختار الشعر الجاهلى : للأعلم الشنتمري .
 مختارات البارودي .
 مهذب الأغاني .
 نقد الشعر : لقدامة بن جعفر .
 نقد النثر : » » » .
 نهاية الأرب : للنويرى .
- (ب) كتب تاريخية وجغرافية :
- تاريخ الأمم والملوك : للطبرى .
 سيرة ابن هشام .
 مروج الذهب : للسعودى .
 جزيرة بلاد العرب : لحافظ وهبه .
 الرحلة الحجازية : للبتانوتى .
- (ح) كتب لغوية :
- أساس البلاغة : للزمخشري .
 القاموس المحيط : للفيروزابادى .
 المصباح المنير : للفيومى .
 لسان العرب : لابن منظور .
 المنجد : للأب لويس معلوف اليسوعى .
 مختار الصحاح : للرازى .
 نهاية ابن الأثير .

فهرس تراجم الشعراء حسب الحروف الأبجدية

الرقم	الاسم	الرقم	الاسم
١٩٨	ترجمة أبي ذؤيب الهذلي .	٣٢٦	ترجمة دريد بن الصمة .
٢٦٠	» أعشى قيس .	٣٠٥	» راشد بن شهاب البشكري .
٢٨٦	» الأسود بن يعفر .	٨٨	» زهير بن أبي سلمى .
٢٤١	» الحارث بن حلزة .	٣٣٢	» سلامة بن جندل .
٢٠٥	» الشنفرى .	١٢٨	» سلمة بن الحرشب .
٨٢	» المثقب العبدى .	١٥٩	» سويد بن أبي كاهل .
١٣٦	» المرقش الأصغر .	٣٢٤	» ضمرة بن ضمرة .
٢٠٩	» المرقش الأكبر .	٦١	» طرفة بن العبد .
٩٤	» السيب بن علس .	١٨٩	» عبيد بن الأبرص .
١٥٤	» النابغة الذبياني .	٢٨٨	» عدري بن زيد .
١٠٩	» امرئ القيس .	٢١٤	» عروة بن الورد العبسى .
٢٩٢	» أوس بن حجر .	٩٨	» علقمة بن عبدة الفحل .
٧٤	» بشامة بن الغدير .	٢٦٩	» عمرو بن قيس .
٢١٦	» بشر بن أبي خازم .	٢٨٢	» عمرو بن كلثوم .
٢٠٢	» تأبط شرا .	٢٤٣	» عميرة بن جعل .
٢٤٥	» ثعلبة بن عمرو العبدى .	١٢٢	» عنبرة بن شداد العبسى .
٢٤٧	» حاتم الطائي .	١٣٣	» عوف بن عطية .
٢٦٤	» حنظلة الطائي .	١٤٦	» لبيد بن ربيعة .
		٢٥٢	» مهلهل بن ربيعة .

فهرس القوافي

صدر البيت	قافيته	بحره	صفحته	صدر البيت	قافيته	بحره	صفحته
٠ :	الحاء :						
أجمعوا	ضوضاء	الخفيف	٣٤٧	أعبله	الأحبه	المقارب	٣٤٨
الألف :				دان	بالراح	البيسط	٤٩
ومهما	كالفتي	الطويل	٢٦٤	أمن	وتروحو	الطويل	١٣٦
الباء :				إني	لواح	البيسط	٢٦٢
وقفت	صالب	الطويل	٣	وما	وتقدح	الطويل	٣١٥
فن	لاتجاوب	»	٣٨	تدف	للصاحي	البيسط	٣٤٥
إذا	مراكبه	»	٣٩	الذال :			
وأركب	الزغب	البيسط	٤٠	ألا	وجد	الطويل	٦
وإني	مشربا	الطويل	٥٢	»	سعيد	»	١٨
أرب	الثعالب	»	٥٢	سرنا	الرشد	البيسط	٣٩
فإن	طيب	»	٥٨	يشق	باليد	الطويل	٥٧
وكل	والإبابا	الوافر	١٥١	لخولة	اليدي	»	٦١
كانها	الذيب	البيسط	١٨٤	هل	غد	السريع	٨٢
كانها	القلوب	مخلع البسيط	١٨٩	غشيت	معبد	الطويل	٨٨
كافني	الكواكب	الطويل	٢٥٦	يادار	الأمد	البيسط	١٥٤، ٢٣٥
أودى	مطلوب	البيسط	٣٣٢	أترجو	أسودا	الطويل	٢١١
عفت	وشعوبها	الطويل	٣٣٧	بانت	المواعيدا	البيسط	٢٢٢
ولا عيب	الكتائب	»	٣٤٧	فما	بالزبد	»	٢٧١
التاء :				كان	دد	الطويل	٢٧٣
وفيت	وفيت	الوافر	٣١٥	وأبيض	لإنفادها	المقارب	٢٧٨

صدر البيت	قافيه	بحره	صفحته	صدر البيت	قافيه	بحره	صفحته
ولقد	غواذى	الكامل	٢٨٦	الزأى :			
ومشعلة	عائِدُ	الطويل	٣٢٤	تخيرها	وحزائِرُ	الطويل	٣٠١
دعانى	بمقعدِ	»	٣٢٦	السين :			
				لعمرك	فقمسُ	الطويل	٥٢
الراء :				كأنى	موجسِ	»	١٦٤
لها	دبوراً	المتقارب	٦	ولما	يابسُ	»	٢٠٩
تمتع	عرارِ	الوافر	»	لمن	الفرسِ	السريع	٢٤١
عوى	أطيرُ	الطويل	٨	ودوية	ناعسُ	الطويل	٢٦٧
ولقد	مطيرُ	مجزوء الكامل	٩	وأعرض	تقامسُ	»	٣١٤
ماأرانا	مكروراً	الخفيف	٣٢	الضاد :			
أصاح	استعاراً	الوافر	٣٣	أرقت	أرضِ	الطويل	٣٧
إن	شعاراً	الكامل	٤٩	العين :			
رأين	النواضرِ	الطويل	٥٦	قفا	أن يودعا	»	٦
بدلته	الأشُرُ	الرملى	٥٧	رأيت	ومصنوعُ	مجزوء الوافر	٢٠
ألا	مستعارُ	الوافر	١١٦	تمنح	ارتفعُ	الرملى	٤٦
أمن	قفاراً	المتقارب	١٣٣	وكلفتى	راتعُ	الطويل	٥٧
تبغافى	مصدراً	الطويل	٢١٤	أرحلت	بوادعِ	الكامل	٩٤
صل	خفرُ	الرجز	٢١٦	بسطت	اتسعُ	الرملى	١٥٩
أليتنا	فلاتحورى	الوافر	٢٥٢	فوردن	لايتلُعُ	الكامل	١٩٨
ديمة	وتدُرُ	الرملى	٢٥٨	فبت	ناقعُ	الطويل	٢١٠
ليس	الصنبرِ	الخفيف	٢٦٩	وما	ومصرعا	»	٢١٧
فبت	العقارُ	الوافر	٣١٢	يالهف	تنخمُ	الكامل	٢١٨
وتبرد	العبيرا	المتقارب	٣٤٥				

صدر البيت	قافيه	بحره	صفحته	صدر البيت	قافيه	بحره	صفحته
لمن	فالشرع	الكامل	٢٣٩	هجرت	ثقيلا	المتقارب	٧٤
وفلاة	القرع	الرمل	٢٦٦	وقد	هيكلي	الطويل	١٠٩
فأيت	طلع	»	٣١٢	عجبت	كالمنصل	الكامل	١٢٢
وإذا	بالجمعاج	الكامل	٣١٣	صحا	ورواحل	الطويل	١٧٧
لعمري	هزيع	الطويل	٣١٣	أقيموا	لأميل	»	٢٠٥
الفاء :				قفا	فخومل	»	٢٢٧ ، ٣١١
تشتو	بالطائف	مجزوء الكامل	٢	وليل	ليبتلي	»	٢٥٤
منعنا	ثقيف	الوافر	»	بل	شعل	البسيط	٢٦٠
لمن	فواحف	الطويل	٢٤٥	و بلدة	زجل	»	٢٦٥
وشوها	نقاذف	»	٣٠٧	ما	هطل	»	٢٧٧
ومسيب	يزيف	الكامل	٣١٣	صحا	موكلا	الطويل	٢٩٢
القاف :				وحشوا	فخولا	المتقارب	٣٠٩
بكر	تستفيق	الخفيف	٢٨٨	وقد	تجليل	البسيط	٣١٦
نفي	تفهق	الطويل	٣٤٨	فأصبحت	صقيلا	المتقارب	٣٠٩
الكاف :				الحرب	جهول	الكامل	٣٤٣
كأنها	الشبك	البسيط	١٩٤	أصاح	مكلل	الطويل	٣٤٥
اللام :				الميم :			
مهفهفة	كالسجنل	الطويل	٩	أني	الأعمام	الكامل	١٨
غذوتك	وتنهل	»	٣٨	خلقنا	والماتيم	الطويل	١٩
فقلت	المعلل	»	٤٤	لسان	والدم	»	٢٢
هصرت	الحناخل	»	٤٥	أبصرت	السقم	الرجز	٢٧
وواد	المعلل	»	»	عوجا	خذايم	الكامل	٣٢
أكلت	الوبيل	الوافر	٥٨	هل	نوم	»	٣٣

صفحة	بحره	قافيته	صدر البيت	صفحة	بحره	قافيته	صدر البيت
٣٢٢	الطويل	جرثم	تبصر	٢٢٩، ٥٧	الطويل	فالمتثل	أمن
٣٤١	»	المرجم	وما الحرب	١٦٩، ٩٨	البسيط	مصروم	هل
٣٤٤	الكامل	الأدم	يدعون	١٢٨	الوافر	الغريم	تأوبه
			النون :	١٤٦	الكامل	قواؤها	أفتلك
				٢١٨	السريع	الأعصم	لو كان
٦	البسيط	رياحينا	ليسق	٢٣١	الكامل	فرجامها	عفت
»	»	لينا	سقياً	٢٣٧	السريع	الخيم	هل
٤٠	»	تواسينا	ونركب	٢٤٧	الطويل	منمنا	أتعرف
٥٨	الوافر	للعيون	ظهرن	٢٧٥	الكامل	بعملم	أو
١٥٢	الخفيف	جباناً	وإذا	٢٨٤	البسيط	خرطوم	قد
٢٠٢	الوافر	بطان	ألا	٣٠٥	الطويل	ندم	فهلأ
٢٤٣	الطويل	ثمان	ألا	٣٠٩	المنسرح	لحم	في كفه
٢٨٢	الوافر	الأندرينا	ألا	٣١٢	مجزوء البسيط	الهموم	وليلة
٣١٨	»	تبيني	أفاطم	٣١٠	المتقارب	نثما	وبالكف
			الهاء :	٣١٢	البسيط	مسموم	وقد
٣٢٨	الكامل	رداها	وكتيبة	٣١٤	الوافر	السهام	وخرق
			الياء :	٣١٤	الطويل	رغم	بنيت
٢١٧	الوافر	العصى	إذا				

فهرس الموضوعات

الرقم	الموضوع	الرقم	الموضوع
١	المقدمة .	٣٠	الشعر الجوراني واليمنى .
	الفصل الأول	٣٣	الشعر العربي المفقود .
	بلاد العرب :	٣٥	الشعر الغنائى . انبعائه .
١	أقسامها التاريخية .	٣٦	تقسيم الشعر الغنائى .
٥	جو بلاد العرب وأثره في شعرهم .		الفصل الرابع
٧	تقسيم القبائل العربية على بلاد العرب .		الوصف :
٨	أثر البيئة في الشعر العربي .	٤٢	الوصف وتقسيمه .
	الفصل الثانى	٤٨	أثر البيئة العربية في أهلها .
	مقائى أدبية :	٥٢	أثر البيئة في الوصف .
١٠	شاعرية الأمم واختلاف مداها .	٥٤	الطبيعة في الشعر العربي .
١٣	الشعر بذرة النثر الجاهلى .	٥٦	نهجنا في التأليف .
١٥	سبق الشعر للنثر .	٥٧	قيمة الوصف في العصر الجاهلى .
١٦	حال النثر الأولى .		الفصل الخامس
»	فضل الشعر على النثر .	٥٩	الطبيعة المتحركة :
١٧	فضل القرآن على الشعر .		(١) وصف الناقة :
١٩	موازنة بين شعر ونثر .	٦١	لطرفة . التحليل والنقد .
	الفصل الثالث	٧٤	لبشامة بن الغدير . التحليل والنقد .
	تقسيم الشعر :	٨٢	للمثقب العبدى . التحليل والنقد .
٢٣	أقسام الشعر الإفرنجى .	٨٨	لزهير بن أبى سلمى . التحليل والنقد .
٢٤	الشعر الغنائى وأقسامه .	٩٤	للمسيب بن علس . التحليل والنقد .
٢٦	لماذا لم يكن للعرب شعر قصصى ؟	٩٨	لعلمقة بن عبدة الفحل . التحليل والنقد .
٢٩	الشعر القصصى والتشبيلى .	١٠٢	نظرة فاحصة عن المعانى في وصف الناقة .

(تابع) فهرس الموضوعات

الرقم	الموضوع	الرقم	الموضوع
	(ب) وصف الفرس :		
١٠٩	لامرئ القيس . التحليل والنقد .	١٨٩	لعبيد بن الأبرص يصف العقاب تصيد ثعلبا . التحليل والنقد .
١١٦	لبشر بن أبي خازم . التحليل والنقد .	١٩٤	لزهير بن أبي سلمى يصف صقرا يطارد قطاة . التحليل والنقد .
١٢٢	لعنتر العيسى . التحليل والنقد .	١٩٨	لأبي ذؤيب الهذلي يصف صيد الحمر الوحشية . التحليل والنقد .
١٢٨	لسلمة بن الحرشب . التحليل والنقد .	٢٠٢	لتأبط شرا يصف الغول وقد تقاتلا . التحليل والنقد .
١٣٣	لعوف بن عطية . التحليل والنقد .	٢٠٥	لشنفرى يصف الذئب . التحليل والنقد .
١٣٦	لمرقش الأصغر . التحليل والنقد .	٢٠٩	لمرقش الأكبر يصف ذئبا أطمعه . التحليل والنقد .
١٤٠	منظرة فاحصة عن المعاني في وصف الفرس .	٢١٠	للنابغة يصف الحية . التحليل والنقد .
	(ح) وصف الأوباد :	٢١١	لعنتر يصف الثعبان . التحليل والنقد .
١٤٦	للبيد بن ربيعة في وصف البقرة الوحشية . التحليل والنقد .	٢١٤	لعروة بن الورد العيسى يصف الأسد . التحليل والنقد .
١٥٤	للنابغة الذبياني في وصف الثور الوحشي . التحليل والنقد .	٢١٦	للنابغة يصف الحية أيضا . التحليل والنقد .
١٥٩	لسويد بن أبي كاهل يصف الثور الوحشي . التحليل والنقد .	٢١٧	منظرة في شعر الطبيعة الحية عند العرب .
١٦٤	لامرئ القيس يصف الحمار الوحشي . التحليل والنقد .		الفصل السادس
١٦٩	لعلمة بن عبدة الفحل يصف الظليم . التحليل والنقد .	٢٢٤	الطبيعة الساكنة :
١٧٤	منظرة فاحصة عن المعاني في وصف الأوباد . التحليل والنقد .	٢٢٧	صور الطبيعة الساكنة .
	(د) صور متنوعة لمظاهر الطبيعة الحية .		(١) وصف الأطلال .
١٧٧	لزهير بن أبي سلمى يصف معركة مع الجر الوحشية . التحليل والنقد .	٢٢٧	لامرئ القيس . التحليل والنقد .
١٨٤	لامرئ القيس يصف حربا بين عقاب وذئب . التحليل والنقد .	٢٢٩	لزهير بن أبي سلمى . التحليل والنقد .
		٢٣١	للبيد بن ربيعة العامري . التحليل والنقد .
		٢٣٥	للنابغة الذبياني . التحليل والنقد .
		٢٣٧	لمرقش الأكبر . التحليل والنقد .

(تابع) فهرس الموضوعات

الرقم	الموضوع	الرقم	الموضوع
٢٣٩	لبشامة بن الغدير . التحليل والنقد .	٢٨٤	لعلمقة الفجل . التحليل والنقد .
٢٤١	للحارث بن حنزة . التحليل والنقد .	٢٨٦	للأسود بن يعفر . التحليل والنقد .
٢٤٣	لعيميرة بن جعل . التحليل والنقد .	٢٨٨	لعدي بن زيد . التحليل والنقد .
٢٤٥	لثعلبة بن عمرو والعبدى . التحليل والنقد .	٢٩٠	نظرة في وصف الحجر ومجالسها .
٢٤٧	لحاتم الطائي . التحليل والنقد .		(ح) وصف الأسلحة :
٢٤٩	للمعاني المشتركة وغير المشتركة في وصف الأطلال	٢٩٢	لأوس بن حجر . التحليل والنقد .
	(ب) وصف الليل :	٣٠١	للشماخ بن ضرار : التحليل والنقد .
٢٥٢	لمهلل بن ربيعة . التحليل والنقد .	٣٠٥	لراشد اليشكري . التحليل والنقد .
٢٥٤	لامرئ القيس . التحليل والنقد .	٣٠٧	لثعلبة العبدى : التحليل والنقد .
٢٥٦	لنابغة الديراني . التحليل والنقد .	٣٠٩	نظرة فاحصة عن معاني الشعراء في السلاح .
	(ح) وصف السحاب والبرق والغيث :		نظرة شاملة في معاني الشعراء في وصف
٢٥٨	لامرئ القيس . التحليل والنقد .	٣١١	الطبيعة الساكنة .
٢٦٠	للأعشى . التحليل والنقد .		الفصل السابع
٢٦٢	لعبيد بن الأبرص . التحليل والنقد .		صور لمظاهر مؤتلفة من الطبعيتين :
٢٦٤	لخطله الطائي في وصف القمر . التحليل والنقد .		المتحركة والساكنة .
	(د) وصف الصحراء والبرد والحرق :		(ا) وصف الظعائن .
٢٦٥	للأعشى . التحليل والنقد .	٣١٨	لثعيب العبدى : التحليل والنقد .
٢٦٦	لسويد . التحليل والنقد .	٣٢٢	لزهير بن أبي سلمى . التحليل والنقد .
٢٦٧	للمرقش الأكبر . التحليل والنقد .		(ب) وصف الفرسان وعتادهم عند الحرب
٢٦٩	لعمر بن قتيبة . التحليل والنقد .	٣٢٤	لضمرة بن ضمرة . التحليل والنقد .
٢٧١	لنابغة الديراني . التحليل والنقد .	٣٢٦	لدريد بن الصمة . التحليل والنقد .
	(ا) وصف الآثار الإنسانية :	٣٢٨	لعنترة . التحليل والنقد .
٢٧٣	لطرقة في وصف السفينة . التحليل والنقد .	٣٣٢	لسلامة بن جندل . التحليل والنقد .
٢٧٥	لعنترة العبسي . وصف روضة التحليل والنقد .	٣٣٧	لبشر بن أبي خازم . التحليل والنقد .
٢٧٧	للأعشى . وصف روضة التحليل والنقد .		(ح) وصف سوءات الحرب .
	(ب) وصف الحجر وسقاتها :	٣٤١	لزهير بن أبي سلمى .
٢٧٨	للأعشى . التحليل والنقد .	٣٤٣	لامرئ القيس . التحليل والنقد .
٢٨٢	لعمر بن كلثوم . التحليل والنقد .	٣٤٤	لخاتمة عن خصائص الوصف في العصر الجاهلي .

ندت أخطاء هيئة على القارىء أن يتفضل بتصحيحها قبل القراءة

صفحة	سطر	الخطأ	الواب	صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٥	١٢	أ كبر	أكثر	٢٠٨	١	متمكنا	متمكن
٦	٦	الحصا	الحصاد	٢١٧	١٨	روائهم	روائهم
٦	١٧	عهدهم	عهدكم	٢٣١	٦	إرازامها	إرازامها
٣٨	١٥	مقامة	مقامه	٢٤٠	٢١	الدفع	الدمع
٨٨	٧	ترده	ترده	٢٤٦	١٧	ثعلبة ابن عمرو	ثعلبة بن عمرو
١٣١	١٠	ذو	ذات	٢٤٩	٢٠	بهم	بها
١٥٩	٦	الشرع	الشرع	٢٥٨	٥	برئته	برئته
١٧٠	٣	حسكل	حسكل	٢٧٥	٦	يحك	يحك
١٩٦	٦	النقل	النقل	٢٧٩	٤	شهادها	شهادها
٢٠٧	٢٠	وانصرفنا	وانصرفن	٢٩١	٢٠	فمعاني	فمعنى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى قَدْ تَمَّ طَبْعُ

الجزء الأول من

الوصف في الشعر العربي

(العصر الجاهلي)

القااهرة في { ٢٧ شوال سنة ١٣٦٨ هـ
{ ٢٢ أغسطس سنة ١٩٤٩ م

مدير المطبعة

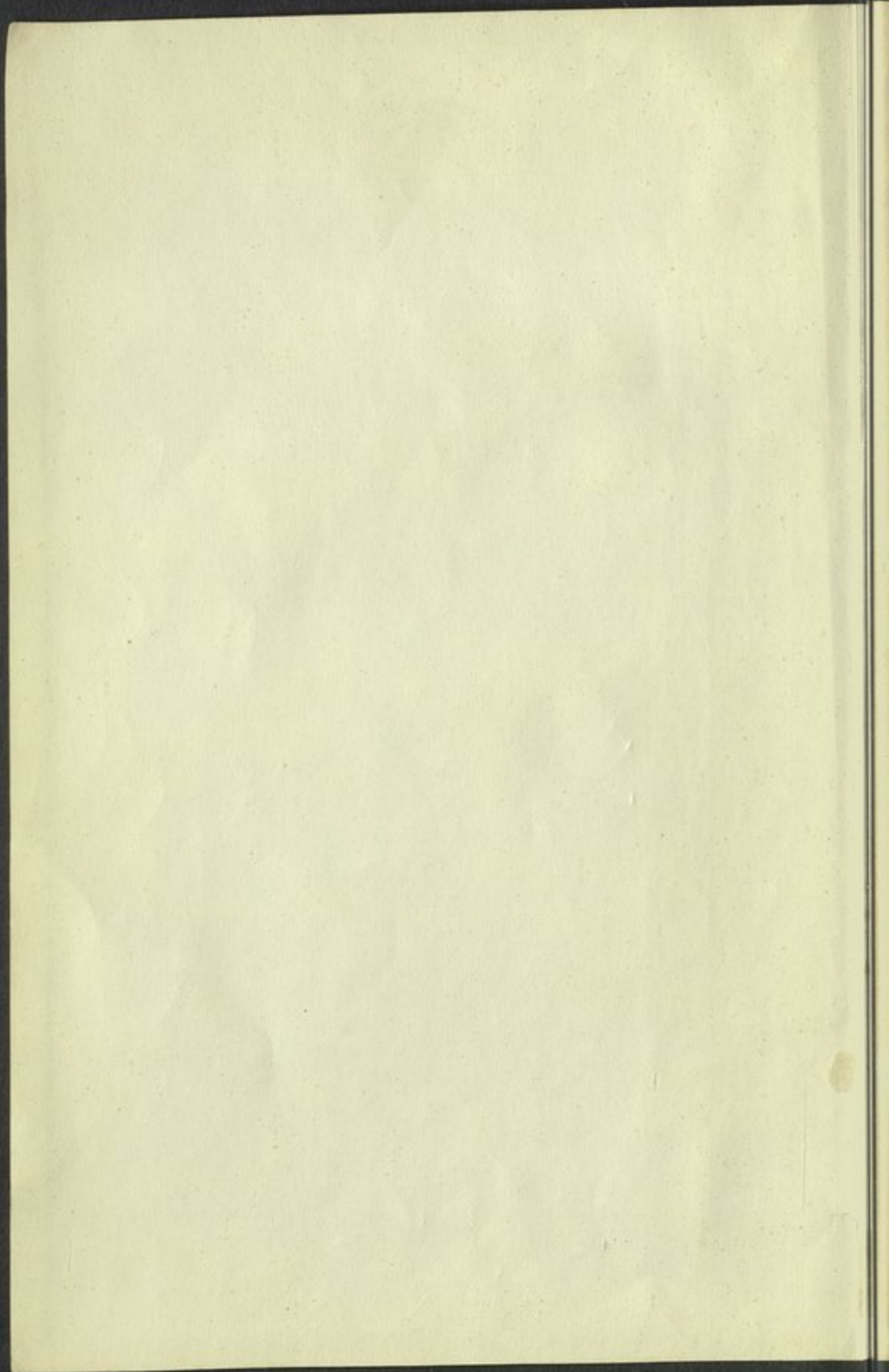
رستم مصطفى الحلبي

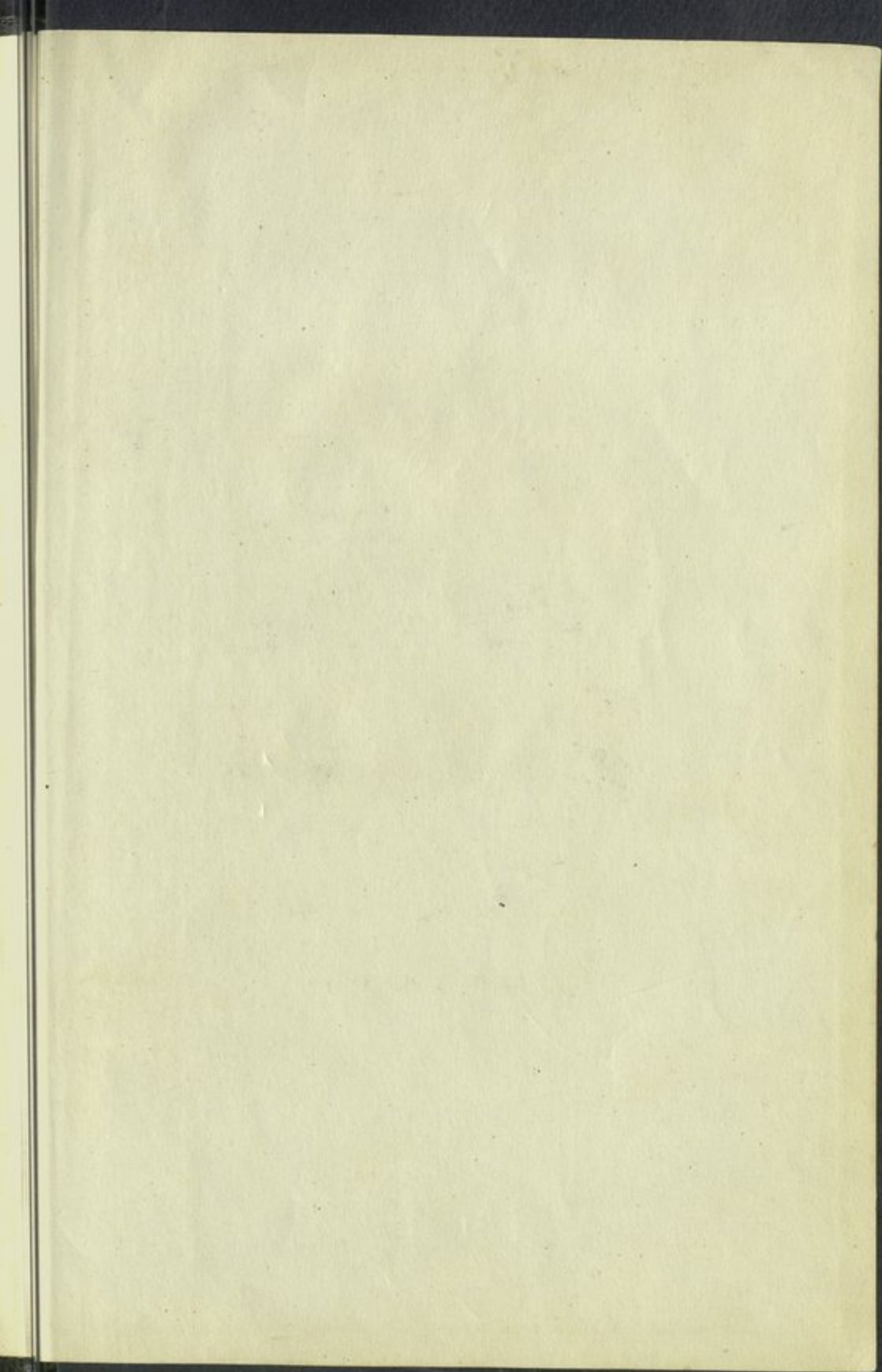
ملاحظ المطبعة

محمد أمين عمران

1891
1892
1893
(1894-1895)

1896
1897
1898
1899
1900





808.1:K511wA:v.1:c.1

فناوى، عيد العظيم على

الوصف فى الشعر العربى

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01031167



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

